

سلسلة
الفكر المسيحي بين الشرق والغرب
١٢



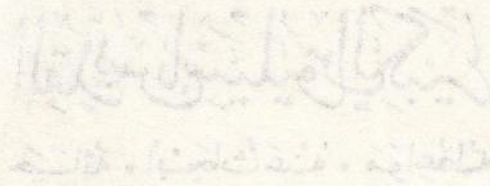
القديس باسيلوس الكبير
حياته . أبحاث عنه . موعظه

عني
بكتابه وجمعه وتنظيمه
الأب الياس كويتي الخاوي

منشور في مكتبة البولسيّة

القديس باسيليوس الكبير
حياته . أبحاث عنه . مواعظه

2



طبعة أولى

١٩٨٩

جميع الحقوق محفوظة

منشورات المكتبة البولسية

شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩ - ١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ - لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

سلسلة
الفكر المسيحي بين القديم والحديث
١٢

القديس إبيسكيلوس الكبير
حياته . أبحاث عنه . موعظه

عني
بكتابه وجمعه وتنظيمه
الأب الياس كويتي المخلصي

منشورات المكتبة البولسية

هذا الكتاب
من منشورات الرهبانية المخلصية
في يوبيلها المئوي الثالث
(١٩٨٣ - ١٦٨٣)



القديس باسيليوس الكبير
(فسيفساء من القرن ١٢ - بالرمو)

الآباء المخلصون

الذين أسهموا في وضع هذا الكتاب

المطران لطفي لحام	الاب يوسف داغر
الاب يوسف شماس	الاب الياس كويتي
الاب كيرلس حداد	الأب فايز فريجات
الاب غريغوريوس فرحات	الاب لورانسوس فيصل
الاب ايزيدور ابو حنا	الاب سليمان ابو زيد
الاب اتييموس سكاف	الاب جوزف صغيبي
الدكتور نجيب حجار، خريج اكليزيكية دير المخلص	

إهداء

الى استاذي الكبير الأب اتييموس سكاف المخلصي ،
أهدي هذا الكتاب ،
وله فيه مساهمة قيّمة .
معرباً بهذا الاهداء
عن تقديري العميق
لمن هو « قفة علم » ثانية في الرهبانية المخلصية ؛
ولمن « ثقف أخلاق البشر » من الرهبان والعلمانيين ؛
ولمن ساهم مساهمة بالغة الأثر ،
على قدر ما وهبه الله من صفات ووزنات ،
مع اخيه الاب الياس « الغيور » ،
في بناء ملكوت الله على الارض ،
وفي بناء « بازلياد » عمرانية وروحية واجتماعية ،
في الطائفة الملكية الكاثوليكية والرهبانية المخلصية .
فهو اذن « كبير » كالقديس باسيليوس
فيحق له شكري على أفضاله عليّ
وعلى محبته لي وللرهبانية وللنفوس
فالله أهدي كتابي هذا .

الاب الياس كويتر
المخلصي

مقدمة

كانت « المنشورات البولسية » قد قرّرت نشر كتاب « مواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم » الذي جمعه ونظّمه الأب الياس كوير المخلصي في سلسلة « الفكر المسيحي بين الأمس واليوم ». وقد قام بهذه المبادرة الطيّبة الأبوان الفاضلان يوسف كلاس الرئيس العام الحالي للجمعية البولسية والأب جورج باليكي . وهذه لفتة كريمة قامت بها الجمعية البولسية الكريمة نحو الرهبانية المخلّصة في محنة التهجير والتشرّد والعذاب التي أصابها في نكبتها السادسة الساحقة . وتضاف هذه المأثرة الى سلسلة من المآثر قامت بها الجمعية البولسية سُجّلت بأحرف ذهبية ، ليس في سجلات تفنى وتذوب وتحترق بالنار ، بل في سجلات قلوب محبة ستدكر على الدوام ان الاحفاد كانوا اوفياء للآباء والأجداد .

والوفاء من شيم الكرام .

ومشت القافلة . وعندما كاد ينتهي طبع كتاب مواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم ، لاحظ حضرة الأب جورج باليكي الغيور والنشيط ان الكتاب سيكون ضخماً الحجم ، غزير المادة ، ولا ينسجم مع اخوته في سلسلة « الفكر المسيحي بين الأمس واليوم » . فقرّر فصل الملحق الذي كان يضمّ مواعظ القديس باسيليوس وبعض الآباء الشرقيين في كتاب مستقلّ يكون الحلقة الحادية عشرة في السلسلة الذهبية المذكورة .

لكن القديس باسيليوس الكبير ، رغم انه احد آباء وفلاسفة الكنيسة العظام والمشرّعين الأكبر للحياة الرهبانية « والمنظم لاخلق البشر » ، ليس هو الواعظ الغزير التعليم ، والمتدفّق

كالنهر مثل القديس يوحنا الذهبي الفم . « فكل نجم يختلف عن نجم » ، كما قال الرسول بولس . لذلك قرر الأب جورج باليكي ضم بعض البحوث ودروس ، كتبها الآباء المخلصيون ، وكانت قد نشرت بمناسبة اليوبيل المئوي التاسع عشر لوفاة القديس باسيليوس الى كتاب مواعظ القديس باسيليوس ليكون الكتاب عظيم الفائدة ومنسجماً مع اخوته في سلسلة « الفكر المسيحي بين الأمس واليوم » .

وكان ذلك العمل سهلاً . فقد نشرت مجلة « الوحدة في الايمان » في عهد مديرها الاب الياس كويترا المخلصي سنة ١٩٧٩ سلسلة من الأبحاث عن القديس باسيليوس الكبير ، كما ان الأب اتييموس سكاف ترجم منشور البابا يوحنا - بولس الثاني عن القديس باسيليوس في مجلة المسرة الغراء . وهكذا ضُمَّت الأبحاث الى المواعظ لتؤلف الحلقة الحادية عشرة من السلسلة المذكورة أعلاه .

لا نرى ضرورة للعودة الى ما كتبناه في مقدمة كتاب مواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم عن تأثير المنشورات البولسية وخيرها العميم للكنيسة وللنفوس ؛ ولا ضرورة للعودة الى الاشادة بالآباء القيمين عليها وعلى المطبعة البولسية وخصوصاً الابوين الفاضلين جورج باليكي البولسي مدير المنشورات البولسية والأب جورج جبلي مدير المطبعة البولسية والأب نقولا أوبا معاونه . فان هذه السلسلة قد ردت الفكر المسيحي بكتب قيمة ، عظيمة الفائدة للحياة المسيحية الشرقية اذ هي عودة الى الينابيع الحقيقية ورجوع الى الأصول الثابتة لكل حياة مع الله . ونرجو ان تستمر هذه السلسلة منارة وضياء في الآفاق .

لا نحب ان ينتقد احد إدراج الأبحاث عن القديس باسيليوس مع مواعظه . فالقلب اذا لم يحركه فكر واضح الرؤية . ومستنير بالنور الالهي يبقى في سذاجة وبساطة لا تتماشى مع تقدم الانسان وتطولاته الجديدة ، ولا تواكب تطور الفكر البشري والبعث العظيم الذي سري نوره في انحاء العالم . فلا بد من اقتران الفكر مع العاطفة ، وانسراب نور العقل الى القلب فيكون النظام الحقيقي والانسجام الأمثل الذي رغب به القديس باسيليوس الفيلسوف العظيم ، والعالم والمرشد الروحي فأضحى بسببه « القاعدة الراسخة للإيمان » .

اننا لا نزال في اعياد اليوبيل المئوي الثالث للرهبانية المخلصية المحبوبة . وهذه المناسبة حركت فينا الشعور خصوصاً بعد النكبة السادسة لنشر تراث الرهبانية الثري ولتبيان مآثرها العظيمة ولنبتش الكنوز الدفينة في خزائنها ، رغم ان الظلام أحاق بمؤسساتها واديارها ولف قلوب ابنائها كلهم بالحزن الكبير لكن روح الاجداد الكامنة في كل حجر وحتى في الانقاض

وفي القبور حرّكت الهمّة وبعثت النشاط لنشر كتب ضخمة انما لا تحوي الا التزالي سير من تلك الكنوز الدفينة. كذلك الأمل بالمستقبل المشرق، والرجاء بانتها المحنة وبالعودة الى الديار المقدسة بعث فينا النشاط والحماس للعمل.

هذا كان حافزنا ومحرك قلمنا. ان الرهبانية المخلصية تهّمنا اكثر من أي شيء آخر. فهي امنا المحبوبة التي لا يمكننا ان ننسى فضلها الكبير علينا. ولذلك اعرضنا عن الانتقاد، وصفحنا عن التجريح، فالمؤسسة تهّمنا وليس الاشخاص مهما كانت رتبهم ومسؤولياتهم. ولا شك ان عملنا الضخم جاء ناقصاً في بعض الجوانب. وهذا نقرّ به ونعترف به جهاراً. لكن كان يهّمنا ان تضيف امنا الرهبانية المخلصية مدماً كآخر لتعزيز الفكر المسيحي المشرق، وترسي القواعد الثابتة لكل تقدّم حقيقي في الطائفة الملكية الكاثوليكية العزيزة.

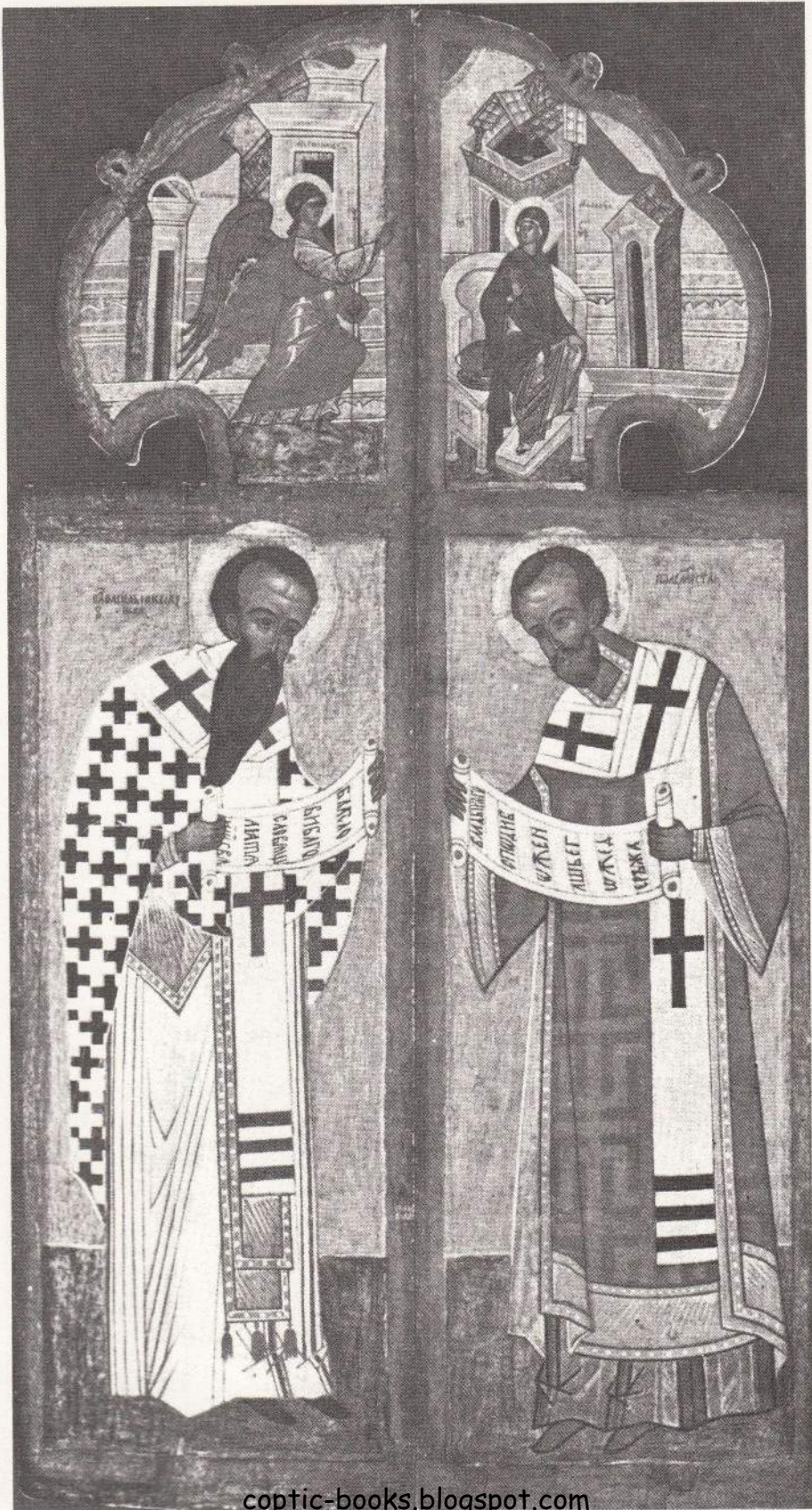
والله هو المرتجى والنصير.

الاب الياس كوير
المخلصي

في ١ كانون الثاني سنة ١٩٨٨
عيد

القدّيس باسيليوس الكبير

القِسْمُ الْأَوَّلُ
حَيَاةُ الْقَدِّيسِ بَاسِيلْيُوسِ الْكَبِيرِ



حياة القديس باسيليوس الكبير

الأب الياس كويتر الخلصي

١ - تربة صالحة

يحكي كاتبو حياة القديس باسيليوس الكبير كثيراً عن أصول العائلة التي أنجبته . فجده باسيليوس ايضاً رضي مع عائلته ، في سبيل الايمان ، ترك كل املاكه الواسعة وأمواله الوفرة ليعيش في الغابات متشرداً خائفاً ، في سبيل المحافظة على إيمانه . وكان ذلك في عهد ديوكلسيانوس قيصر . اما جدّه لأمه ، فقد مات شهيداً للإيمان المسيحي .

وولد لباسيليوس ابن سمّاه باسيليوس كالعادة في تلك الايام . وقد عاش عيشة مسيحية حقّة محافظاً على وديعة الإيمان ، واستردّ أملاكه وتزوَّج زوجة صالحة هي اميليا . وكتب عنه المؤرخون انه كان خطيباً ساحراً وعالماً بارعاً ورجلاً محباً للآداب والعلوم . وأصبح البيت العائلي بفضل هذا بيت تقوى وأدب ، تحلّى سكّانه بلطف المعاشرة وبساطة الحديث وحبّ الطبيعة الذي انغرس فيهم بسبب ذهابهم فترة بعد فترة الى أملاكهم الواسعة في الريف . وقد حقّق للقديس غريغوريوس التريزي ان يدعو باسيليوس الأب : « معلم الفضيلة في اقليم البنطوس » . ورزق الله هذه العائلة عشرة أولاد : خمسة صبيان وخمس بنات . أشهر الصبيان كان باسيليوس الذي نكتب سيرته ، وأشهر البنات كانت ماكرينا التي يمكننا أن نسمّيها « أخت الرجال » .

ولد باسيليوس سنة ٣٢٩ في مدينة قيصرية ، وكان نحيل الجسم ، رقيق الشعور . ورأى منذ صغره عند أهله التقوى ومحبة الفقراء ولطف المعشر والاحسان الى جميع الناس . فقد كان والده

يوزع على الفقراء من ريع املاكه ، ويتحدث عن الآداب والتاريخ . وكانت والدته اميليا مربية صالحة وأماً تقيّة .

في هذا البيت عاش باسيليوس الصغير والفتى . وكان مثل يسوع « ينمو في السن والنعمة والحكمة امام الله والناس » ، كيف لا وهو يرى الامثلة الصالحة ، وقد رسخ كل ذلك في قلبه ونفسه .

كم للبيت من تأثير وفضل على الاولاد !

٢ - طالب علم

لا نعجب اذا نشأ باسيليوس على محبة العلم ، فبيته العائلي كان بيت علم ، وكان مدرسة تعلّم فيها على ايدي والد عالم وباحث ، ثم تردّد على مدرسة قيصرية وبرع في العلوم فطارت شهرته ، وعرف عنه التفوق بالدروس والأخلاق .

من يحب العلم لا يشبع منه ، فقد رأى باسيليوس الأب ان ابنه يرغب في طلب المعرفة ويحبّ المطالعة ويواظب على البحث فأرسله الى القسطنطينية . وهناك أكمل درس الفلسفة والفصاحة والبيان ، وتعمّق في علم التاريخ الذي ينفع لكل شيء ، وبرع في اللغة اليونانية وآدابها وفلسفتها .

كان لباسيليوس في سني دراسته في قيصرية ، صديق اسمه غريغوريوس ، أتى اليها من مدينة نزينترا من اقليم الكبادوك ، لكن الصديقين ما لبثا ان افترقا فذهب غريغوريوس الى قيصرية فلسطين وباسيليوس الى القسطنطينية . ثم عادا فاجتمعا في القسطنطينية ، وأثناء سفر غريغوريوس اليها تعرّض في البحر لخطر الغرق . وعاشا في القسطنطينية زميلين غير مفترقين ، انما باسيليوس تعرّض لمقاومة من الطلاب الأرمن الذين ملأهم الحسد لتفوق باسيليوس عليهم . فسأده غريغوريوس ، وتلاحمت النفوس اكثر فأكثر بسبب هذه الشدة ، وتغلّبا معاً على حسد الأرمن الذين ساءهم تفوق طالبين من اقليم الكبادوك الذي ينتمون هم ايضاً اليه ، ويعرفون فيه أهل باسيليوس .

اكمل باسيليوس نهله للعلم في أثينا ، ودرس فيها على ايدي أساتذة مشهورين ومنهم برفيريوس امام الفصحاء والبلغاء وتعمّق في درس اللغة اليونانية وقواعدها وتاريخها وآدابها ، كما انه تبجّر في الفلسفة والبلاغة وعلم الفلك والعلوم الطبيعية والطب . بمختصر الكلام تعلّم كل ما

كان يجب ان يتعلّمه رجل مثقف في ذلك العصر، فاشتهر كثيراً ، حتى بلغت شهرته أبعد من بلاد اليونان .

٣ - الصداقة الخالدة

في أثينا نشأت بين باسيليوس و غريغوريوس صداقة خالدة ذهبت مضرب المثل . فالاثنان كانا يحبّان العلم ويسعيان الى الخير ، والاثنان ايضاً كانا من المنطقة الكبادوكية نفسها ، والاثنان كانا بعيدين عن الاهل . ومدينة كأثينا واسعة المرافق ، كثيرة الملاهي ، صاحبة بالطلاب والرواد والزوّار تستلزم حرزاً للاثنين يقيهما من الوقوع في اللهو وفي إهمال البحث والدرس .

كتب القديس غريغوريوس نفسه عن هذه الصداقة : « كانت نعمة كبرى لي أن أتعرّف على شخص لم أكن أجهله قبلاً » . وكتب ايضاً : « ان اسم باسيليوس كان شهيراً جداً ، ولدى وصوله الى اثينا أسرع الجميع الى خطب وده » . هذه الصداقة قال عنها الكتاب المقدس انها تنجّي من المعترّة ، وقال ايضاً : « الويل للوحيد ، فاذا سقط فن ينهض » . وقد أجمع المفكرون والفلاسفة على خبرة ردّدتها الاجيال : ان الصداقة هي كنز نفيس ، وحرز وسند للانسان ، وهي خير ما يفتش عنه الانسان على هذه الارض . لكن الكتاب المقدس قال ايضاً : « اختر صديقك بين الف صديق » .

نقل الوصف الجميل لهذه الصداقة بين هذين الرجلين عن القديس غريغوريوس الذي قال : « لما حصل التعارف بيننا واتضحت رغبتنا المشتركة في درس الفلسفة الحقيقية ، أصبح كل واحد منا للآخر كل شيء ، كان لنا سقف بيت واحد وطاولة واحدة ندرس عليها ، وعواطف مشتركة . ان أعيننا كانت تحلق نحو هدف واحد ، وعاطفتنا لم تكن الا لتريد وترسخ يوماً بعد يوم . ان الشهوات الجسدية تزول ولكن المحبة التي تُمَتُّ الى الله بصلة هي ثابتة لأن موضوعها ثابت ، وبقدر ما تتضح جمالاتها وتُكتشف بقدر ذلك تربط من جمعتهم برباط المحبة نفسها » .

وكتب القديس نفسه : « اننا لم نكن نعرف الا طريق المدرسة والبيت » . وقد بلغت الصداقة بين غريغوريوس و باسيليوس درجة كتب عنها غريغوريوس : « اني أنشقت اكثر ممّا أنشقت الهواء ، وانا سواء كنت حاضراً أم غائباً ، لا أعيش الا الوقت الذي أنت فيه معي » .

٤ - بين المدّ والخزر

لما رجع باسيليوس من أثينا وجد تصدّعاً في البيت العائلي . فجدّته القديسة ما كرينا كانت قد ذهبت الى دار الخلود ، ووالده باسيليوس قد توفي ، وبقيت أمّه تتحمّل أعباء تسعة أولاد

ومسؤولية املاك واسعة منتشرة في مقاطعات كثيرة. فحزم باسيليوس أمره وعزم على الملمة الأمور وضبط الأوضاع. وساعدته في ذلك أخته الشجاعة التي تخلت عن الزواج لتتفرغ لمساعدة أمها في تربية اخوتها، ولمساعدة باسيليوس في ادارته لأموال العائلة. وفي ظل هذين الاخوين المتفقيين في الهدف والمصير كبرت العائلة، فطار البعض فتزوجوا، والبعض وهو بطرس دخل في سلك الكهنوت، ومنهم، وهو غريغوريوس أصبح اسقفاً على مدينة نيصص، وواحد مات وهو في الصيد.

لما رجع باسيليوس الى قيصرية أسرع الأساتذة الى ضمه الى صفوفهم، فقيصرية تفتخر بمثل هذا النابغة، ورتبوا له تعليم البلاغة، فجلى فيها وأحسن، لكن بالوقت نفسه أدركه الغرور، فأخذ يستعلي ويستكبر بسبب ما كان عليه من فصاحة وعلم. وقد انتفخ، كما قالت أخته ماكرينا، وأخذ، وهو في هذه الحالة، يحتقر الناس، حتى ذوي السلطان، معتبراً نفسه بكبرياء انه أعلى مستوى من المسؤولين.

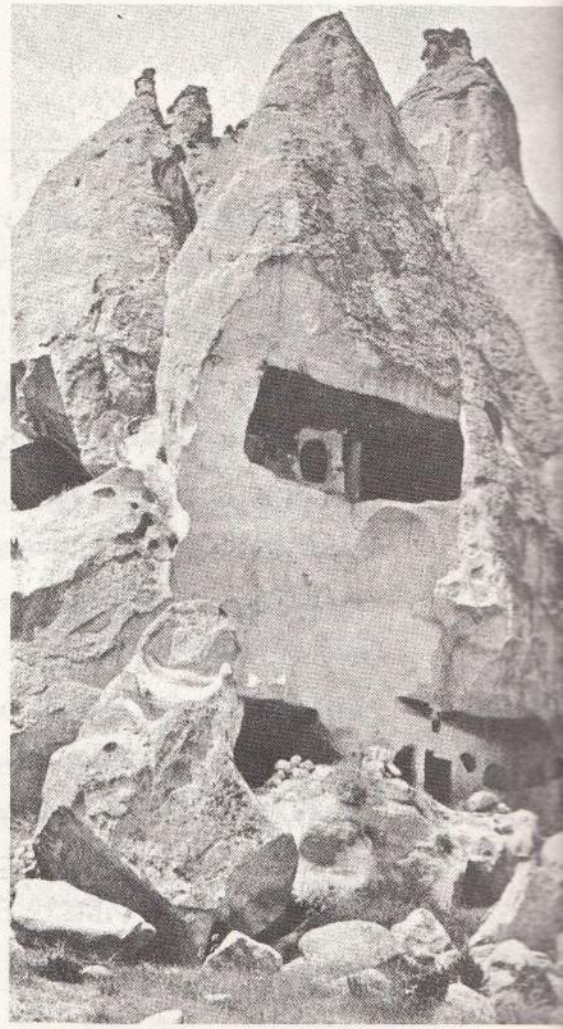
الا ان أخته ماكرينا، وهي امرأة تضاهي الرجال ذكاء وفهماً وشجاعة كانت تراقبه عن كثب، فأخذت تنصحه حتى يتبعد عن الاسترسال في التهور والغرور، وعن الذهاب بعيداً في التجبر، اذ ان كل مجد العالم زائل وكل احواله باطلة. وظلت تذكره بالتريبة التي تلقاها في البيت الوالدي. فلجم التهور وكبح الكبرياء وأخذ يحلل الأمور، فبان له أيضاً ان كل شيء باطل، وان العلم مهما عظم لن يبلغ الى معرفة كل شيء. وحينئذ أخذ في التواضع، والتواضع أصل الرفعة والمجد.

٥ - سائح في البراري والقفار

بعد حياة الغرور عاد باسيليوس الى رشدته وارتد الى الرب. يحكي هو نفسه قصة هذا الارتداد الى الله: «بعد ان أمضيت زمناً طويلاً في الأباطيل وصرفت عهد شبابي في الكد والجد في تحصيل العلوم وبلوغ حكمة تنكرها الحكمة الالهية، صحت يوماً كما يصحو النائم من رقاد عميق، ولحت النور الباهر المشرق من تعليم الانجيل. فعرفت بطلان الحكمة التي كنت تعلمتها وأدركت فراغها وزوالها وأسفت أسفاً شديداً على ما مر من عمري حتى الآن... فتشت عن صديق يدلني على طريق التقوى... وأصبح جلّ اهتمامي ان أعمل على اصلاح أخلاقي بعد ان أفسدها طول اختلاطي برفقاء الشر، ثم قرأت الانجيل ورأيت ان لا سبيل الى بلوغ الكمال الا بأن يبيع المرء ما له ويعطي للفقراء نصيبهم ويتخلى عن مطامع الحياة جميعها حتى لا يبقى للنفس ما يعكر صفوها من كل ما في الدنيا من أشياء...» (الرسالة ٢٢٣)



أحد رسوم السيد المسيح



الصخور المنحوتة ، كما ترى من الخارج ومن الداخل



وعند هذا الارتداد اقتبل باسيليوس سر المعمودية المقدس ، كما كانت العادة في تلك الأيام.

وسلك باسيليوس أيضاً طريق النسك ، فقد رأى والدته وأخته ما كرينا وأخاه بطرس وبعض أقاربه ومعارفه الاتقياء مجتمعين في « أنيسي » ، على شاطئ نهر « الإيريس » . وهناك أسسوا حياة رهبانية خاصة ، فكانت أصوات التسبيح والترتيل لا تنقطع عندهم ليلاً ونهاراً . وأراد باسيليوس ان يحقق هذا النوع من الحياة ، ويتعرف عليها اكثر ، وألح عليه النداء حتى يذهب بعيداً عن العالم ويعتزل . والعزلة كانت دوماً مدرسة للقداسة وللنفوس الكبيرة . وقد وصفها بعض الكتبة الروحيين فقالوا ان في الصحراء والعزلة لا ترى النفس الا السماء من فوق والأرض القاحلة المجذبة فتتفرغ حينئذ الى التحرر عن كل ربط العالم لتتطلع الى الله وحده . ثم شد باسيليوس عصا الرحيل سنة ٣٥٧ ، فذهب الى براري مصر ، فقد كانت موطن النسك ومعقل الزاهدين . وطاف في ارجاء فلسطين وبلاد ما بين النهرين وسوريا ، وتعرف الى قم في النسك والزهد ، ثم عاش هو نفسه مترهداً متوحداً ، وعكف على الامانة . فانفتحت امامه آفاق واسعة وبانت له الحياة الرهبانية في حقيقتها . ولاحظ فيها بعض الخل . فقمع النفس ، وامانة الجسد الى حد تحجيم الانسان والحد من نشاطه ، وواد الطاقات الهائلة التي وضعها الله في الانسان ، هو نهج لا يتماشى مع نظريته الفلسفية ، رغم ان هذا كله هو نداء من الرب لبعض النفوس .

ان الحياة الرهبانية في البرية والاديار في مصر وفلسطين وسوريا أعجبت كثيراً باسيليوس ، وأذهله تقشف النسك وعكوفهم على الصلوات الطويلة ، انما لم يجذب الى تلك الطريقة وذلك النهج .

٦ - وحيد في الصحراء

اختار باسيليوس ، لما رجع من سياحته في البراري ، مكاناً قريباً من مكان خلوة والدته واخته وسائر الرفقة معها . وكان على جانب نهر الايريس الآخر . ولم يكن مكاناً بعيداً عن المدينة ولم يكن في صحراء قاحلة ، انما كان مكاناً منعزلاً . فبنى فيه باسيليوس مسكناً صغيراً وسط غابة كثيفة .

يصف باسيليوس هذه العزلة فيقول : « أرشدني الله الى مكان يتوافق تماماً مع رغبتى الشديدة في النسك والعزلة . فقد كان هناك جبال عالية تكسوها الاشجار المختلفة وتشق سفوحها وأعماقها وديان متعرجة ،

وتنبسط عند أقدامها سهول خصبة ، وتنفجر منها أنهار وجداول حتى لتبين تلك البقعة للناظر مثل جزيرة لا يضاهيها جمالاً وروعة حتى جزيرة «كالبسو» التي تغني بها هوميروس . وعلى مرتفع وسط هذه البقعة تقوم صومعتي التي تشرف على كل تلك الأرجاء . ياله من منظر خلّاب اذ ترى السهل منبسّطاً امام عينيك والنهر يجري هادراً وتنظر الازهار المتنوعة وتسمع تغريد الطيور الممتزج مع خرير الماء . لكن المهم ليس ما ذكرت ، بل هو تلك العزلة التي أتمتع بها . إنّ هذه الخلوة هي بعيدة عن ضجيج العالم ، لا يأتيها الزوّار إلا نادراً ، يقصدها أحياناً بعض الأشخاص طلباً لصيد الوحوش البرية مثل الغزلان والماعز البرية والأرانب وغيرها .

ويصف عزلته أيضاً بقوله : « اني أخجل من ذكر ما أقوم به في الليل والنهار . صحيح اني تركت كل هموم العالم لأنها سبب شرو كثيرة ، لكنني لم أقدر أن أتجرّد تماماً عن ذاتي وعن الهموم العائلية والخاصة ... وهذا ما أقوم به باختصار : الاختلاء ، الصلاة الممتزجة مع النشيد والتسبيح ، واخيراً قراءة الكتب المقدسة ، والتأمل » .

قال عنه ، وهو في تلك العزلة ، أخوه القديس غريغوريوس اسقف نيصص : « لم يكن يملك الارداء واحداً وثوباً واحداً وخشبة وبساطاً يفرش على الأرض . وكان يأكل فقط الخبز والملح والاعشاب البرية ويشرب ليطفي ظمأه الماء العذب النابع من الجبل . وهكذا ، هذا الانسان الذي ربي في الغنى والبجوحة كان في هذه العزلة ناحل الجسم ، شاحب الوجه بسبب الصوم ، عائشاً دون امرأة ودون خيرات البتة . وأصبح دون لحم يغطي جسمه ودون دم يجري في عروقه ... » .

٧ - مشرع ومصلح

بعد اختباره للحياة الرهبانية في البراري وبعد تنسّكه في جبال كبادوكية وصل القديس باسيليوس الى تفكير متكامل عن الحياة الرهبانية وتخطيط لقوانينها ونظمها . فهو يريد لها متألّفة مع نمو الانسان الطبيعي وفرصة لاستثمار مواهبه في الحياة فيها . بذلك طرح قسوة الامانة ، انما لم يقبل هدنة او هودة في الجهد الشخصي والسعي الحثيث نحو الكمال .

قارن القديس باسيليوس بين الحياة النسكية المتوحّدة وحياة الرهبانية الرسولية والجماعية ففضل الثانية . فكل واحدة لها حسناتها . فالاولى هي هادئة وادعة ثابتة ، تساعد النفس كثيراً على الاتحاد بالله ، ولكنها لا تعصم الانسان عن الكبرياء ، لأن الفضيلة عند الآخذين بها لا تخضع للتجربة وللمقابلة . اما الثانية فهي اكثر حركة ونشاطاً واكثر منفعة للآخرين ، لكنها قد لا تخلو من الانشغال الباطل والانفعال . ولذلك عزم القديس باسيليوس على مزج الحياتين معاً ، وعلى جمع النساك مع الرهبان الرسل ، دون ان يضع حواجز بينها حتى لا تكون عند الراهب فلسفة وحكمة دون حياة مشتركة ، ولا حياة رسولية دون فلسفة . وهكذا يمكن للطريقتين اذا

أقترنتا معاً ان تبادلنا ، مثل البحر والارض ، الخير والمنفعة للوصول في النهاية الى مجد الله الاعظم .

يصف القديس باسيليوس الراهب الحقيقي هكذا : « لا يتكلم باطلاً ، ولا يسأل سؤالات تافهة ، لا يحتاج وهو يتعلم من الذين هم اكبر منه سنًا واكثر خبرة . يفكر قبل ان يتكلم ، وديع مع الجميع ولطيف الحديث ، محب في نصائحه ، غير قاس في توبيخه ، متواضع يتحكم حتى بصوته فلا يكون عاليًا فيزعج ولا منخفضاً فلا يُسمع . ان الراهب الباسيلي هو منخفض النظر ، شعره غير مرتب ، ولباسه خشن ، يلبس حذاءً قاسياً انما قوياً ويتمنطق بمنطقة من جلد . واما طعامه فهو الخبز والخضار وشرابه الماء الزلال ، ونومه خفيفاً » .

عندنا كتاب من باسيليوس « القوانين الطويلة » وهي مختصر لخمس وخمسين حديثاً عن الحياة الرهبانية ، و « القوانين المختصرة » وهي تحوي ٣١٣ سؤالاً وجواباً . وفيها يشرح القديس كل معاني ومشاكل الحياة الرهبانية . لا يمكننا في هذه العجالة شرح كل الاسئلة الواردة في هذين الكتابين ، انما يمكننا القول ان باسيليوس قد صاغ نمطاً جديداً للحياة الرهبانية آلف فيه بين الطبيعة والنعمة ، بين قوى الانسان الجسدية وقواه الروحية . وفي هذا التجديد طبق القديس الفلسفة اليونانية المثيرة والمتعادلة الخطوط .

ليست الحياة الرهبانية في نظر القديس باسيليوس خملاً وكسلاً ، فقد قال المسيح : « ان العامل مستحق اجرته » . وقد أمر القديس بولس ان يعمل الانسان ويصنع ما يمكنه بيديه ، فأصبح لزاماً ان يقوم الراهب بالعمل بنشاط . والحالة الرهبانية في نظر القديس ، بدل ان تكون سبباً للكسل والتراخي يجب ان تكون سعيًا الى مزيد من الهمة ومن بذل الجهد والى الصبر على المحن والصعاب . يقول القديس : « لا يمكنني ان أقول شيئاً عن العمل غير ما قاله القديس بولس : « من لا يعمل لا يستحق ان يأكل » . (٢ تس ٣ : ١٠) .

تبع نظام القديس باسيليوس فيما بعد رهبان بالألوف ، حتى بلغت شهرة قوانينه الى الغرب ، فترجمها روفان المشهور ، واستوحى منها القديس بندكتوس مؤسس الحياة الرهبانية في الغرب . وقد سار في طريقة باسيليوس أغلب رهبان الشرق ، وكان منهم ملائكة الكنيسة ومعلموها والمدافعون عنها وعن عقائدها . ولا تزال قوانين القديس باسيليوس نوراً للرهبانيات الباسيلية الملكية الكاثوليكية .

٨ - كاهن العليّ

طارت شهرة القديس باسيليوس في كل الأنحاء ، وعرفه الجميع رجلاً متوازن الخلق ، كامل الصفات . فاستدعاه اليه اوسابيوس اسقف قيصرية الكبادوك الجديد ليكون كاهناً للعليّ ومساعداً له في ادارة ابرشيته الواسعة الأطراف التي كان يخضع لها نحو خمسين أسقفًا .

اوسابيوس الأسقف هذا كان موظفًا لما اختاره الشعب وقدّموه الى الأساقفة ليكون راعياً لكنيسة قيصرية الكبادوك . فلم يكن ملماً كثيراً بعلم اللاهوت ولا ضليعاً في ادارة شؤون الأبرشية . وأيضاً لم يكن يخلو تماماً ممّا يعلق بالموظفين الحكوميين من حبّ الوجهة والشرف والتكريم . ولما أخذ باسيليوس يعمل ويدبّر الأمور ، وينشط في محاربة الفساد والشر والمعتقدات الغريبة ، أحسّ اوسابيوس بالحسد لتفوق الكاهن باسيليوس عليه وبحبّ الشعب العارم له لما تحلّى به من صفات مثلى . وقد رأوه يعظ بعق ، ويحارب البدعة الأريوسية بحزم ، ويدير الأمور بفطنة . أحسّ الأسقف بالحسد وعمل البعض أيضاً على تعميق الخلاف ، فما كان من باسيليوس الا ان ترك قيصرية والأسقف وعاد الى عزلته في اقليم البنطوس ، وهذا كانت غاية امانيه .

مع غياب باسيليوس عن قيصرية ساءت الأمور فيها ، خصوصاً بعد ان اعتلى العرش الامبراطور فالنس الأريوسي . وأحسّ الأسقف اوسابيوس ، وقد شاخ ، ان الحالة في ابرشيته هي خطيرة وتستدعي وجود باسيليوس معه وقربه ، فتوسّط القديس غريغوريوس التريزي ، صديق باسيليوس الحميم ، فكتب اليه : «عجّل بالرجوع الى قيصرية ، فالأسقف ييدي نحوك العواطف الكريمة والمتوسلة . ارجع فان الظروف في الأبرشية تلزمك بذلك ، فأعداء الدين القويم ينشطون ويحدّون لكي يسمّموا الأفكار ويزرعوا بذور الانقسام ، وقد يأتي غيرهم لينضم اليهم ويشدّ أزرهم . ان الحقيقة هي في خطر» . هذه الدعوة لم تبق دون جواب . فرجع باسيليوس الى قيصرية وأفهم أسقفه أنه لم يخطر بباله قط ان ينافسه . كل همّه كان ان يخدمه أحسن خدمة . فاطمأن الأسقف وقدّر هذه المبادرة من باسيليوس وأأخذ من جديد مشيراً وناصحاً ، فباسيليوس أضاف الى ذكاء نادر ثقافة واسعة ومعرفة كاملة في الدين المسيحي وادراكاً واقعياً للحياة حصل عليه بالتدرّب في حياة النسك والاختلاط مع الناس . وتفرّغ باسيليوس منذئذ للعمل في خدمة النفوس . فصارع الأريوسية التي عادت فقويت مع فالانس الامبراطور الارويوسي ، ونظّم العبادة والتعليم الديني ، واهتمّ بالأمور

الاجتماعية ، خصوصاً لما خيم البؤس على المدينة . وكتب القديس غريغوريوس : « ان قيصرية كانت تقاسي بجاعة هائلة لم يسمع بمثل لها من قبل ، فكان سكان المدينة كلهم مرضى ولا ترد اليهم معونة من الخارج ، ولم يبق في المدينة شيء يباع او يمكن ان يشتري . وفاق كل هذا فظاعة مشهد القسوة والجشع عند التجار والملاكين فاستفادوا من هذه الفرصة ليغتنوا ويتاجروا بالبؤس ويستغلوا الشقاء ، وقد نسي هؤلاء القول السائر : ان من يرحم الفقير يقرض الله ، ومن يمسك القوت عن الجائع يلعنه الله » .

ان باسيليوس فتح مخازن وبيوت الاغنياء بتأثير مواعظه ، تختصر البعض منها : « بما تجيب الله الديان العادل انت الذي تلبس جدران منزلك بالذهب والعاج ، ولا تكسو اخاك بثوب . وانت الذي تزين خيولك ولا تلتفت الى بؤس أخيك ، وانت الذي تدع السوس يقرض قحك وتبخل به على الجائعين ، وانت الذي تكدس الذهب ولا تنهض لمعونة الموزين » . وقال أيضاً :

« تقول اني ما اسأت في حبس الأموال ، فقل لي ماذا ينقصك بها ؟ ممن تسلمت هذه الأموال جميعها حتى تحتفظ بها لمنفعتك ؟ ألسنت كمن يتخذ مقعداً في ملعب ثم يمنع غيره من الدخول اليه كأن له وحده ما هو للجميع . هذه حال من يملكون شيئاً ويحسبون ان لهم حقاً في ان يستولوا على ما قبضوا عليه من غيرهم من الرزق العام . لو كان كل واحد يكتفي بالضروري ويترك ما زاد عن حاجته للفقراء لما كان هناك فقير او غني . أما خرجت عريانا من بطن أمك ؟ أولست تعود بعد موتك عريانا الى التراب ؟ أما أموالك هذه ، ممن تملكها ؟ فان قلت من الصدقة كنت كافراً لا مسيحياً ، وان قلت من الله ومن عنايته ففسر لي سبب عطيته هذه . أتعده ظالماً حين وزع ضرورات الحياة توزيعاً غير متساو ؟ بأي حق تكون أنت موسراً وجارك معسراً ؟ أليس ذلك لكي تُجازى على طيبتك وعلى ادارتك ما لك طبق مقاصد العناية ، ولكي يُجازى جارك على ما قاسى من الفاقة والالم في محنته . وانت الذي تستأثر بأموالك بخلًا وطمعاً أتظن انك لا تضّر أحداً بينما انت تمنع الضروري عن عدد عظيم من اخوتك » .

وقال أيضاً :

« من البخيل ؟ هو من يعجز عن الرضى بالضروري . ومن اللص ؟ اللص هو الذي يسلب مال الآخرين . ألسنت بخيلاً ولصاً أنت الذي تحوّل لنفعك الخاص ما تسلمت لتحسن ادارته . من سرق ثوباً فهو لص ، ومن لا يكسو عارياً وهو قادر ، ألا يستحق ان يدعى لصاً أيضاً ؟ ان ما تحزنه من الخبز انما هو للجبياع ، وما تحرص عليه من ثياب انما هو للبائسين ، وما عندك من أحمية متروكة للبلبل فهي لمن يسرون حفاة ، وما تحفیه من مال في صندوقك هو لأخيك . إنك تظلم الناس الذين كنت قادراً ان تعطيهم » .

وقال أخيراً:

«تقول: انك فقير، فهناك قوم أفقر منك. تقول ليس عندك غير ما يكفيك مدة عشرة أيام، ان جارك ليس عنده ما يكفي ليوم واحد. كن طيباً وكرماً وقاسم البائس ما عندك. لا تخف أن تعطي ما عندك من القليل، ولا تقدم مصلحتك الشخصية على الخير العام. ان لم يكن عندك من الغذاء إلا رغيف واحد وقرع بابل سائل، فأخرج هذا الرغيف الواحد من خزانك وقل له: يا رب لم يبق لي الا هذا الرغيف الواحد والمجاعة تهددني، ولكنني أفضل وصيتك على شخصي، وأعطي أخي الجائع من القليل الذي عندي، فعليك أنت الآن، يا رب، أن تعطي الضروري لعبدك المشرف على الهلاك».

لم يكتفِ باسيليوس بالقول بل عمل لأجل سدّ حاجة البائسين. فالأملاك التي تركها له أهله باع منها واشترى بتمها قوتاً للجائعين ونظّم مخزناً شعبياً، كان يجمع فيه ما يستطيع من طعام وثياب، ويوزّعه هو نفسه على البائسين والفقراء والشيوخ. لقد ذاع صيته بعد هذا في كل الأرض.

٩ - أسقف قيصرية

مات أوسابيوس أسقف قيصرية في أواسط سنة ٣٧٠ وحالاً طرحت مسألة خلافته على كرسيّ هذه الأبرشية. قيصرية الكبادوك هي مهمة جداً اذ يخضع لرئيس أساقفتها خمسون أسقفاً، وتبلغ مساحة الأبرشية نصف مساحة آسيا الصغرى (تركيا الحالية). فكان مهماً انتخاب أسقف ثابت العقيدة وحسن الادارة شجاعاً في صراع الأزمات، فأحوال الكنيسة والمنطقة تستلزم وجود رجل ملاكم يعرف كيف يصارع الانواء. فاتجهت الأنظار الى الكاهن باسيليوس، فهو رجل عالم، ثابت في العقيدة الكاثوليكية، فصيح اللسان، شجاع واداري من الدرجة الأولى.

استنكف غريغوريوس التريزي عن مساعدة صديقه باسيليوس في هذه المعركة الطاحنة، فهو رجل لطيف المشاعر، حساس الضمير، يخاف من المارك. أمّا أبوه الشيخ، وهو باسم غريغوريوس أيضاً، فقد رأى ضرورة دعم ترشيح باسيليوس للأسقفية. فكتب رسائل مختلفة للأساقفة يحرضهم على انتخاب باسيليوس اذ هو رجل الساعة. ورغم شيخوخته وسوء حالته الصحية سار في الدرب الصعب وأتى الى قيصرية مع رهط من الأساقفة للانتخاب.

اجتمع المنتخبون ، وكانوا من الأساقفة ومن الشعب كالعادة المتبعة في تلك الأيام . فنجح باسيليوس وأصبح رئيساً لأساقفة قيصرية الكبادوك . فرح بذلك الارثوذكسيون ، وهم الفئة الكبرى من شعب قيصرية ، وصفقوا لذلك البطريرك اثناسيوس الاسكندري المناضل العنيد ضد الاريوسية ، فهذا مناضل آخر ضد البدع الهدامة ينضم الى الصف ، وهو يمتاز بالعلم والشجاعة . وسرَّ غريغوريوس التريزي ، فصدقه باسيليوس وُضِعَ على المنارة . انما بالوقت نفسه اغتمَّ فالنس الامبراطور ، فقد قام سدّ منيع يصدّ زحف الاريوسية مع باسيليوس .

الأسقفية لباسيليوس كانت حافلة بالصعاب ، فقد تكاثرت على باسيليوس ، منذ تسلّمه زمام الأسقفية المشاكل والهموم . فالطمع والحسد دفع كثيرين من الأساقفة ، الخاضعين أصلاً لباسيليوس ، على مقاومته والتعرّض للأسقف الشيخ غريغوريوس الذي ساعد لوصول باسيليوس الى الاسقفية . وقالوا ان باسيليوس وصل الى هذه الرتبة العالية رغماً عنهم . وأخذوا يقاومون مشاريعه ويرفضون التعاون معه ويستنكفون تلبية دعواته المتكررة ، حتى بعض الأساقفة القريبين اليه ، وهو عمّه ، قد قطع الشركة معه ، وأخوه غريغوريوس ، الذي سيصبح أسقفاً على مدينة نيصص ، أساء الى أخيه بسوء تصرفه . لكن باسيليوس أمعن في الحكمة والوداعة وطول الأناة ، حتى تمكّن القديس غريغوريوس ان يقول : « ان من يقاوم باسيليوس يقاوم الله » .

وخرست الألسن ، وعمّ السلام ، وبدأ باسيليوس العمل الجدي في سبيل رعية واسعة الارعاء ، كثيرة السكان ، مختلفة الحاجات . وقد لحّص القديس غريغوريوس ، عمّ الأسقف باسيليوس ، عمل باسيليوس الأسقفي بقوله : « من المعروف ان الانسان يعتبر فاضلاً اذا لم يفعل شراً ولم يتجاوز في عمل الخير ، اما الرئيس ، ولا سيما الأسقف ، فانه يعدّ ناقصاً اذا لم يظهر كل يوم أفضل من اليوم السابق ، او اذا لم يجعل فضيلته في مستوى مقامه ومستوى السلطة التي تولّاها » .

١٠ - باسيليوس وجهاً لوجه مع الامبراطور

ان الأريوسية ، التي ضعفت في عهد الامبراطور يوليانيوس الجاحد الذي أراد أن يعيد الوثنية الى عزّها القديم ، أخذت تقوى من جديد مع تبوأ فالنس الامبراطور الأريوسي . وكثرت الاضطهادات ، وعمّت المذابح ، وكثر النفي والتشريد ، وضعفت الارثوذكسية ،

خصوصاً لما أخذ فالنس بتشريد الأساقفة عملاً بالقول الوارد في الانجيل : «اضرب الراعي فتبدد الرعية». ولذلك ضعف الإيمان عند الشعب ، فقواده غابوا عن المعركة. وأما باسيليوس فقد بقي صامداً. ورأى الشعب آتذ حكمة وصوله الى الأسقفية. فالكنيسة كانت بحاجة آتذ الى رجل صنيدي ثابت الإيمان حتى يقف في وجه المد الآريوسي. وباسيليوس كان خربج مدرسة الصحراء والعزلة ، فلا خوف البتة ، فهو لا يهرب من العراك والمجابهة.

وقبل قدوم الامبراطور الى قيصرية ومواجهته مع باسيليوس أرسل اليه فريقاً من الأساقفة والمسؤولين والوسطاء لكي يضمه الى بدعة الأريوسية. أما باسيليوس فقد بقي صلباً لا يتزعزع قيد أنملة عن عقيدة الكنيسة الصحيحة. وأتى يوماً دومنيوس ، وهو والي مقرب كثيراً الى فالنس ، فجرى حوار بينه وبين باسيليوس حفظه لنا القديس غريغوريوس التريزي الذي ربّما قد حضره أو رواه له القديس باسيليوس نفسه.

— ماذا تقصد أنت بمقاومتك لسلطان الامبراطور ، ووحذك بين الأساقفة جميعاً تبدي نحوه هذه الغطرسة.

+ ماذا تريد أن تقول ، وأي غطرسة تعني ، اني لا أفهم.

— انك لا تتبع ديانة الامبراطور ، بينما الجميع يخضعون لأوامره.

+ امبراطوري انا يمنعني من أتباعها ، فلا أستطيع أن أعبد خليفة ، وأنا خليفة الله ومدعو الى الاشتراك في حياته.

— من تحسبنا اذاً ، الامبراطور وأنا؟

+ أقلّ من العدم ، وخصوصاً عندما تتصرفون كما تفعلون الآن.

— ماذا تقول أليس شيئاً أن تنضم الى الامبراطور وتنعم بإحسانه؟

+ أنتم حكام سامون ، أعلم ذلك ، ولكنكم أبعد من أن تكونوا أنتم والله على مستوى واحد. أما أنا فأحبّ قبولكم في كنيسة. ولم لا. فإنكم أنتم أيضاً خلائق الله مثل كل من يشتركون معنا في خدمتنا. ليس الإنسان بل هو الإيمان الذي يخلق المسيحي.

— ماذا ، أما تخاف؟ قال الوالي بغضب ، من سلطاني؟

+ ماذا تستطيع أن تفعل ، ماذا في قدرتك أن تنزله بي من العذاب؟

- لي أن أختار ما أشاء من الوسائط ، وفي قدرتي أن أنزل بك ما توليني سلطتي من التنكيل .

+ أية تنكيلات ؟ وضح كلامك .

- المصادرة والإبعاد والتعذيب والموت .

+ لا شيء أكثر من ذلك . فكلّ هذا لا أكثرث له .

- ما تقول ؟

+ المصادرة لا تهمّ من لا يملك شيئاً إلا إذا شئت أن تصادر ثوبي القديم وبعض الكتب وهذه ثروتي كلها . والإبعاد لا أكثرث له لأنّي لا أملك بيتاً ولا حقلاً ، وأينما كنت في الدنيا فأنا في بيتي أو بالحري في أرض الرب فأنا ضيف في غربتي . والتعذيب ، فاني شديد المرض ولن أصبر على التعذيب طويلاً فضربة واحدة تميتني . أما الموت فهو نعمة لي ، لأنه يبلغني عاجلاً الى الله الذي أحيا له وياه أخدم والذي لأجله قد أصبحت نصف ميت ، وإني لأتعبّل الوصول اليه .

- لم يحسر أحد حتى الآن أن يخاطبني بهذه الحرية ، أنا مودستوس .

+ كأنك لم تقابل قط أسقفًا ، وإلا كان كلّك كما أكلمك أنا دفاعاً عن الصالح العام نفسه . نحن الأساقفة قوم ودعاء ومسلمون ، لأن شريعتنا تأمرنا بذلك ، ويجب علينا أن نكون كذلك ليس نحو الرؤساء وحدهم ، بل نحو الجميع بدون استثناء . اما في سبيل الله فلا نحسب حساباً لشيء لا للتعذيب ولا للموت . بل ان التعذيب يقوّي عزيمتنا . وبعد هذا ، فهتّد كما تريد ، فلن تغيّر شيئاً ، ويمكنك منذ الآن أن تعلم الامبراطور انه لا التهديد ولا الوعيد ولا التعذيب يستطيع أن يغيّر شيئاً من مسلكي .

بدا على الوالي ، بعدما سمع ، انه حائر في أمره ، لا يدري ما يفعل ، لأن شخصية باسيليوس أوقفته عند حدّه ، فلم يحسر أن يتصرّف بطيش ، فقال لباسيليوس :

- الليل مصدر الالهام ، فتبصّر وسلتقي غداً .

+ أجاب باسيليوس : سأكون غداً كما كنت اليوم . فإلى الغد أيها الوالي .

ولمّا قدم الامبراطور الى قيصرية أخبره مودستوس بما جرى . فأحبّ الامبراطور ان يستعمل طريقة أخرى . فلمّا أقبل عيد الغطاس وهو عيد عظيم في تلك الأيام ، دخل

الامبراطور الى الكاتدرائية المملأى بالشعب، تحيط به الحاشية الامبراطورية، وكان باسيليوس يحتفل بالذبيحة الالهية. فرأى باسيليوس، حسب ما كتب القديس غريغوريوس على المذبح، فلم يتحرك، وظل جامداً كالتمثال يكمل القداس كأن لم يحدث شيء. ودهش الجميع من هذا المشهد. فظل يتابع الصلاة غير مكترث للامبراطور. ولما وافى وقت التقدمة حمل كل واحد تقدمته الى جانب المذبح، وتقدم الامبراطور حاملاً تقدمه، فلم يجرؤ أحد أن يأخذها، لأنهم لا يعلمون ما هو رأي باسيليوس. فكانت لحظة رهبة. ثم أشار الأسقف فقبلت التقدم. ولم يتساهل باسيليوس بأكثر من ذلك، ولا ناول الامبراطور القربان.

١١ - الراعي الصالح

لما أصبح باسيليوس أسقفاً على قيصرية الكبادوك تفرغ بالتمام لمهام أسقفية. ولا يمكننا إلا أن نختصر أعماله في مدة أسقفية، ولم تكن طويلة.

لما كان باسيليوس كاهناً عمل على اصلاح الصلوات، وتابع عمله لما أصبح أسقفاً. ولا نعرف بالضبط ما هو لباسيليوس في الليتورجيا التي لا تزال تدعى باسمه حتى يومنا هذا، وما زيد عليها مع مرور الزمن. انما نعرف بالتأكيد ان باسيليوس سعى الى الاصلاح في الطقوس، وقد رأى بفكره العملي ان يختصر الصلوات الطويلة وليتورجيا القديس يعقوب، وان يحدد أوقات الصلاة ليستطيع جميع الناس التردد اليها. فليس كما يقول هو نفسه كل الناس قديسين، وإليه تعزى تردد الصلوات مناوبة في خورصين متقابلين، وصلاة السحر التي تتلى عند بزوغ الفجر. هناك صلاة اكيدة للقديس وردت في الليتورجية الباسيلية.

ثم اتجه صوب الكهنة، الذين هم مساعده في خدمة النفوس، فعززهم، وعمل ما في وسعه لتثقيفهم فأصبح اكليروسه مثلاً يقتدى به حتى ان الأساقفة لما كانوا يريدون انتخاب أسقف على أبرشية كانوا يستجيرون بباسيليوس ليختار لهم كاهناً ضليعاً في القوانين الكنسية، يتمتع بسيرة رضية ورصينة، ثابت الايمان ومتجرداً عن حطام الدنيا. ومثل هؤلاء كانوا كثيراً بين كهنة أبرشية قيصرية، فأسقفيهم كان يسير أمامهم في طريق الفضيلة والخدمة التريية.

وعمل باسيليوس كل جهده لتعزيز حالة اكليروسه، فسعى لتخفيف الضرائب عنهم.

فقد كان يريد ان يعيش كهنته في فقر لكن في كرامة. وعندنا في هذا الصدد رسالة الى متوديوس الوالي الذي جابهه ، والذي شفى باسيليوس ابنه من مرض عضال ، يطلب منه فيها ان يقرّ بمبدأ اعفاء الكهنة وخصوصاً الرهبان من الضرائب ، لأن ما يجمعونه من حسنات المؤمنين هو غير كافٍ لعيشة لائقة .

وكان لا بدّ للأسقف الهام ان يسهر على كهنته لكي لا يزيغ أحد منهم عن الحقّ ويذهب في طريق الضلال والغواية. فكان يزور الرعايا حتى البعيدة رغم أمراضه وضعف جسده ، ويحارب الشكوك ويفصل المشكّكين ، ويحابه العادات السيئة مثل الخطف وغيره ، ويرفض التجديد الذي يعمل به خارج اطار التقليد والروح الرسولية ، كما رفض الكاهن الذي جمع حوله ، كبطريرك عظيم ، عذارى وشباناً يخدّمونه ويعظّمونه ، وجعل مبدأ المراقبة على الكهنة المتقدمين الذين يرأسون سائر الكهنة في المقاطعات ، وخصوصاً حارب السيمونية التي كانت متفشية في تلك الأصقاع ، اذ ليس من الجائز ان تباع القدسيّات بالمال .

اشتهر باسيليوس الأسقف ، وعرف الناس البعيدون أعماله المحيدة ، وتجراً فالنس نفسه ، وكان عدوّاً له لدوداً ، فطلب منه أن يذهب إلى بلاد أرمينيا ليصلح الحال فيها . فذهب ، ورغم انه لا يعرف اللغة الأرمنية ، ولا عادات وتقاليد الشعب الأرمني ، فصالح بحكمة وفطنة الأساقفة المتخاصمين ، وشدّد عزيمة المتوانين والفاترين ، وسنّ قوانين تنظيمية لإصلاح بعض العادات التي تسيء الى الآداب والأخلاق المسيحية .

ان الأسقف هو بالأساس رجل الشعب وخدامه وقائده ، فهاذا كان موقف باسيليوس منه ، وقد أصبح راعياً له . يصبح فيه ما قاله بولس الرسول عن نفسه : «من يضعف ولا أضعف أنا ، ومن يُشكّك ولا أتشكّك أنا» . ان باسيليوس حمل أوجاع الشعب كلّها وهمومه وأحزانه ومشاكله ، ونرى من رسائله وساعة هذا الاهتمام والمدى البعيد الذي وصل اليه مسعاه الحسن لخدمة الشعب . فقد كتب الى الامبراطور نفسه والى الحكام والمسؤولين يحثهم على النظر في أمور الشعب المحتاج والبائس ، واستغلّ في هذا السبيل صداقاته الكثيرة ، وخصوصاً توسّط كل من يعرفهم وهم في مسؤولية الحكم لكي يدافعوا عن حقوق الشعب وان يؤمّنوا مصالحه المختلفة .

عظيم هذا القلب الذي لا تحفى عليه حاجة بائس . فقد توسّط لأجل تخفيف الضرائب أو الإعفاء منها لدى المسؤولين ، وقرّع بعض المسؤولين الذين غاب عنهم الضمير



أسر تركية تعيش اليوم وتعمل في أديرة رهبان القديس باسيليوس الكبير



أو الشعور بحاجة الفقراء ، وكتب لسيد اختلف مع عبده يسترحمه لكي يساعده . وعمل على إصلاح الحال بين أب وثني وابن له اعتنق الدين المسيحي . وسعى لدى المسؤولين لأجل مسافرين وصلوا الى قيصرية لنقل جثة قريب لهم . وكتب الى الامبراطور يحث قلبه ليساعد أهل قيصرية عندما اجتاحت منطقة كبادوكيا المجاعة ، وكتب له ايضاً حتى يبني جسراً شديداً للضرورة للتنقل بين المناطق . دوماً نراه الراعي الصالح ، والمحامي الساهر على مصالح الشعب المختلفة ، الكبيرة والصغيرة .

وكيف لا يحب الشعب باسيليوس وقد رأى اهتمامه بالخدمة الشاملة له . فيوماً ما استجارت بباسيليوس أرملة غنيّة وجميلة ولجأت الى الكنيسة خوفاً من الوقوع في أيدي المغتصبين ، ولما عرف الوالي بهذا الخبر استدعى باسيليوس الى ديوان المحكمة ، وأخذ يسأله عن هذا التصرف ويريد محاكمته . لكن الشعب ، لما عرف بالأمر ، سارع الى دار الوالي وتجمع الكبير والصغير ، الرجال والنساء ، حاملين المعاول والرفوش والعصي وآلات أخرى يريدون أن يقتحموا المحكمة ويقتلوا الوالي . فخاف الوالي وأطلق باسيليوس . ان الشعب ، كما قال القديس غريغوريوس التريزي ، قد عبد باسيليوس .

باسيليوس خدّم الشعب خصوصاً لما بنى مدينة المحبة التي سميت بـ «البازيليا» . واين من هذه المدينة الميام الكبرى والمؤسسات التي ترعى اليوم اليتيم والمحتاج ؟ هي تشبه مدينة المحبة والعناية لكوتلنغو في تورينو . فقد كانت تضمّ البازيليا مدارس مهنية ، ودوراً للأيتام ، وملاجئ للبرص ، وفنادق ومدارس وكنائس ، عدا بيوت الأطباء والعاملين في هذه المدينة العظيمة . البازيليا كانت بالحقيقة مدينة الفقراء والمرضى والمحتاجين . وكان يضاهي البازيليا في خدمة الشعب بيوت الفقراء التي بناها باسيليوس في كل عواصم المقاطعات الهامة . وقد اشتهرت مدن المحبة هذه حتى ظنّ الحكام ان باسيليوس يقوم بها ويعتني بها لأجل تفويض سلطان الامبراطور وذلك أسس الحكم . ان باسيليوس ظهر حقاً الراعي الصالح للشعب .

١٢ - باسيليوس رجل الكنيسة الكبير

باسيليوس دعي بحق كبيراً .

ان ابرشية قيصريّة الكبادوك كانت دائرة صغيرة لم تستوعب كل نشاط واهتمامات

٣٣ حياة القديس باسيليوس الكبير

باسيليوس ، بل كانت نقطة انطلاق لعمل واسع يهدف الى بناء وتثبيت الكنيسة في الشرق كله . ولا نعجب اذا أقرّت الأجيال بأن القديس باسيليوس هو كبير ، فهو كبير حقاً بالعمل الذي شمل النواحي الانسانية المختلفة ، وشمل المناطق القريبة والبعيدة ، وأفاد بذلك بشراً كثيرين ، ولذلك استحق لقب الكبير .

نرى ان مسؤوليته قد امتدت الى الكنيسة جمعاء ، وأرهقه كما أرهق بولس قبله ، الاهتمام بالكنائس كلها . وقد كتب هو نفسه : « بما أشبه الوقت الحاضر ؟ انه يشبه نوعاً ما معركة بحرية أشعل نارها فوق الماء ، لحزازات قديمة رجال حرب متمرسون على القتال ، وكلهم محتدمون غيظاً . أنظر هذا المشهد ، ترّ الأسطول من الجانبين يندفع للترال ، اندفاعاً رهيباً في جلبة وحق ، واذا بالرجال يتدافع بعضهم نحو البعض فيلتحمون بالأيدي . وانتقل من الصورة الى البشر الذي تمثله ... » . هل يمكن لباسيليوس ان يقف مكتوف الأيدي إزاء هذه الحالة ؟ ان الأريوسية لم يتوقف زحفها ، ولم تنطفئ جذوتها الا بصمود باسيليوس واثناسيوس وعملها في سبيل الكنائس كلها .

استعان باسيليوس بالبابا نفسه لدرء الخطر على الكنيسة ولإزالة أسباب الشقاق . فقد كان في انطاكية خلاف على البطريركية بين ملاتيوس وبولان ، وفي الاسكندرية طرد البطريك اثناسيوس المناضل الصنديد ضد الأريوسية . ان الخطر قد ازداد بسبب التفرق والشقاق والانحلال الذي أصاب الكنائس الشرقية بسبب غياب الرعاة . فلا بدّ ، كما يقول باسيليوس ، من عمل جدّي وسريع . فكثرت لذلك الوفود والرسائل وهي مليئة بعبارات الاحترام للكرسي الرسولي الروماني ، الا ان بعد المسافة بين قيصرية وروما ، وبعد العقليات حالا دون تلبية رغبات باسيليوس كما يريد ، وعملا على إزكاء التنافر والتوتر في العلاقات بين باسيليوس والكرسي الروماني . عدا البابا فقد بعث باسيليوس برسائل كثيرة الى الأساقفة الغربيين الذين في اسبانيا وبلاد الغول وإيطاليا ، وخصوصاً برسائل الى القديس امبروسيوس الذي رأى فيه باسيليوس نوراً وهاجاً سيضيء كنيسة الغرب . وكلّ هذه الرسائل تدور حول الكنيسة والأخطار التي تهددها والدواء الناجع لوقف زحف البدع الى قلوب المؤمنين .

باسيليوس ، كما قال الانجيل : « علّم وعمل » . استعرضنا بعضاً من أعماله الحيرة ، انّا لا ننسى ان باسيليوس كان معلماً كبيراً في كنيسة المسيح ، ونعجب ان هذا الرجل مات في عمر لم يتجاوز الخمسين ، ورغم ضعف صحته أغنى الكنيسة بمؤلّفات قيمة . فعندنا منه

شروحات على «سنة أيام الخليفة» نسج مثلها القديس امبروسوس ، ومدحه لأجلها ،
وعنها قال القديس غريغوريوس التريزي : «لما أخذ مواعظ القديس باسيليوس على «سنة أيام
الخليفة» أشعر اني متحد مع خالتي ، وأشعر اني أفهم أكثر أسباب الخليفة». وعندنا منه أيضاً
«شرح المزامير» وهو يتجه فيها الى النواحي العملية من حياة شعب كبادوكيا. وقد ترك
باسيليوس مواعظ : عن الايمان ، وعن بدء انجيل القديس يوحنا وعن البدع
والهرطقات ، وعن العباد ، وعندنا منه موعظة شهيرة للشباب عن طريقة درس الكتب
الوثنية ، ومواعظ عن القديس ماماويوليطا وكورديوس والأربعين شهيداً ، وهذه الأخيرة
هي آية في البلاغة. وعندنا كتاب ضد أوتوم وكتاب عن الروح القدس . انما المعدن الثمين
الذي تركه القديس هي رسائله وتعدّ ٣٦٥ رسالة. ولدى قراءتها نفهم باسيليوس
اللاهوتي والعالم والإداري الممتاز ، وتُتضح شخصية القديس الفذة ، ويبين أثره في
عصره .

يتراءى باسيليوس كبيراً في اصلاحاته . فقد أصلح الصلوات ورتبها ونظّمها واختصر
خدمة القدّاس . وكذلك أصلح الحياة الرهبانية وأرجع اليها بهاءها الأول . وأخيراً أصلح
مفهوم الدين المسيحي اذ جعله يتجه الى خدمة الإنسان . هذا المصلح الكبير ، أصلح
نفسه أولاً ، فقد بلغ في حياته درجة من الكمال استطاع معها ان يهدم الجدران ، ويحمل
السوط ويقرّع الملوك والحكّام ويصلح الكنيسة . وهذا هو سرّ عظمة باسيليوس : انه كان
في قلبه ونفسه كبيراً .

١٣ - نهاية أسقف

حوالي سنة ٣٧٦ استعرت الحرب بين الفرس والرومان ، وبينهم وبين القبائل البربرية
من غوط وجرمان . وبدأت الامبراطورية تتفكك وينحسر لمعان نورها الذي عمّ
المسكونة ، ثم اشتدّت المنازعة بين تريانوس وفالنس ، وفي آخر الأمر ، لما أحسّ فالنس
بأن زمام الأمور يفلت من يده ، أخذ في مهادنة المسيحية ، فسمح للكاتوليك باسترجاع
كنائسهم وأملاكهم ، وأمر بإعادة الأساقفة الى كراسيهم الأسقفية ، فعَمّ السلام في
الكنيسة ، وخفّ طغيان الارْيوسية . وشاهد باسيليوس وهو في غروب الحياة ، ان السلام
قد استتبّ في الكنيسة جمعاء ، فبطرس خلف اثناسيوس العظيم في كرسي الاسكندرية ،
وغريغوريوس أسقف نيزتا تبوأ كرسي القسطنطينية ، واستمرّ ملاتيوس في كرسي أنطاكية

بعد صراع دام طويلاً، ورجع اوسابيوس أسقف ساموساط بعد تشرد طويل. وفرح باسيليوس لأن تيوضوسيوس العظيم اعتلى الامبراطورية الرومانية وأمسك بزمام أمورهما ووحد بين الشرق والغرب، وعمل لأجل سلام الكنائس كلها.

في هذه الأثناء كان باسيليوس يصارع الموت. كان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره فقط. لكن صحته كانت قد اعتلت وقد شاخ قبل الأوان. فالأشغال الكثيرة وهموم الكنائس والأصوام والمضايقات والأمراض عملت كلها على تقويض بنيان جسده، انما استمر باسيليوس في تنظيم الأمور واسداء النصيح وتوجيه الإرشاد حتى يتابع المسؤولون عمله الذي بدأه ولم يكمله. وما زال المرض يفتك به رغم الاعتناء البالغ والصلاة المرتفعة لأجله من الجموع المحتشدة حول كرسي المطرانية، حتى توفي في الأول من كانون الثاني ٣٧٩.

وكان موته انتصاراً له. فقد زحف الشعب كله لوداع أسقف كان له أباً ومعلماً وسنداً. وامتلات الشوارع حتى داس بعضهم بعضاً ومات كثيرون. واشترك في هذا المآتم اليهود والوثنيون وكل شعب قيصرية وإقليم الكبادوك. وترأس الصلاة شقيق القديس، غريغوريوس أسقف نيصص، وأبنة هو في هذه المناسبة، كما أبنة سنة ٣٨١ القديس غريغوريوس التريزي، وكذلك أبنة أمفيلوخوس. وهذه المراثي والتآبين هي المصدر الأساسي لحياة القديس باسيليوس.

وارتفع صوت الشعب ان باسيليوس هو قديس، وأقرت الكنيسة بذلك، وأخذت تعيد له بعد سنين قليلة من وفاته، مع عيد ختانة السيد له المجد، أي في الأول من كانون الثاني. وحذا الغرب حذو الكنيسة الشرقية، فكانت تعيد له أيضاً في الأول من كانون الثاني، كما تشهد بذلك السنكسارات القديمة، لكن بعد القرن التاسع نقلت الكنيسة اللاتينية عيده الى ١٤ حزيران.

عثر بارونيوس في مخطوط في المكتبة الفاتيكانية على ملامح القديس باسيليوس، فقال انه كان طويل القامة، نحيف الجسم، ناشف القسما، أصفر اللون، عنده نظرات تأمل وتفكير، أصلع الرأس تقريباً، ذا لحية طويلة، وهذه الصورة تتطابق مع ما تركه القديس غريغوريوس من وصف للقديس باسيليوس صديقه الذي زاد فقال انه كان بطيئاً في الكلام، كثير التفكير، خجولاً يتحاشى الجدال العلني، جريئاً وشجاعاً عندما يكون ملتزماً بالدفاع عن قضية عادلة، محباً للعزلة والصمت. انما الصفة الأساسية عند

باسيليوس ، حسب قول القديس غريغوريوس ، هي القدرة على السيطرة على النفس ، ولذلك كان يظهر هادئاً ، بارد الأعصاب ، ذا أدب جم ومتوازناً في التصرف : يسم عندما يرضى بالأمر ويسكت عند الرفض . هذه الصورة في خطوطها الكبرى أخذها كثيرون وأخذوا ينسجونها ، حتى أخذ البعض يتقلّدون مشيته وثيابه وتفاصيل حياته الدقيقة .



القديس باسيليوس

(رسم جداري بيزنطي - القرن ١١ - آجيا صوفيا)

القسم الثاني

أبحاث

عن تعليم القديس باسيليوس الكبير
وروحانيته

البحث الأول
رسالة رَسُولِيَّة لِلْبَابَا يُوْحَنَّا بُولْس الشَّانِي
فِي الذِّكْرَى الْمُتَوَيَّة الـ ١٦ لَوَفَاة الْقَدِّيس بَاسِيلْيُوس
(٣٧٩-١٩٧٩)

الأب أفثيموس سكاف الخلصي

ايها الاخوة المحترمون ،
والابناء الاعزاء ،
تحية وبركة رسولية .

المقدمة

آباء الكنيسة هم قديسو القرون الاولى الغابرة المميزون ، الذين بالإيمان القوي ،
وتعليمهم السامي والغزير ، اعطوا للكنيسة دفقاً جديداً وأثروها بوفرة^(١) . انهم آباء
الكنيسة حقاً ، فمنهم وبواسطة الانجيل اخذت الحياة^(٢) . انهم بُنَاتُهَا أيضاً ، فعلى الأساس
الوحيد الذي وضعه الرسل ، أعني المسيح^(٣) ، قامت الكنيسة في صيغها الأساسية . ومن
الحياة التي نهلتها من آبائنا تعيش الكنيسة اليوم ، وعلى البنيات التي وضعها البناؤون
الأولون ، تشيد اليوم ، في بهجة مسيرتها وأحزانها وفي معاناتها اليومية . لقد كانوا آباء ،
وسيطلون أبداً ، فهم بنية ثابتة للكنيسة ، وينهضون بوظيفة دائمة لكنيسة جميع الأجيال .
وعلى كل تبشير بالإنجيل وتعليم له ، اذا ما أريد لها أن يكونا أصليين ، ان يتأثلا وكرازتهم
وتعليمهم ، وعلى كل موهبة وكل خدمة أن تنهلا من ينبوع أبوتهم ، وعلى كل بنية جديدة
تضاف الى البناء الذي ينمو ويتسع^(٤) أن تنزل في البنيات التي وضعوها ، وأن تتلاحم
معها وتتوحد . فلا تفتأ الكنيسة ، لصدق تعليمهم ، من العودة الى كتاباتهم - الملية

بالحكمة ، والدائمة النضارة - ومن احياء دائم لذكراهم . لذلك نتلاقى دوماً في تضاعيف السنة الطقسية بآبائنا القديسين ، فيزداد ايماننا قوة ، ورجاؤنا ثباتاً . وترداد غبطتنا في مناسبات تدعونا الى الاجتماع بهم لفترة أطول وعلى نحو اكثر عمقاً . ومن هذا القبيل ، توافق هذا العام مع مرور ستة عشر قرناً على انتقال أبينا القديس باسيليوس أسقف قيصرية .

حياة القديس باسيليوس وخدمته

ان باسيليوس ، الذي يحمل بين الآباء اليونانيين لقب «كبير» ، تدعوه الكتب الليتورجية البيزنطية «نور التقوى» و«منارة الكنيسة» . فقد أنارها وما زال ينيرها بطهارة حياته التي لا تقل عن سمو تعليمه ؛ فإن تعليم القديسين الأول والأعظم هو مثال حياتهم . وُلد باسيليوس في عائلة قديسين ، ونعمَ بتربية خاصة بقرب اكثر المعلمين شهرة في القسطنطينية وأثينا . إنما اتضح له ان حياته ابتدأت حقيقة عندما أعطي أن يتعرف معرفة كاملة وفعالة الى المسيح كسيد له : فبعد أن جذب به ، بشكل لا يقاوم ، انفصل انفصلاً تاماً عن الاشياء كلها - وتحول هذا السلوك مبدأ حياة لقنه بتعليمه^(٥) - وتلمذ له . فقرر اتباع المسيح ، طامعاً في التشبه به دون سواه ، ومحدقاً اليه فقط ، ومصغياً اليه وحده^(٦) ، ومطيعاً له في كل شيء ، واعتبره «سيداً ، وملكه ، وطبيبه ، ومعلم الحقيقة»^(٧) .

وبدون أي تردد ، هجر الدروس التي أحبها كثيراً ، وتزوّد منها بكنوز العلم الوافرة^(٨) . ولما قرّر خدمة الله وحده ، لم يرد أن يتعرف الا على المسيح^(٩) ، واعتبر حماقة كل حكمة غير حكمة الصليب . وهذه كلماته يروي فيها حدث اهتدائه وقد دوّنّها في آخر أيامه : «لقد أضعت وقتاً وافرّاً في الباطل ، وقضيت معظم صباي في العمل الفارغ الذي عكفت عليه أتلّقن تعليم حكمة حمقها الله^(١٠) الى أن أتى يوم ، وكأني أفقت فيه من سبات عميق ، فنظرت إلى نور الحقيقة الساطع في الإنجيل رأيت بطلان حكمة عظماء هذا الدهر ، الأتلين الر الزوال^(١١) . ومن ثم بكيت حياتي التاعسة»^(١٢) . لقد بكى حياته ، على ما كانت عليه من سلوك انساني مثالي - وفق ما يشهد غريغوريوس التريزي زميله في الدرس^(١٣) - وقد بدت له تعيسة لأنه لم يكن ، بكنيته وبشكل مطلق ، مكرساً لله ، السيد الأوحده . فتوقّف عن متابعة دروسه بعزم قوي ، وهجر الأساتذة والحكمة الهلينية «وقطع اقطاراً وبجاراً»^(١٤) طالباً معلمين آخرين : أولئك «الحمقى» والمساكين الذين رادوا القفار يتمرنون على اقتباس حكمة أخرى . وهكذا ابتدأ يتعلّم أموراً لم تخطر على قلب بشر^(١٥) ، وحقيقة لم يكن للخطباء والفلاسفة

ان يلقنوه إياها^(١٦). ونما في هذه الحكمة يوماً بعد يوم، في مسرى للنعمة عجيبة: بالصلاة، والامانة، واعمال المحبة، ومؤلفة الكتاب المقدس المتواصلة، وتعليم الآباء^(١٧).

وما عثم ان دعي الى الخدمة الكهنوتية. وفي خدمة النفوس تصرّف باتزان وحكمة، فجمع الى الوعظ الذي لا يعرف الكلل، فترات الوحدة وتصعيد الصلاة. لأنه رأى في ذلك ضرورة لا بدّ منها «لتنقية النفس»^(١٨). وحتى تأتي بشارة الكلمة مطابقة دائماً «لمثل الحياة الساطع»^(١٩). وهكذا أضحي راعياً، بالمعنى الأولي للكلمة، وناسكاً، بل أضحي من أكابر الرعاة النساك في الكنيسة: صورة للأسقف كاملة ما أمكن، وداعية كبيراً لحياة النسك، ومشترياً لها. فانطلاقاً من خبرة شخصية، عكف باسيليوس، بثبات، على تكوين جماعات من المسيحيين مكرّسين بكليتهم «لعمل الله»^(٢٠). واخذ على نفسه عناء رعايتهم بزيارات متكررة^(٢١)؛ وكان يتوجّه اليهم، لفائدته وفائدتهم، بمواعظ رائعة حفظ الكثير منها، بفضل الله، وانتقلت إلينا^(٢٢)؛ وقد أخذ عنه هذه المواعظ مشترعو الحياة النسكية - أولهم القديس بنديكتوس، الذي كان يعتبر القديس باسيليوس معلماً له^(٢٣) - وقد استوحاها معظم من اعتنق الحياة النسكية في كل من الشرق والغرب، سواء عرفوا هذه الكتابات بطريقة مباشرة او غير مباشرة. وعلى هذا يرتئي الكثيرون ان باسيليوس، بالدرجة الأولى، هو الذي أرسى في الكنيسة، وللقرن كلّها، مؤسسة حياة النسك هذه، أو أقلّه لم يُصّر الى تحديد معالمها الخاصة، دون مساعدته الحاسمة.

لقد عانى باسيليوس الكثير من المآسي التي كان شعب الله يرزح تحت ثقلها في تلك الحقبة^(٢٤). فنَدّد بها بصراحة وصفاء فكر ومحبة، وحدّد اسبابها، وعمل بجرأة على اصلاحها اصلاً شاملاً. وكان لهذا العمل - الذي يجب ان يتكامل في كل زمن ويتجدّد في كل عصر - ان يستهدف «إعادة كنيسة السيد، التي من أجلها مات المسيح وأفاض بغزارة عليها من روحه»^(٢٥)، الى شكلها القديم، الى الصورة المثالية، الجميلة والنتية، التي تنقلها إلينا كلمات المسيح وسفر أعمال الرسل. ولكم تذكّر باسيليوس، بشغف وشوق بناء، زمناً كانت فيه جماعة المؤمنين قلباً واحداً ونفساً واحدة^(٢٦). وقد تناول نشاطه الإصلاحى، باتزان وكفاءة وفي آن واحد، جميع وجوه الحياة المسيحية وأبعادها.

يبدو الاسقف، من قبل طبيعة وظيفته، حَبْرًا لشعبه، وشعب الله هو، قبل الكل، أمة كهنوتية. فلا يمكن بأي حال ان يهمل الليتورجية - فعاليتها، غناها، جمالها و«حقيقتها» - اسقفٌ يغار بصدق على خير كنيسته. ومنطقيًا، يحتل الالتزام الليتورجي في العمل الراعوي ذروة كل جهد، وقمة أي خيار. الليتورجية هي - كما يذكر المجمع الفاتيكاني الثاني - الهدف الذي يتجه اليه عمل الكنيسة، والينبوع الذي تتفجر منه كل قوّتها^(٢٧)، «وليس لأي عمل تقوم به الكنيسة ان يضاهيه بالفعالية»^(٢٨). وهذا ما تنبه اليه باسيليوس بشكل كامل. و«المشترع للنساك»^(٢٩) عرف ان يكون ايضاً «مصلحاً ليتورجياً»^(٣٠). ويبقى لكنيسة كل زمن، من نشاطه في هذا الحقل، تركة غالية الثمن، وهي النافور الذي يحمل اسمه، تلك الصلاة الافخارستية التي صاغها وأغناها، وأصبحت الاكثر جمالاً بين الجميلات. وليس ذلك وحسب، بل التنظيم الأساسي لترتيل المزامير قد وجد فيه كبيراً بين الذين أوصوا به ونظّموه^(٣١). وبتأثيره، اصبح لترتيل - ذلك «البخور الروحي»، وقلب شعب الله وتعزيته^(٣٢) - يستهوي الكثيرين من مؤمني كنيسته، واشتهر لدى الصغير والكبير، لدى المثقفين والأُميين^(٣٣). وهذا ما يذكره باسيليوس: «عندنا ينهض الشعب ليلاً ليذهب الى بيت الصلاة... ونقضي الليل في تبادل المزامير والصلوات»^(٣٤). والمزامير التي تعلو انفاسها كالرعد في الكنائس^(٣٥) كانت ترتّم في البيوت وتدور في الساحات^(٣٦).

لقد أحب باسيليوس الكنيسة بغيرة وشغف^(٣٧). ولما علم ان بتوليّتها هو ايمانها، اضحى الحارس الساهر على ايمانها ونقاائه. ولذا أصبح لازماً عليه ان يخاصم بشجاعة، لا الإنسان، بل اي مساس بكلمة الله^(٣٨)، وكل تزييف للحقيقة، وسوء اثنان على الوديعه المقدسة^(٣٩) التي تناقلها الآباء. فلم يكن لغيرته اي دافع انفعالي، بل محبة قويّة، وعقيدة صافية، لا غطرسة فيها، بل مودّة ورقّة. وعلى هذا فن بدء خدمته حتى نهايتها، ناضل ليحفظ لصيغة نيقية الايمانية نقاءها، في ما يخص لاهوت المسيح «الواحد في الجوهر» مع الآب^(٤٠). وحتى لا يُنتقص مجد الروح دافع عنه على أنه «أحد الثالث»، الذي هو من طبيعة اللاهوت الطوباوية عينها^(٤١)، والذي يحصى مع الآب والإبن ويمجد معها^(٤٢).

لقد سهر وناضل بجزم، معرضاً نفسه لأخطار كثيرة، لكي يحفظ للكنيسة حرمتها. ولم يتلكأ عن معارضة الحكام، لأنه الاسقف الاصيل الذي يدافع عن شعب الله وعن

حقه في ان يجاهر بالاعتراف للحقيقة وبالطاعة للإنجيل^(٤٣). والزيترى الذي يذكر حادثة شهيرة من نضاله، يوضح بجلاء ان سرّ قوته كان بساطته في التبشير، والوضوح في الشهادة، وجمال مقامه الكهنوتي الاعزل من السلاح^(٤٤).

ولم تكن قسوة باسيليوس على الهرطقات والظالمين بأقل منها على لبس الأخلاق والتجاوزات في الكنيسة، وبالاخص على التعلّق العالمي بخيرات الأرض والطمع فيها، يدفعه الى ذلك نفس محبة الحقيقة والإنجيل، وان كان ضلال الهرطقة واثانية الاغنياء يخالفان الإنجيل بشكل آخر. وله في هذا الشأن مقاطع من خطبه ما زالت قيمة محافظة على مثاليها: «اذهب وبع ما لك واعطه للفقراء»^(٤٥)... اذا كنت لم تقتل، كما تقول، ولم ترن، أو لم تسرق، أو لم تشهد بالزور، كل ذلك لا يفيدك شيئاً إن لم تعمل الباقي... بهذا فقط يمكنك ان تدخل ملكوت الله»^(٤٦). فمن أراد ان يحب قريبه كنفسه، على حسب وصية الله^(٤٧)، «عليه ان لا يملك اكثر مما يملك قريبه»^(٤٨).

وبتعبير أقوى، كان يحرض، في زمن القحط، على «أن لا يبدو الإنسان اكثر شراسة من الحيوانات... باغتصاب ما هو عام، واختصاص ما هو ملك للجميع»^(٤٩). تلك راديكالية مقلقة للنفس ورائعة في آن معاً، وتحريض لكنيسة جميع الأزمنة على ان تتقابل مع الإنجيل بكل قواها. وقد شهد باسيليوس للإنجيل، الذي يأمر بمحبة الفقراء وخدمتهم، بغير هذه الكلمات، عندما أنشأ أعمالاً كبيرة في خدمة المحبة. فهناك بناء قام على أبواب قيصرية، يأوي اليه المحتاجون^(٥٠)، مدينة حقيقية للرحمة، اتخذت اسم بازيليا^(٥١)، نسبة الى باسيليوس، وهي نصب اصيل للبشارة بالإنجيل المتكاملة.

ونفس الحب للمسيح ولإنجيله قد حمّله على أن يتألم كثيراً من انشقاقات الكنيسة، على الرغم من ضالة الأمل في النجاح، وعلى أن يفتش بعناد على إقامة الشركة مع الكنائس كلّها، بشكل اكثر وضوحاً وفعالية^(٥٢). فخصام المسيحيين يلحق الظلمة بحقيقة الإنجيل، ويمزق المسيح عينه^(٥٣). ان انقسام المسيحيين ينال من قوة المعمودية الواحدة^(٥٤) التي توحدنا مع المسيح وتجعلنا شخصاً سرّياً واحداً^(٥٥)، ويناقض سيادة المسيح، الملك الأوحد، الذي يجب على الجميع أن يخضعوا له، كما يناقض كلمة الله في سلطانه وقوته الموحدة، وما الكلمة سوى الشريعة المثلّي التي يجب على المؤمنين جميعاً ان يتفقوا ويخضعوا لها^(٥٦). فانشقاقات الكنائس إذا هي واقع يخالف بوضوح، وبشكل صريح، المسيح والكتاب المقدس. وطريق العودة الى الوحدة، حسب ما يعلم

باسيليوس ، لا يمكن ان يكون الا بالاهتداء الى المسيح وكلمته (٥٧) .
وسلك باسيليوس ، في خدماته المتنوعة ، سلوكاً مطابقاً لما فرضه على كل مبشر بالكلمة ، أعني أن يكون : رسولاً للمسيح وخادماً له ، موزعاً لأسرار الله ، منادياً بالملكوت ، مثلاً للتقوى وقانوناً لها ، عيناً لجسم الكنيسة ، راعياً لأغنام المسيح ، طبيباً عطوفاً ، أباً ومغذياً ، معاوناً لله ، فلاح الله ، بانياً هيكل الله (٥٨) . وفي مثل هذا النشاط ، ومثل هذا الجهاد - الشاق والدامي والمتواصل - قدّم باسيليوس حياته (٥٩) وبذل ذاته كمحرقة . ومات دون الخمسين وقد أذابته الأتعاب والنسك .

تعلم باسيليوس

لقد عرضنا باختصار صوراً بارزة عن حياة باسيليوس ، ووجوهاً من التزامه كمسيحي واسقف . وانه ليجدر بنا ان ننهل الآن ، من تراث كتاباته الوافر ، بعض خطوط أساسية من تعليمه . والعودة الى مزاوله مدرسته قد يولي النور لمجابهة مشاكل العصر وصعوباته ، ويساعد كثيراً لحاضرنا ومستقبلنا .

ونخال اننا لا نخرج عن الموضوع ، اذا بدأنا بما علّمه حول سرّ الثالوث : بل من المؤكد أنه لا يمكننا أن نجد مطلعاً أفضل اذا ما تحرّينا الأمانة لتفكيره الشخصي . وما عدا ذلك ، فأني دافع يمكن ان يحثنا وأن يكون أكثر نفعاً لحياتنا من سرّ حياة الله عينه ؟ أيمن أن نجد في حياة أي انسان شيئاً أكثر خطورة وأبعد أثراً ؟ اننا نعني الانسان الجديد ، الذي عليه أن يتمثل بهذا السرّ ، من حيث طبيعته وحياته ، كما نعني كل انسان سواء عرف هذا السرّ أو لم يعرفه ، لأنه ما من إنسان إلا وقد دعاه المسيح الكلمة الأزلية والروح ليجد الآب بالروح .

ذلك هو السرّ الأول ، سرّ الثالوث الأقدس ، لأنه سرّ الله عينه ، الله الأوحد ، الحي والحقيقي .

لقد أعلن القديس باسيليوس حقيقة هذا السرّ اعلاناً قوياً ، فأكد ان الاسماء الثلاثة للالهيات تعني بالتأكيد ثلاثة أقانيم متميزة (٦٠) . واعترف اعترافاً لا يقلّ قوة عن التأكيد السابق ، بعدم امكان ادراكه المطلق . فلکم كان مقتنعاً ، هذا الامام بين المتكلمين باللاهوت ، بعجز أي بحث لاهوتي وعدم كفاءته ! وكان يردّد ان ما للموضوع من مقام ،

وما للسر من عظمة يعلنون به عن اي بحث حتى ان ألسنة الملائكة لا تقوى على بلوغه^(٦١).

فالله الحي إذاً، هو حقيقة عظمى، عميقة النور، بعيدة عن الإدراك! ومع ذلك يعتبر باسيليوس نفسه ملزماً بأن يتكلم عنها قبل أي حقيقة أخرى، وبطريقة أولى أي ان يتكلم بما يؤمن^(٦٢)، وبدافع حب لا يقاوم، طاعة لأمر الله، ولبناء الكنيسة «التي ما كانت لتشبع من سماع مثل هذا الموضوع»^(٦٣).

وبالنظر الى انه «متكلم باللاهوت»، أو لربما من الأصح أن نقول بأنه المسيح لله أخرى من المتكلم عنه، فإنه يسبح الآب «مبدأ الجميع، وعلة الموجودات، وأصل الاحياء»^(٦٤) وفوق كل «أب ربنا يسوع المسيح»^(٦٥). وبما ان الآب يضاف الى الابن أولاً، كذلك الابن - الكلمة الذي تجسد في احشاء الطوباوية مريم - يضاف بدوره الى الآب أولاً. وهكذا يتبحر باسيليوس في من يسبح له: «نوراً لا يقترب اليه، وقدرة لا توصف» و«عظمة لا تحدّها حدود» و«مجداً يتعدّى كل بهاء» «لسر الثالث، الاله قرب الإله»^(٦٦)، «صورة جودة الآب وخاتماً معادلاً بالشكل له»^(٦٧). وتمكن باسيليوس من ان يعترف صريحاً بالمسيح «كأحد الثالث المقدس»^(٦٨)، وأن يتأمل - بموضوعية كاملة - تلاشي انسانيته. وكفيلين غيره عرف كيف يقيس المسافة اللامتناهية التي قطعها المسيح لطلبنا، وكفيلين غيره عرف كيف يتفحص، وحتى اعماق الانضضاع، تواضع من «على كونه في صورة الله، أخلى ذاته آخذاً صورة عبد»^(٦٩).

ففي تعليم باسيليوس نلاحظ كريستولوجية للمجد لا تنال بشيء من كريستولوجية التواضع. بل على العكس، فهي تساعد على إعلان محتوى الانجيل المركزي، الذي هو كلمة الصليب^(٧٠) وشك الصليب^(٧١).

ذلك هو مختصر لتعليمه العادي في الخريستولوجية، حيث بهاء المجد يكشف عن معنى الانضضاع.

ان طاعة المسيح هي الانجيل كله، اي انها تحقيق غريب لحبة الله الفادية، فالذي يطيع - حقيقة - هو الابن، وحيد الله، السيد إلّها... الذي به كل شيء كوّن^(٧٢)، وقد انتصرت طاعته على عصياننا العاتي. فلاّلام المسيح، حمل الله الطاهر، الذي لم يفتح فاه أمام الذي يجزه^(٧٣)، قيمة لامتناهية، أبدية وشاملة. فالتألم هو «الخالق وسيد السماء

والأرض، المعبود أكثر من كل خليفة عقلية وحسية، ضابط للجميع بكلمة قوته» (٧٤)، وهكذا هدأت آلام المسيح عنفنا ولطفت غضبنا.

ان الصليب هو «رجاؤنا الوحيد» (٧٥)، وليس هو انكساراً، بل حدث خلاصي، «تحرر» (٧٦) ونصر باهر. ذلك ان الذي سُمِّر عليه ومات «هو ربنا ورب الجميع» (٧٧) «الذي به كان كل شيء، المنظور منه وغير المنظور، الذي له الحياة كما للآب، وقد أعطاه إياها»، «الذي أخذ من الآب كل سلطان» (٧٨). وهكذا يحررنا موت المسيح من «رغبة الموت» الذي كنا عبيداً له (٧٩).

ومنه، اي المسيح، «ظهر الروح القدس، روح الحق، موهبة التنبؤ، عربون الميراث الآتي، باكورة الخيرات الابدية، القدرة المحيية، ينبوع التقديس، الذي بتأييده تعبد الآب كل الخلائق الناطقة والعقلية، وتمجده على الدوام» (٨٠).

ولهذا النشيد من نافور القديس باسيليوس ان يعبر باختصار وجلاء عن دور الروح في التدبير الخلاصي.

انه الروح الذي يعطى في كل معمودية ويولي المواهب ويذكر كل أحد بوصايا الرب (٨١)، ذلك الروح الذي ينعش الكنيسة وينظمها ويحييها بمواهبه ويجعل منها جسماً «روحياً» ومواهبياً (٨٢).

من هذه المنطلقات يرتقي باسيليوس الى تأمل «مجد الروح» العجيب والمتسامي، معترفاً به فوق كل خليفة بشرية (٨٣) ملكاً ورباً، لأننا به نتحول لنصبح شركاء في الطبيعة الالهية (٨٤)، وقُدوساً بالجوهر، لأننا به تقدسنا (٨٥). وبما ان باسيليوس قد ساعد على تقرير صياغة ايمان الكنيسة في الثالث، فهو ما زال يكلم قلبها ويعزيها، ولا سيما باعترافه النير حول المعزي.

ان نور الثالث المقدس الفائق البهاء لا يلقي ظلالاً على مجد الإنسان، بل، على العكس وبدون شك، يزيده ويظهره. فالإنسان ليس بمنافس لله يصليه خصومة ونقمة، وليس هو بمعزل عن الله نزيل وحدة خانقة باليأس. الإنسان صورة تعكس الله.

وكلاً زاد الله تألقاً زاد بهاء نوره في الإنسان، وكلاً أكرم الله ازداد الإنسان كرامة. وعلى هذه الحال، أكد باسيليوس كرامة الإنسان، وأقام بينها وبين الله صلة متينة منه تأتي واليه تعود.

لقد أعطي الانسان العقل ليتوصّل الى معرفة الله ، وأعطى الحرية ليحفظ شريعته . ولكونه صورة الله ، يتسامى الإنسان على نظام الكون ، ويبدو أكثر مجداً من السماء ومن الشمس وأجواق الكواكب . (فأي سماء حصلت على أن تسمّى صورة الله العلي؟) ^(٨٦) . فيتّضح إذاً ان مجد الإنسان هو مشروط أساساً بصلته بالله . ويسعى الإنسان جدياً الى مقامه «الملكي» عندما يحقّق ذاته كصورة الله ، ويصبح ذاته عندما يعرف ويجب ذلك الذي منه نال العقل والإرادة .

كتب ايريناوس قبل باسيليوس كلاماً رائع التعبير : «ان مجد الله هو الإنسان الحي ، وحياة الإنسان هي رؤية الله» ^(٨٧) ، وكأنه يقول : ان الإنسان الحي هو في ذاته تجسيد لله ، كشعاع من جماله ، ولا «حياة» له الا اذا نهلها من الله بانشاء حاجة شخصية اليه . واذا اخفق في هذا الواجب ، أسقط دعوته الرئيسية وانكر بالعمل مقامه وحقّره ^(٨٨) .

وهل الخطيئة غير ذلك؟ ألم يأت المسيح عينه لكي يصلح الصورة ويعيد إليها البهاء ، وهي الإنسان صورة الله التي أظلمتها ^(٨٩) الخطيئة وأفسدتها ^(٩٠) وحطّمتها؟ ^(٩١) . وهذا ما يؤكّده القديس باسيليوس بتعابير استعارها من الكتاب المقدّس : «والكلمة صار جسداً وحلّ فينا» ^(٩٢) ، و«وَضَعَ ذاته الى حدّ أنه أصبح مطيعاً حتى الموت موت الصليب» ^(٩٣) . فيمكنك ايها الانسان «ان تطلّع على معالم مقامك من البَدَل الذي دفع عنك ، انظر الى بدل تحرّك واعرف مقامك» ^(٩٤) .

فمقام الإنسان اذاً هو ضمن سرّ الله وسرّ الصليب . ذلك هو تعليم باسيليوس في الأنسية . ولنقل بتعبير أكثر بساطة : تلك الانسية المسيحية .

ان إصلاح الصورة لا يمكن أن يتمّ بقوة صليب المسيح الواحد . لأن «طاعته حتى الموت... أصبحت لنا مغفرة للخطايا ، تحرّراً من الموت في الخطيئة المألّكة في العالم ، مصالحة مع الله ، قدرة نصبح بها مرضيين لله ، عطية البرّ ، مشاركة القديسين في الحياة الأبدية ، وميراث ملكوت السموات» ^(٩٥) . وفكرة باسيليوس هي ان كل هذه انما تتمّ بالعماد . وهل يعني ذلك غير حدث موت المسيح الذي فيه تدرّج عندما نحتفل بمراسيم السرّ؟ والمبادرة السريّة انما هي «شبه» لموته ، نندمج بها في حقيقة موته ، على حدّ ما كتب بولس : «أتجهلون ان كل من اصطبغ ممّا في يسوع المسيح اصطبغ في موته؟» ^(٩٦) .

فانطلاقاً من سرّ وحدة المعمودية والحدث الفصحي ، وتشبّهًا ببولس ، يعلم باسيليوس ان قبول العماد هو القبول بالصليب . وهذا يعني القبول بالتسمير مع المسيح على

صليب واحد، وبالموت كموته عينه، وبالدفن كدفنه، وبالتالي بالنهوض معه بقيامته^(٩٧).

ولذا فهو يطلق على المعمودية ما أطلقه على الصليب من أسماء المجد: «المعمودية هي بدل تحرير الأسرى والحلّ من الديون، هي موت الخطيئة وإعادة ولادة النفس، ثوب من البهاء، ختم لا ينقض، مركبة الى السماء، سند على الملكوت، عطية التّبيّن»^(٩٨). فالإنسان يتّحد مع المسيح، وبه يدخل صميم حياة الثالوث، ويصبح روحاً لأنه من روح ولد^(٩٩)، وأبناً لأنه لبس الابن متّصلاً مع أبي الابن الوحيد، وقد أصبح حقاً وبدوره أباه^(١٠٠).

وعلى قدر ما لباسيليوس من نظرة سديدة الى سرّ العماذ، يزداد وضوح رؤيته للحياة المسيحية. عدا ذلك، كيف باستطاعتنا أن نفهم سرّ هذه الحياة الجديدة، بغير حصر الخاطر في نقطة التلاقي بين واقع ميلاده الجديد والقدرة الالهية التي ولدته في المعمودية؟ ويتساءل باسيليوس: «كيف يعرف بالمسيحي؟». ويجيب: «ان يولد جديداً في العماذ بالماء والروح»^(١٠١)، لأن حقيقة ما نحن عليه تتضح ممّا نحن منه وما نحن إليه.

وبما أن المسيحي هو خليفة جديدة، فإنّه يحيا حياة جديدة حتى ولو لم يع ذلك وعياً كاملاً، ويتنقل في حقيقته القصية الى وطن جديد، في أرض تحوّلت سماء، حتى ولو أنكر ذلك في أفعاله^(١٠٢). لأن عملية الله هي فعالة بفاعلية غير متناهية ولا تخطئ. وتظلّ دوماً، وبقدر ما، أسمى ممّا يستطيع انسان أن يقاومه ويتكلّم ضده.

ومن دون شك، يبقى الواجب - وهو مفهوم الحياة المسيحية المتأصل ضرورة في العماذ - في أن يصبح الإنسان ما هو، أي حقيقة ذاته، أي أن يوافق بين ذاته والبعد «الروحي» والاسخاتولوجي وسرّه الشخصي، كما يعبر عن ذلك باسيليوس بوضوح وفق ما اعتاده: «ان معنى العماذ او فعاليته هو ان يتبدّل المعتمد بالفكر والقول والفعل، ليصبح، على حسب القدرة التي أوتيتها، حقيقة تضاهي ذاك الذي منه ولد»^(١٠٣).

ويقوم باسيليوس بين الافخارستية، التي بها تكتمل النشئة المسيحية، والعماذ صلة وثيقة ودائمة. فالغذاء الوحيد الذي يتلاءم وظرف المعتمد الجديد، والذي يستطيع ان يحفظ الحياة الجديدة أو يغذي القدرات الجديدة^(١٠٤)، والعبادة بالروح والحق، وعمل الكهنوت الجديد، والذبيحة الكاملة لاسرائيل الجديد^(١٠٥)، كل هذه انما هي الافخارستية التي تشطّ مولود العماذ الجديد تنشيطاً تاماً وتكمّله.

فهو اذاً سرّ الفرح الكبير - وبالترنيم فقط يجوز الاشتراك فيه^(١٠٦) - سرّ القداسة

اللامتناهية والرهيبية. فكيف يمكن من هو في الخطيئة ان يقبل سرّ الرب؟^(١٠٧). لذلك كان على الكنيسة التي تخدم الشركة الافخارستية، ان تكون «لا كلف فيها ولا غضن، مقدسة ومنزهة»^(١٠٨)، أي أن تتنبه دوماً الى السرّ الذي تخدمه وتتفحص ذاتها لتنقيتها «من كل غضن ودنس»^(١١٠).

لذا لا يجوز ان تمتنع عن الشركة، فالمعمودية ذاتها تتجه نحو الافخارستية اللازمة للحياة الأبدية^(١١١)، وعلى جماعة المعتمدين ان تكون طاهرة لكي تشارك في الافخارستية^(١١٢).

الافخارستيا وحدها، وهي ذكرى سرّ المسيح الفصحي، تستطيع ان تبقى ذكر محبة ساهراً فينا. انها سبب مهر الكنيسة الخفي: فبدون الافخارستية ودعائها المتواصل والعذب، وبدون قدرة نظر العروس العميق والمصوب، يسهل على الكنيسة أن تنساه وتقع في اللامبالاة وفي الخيانة. لأجل هذا تأسست الافخارستية، حسب أقوال السيد: «اصنعوا هذا لذكرى»^(١١٣)، ولأجل هذه الغاية يجب أن يواصل الاحتفال بها.

ولا يني باسيليوس عن الترداد: «لأجل الذكر»^(١١٤)، بل «لأجل الذكر الدائم»^(١١٥)، «ولأجل الحفظ المتواصل لذكر ذاك الذي مات وقام من أجلنا»^(١١٦).

فالافخارستية وحدها هي، لقصد الله ومثته، القادرة على ان تحفظ في القلب «ختم»^(١١٧) ذكر المسيح، يشدنا كاللجام ليحفظنا من الخطأ. لأجل ذلك يذكر القديس باسيليوس كلمات بولس، رابطاً إياها بالافخارستية: «ان محبة المسيح نحتنا عندما نعتبر انه اذا كان قد مات واحد عن الجميع، فالجميع اذاً ماتوا. وانما مات المسيح عن الجميع لكي لا يحيا الاحياء لأنفسهم فيما بعد، بل للذي مات وقام لأجلهم»^(١١٨). ولكن ما معنى العيش لأجل المسيح – او «الحياة لأجل الله حياة كاملة» – إلا عقد العمد في مفهومه الكامل؟^(١١٩). ومن هذا القبيل تبدو الافخارستية كمتمة للعمد، تتيح لنا أن نحياه بأمانة وأن نتابع تنشيطه بقدرة النعمة.

لذلك لا يتردد باسيليوس في أن يوصي بالتناول المتكرر بل اليومي: «ان التناول حتى اليومي منه لجسد المسيح ودمه، هو أمر جميل ونافع، لأن السيد يعلن بوضوح: «ان لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه، فلا حياة لكم في أنفسكم»^(١٢٠). فمن يشك إذاً بأن تناول الحياة بشكل دائم هو ملء الحياة؟^(١٢١).

و«كل كلمة تخرج من فم الله»^(١٢٢) هي كالافخارستية «طعام – حقيقي – للحياة الأبدية»، في قدرته أن يغذي حياة المعتمد الجديدة. ولقد جزم باسيليوس القول بصلة

أساسية بين مائدة كلمة الله ومائدة جسد المسيح^(١٢٣). فالكتب المقدسة هي كالأفخارستية، ولو بشكل آخر، إلهية ومقدسة وضرورية. ويلجّ باسيليوس، بشكل خاص، على ألوهيتها أي أنها «من الله» بالمعنى الأكثر أصالة. فالله هو الذي أوصى بها^(١٢٤)، والله هو الذي أثبت صحتها^(١٢٥)، والله قد تلفّظ بها بواسطة الكتاب الملهمين^(١٢٦) - اعني موسى والأنبياء والإنجيليين والرسل -^(١٢٧) ولا سيما بواسطة ابنه^(١٢٨)، السيّد الأوحّد للعهدين القديم منها والجديد^(١٢٩)، إنما بدرجات متفاوتة من الوحي ومن ملكه^(١٣٠) ومن دون أي ظلّ تناقض^(١٣١).

وبما أن الكتب المقدسة هي إلهية في جوهرها، ولو صيغت بكلمات بشرية، فلها سلطة لا حدّ لها: إنها للإيمان ينبوع، حسب أقوال بولس^(١٣٢)، ولليقين ملء، لا شك فيها ولا تردّد^(١٣٣). ولأنها كلّها من الله، فهي برمتها وبأجزائها، حتى الصغيرة منها، غاية في الأهمية، وحرية بأن تسترعي انتباهنا الشديد^(١٣٤).

ولهذا السبب دُعيت الكتب بحقّ مقدسة: فكما أن تدنيس الأفخارستية هو أمر شنيع، كذلك يعتبر تدنيساً التحرك ضدّ ملء كلمة الله ونقائها. فلا يمكن إذا فهمها وفق المقولات البشرية، بل، على حسب ما علّم باسيليوس، «يجب الطلب إلى الرب كي يمنحنا تفسير ما قاله»^(١٣٥)؛ ولا يمكن «حذف» أي من هذه النصوص أو «الزيادة» عليها، لأن الكنيسة قد تسلّمها، وقد تلفّظ بها الله مرة واحدة وللأزمان كلها^(١٣٦).

ومن اللازم الحيّاتي إذاً، أن تقوم الصلة بكلام الله على العبادة والأمانة والمحبة. وبشكل رئيسي، تنهل منه الكنيسة بشارتها^(١٣٧)، وتتقاد إلى كلمات سيّدها^(١٣٨)، فلا «تحوّل» - لا سمح الله - كلمات التقوى إلى كلمات بشرية^(١٣٩).

والى الكتاب يجب أن يعود، دائماً وفي أي مكان، كل مسيحي في كل من خياراته^(١٤٠)، واضعاً نفسه إزاءها «كطفل»^(١٤١) وباحثاً فيها عن الدواء الأكثر فعالية لكل ما يعتره من ادواء^(١٤٢)، فلا يتجرأ على القيام بخطوة واحدة دون «الاستشارة بالأضواء الإلهية التي تبعها هذه الكلمات»^(١٤٣).

كل تعليم باسيليوس هو، كما رأينا، تعليم مسيحي أصيل، وبشارة خلاص فرحة. أليس ملء الفرح بل ينبوع الفرح الاعتراف للرب، ومجده يسطع في الإنسان، صورته؟ أليس عجيّاً التبشير بانتصار الصليب الذي، «لعظيم رحمة الله وكثرة حرّانه»^(١٤٤)، ننال به

مغفرة الخطايا حتى قبل أن نرتكبها؟ (١٤٥) ، بل أي تبشير أكثر عزاء من التبشير بعماد يعيد ولادتنا ، وافخارستية تغذينا ، وكلمة تضيئنا ؟

ولأجل ما سبق ، وبسبب انه لم يغط قدرة الله الخلاصية قدرها ، ولم ينتقص عمله الهادي و«قدرة الدهر الآتي» (١٤٦) استطاع باسيليوس ان يطلب مجزم من الجميع ، المحبة المطلقة لله ، والتعبّد الكامل له ، دون اي استثناء ، والحياة الفاضلة وفق طريقة الإنجيل وتعليمه (١٤٧) .

واذا كانت المعمودية نعمة - وأي نعمة - فكلّ من قبلها قبل معها صلاحية العمل والقدرة على ارضاء الله (١٤٨) . فعلى الجميع على السواء ان يتبعوا منطق العباد «أي» ان يعيشوا بحسب الإنجيل (١٤٩) .

«الجميع على السواء» يقول ؛ فلا يوجد مسيحيون من صف ثان ، لأنه لا توجد معموديات مختلفة ، ولأن جوهر الحياة المسيحية هو ضمن عهد «عمادي واحد» (١٥٠) .

يقول «الحياة بموجب الإنجيل» ؛ وماذا يعني باسيليوس بهذا القول ؟ ان تتزع بشوق قوي (١٥١) وبكل القدرات الجديدة المعطاة لك لكي «تنال حظوة لدى الله» (١٥٢) . هو مثلاً «ان لا تكون غنياً بل فقيراً وفق كلام الرب» (١٥٣) ، حتى تحقق أهم ما يشترط لاتباعه (١٥٤) ، دون عوائق (١٥٥) ، وحتى تعلن جدّة الإنجيل ضد الطريقة المتبعة للحياة العالمية (١٥٦) ؛ وهو ان تخضع بكليتك منكراً «ارادتك» (١٥٧) ، بينما تطيع على مثال المسيح «حتى الموت» (١٥٨) .

لم ينجعل باسيليوس من الإنجيل ، بل كان مقتنعاً انه هو قدرة الله لخلاص كل مؤمن (١٥٩) ، فكان يبشّره كاملاً (١٦٠) ، حتى تصبح الكلمة ينبوع نعمة وحياة كاملين .

ومن المفيد أيضاً أن نذكر باسيليوس وهو يكرّم بتولية مريم (١٦١) ولو بدرجة أقل من أخيه غريغوريوس النيصي وصديقه غريغوريوس التريزي . فهو يدعوها «نبية» ! (١٦٢) ويعلّل خطوبتها للقديس يوسف بكلمات منتقاة : «لقد تمّ الأمر حتى تكرّم البتولية ولا تحقر الزواج» (١٦٣) .

ويشتمل قداس باسيليوس ، الذي ذكرناه قبلاً ، على مدائح سامية «لسيدتنا الكاملة القداسة ، الفاتحة البركات ، المجيدة ، والدة الاله ، الدائمة البتولية ، مريم» .

الخاتمة

فنحن في الكنيسة ، نفتخر كلنا بأن نكون لهذا القديس العظيم والمعلم التلاميذ والأبناء. فلنتأمل مجدداً بمثاله ، ولننصت الى ارشاداته فنقبل تعزياتها ، والى تحريضه بطواعية داخلية صحيحة.

اننا نودع رسالتنا هذه وبصورة خاصة المنظّمات الرهبانية العديدة - ذكوراً وإناثاً- التي تشرف بالانتساب الى القديس باسيليوس وحمايته ، والتي تتبع قوانينه ، داعين إياها ، في هذه المناسبة السعيدة ، الى عقد مقاصد لحماس جديد يدفع بها الى الجهاد الروحي وتأمل الالهيات ، ويفيض بأعمال مقدّسة لمجد الله ولبناء الكنيسة المقدّسة .
وبقصد البلوغ الى هذه الاهداف ، نسأل غوث العذراء الوالدي ، وعربوناً للخيرات السماوية وبرهاناً لمحبتنا ، نمحضكم بعطف كبير البركة الرسولية .

أعطي في رومة ، قرب القديس بطرس ، في اليوم الثاني من كانون الثاني ، عيد القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس التريزي ، أسقفى الكنيسة ومعلمها ، سنة ألف وتسعمائة وثمانين ، الثانية لحريّتنا .



مريم العذراء

ان كان الله غمر عبيده الأخصاء بالنعم والبركات ، فكم تكون النعم التي أسبغها على الأم العذراء ، هي بالأكيد أعظم وأسمى . وإذا كان يوسف دعي بالمغبوط الا تكون مغبوطه تلك التي ولدت يسوع الذي اعترف به بطرس نفسه رباً وإلهاً . وإذا كان بولس دعي الإناء المختار لأنه حمل اسم المسيح الى كل الأرض ، فأى كأس تكون هذه التي حملت الله . أيّتها العذراء الفاتقة القداسة ، كل الألقاب والتماجيد التي أضيفها عليك لا تكني ولا تعبّر عن شيء يليق بك .

القديس باسيليوس الكبير

NOTE

- (1) Cfr. Gal. 4, 19; Vincentius Lirinensis, *Commonitorium* I 3; PL 50, 641.
 (2) Cfr. I Cor 4, 15.
 (3) Cfr. I Cor 3, 11.
 (4) Cfr. Eph 2, 21.
 (5) Cfr. *Regulae fustius tractatae* 3; PG 31, 933c-941a.
 (6) Cfr. *Moralia LXXX* 1; PG 31, 860bc.
 (7) De baptismo I 1; PG 31, 1516b.
 (8) Cfr. Gregorius Nazianzenus, *In laudem Basilii*; PG 36, 525c-528c.
 (9) Cfr. I Cor 2, 2.
 (10) Cfr. I Cor 1, 20.
 (11) Cfr. I Cor 2, 6.
 (12) *Epistula* 223; PG 32, 824a.
 (13) *In laudem Basilii*; PG 36, 521cd.
 (14) *Epistula* 204; PG 32, 753a.
 (15) Cfr. I Cor 2, 9.
 (16) Cfr. *Epistula* 223, PG 32, 824bd.
 (17) Cfr. *Præsertim Epistulae* 2 et 22.
 (18) *Epistula* 2, PG 32, 228a. cfr. Ep. 210, 769a.
 (19) *Regulae fustius tractatae* 43; PG 31, 1028a-1029b. Cfr. *Moralia LXX* 10, PG 31, 824d-825b.
 (20) *Regula Benedicti*, Prologus.
 (21) Cfr. Gregorius Nazianzenus, *In laudem Basilii*; PG 36, 536b.
 (22) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, prooemium, PG 31, 1080ab.
 (23) Cfr. *Regula Benedicti*, LXXIII 5.
 (24) Cfr. De iudicio; PG 31, 653b.
 (25) *Ibid.*
 (26) Act 4, 32; cfr. De iudicio 660c. *Regulae fustius tractatae* 7, 933c. *Homilia tempore famis*, 325ab.
 (27) *Sacrosanctum Concilium*, 10.
 (28) *Ibid.*, 7.
 (29) Gregorius Nazianzenus, *In laudem Basilii*; PG 36, 541c.
 (30) *Ibid.*
 (31) Cfr. *Epistula* 2 et *Regulae fustius tractatae* 37, PG 31, 1013b-1016c.
 (32) Cfr. *In Psalmum* 1; PG 29, 212a-213c.
 (33) *Ibid.*
 (34) *Epistula* 207; PG 32, 764ab.
 (35) Cfr. Gregorius Nazianzenus, *In laudem Basilii*; PG 36, 561cd.
 (36) Cfr. *In Psalmum* 1; PG 29, 212c.
 (37) Cfr. II Cor 11, 2.
 (38) Cfr. II Cor 2, 17.
 (39) Cfr. I Tim 6, 20. II Tim 1, 14.
 (40) Cfr. *Epistula* 9; PG 32, 272a; *Epistula* 52, 392b-396a; Adv. Eunomium I; PG 29, 555c.
 (41) *Epistula* 243; PG 32, 909a.
 (42) Cfr. De Spiritu sancto; PG 32, 117c.
 (43) Cfr. Gregorius Nazianzenus, *In laudem Basilii*; PG 36, 557c-561c.
 (44) Cfr. *ibid.*, 561c-564b.
 (45) Mt 19, 22.
 (46) *Homilia in divites*; PG 31, 280b-281a.
 (47) Cfr. Lev 19, 18; Mt 19, 19.
 (48) *Homilia in divites*; PG 31, 281b.
 (49) *Homilia tempore famis*; PG 31, 325a.
 (50) Cfr. *Epistula* 94, 488bc.
 (51) Cfr. *Somenus Historia Eccl.*, VI 34; PG 67, 1397a.
 (52) Cfr. *Epistulae* 70 et 243.
 (53) Cfr. I Cor 1, 13.
 (54) Cfr. Eph 4, 4.
 (55) Cfr. Gal 3, 28.
 (56) Cfr. De iudicio; PG 31, 653a-656c.
 (57) Cfr. *ibid.* 660b-661a.
 (58) Cfr. *Moralia LXXX* 12-21; PG 31, 864b-868b.
 (59) Cfr. *Moralia LXXX* 18, 865c.
 (60) Cfr. Adv. Eunomium I; PG 29, 529a.
 (61) Cfr. *Homilia de fide*; PG 31, 464b-465a.
 (62) Cfr. II Cor 4, 13.
 (63) *Homilia de fide*, 464cd.
 (64) *Ibid.*, 465c.
 (65) *Anaphora S. Basilii*.
 (66) *Homilia de fide*, 465cd.
 (67) Cfr. *Anaphora S. Basilii*.
 (68) *Liturgia S. Ioannis Chrysostomi*.
 (69) Phil 2, 6s.
 (70) Cfr. I Cor 1, 18.
 (71) Cfr. Gal 5, 11.
 (72) De iudicio; PG 31, 660b.
 (73) Cfr. Is 53, 7.
 (74) Cfr. Hebr 1, 3: *Hom. de ira*, PG 31, 369b.
 (75) Lit. Hor., Hebdomada Sancta, hymnus ad Vesperas.
 (76) Cfr. Io 8, 32s, et alibi.
 (77) Cfr. Act. 10, 36: De baptismo II 12; PG 31, 1624b.
 (78) De baptismo II 13, 1625c.
 (79) Cfr. Hebr 2, 15.
 (80) Cfr. *Anaphora S. Basilii*.
 (81) Cfr. De baptismo I 2; PG 31, 1561a.
 (82) Cfr. De Spiritu sancto; PG 32, 181ab; De iudicio, PG 31, 657c-660a.
 (83) Cfr. De Spiritu sancto, cap. 22.
 (84) Cfr. *ibid.*, cap. 20s.
 (85) Cfr. *ibid.*, cap. 9 et 18.
 (86) *In Psalmum* 48; PG 29, 449c.
 (87) *Adversus haereses* IV, 20, 7.
 (88) Cfr. *In Psalmum* 48, 449d-452a.
 (89) *Homilia de malo*; PG 31, 333a.
 (90) *In Psalmum* 32; PG 29, 344b.
 (91) De baptismo I 2; PG 31, 1537a.
 (92) Io 1, 14.
 (93) Cfr. Phil 2, 8; *In Psalmum* 48; PG 29, 452ab.
 (94) *Ibid.*, b.
 (95) De baptismo I 2; PG 31, 1556b.
 (96) Rom 6, 3.
 (97) Cfr. De baptismo I 2.
 (98) *In sanctum baptismum*; PG 31, 433ab.
 (99) Cfr. *Moralia XX* 2; PG 31, 736d; *ibid.* LXXX 22, 869a.
 (100) Cfr. De baptismo I 2, 1564c-1565b.
 (101) *Moralia LXXX* 22; PG 31, 862d.
 (102) Cfr. De Spiritu sancto; PG 32, 157c; *In sanctum baptismum*; PG 31, 429b.
 (103) *Moralia XX* 2; PG 31, 736d.
 (104) Cfr. De baptismo I 3; PG 31, 1573b.
 (105) Cfr. *ibid.* II 2s et 8, 1601c; *Epistula* 93; PG 32, 485a.
 (106) Cfr. *Moralia XXI* 4; PG 31, 741a.
 (107) Cfr. De baptismo II 3; PG 31, 1585ab.
 (108) Eph 5, 27: *Moralia LXXX* 22, 869b.
 (109) Cfr. I Cor 11, 28: *Moralia XXI* 2, 740ab.
 (110) De baptismo II 3; PG 31, 1585ab.
 (111) Cfr. *Moralia XXI* 1; PG 31, 737c.
 (112) Cfr. *Moralia LXXX* 22, 869b.
 (113) I Cor 11, 24s et par.
 (114) *Moralia XXI* 3, 740b.
 (115) *Ibid.*, 1576d.
 (116) *Moralia LXXX* 22, 869b.
 (117) Cfr. *Regulae fustius tractatae* 5; PG 31, 921b.
 (118) II Cor 5, 14s.
 (119) Cfr. De baptismo II 1, PG 31, 1581a.
 (120) Io 6, 54.
 (121) *Epistula* 93, PG 32, 484b.
 (122) Mt 4, 4; cfr. Dt 8, 3: De baptismo I 3, PG 31, 1573bc.
 (123) Cfr. *Dei Verbum* 21.
 (124) Cfr. De iudicio, PG 31, 664d; De fide ib. 677a, ecc.
 (125) Cfr. De fide PG 31, 680b.
 (126) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 13, PG 31, 1092a; Adv. Eunomium II, PG 29, 597c, ecc.
 (127) Cfr. De baptismo I 1, PG 31, 1524d.
 (128) Cfr. De baptismo I 2, 1561c.
 (129) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 47, PG 31, 1113a.
 (130) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 276, PG 31, 1276cd; De baptismo I 2, PG 31, 1545b.
 (131) Cfr. De fide, PG 31, 692b.
 (132) Cfr. Rom 10, 17: *Moralia LXXX* 22, PG 31, 868c.
 (133) *Ibid.*
 (134) Cfr. *In Hexaem. VI*, PG 29, 144c; *ibid.* VIII 184c.
 (135) De baptismo II 4, PG 31, 1589b.
 (136) Cfr. De fide, PG 31, 680ab; *Moralia LXXX* 22, *ibid.* 868c.
 (137) Cfr. *In Psalmum* 115, PG 30, 105c. 108a.
 (138) Cfr. De baptismo I 2, PG 31, 1533c.
 (139) *Epistula* 140, PG 32, 588b.
 (140) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 269, PG 31, 1268c.
 (141) Cfr. Mc 10, 15: *Regulae brevis tractatae* 217, PG 31, 1225bc; De baptismo I 2, PG 31, 1560ab.
 (142) Cfr. *In Psalmum* 1, PG 29, 209a.
 (143) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 1, PG 31, 1081a.
 (144) *Regulae brevis tractatae* 10, PG 31, 1083c.
 (145) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 12, 1089b.
 (146) Cfr. Hebr 6, 5.
 (147) Cfr. *Moralia LXXX* 22, PG 31, 869c.
 (148) *Regulae brevis tractatae*, 10, PG 31, 1098c.
 (149) De baptismo II 1, PG 31, 1580ac.
 (150) *Ibid.*
 (151) Cfr. *Regulae brevis tractatae*, 157, PG 31, 1185a.
 (152) Cfr. *Moralia* I 5, PG 31, 704a et passim.
 (153) Cfr. *Moralia XLVIII* 3, PG 31, 769a.
 (154) Cfr. *Regulae fustius tractatae* 10, PG 31, 944d-945a.
 (155) Cfr. *Regulae fustius tractatae*, 8, 940bc; *Regulae brevis tractatae* 137, 1241b.
 (156) Cfr. De baptismo I 2, PG 31, 1544d.
 (157) Cfr. *Regulae fustius tractatae*, 6, PG 31, 925c; 41, 1021a.
 (158) Cfr. Phil 2, 8: *Regulae fustius tractatae* 28, 989b; *Regulae brevis tractatae* 119, 1161d, et passim.
 (159) Cfr. Rom 1, 16.
 (160) Cfr. *Moralia LXXX* 12, PG 31, 864b.
 (161) Cfr. *In sanctam Christi generationem* 5, PG 31, 1468b.
 (162) Cfr. *In Isaiam* 208, PG 30, 777b.
 (163) Cfr. *In sanctam*... 3, PG 31, 1464a.

البحث الثاني القديس باسيليوس مُشترع كبير للحياة الرهبانية

الأب الياس كويتر المخلصي

نتطرق في هذا المقال الى الكلام عن القديس باسيليوس والحياة الرهبانية ، ونترك لآخرين درس نواحي أخرى من حياته وأعماله . ومعروف أن هذا القديس قام بعمل عظيم لإصلاح الحياة الرهبانية ، فقد سنّ لها قوانين جديدة ، ونظّمها تنظيمًا دقيقًا ، وبعث فيها دفقًا أصيلًا ، حتى بانت في أيامه وفي أيامنا أيضًا مختلفة عن مناهج الحياة الرهبانية الشائعة آنئذٍ . ولا عجب فقد ختمها القديس باسيليوس بطابعه الخاص ، وهو طابع الرجل المتعادل الوزنات ، المتوازن الخلق ، المتألف الثقافة والعلم ، والذي بحقّ قال عنه القديس غريغوريوس التريزي صديقه الحميم وكثير غيره من الكتبة معاصريه انه كان رجلاً كاملاً في كلّ النواحي الخلقية والإنسانية وحتى الجسدية بقدر ما يمكن للإنسان أن يكون كاملاً على هذه الأرض .

١ - أصول يونانية

القديس باسيليوس هو ابن عائلة رفيعة الثقافة ، عزيزة المكانة في مدينة قيصرية من بلاد الكبادوك . كان والده محامياً بارعاً لا تربكه مشكلة ولا تخيفه صعوبة . يستسبح الدفاع عن الحق ، ويحبّ نصرته المسكين والمظلوم . وكان أيضاً خطيباً تهتّر له المنابر ، وتنصاع له الافتدة ، وتكاثّر في مدرسته التلامذة . هذا الرجل كان الأصل للغصن اليانع الذي هو القديس باسيليوس ولسائر إخوته العشرة ^(١) .

وفي البيت كان أريج التقوى يتصوّع في كل زاوية بفضل أمّ تقية فاضلة ، هي اميليا . وقد عرفت ان تكون مربية صالحة للقديسين ولرجال عظام^(٢) . فلا عجب ان ترى باسيليوس الفتى والشاب يعكف على البحث ، ويحبّ المعرفة ويرتاح الى التقوى والفضيلة . فاليّ بيت كان له مدرسة تعلّم فيها التوجّه العلمي ، وحبّ الفلسفة والتكرّس للحق . وأخذ يسير برعاية والد حكيم وأمّ فاضلة من نجاح الى آخر في مدارس قصيرة ثم في القسطنطينية ، ويبرز في العلوم ، متقدّماً « في السن والنعمة والحكمة أمام الله والناس » الى أن وصل الى مرحلة التخصص فتوجّه الى أثينا عاصمة العلم وقتئذٍ .

في أثينا وجد باسيليوس ضالّته المنشودة . فالمدينة التي كانت عاصمة بلاد اليونان كانت تعجّ بالفلاسفة والأدباء والشعراء ، وفي كل زاوية كان يقوم محفل يتجمّع فيه طلاب العلم والفلسفة ، وفي كل شارع كان يرتفع منبر يشرح فيه مفكرون وأدباء عن نزعات الفكر البشري والمذاهب والديانات المختلفة . فأصبحت هكذا أثينا شهيرة في العالم كلّه يحجّ اليها الراغبون في العلم من كل صوب ويقصدها الطلّاب من كل صقع ، ومنهم كان باسيليوس . وهذا ليس بجديد على هذه العاصمة ، فالقديس بولس الرسول ، مرّ فيها ، وخطب في محفل آريوس باغوس عن الإله المجهول . نعم لم تكن أثينا مليئة بالمعلّمين العظام كما في السالف ، لكن كانت تعجّ بمدارس خاصة ، ويعقب فيها جوّ خاص يفوح من أبنيتها الخالدة ومن تاريخها العريق . كانت تعلّم بالاكثر في عهد القديس باسيليوس العلوم الانسانية ، والطبّ والحقوق والبلاغة ، وكانت توفر لطلاب كل هذه الفروع ان يدرسوا روائع الفكر اليوناني العظيم في مهبطه الأول وفي موطنه الأصلي^(٣) .

في أثينا تعرّف باسيليوس الى رفيق يطلب العلم مثله هو غريغوريوس الذي من مدينة نريز . فارتبط الاثنان برباط محبة العلم ، والسعي الى الخير والصدقة الحقة . والاثنان كانا من المنطقة الكبادوكية نفسها ، والاثنان كانا بعيدين عن الأهل . ومدينة كاثينا ، واسعة المرافق ، كثيرة الملاهي صاحبة بالطلاب والرواد والزوّار تستلزم حرزاً للإثنين يعصمهما من زحف الاغراء وهو الشباب ، وغرور العلم ، فكانت بينهما الصداقة الخالدة التي قال عنها القديس غريغوريوس : « نلت نعمة كبرى وهي أن تعرّف على شخص لم أكن أجهله من قبل » . وقال أيضاً عنه : « ان اسمه كان شهيراً جداً ، ولدى وصوله الى أثينا أسرع الجميع الى خطب ودّه »^(٤) . ننقل الوصف الرائع لهذه الصداقة ، بقلم غريغوريوس الخطيب والشاعر . قال : « لما حصل التعارف بيننا ، واتّضحت رغبتنا المشتركة في درس الفلسفة ، أصبح كل واحد منا للآخر

كل شيء. كان لنا سقف بيت واحد، وطاولة واحدة ندرس عليها، وعواطف مشتركة. ان أعيننا كانت تحدّق الى هدف واحد، وعاطفتنا لم تكن إلا لتزيد وترسخ يوماً بعد يوم. ان الشهوات الجسدية تزول... لكن المحبة التي تمت الى الله بصلة، هي ثابتة لأن موضوعها ثابت. وبقدر ما تتضح جلالاتها، وتكشف بقدر ذلك تربط من جمعتهم برباط المحبة نفسها»^(٥). وبلغت الصداقة بينهما درجة كتب عنها غريغوريوس: «اني أتشفقك أكثر مما أتشفق الهواء، وأنا، سواء كنت حاضراً أم غائباً، لا أعيش إلا الوقت الذي أنت فيه معي»^(٦). أليس هذا صدى لما علّمه أرسطو، وقاله سقراط، وكتبه أفلاطون عن الصداقة.

كان المكوث في أثينا للقدّيس باسيليوس عهد النضج الفكري والإنساني. فقد أشرع أبواب نفسه للمعرفة وفتح قلبه لفهم كنوز الفلسفة اليونانية، وأخذ من ثمة يقابل بين التيارات الفكرية المتصارعة، والمذاهب الفلسفية الكثيرة. كان تلميذاً لـ Proérésios, Hinerios في أثينا، ولليبانوس في انطاكية^(٧) فخرج من هذه البوتقة رجلاً متوازن الصفات والأخلاق والثقافة، يفكر بفطنة، ويجادل بمنطق، ويحلّل الأمور غائصاً في بحر العلوم والمعارف والخبرة البشرية. لا يلاحظ عليه هياج العاطفة، ولا اندفاع الحماس. وقد صدق فيه قول معاصريه فيه انه كان رجلاً لا تطاله لائمة، ولا يعيبه شيء حتى تحرّكاته الجسدية كانت على غاية ما يكون من الترتيب والروعة^(٨).

نشّد على هذه الأصول اليونانية، التي طبعت حياة وفكر القديس باسيليوس. فقد أثّرت تأثيراً كبيراً في فهمه للحياة الرهبانية ونهجه لها النهج الصحيح. انها قد جاءت تحفة رائعة لأنها راعت الحالة البشرية وشدّدت على وضوح رؤية السماء. هي نموذج ونهج يشدّد على التوازن، والتكيّف والتبصر والفطنة. فالإنسان في انخراطه في سلوكها يبقى انساناً كامل الصفات، غنياً بالوزنات البشرية، انما يحدوه أمل متصلّب الى السماء والتزام لا هوادة فيه بتعليم الانجيل.

ترك باسيليوس أثينا وحمل منها كنوز المعرفة، وأتى الى بلده قيصريّة فخلف أباه في مهنة المحاماة وتدريس الخطابة. ولا شك ان هذين المنبرين فتحا له باب التعرّف على أحوال الانسان المختلفة، ولا شك أيضاً انه فاق والده شهرة وعلماً، «فداع منطقته في كل الارض»^(٩) حتى وصل الى أبعد حدود الشرق والغرب. ولا عجب فباسيليوس له من الذكاء النادر والمعرفة الواسعة ما يسهل له المهمة الصعبة. ان نجمه أخذ يلمع في الآفاق، فأخذ الناس يحجّون اليه «ليسمعوا كلام الحكمة من فمه»^(١٠). لكن مع هذا الزحف البشري

زحفت الى قلبه شهوة الغرور والمجد فأخذ يتعالى ويتجبر كآدم لأنه صار شبيهاً بالله بالمعرفة^(١١).

ان هذا العكوف على المحاماة والخطابة في كبادوكية استلزم من باسيليوس الانكباب على البحث، فتابع الغوص في أدق الأمور، وتشدد في المنطق وعكف على مطالعة المؤلفات الفلسفية والادبية اليونانية ولازم معايشة الأدباء والرجال العظام، وخصوصاً «درس احوال البشر». وكل هذا جعل منه رجلاً واسع الخبرة واسع الثقافة، وكل هذا أثر في حياته، حتى كاد الغرور يوصله الى الهاوية ونسي هو ورفيقه غريغوريوس عزمهما الوطيد على التنسك والبعد عن العالم، لأن العلوم والبلاغة والفلسفة ربطتهم بالعالم وأنسهم الله^(١٢). إلا أن أخته ماكرينا، وهي امرأة تضاهي الرجال ذكاء وفهماً وشجاعة كانت تراقبه عن كثب، فأخذت تنصحه حتى يبتعد عن التهور، وعن الذهاب بعيداً في التجبر، اذ كل مجد العالم زائل وكل أحواله باطلة، وظلت تذكره بالتربية التي أخذها في البيت الوالدي^(١٣)، فلجم التهور، وكبح الكبرياء، وأخذ من ثمّ يحلل الأمور، ويمجد في البحث، فبان له ايضاً ان كل شيء باطل في هذا العالم، وان العلم مهما عظم لن يبلغ الى معرفة كل شيء. وحينئذ أخذ في التواضع والتواضع أصل الرفعة والمجد^(١٤).

٢ - سائح في البراري والقفار

حدث تحوّل في حياة باسيليوس على أثر تدخل أخته ماكرينا وصديقه غريغوريوس^(١٥) فالشوق الى الأمور السماوية تراجع صدهاء في قلبه، وأخذ يعاوده حبّ اكتشاف الله بصدق وإخلاص. ومن ثمّ كان رجوعه الى الله ارتداداً الى الأصول الأولى من حياته، فانه لم يتعلّم في البيت ومن والدين فاضلين إلا حب الله والتوجّه اليه بكل القلب والنفس. لذلك سهل عنده الرجوع الى الله، وقد استعذبه. وقد بان ذلك بقوله: «انه اعطى لله قلبه كله، بعد ان افرغه من روح العالم»^(١٦).

منذ زمن بعيد والله يخطط للعمل في نفس باسيليوس فهو يريد له، وقد اختاره منذ مولده وفرزه لعمل عظيم في العالم، انما ترك الامور تجري، يراقبها إلى أن تأتي الساعة المحددة منذ الأزل. وها قد دقّت ساعة الخلاص عند باسيليوس.

وألح النداء على باسيليوس ليذهب بعيداً في الاختلاء. والعزلة كانت دوماً مدرسة النفوس العريقة. وصف بعض الآباء الروحيين والكتبة المعاصرين العزلة، فتكلموا عن الصحراء، والصمت، والعزلة، وكلها كلمات مترادفة. وقد علموا ان النفس في الصحراء لا ترى الا السماء من فوق، والارضاً قاحلة مجدبة فتتفرغ النفس آنئذ الى التحرر من كل ربط العالم لتتطلع الى الله وحده. ولا نعجب ان تكون البرية شديدة التأثير في عصر القديس باسيليوس. فالنفوس الفاضلة الراغبة في محبة الله، كانت ترى ان المدنية الوثنية لا تزال تسيطر على المجتمع اليوناني آنئذ. وهي لخوفها من الانزلاق في اغرائها والوقوع في شباكها، كانت تركض الى الصحراء لتستمتع هناك برؤية صافية وهادئة لله. لذلك لا نعجب ان تمتلئ البراري والقفار في مصر وسوريا وفلسطين بالمناسك والاديار. ان ألوفاً من النسك والزهاد والرهبان عاشوا فيها. يكفي ذكر باخوميوس وانطونيوس وبولس وأتباعهم ورهبانهم الكثيرين. وصف أحد الرحالة ديراً للقديس باخوميوس فقال عنه انه مدينة صغيرة، وقفير نخل. الى الآن لا تزال، كما تقول إحدى المجلات^(١٧) تسمع في الصحاري المصرية أصوات وأنغام أناشيد وصدى أجراس، لم يقدر أحد على اكتشاف سرّها وفك رموزها. قد تكون ترجيع لصلوات نسك، وتهجدات رهبان، وأناشيد متعبدين لله، عاشوا في الصحراء في العبادة والصلاة والتقشف.

وشدّ باسيليوس عصا الرحال سنة ٣٥٧ فذهب الى براري مصر فهي موطن النسك، ومعتقل المترهدين، وطاف في ارجاء فلسطين، وبلاد ما بين النهرين وسوريا^(١٨). وتعرّف الى قمم في النسك والزهد. ثم عاش مع النسك وعكف على الامانة ففتح له كل ذلك آفاقاً واسعة، فبانت له الحياة الرهبانية في حقيقتها، ولاحظ عليها بعض الخلل. فقمع النفس وإماتة الجسد الى حدّ تحجيم الإنسان، والحدّ من نشاطه ووأد الطاقات الهائلة التي وضعها الله فيه، هونهج لا يتماشى مع نظرتة الفلسفية اليونانية، رغم ان هذا كله هو نداء من الرب. ان الحياة الرهبانية، في البرية والاديار المصرية أعجبتة كثيراً، وأذهله النسك بتقشفهم وصلواتهم الطويلة، انما لم يُجذب باسيليوس الى تلك الطريقة وذلك النهج. كانت تلك الايام لباسيليوس وقتاً طيباً. فقد انكشف له الله في أجلى مظاهره، فارتدّ ارتداداً عميقاً اليه، اذ انه بعد الشهرة الواسعة، والعلم الغزير بان له ان معرفة الله هي الأسْمى، ومخافة الله هي رأس الحكمة. ثم رجع الى قيصرية حاملاً اختباراً صحيحاً عن

الحياة الرهبانية، عاشه هو نفسه في الصحراء، وبحته مدى ساعات طويلة في الصلاة والتأمل^(١٩).

ان الحياة الرهبانية كانت حلمًا قديمًا عند باسيليوس. لما كان في أثينا تحدث عن مشروع نسكي مع صديقه غريغوريوس، وقد تعاهدا على الزهد بالخيرات الزمنية لأنها باطلة^(٢٠). وتكشف لنا الرسائل المتبادلة بينهما، لما عزم باسيليوس على النسك فكرة القديسين عن الحياة الرهبانية، وتبين لنا بوضوح البعد الشاسع بينهما^(٢١). فالترينزي كان يقول بحياة رهبانية غير منفصلة تمامًا عن الأهل والعالم^(٢٢). وفعلاً محبته للأهل، والاعتناء بشيوخهم، وتكاثر الصعاب في الحياة منعت غريغوريوس عن تحقيق حلم الشباب^(٢٣). هذا عدا اختلاف الاطباع الشاسع بينهما. ويقول القديس غريغوريوس في هذا المعنى: «قابلت بين حياة الذين يخوضون معمعة الحياة، متحملين مشقاتها المتنوعة التي تعكر أحياناً صفو السلام، وبين حياة العائشين بعيداً في العالم، عاملين فقط على ذكر الله وعلى إصلاح نفوسهم بواسطة وسائل صعبة، فقررت المزج بين الحياتين، حياة الناسك وحياة الراهب الرسول»^(٢٤).

نرى الفرق في التفكير بين غريغوريوس وبين باسيليوس الذي شدد على الانفصال عن العالم. وبعد ترك صديقه له «أخذ باسيليوس يفتش عن أخ آخر، يرضى بالعزلة، ويرافقه في خوض بحر العمر الهائج»^(٢٥). وذهب ينشد ما تطمح اليه نفسه في الاملاك العائلية، في Annesi، حيث كانت تعيش قبله أمه وأخته ما كرنا فبنى ديراً، على الشاطئ الآخر من نهر ال Iris.

يصف القديس باسيليوس مكان عزلته فيقول: «أرشدني الله الى مكان يتوافق تماماً مع رغبتى الشديدة في النسك والعزلة. فهناك جبال عالية، تكسوها الاشجار المختلفة، وتشق سفوحها وأعماقها وديان متعرجة، وتنبت عند أقدامها سهول خصبة، وتنفجر منها أنهار وجداول. حتى لتبين تلك البقعة للناظر مثل جزيرة، لا تضاهيها جمالاً وروعة حتى جزيرة «كالبسو» التي تغنى بها هوميروس. وعلى مرتفع، وسط هذه الناحية تقوم صومعتي التي تشرف على كل تلك الأرجاء. يا له من منظر خلّاب اذ ترى السهل منبسّطاً أمام عينيك، والنهر يجري هادراً. وتنظر الأزهار المتنوعة، وتسمع تغريد العصافير الممتزج مع خرير الماء... لكن المهم ليس ما ذكرت، بل تلك العزلة التي أتمتع بها. ان هذه الخلوة هي بعيدة عن ضجيج العالم، لا يأتيها الزوّار إلا نادراً. يقصدها أحياناً بعض الأشخاص طلباً لصيد الوحوش البرية مثل الغزلان والماعز البرية والأرانب وغيرها».

ويتابع القديس وصف حياته في تلك العزلة فيقول : «اني أخجل من ذكر ما أقوم به ليلاً ونهاراً... صحيح اني تركت كل هموم العالم لأنها سبب شروخ كثيرة ، لكني لم أقدر أن أنجرد تماماً عن ذاتي ، وعن الهموم العائلية والخاصة... وهذا باختصار ما أقوم به : الاختلاء ، الصلاة الممتزجة مع التشيد والتسبيح ، واخيراً قراءة الكتب المقدسة والتأمل» (٢٧).

هذه الفقرة الاخيرة من رسالة القديس باسيليوس توضح الخطوط العريضة للنظام الرهباني الذي كان يدرسه القديس ويريد تحقيقه ونشره. فهناك تخطيط لتعديل مستلزمات الحياة الرهبانية التي كانت تُطلب آنئذٍ ، وطرح لكل ما يعيق نمو الانسان ولكل ما يحجز استئثار مواهبه. واذا كان باسيليوس خطط في هذا النهج لنذق قسوة الامانة ، التي رآها في مصر ، فهو بالمقابل لا يرضى بهدنة ، ولا يقبل هواده في الجهد الشخصي ، والسعي الحثيث نحو الكمال. ونرى بعض التحقيقات لذلك المشروع الجديد في الحياة المشتركة ، ودرس الكتاب المقدس ومؤلفات الآباء القديسين وفي العمل ، الذي حسب شهادة غريغوريوس التريزي لم يكن يتحقق لا في صحراء مصر ولا في مناسك سوريا وفلسطين (٢٨).

ما فكر به باسيليوس ، وما خطط له عاشه في العزلة. قال عنه أخوه : «لم يملك الراء واحداً وثوباً واحداً ، وخشبة وسجادة تفرش على الأرض للنوم. كان يأكل فقط الخبز والملح والأعشاب البرية ، ويشرب ليطفئ ظمأه الماء العذب النابع من الجبال» (٢٩) وهكذا أصبح هذا الانسان العفيف والفقير ، الناحل الجسم من الامانة ، والشاحب الوجه بسبب الصوم «والعائش دون امرأة ودون خيرات البتة ، أصبح دون لحم يغطي جسمه ودون دم يجري في عروقه» (٣٠).

٣ - مشرع أصيل

يختصر القديس غريغوريوس التريزي طريقة باسيليوس عن الحياة الرهبانية بهذه الكلمات : «ان حياة العزلة تختلف احياناً كثيرة ، وتتعاكس مع الحياة الرهبانية العاملة والرسولية. ومن الاكيد لا تخلو كل واحدة من الحسنات ومن الشوائب ايضاً. ان الأولى هي هادئة ، وادعة ، ثابتة ، تساعد النفس كثيراً على الاتحاد بالله ، لكنها لا تعصم الانسان من الكبرياء ، لأن الفضيلة عند العاملين بها لا تخضع للتجربة وللمقابلة. اما الثانية ، فهي اكثر حركة ونشاطاً ، واكثر منفعة للآخرين لكنها لا تخلو من الانشغال والانفعال. ولذلك عزم القديس باسيليوس على مزج الحياتين معاً ، وعلى جمع النساك مع الرهبان الرسل ، دون ان يضع حواجز بينها ، حتى لا تكون عند الراهب فلسفة دون

حياة مشتركة، ولا حياة رسولية وعاملة دون فلسفة، وهكذا يمكن للطريقتين اذا اقترنا معاً، ان تبادلا، مثل البحر والأرض الخير والمنفعة للوصول الى مجد الله الأعظم^(٣١). وبهذا خطّ القديس باسيليوس طريقة الفطنة والاعتدال للحياة الرهبانية، وطبعها بطابع الثقافة اليونانية، التي تراعي المبادئ، وتلتزم بالواقع الانساني. وبهذا أيضاً حافظ على أسس الحياة الرهبانية الثابتة في الانجيل، انما طرح كل إفراط وتهور في ممارسة الفقر والطاعة والتجرد والموت عن الذات.

في تلك العزلة النائية تعمق باسيليوس في درس مبادئ الحياة الرهبانية وفي البحث عن أصولها. وفي تصوّره الجديد لها، سنّ القوانين الطويلة والمختصرة، التي تتكامل وتتآلف بسبب الروح الواحدة التي تسري بين أسطرها ونشر أيضاً إرشادات للنسك، وكتب بعض أبحاث روحية وبعث برسائل كثيرة، حملت الى قارئها فكرته ونهجه. ان كل هذا يعطينا رؤية واضحة عن الحياة الرهبانية كما كانت تعيش في أديرة القديس باسيليوس. ونستدرك لنقول ان نظاماً جديداً سنّه القديس وهو حرية التصرف للرؤساء حتى يراعوا الظروف ويفطنوا للأوقات والأزمنة وليدبروا الأشخاص بحكمة وفطنة. ان المبادئ هي كما وردت في الانظمة، لكن تطبيقها يخصّ الرؤساء الذين يتمتعون بحق التغيير والتبديل^(٣٢).

الكتاب الأعظم

في البيت الوالدي حيث تربى باسيليوس على التقوى والأخلاق الجميلة، واثناء دراسته، وخصوصاً في الخلوة الطويلة التي قضّاها في البنطس، رجع مراراً وتكراراً الى الكتاب المقدس، فتأمّله طويلاً. ودرس نصوصه، واستكشف غوامضه، وبحث في مشاكله، ومن ثمّ غرف من كنوزه معرفة الله والحكمة والتبصّر في أمور الدنيا. ولذلك لا نعجب أن نرى قلمه يفيض في شرح الكتاب بعلم غزير وفهم روحي عميق، كما يبين ذلك في كتبه عن سفر التكوين، وعن سفر المزامير وعن نبوءة أشعيا وغيرها. ولا عجب ان نراه يرجع الى الكتاب، في مؤلفاته عن الحياة الرهبانية. ففي الاسئلة سواء في القوانين الطويلة او المختصرة، يحاول القديس باسيليوس الاعتماد على نصّ من الكتاب المقدس، ثم يشرحه، ويبحث مدى موافقته للحياة الرهبانية. فالكتاب المقدس هو الأساس للتشريع الرهباني عند القديس باسيليوس، وهو القاعدة الأولى للحياة الرهبانية، عليها

ترتكز سائر المصادر ، فالتقليد يثبت ، والوعظ يعتمد عليه ، والتأمل يستقي منه ، عدا انه هو الذي يرشد الضمير الى ما هو أفضل وأهم في الحياة .

لذلك حتم القديس باسيليوس في قوانينه الرهبانية على جميع السالكين في طريق الحياة الرهبانية ، قراءة الكتاب المقدس ، وخصوصاً الأناجيل ، وألزمهم بهذا الواجب منذ دخولهم سلك الكمال . فالراهب يمكنه أن يقطع من هذا الكتاب الأعظم والأجمل بين الكتب التعليم الضروري الذي يساعده على التأمل والهديد بالله وعلى السير الحثيث شطر الكمال . اما الرؤساء فليهم واجب درس الانجيل بامعان حتى يستطيعوا قيادة جماهير الرهبان أتباعهم الى مرافئ الخلاص الأمانة (٣٣) .

تساوى ، في نظر القديس باسيليوس كل أجزاء الكتاب المقدس في الأهمية والفائدة (٣٤) . لكنه يفضل ، بعد الأناجيل المقدسة وسفر الأعمال والرسائل ، كتاب المزامير على سائر كتب العهد القديم . ويقول ، في هذا الصدد : « ان المزامير تهب النفس الطمأنينة وتعطيها السلام ، وتهدئ فيها بليلة الأفكار وتراكم الشهوات ... هذا الكتاب هو كتاب المحبة ... هو سلاح ضد الشيطان ... هو سبب راحة بعد تعب النهار ... هو تعزية الشيوخ ... هو باعث افراحنا واحزاننا المقدسة ... هو نشيد رائع ، هو صوت الكنيسة ، هو بخور زكي الراحة » (٣٥) .

الطبيعة صوت لله

والطبيعة هي ايضاً سفر من أسفار الله ، يقرأ فيه الإنسان قصة الخلاص ، ويرى فيها مجموعة لوحات تخبر ، بروعة عظامها ، عن الخالق العظيم الذي صنع كل شيء بحكمة . والقديس باسيليوس تعرّف الى الطبيعة منذ حدثته فأحبها وتأمل في جماها وأخذ منها العبر . فهو لا يكف في كتاباته عن الإفصاح عن أسرارها والتحدّث عن روعتها ، كاشفاً مثلاً شيئاً عن أخلاق الحيوانات كفرزتها في معرفة الصالح لها والغير النافع ، وتآلف النحل ، وشراسة السمك وحقد الجمل . واحياناً كثيرة ، يتحدّث ، ليشير الانتباه ، وليعطي أمثلة ، عن تنفس السمك وقسمتها الى آكلة للحم وآكلة للأعشاب وعن طيران السنونو السريع . وفي نظره ، العالم كله الظاهر ، هو مرآة كمال الله ، وهو يقود الإنسان بتؤدة الى معرفة الله الغير المنظور (٣٦) .

إعرف نفسك

إن الأساس الثابت والصحيح للحياة الرهبانية هو العمل في داخل النفس . وكلمة

الكتاب : « ان جمال ابنة الملك من داخل » وكلمة الانجيل : « ان ملكوت الله في داخلكم » (٣٧) .
تعبّر ان عن الفكرة أحسن تعبير. ولهذا يشدّد القديس ، في تنظيمه للحياة الرهبانية على « افراغ الذات من الذات » أي طرح الأنانية ، والكبرياء والشهوات ونسيان الماضي وما يكون قد علق فيه من أخلاق وعادات. وللوصول الى هذا الأمر يشدّد القديس كثيراً على الانفصال عن العالم ، والذهاب بعيداً في الخلوة ، حتى لا يتمكن أحد أن يعكّر جو الاختلاء والدرس وحتى لا يتمكن أحد أن يوقف الصلاة والتأمل وسير التمارين الروحية (٣٨) .

في الحقيقة ان معرفة النفس هي علم يصعب على الإنسان اتقانه ، لأنه من طبيعته ينصبّ بكلّ قواه الى الاهتمام بأمور الغير والفحص عن عيوب وأخطاء البشر الآخرين ؛ ويهمل التبصّر بأمور نفسه والكشف عن نقائصها ورذائلها. وهذا لا يتوافق مع الحياة الرهبانية ، لذلك شدّد القديس في عظة جميلة يشرح فيها الحكمة اليونانية « اعرف نفسك » وفي قوانينه ورسائله على ضرورة عكوف الراهب على درس حالته ، وفحص مشاكله والكشف عن عيوبه حتى يصل الى الكمال الحقيقي (٣٩) .

وهذا هو الجهاد الروحي الذي تردّد الالحاح عليه ، وشرح نظامه في كتابات القديس باسيليوس عن الحياة الرهبانية ، وهذا ما يستلزمه تواجد الخير والشر في نفس الإنسان. ان طالب الحياة الرهبانية لا يمكنه ان ينتصر على الشر الذي لا يريده ، وان يحصل على الخير الذي يريده الا اذا انتظم في هذا السلك الصعب. انها مهمة صعبة جداً ، تستلزم بالحقيقة من الراهب كل يوم تضحية وموتاً ، واستشهاداً وصلباً ، وتستلزم كل يوم إحلال حب الله مكان كل حب آخر. ولا شيء ، يتابع القديس هو سهل للوصول الى الخير. فليس في النوم يسير الإنسان الى النصر ، وليس في التنعم باللذة يحصل الراهب على اكليل الظفر. ان التعب يلد المجد ، والجهاد الانتصار (٤٠) .

بين الشدة واللين

انما نرى ان هذا الجهاد الروحي يتوسط بين الشدة واللين. فالصفة التي طبعت روحانية القديس باسيليوس الرهبانية هي المرونة والاعتدال ، حتى أنّهم البعض بأنه أدخل اللين إلى كل نظام الحياة الرهبانية. إن هذا القول قد يصحّ اذا نظرنا الى ضروب الامانة الجسدية وأنواع التقشّف التي كان يعمل بها في ذلك العصر. انما نرى ، من جهة

اخرى ، ان قوانين القديس تشدد على التدقيق في العمل ، وتحرص على النظام في كل شيء ، ولا تهادن ابداً في ضرورة طرح البعثة وعشرة العالم وحب الراحة . وانه لعجيب ان نرى ان نظام الفقر والتجرد عن العالم وترك الأهل عند القديس باسيليوس يفوق بدقته وتشدده نظام القديس باخوميوس . كما ان الحياة المشتركة في أديرة القديس باخوميوس كانت تترك الراهب يتمتع بغرفة مستقلة للراحة والدرس ، بينما لا تترك مثل هذا الانعام في نظام القديس باسيليوس^(٤١) .

في درسنا للنهج الباسيلي للحياة الرهبانية نستلمح ظاهرة فريدة فيه . فالقديس الذي حاز على قسط وافر من الثقافة اليونانية ، والذي ربي في أجواء الفلسفة اليونانية ، والذي خبر اثناء ممارسته للمحاماة والتدريس حالات الانسان المختلفة ، كان يرجع دوماً الى نور العقل في تخطيطه لنظام الحياة الرهبانية . ولذلك طرح عنها كل إفراط ومغالة وظهور استثنائي . فتدخل الشيطان لا وجود له ، والمواهب الخاصة هي مواهب داخلية روحية ، والتوبة لا تسير إلا في طريق يتوافق مع الغاية التي تسعى اليها . ان العقل هو الذي يسيطر على تفكير القديس باسيليوس ، وهو الذي أوحى اليه بهذه الطريقة الجديدة^(٤٢) .

مدرسة جديدة

نؤكد بعد هذا ان القديس باسيليوس أسس مدرسة رهبانية خاصة ، رعاها بإرشاده ، وثبتها بقوانين وفرائض لا تزال مصدر وحي . وقد استفاد من تجارب من سبقه ، فعمل للتوفيق بين الطرق المختلفة ولتوحيدها في نظام جديد . وهكذا أصبح السلوك الى القداسة علم له أصول ثابتة وعامة ، انما يمكن ان تتوافق مع الحالات الخاصة . ولسبب هذا الانجاز الفريد استحق القديس باسيليوس لقب معلم الحياة الرهبانية ، فقد أسس مدرسة ، وجروءاءه جمهرة من المعلمين الروحانيين عملوا ليس فقط لارشاد اخوانهم الى الحياة الرهبانية ، بل على تأسيس وتركيز أسس ثابتة لنهج رهباني جديد ، وفريد هو نهج القديس باسيليوس الكبير .

معلم اجتماعي

ثم ماشى القديس الفلسفة اليونانية التي اعتنقت مبدأ أرسطو شيخ فلاسفتها بأن الإنسان هو كائن اجتماعي ، فطبع الحياة الرهبانية بالطابع الاجتماعي . ان حياة الإنسان

تتمحور كلها في هذا الإطار، ومنه تأخذ أبعادها، وفيه تتبلور كل القيم وتتصقّى. والقداسة أيضاً، مهما كان نوعها وأسلوبها، ومهما كان تابعها، لا تنمو، ولا تزهر إلا إذا ترعرعت وتفاعلت في الإطار الاجتماعي. ولهذا يشدّد القديس على ضرورة الالتصاق بالكنيسة المجتمع الكبير، وعلى العيشة في الدير المجتمع الصغير بالنسبة للراهب، والعمل ضمن إطارهما. فهما المجتمعان اللذان فيهما يستطيع الراهب ان يستثمر المواهب الخاصة التي أغدقها الله عليه فيصل هو، ويصل معه، وبواسطة هذه المواهب الشخصية غيره كثيرون الى الكمال. ان القديس باسيليوس يرى انه بدون هذا الطابع الاجتماعي، قد تفسد الحياة الرهبانية وتتعلّط، وبدونه ايضاً لا تقدر الكنيسة ولا الجماعات الرهبانية ان تثمر ثماراً روحية نافعة للراهب وللجاعة أيضاً.

في خدمة المجتمع

وقد حقّق القديس باسيليوس هذا الهدف الاجتماعي في النظام الذي سنّه للحياة الرهبانية. فأثناء تجواله في براري مصر وسوريا وفلسطين، وتعرّفه على أئمة الحياة الرهبانية رأى نساءً كثيرين، قد انقطعوا تماماً عن العالم، ليعيشوا في الزهد والخلوة والتقشّف والوحدة الكاملة مع الله. ورأى أديرة كبيرة عامرة بالرهبان الذين يعيشون في الفقر والطاعة لرئيس يسترشدونه ويعملون حسب أوامره في الصلاة والعمل. وفي المقابلة بين الطريقتين فقه معلم كبادوكيا الخطأ، وفهم الخطر في الحالتين، فأراد المزج بينهما، فتعادل القيم، وتستكمل المواهب. ان الحياة النسكية المنفردة تعرّض الإنسان للكبرياء والغرور، وتبعده عن العيشة مع الآخرين الذين قد يفيدونه بأمثلتهم الفاضلة ونصائحهم الرشيدة. وكذلك الحياة الرهبانية المشتركة، خصوصاً في الاديوار المصرية كانت كثيرة الضجيج، ومختلفة الفئات. فالضوضاء كانت ترتفع من آلات الصناعات الكثيرة ومعها صخب الجماعات، فكانت تعكّر صفو الوحدة مع الله وتمنع عن الصلاة الهادئة، وتسبّب البعثة. ولهذا صمّم القديس على استنباط طريقة تجمع بين الجماعات الكبيرة والمناسك الصغيرة، وبين حياة تأملية واختلاء وبين حياة عاملة ناشطة^(٤٣).

ان الأديار التي أسّسها القديس باسيليوس في حياته جسّدت هذه النظرية الاجتماعية. فهي صغيرة الحجم، قليلة السكان. ولأنها كذلك يستطيع الرئيس ان يراقب حياة مرؤوسيه عن كثب، فيؤيخ او ينصح، يثير الحماس او يخفف منه، لأنه على اطلاع على

حالة كل راهب من رهبانه. وفي هذه الأديار الصغيرة أيضاً، يكون العمل بسيطاً فلا يشطّ عن غايته، ولا يبتعد عن هدفه فيصبح سبيلاً للتجارة والكسب. وقد نظّم القديس العمل، فحتم أن تتخلله الصلوات خمس مرات في النهار، وأن يستهدف حاجة الدير والرهبان محدّراً من أن لا تمارس الآ المهنة التي تتوافق مع غاية الحياة الرهبانية الأساسية.

إن السبب الذي حمل القديس على تفضيل الحياة المشتركة على الحياة النسكية المتوحّدة شرحه هو نفسه فقال: «إن الحياة المتوحّدة تهدف إلى فائدة الشخص. وهي لا تفسح المجال لممارسة المحبة وتجسيدها بأعمال مفيدة للقريب؛ وأيضاً لا تفسح مجالاً للفرح مع الفرحين والبكاء مع الباكين، وبهذا تتعطل فضائل كثيرة كان بالإمكان ممارستها. إن المسيح غسل أرجل التلاميذ، وأنت يا من يعيش وحده في النسك، أرجل من تغسل يا ترى؟ لمن تقدّم خدمة ونصحاً؟ من تجعله يتقدّم عليك باختيارك حسب القول السيدي. كيف، يمكنك أن تمارس التواضع، وانت تفتقد الناس فلا ترى أحداً؛ إلى من تحسن وانت تعيش في عزلة، كيف تصبر وإرادتك هي الحاكمة؟ إن صاحب المزامير هتف ما ألدّ وما أجمل أن يعيش الإخوة معاً، فبدل هذا على أن الكتاب المقدس، في عهديه القديم والجديد، يحبّ العيشة المشتركة ويفضّلها على العيشة التوحّدية» (٤٤).

إن هذه النظرة الخاصة إلى الحياة الرهبانية طبعت الأديار الباسيلية بطابع خاص إذ جعلها بيوتاً للصلاة والعيشة مع الله ومدارس أيضاً يؤمّها الطلاب من كل حذبٍ وصوب، ليس فقط للانخراط في سلك الحياة الرهبانية، بل لنهل العلوم البشرية من معين صفا منهله وعذب جدوله. ولا عجب في ذلك، فقد كانت الوثنية مسيطرة على المجتمع في ذلك العصر، والتيارات الفكرية والدينية تتصارع في حرب ضروس تاركة وراءها اليأس في النفوس والتفكّك الأخلاقي واللامبالاة. فإزاء هذه الحالة البائسة رغب كثير من الأهل في إرسال أولادهم إلى الأديار الباسيلية قصد التدريب والثقّف، إذ أن المدارس الداخلية لم تكن معروفة بعد. خصوصاً أن الأهل رأوا رهباناً كثيرين كانوا قبل دخولهم الأديار اساتذة مشهورين ورجالاً مثقفين، ورأوا أن الجو الذي يسود تلك المناظر الرهبانية كان جوّ نظام وخلوة يساعد على الدرس والبحث (٤٥).

للبلوغ إلى هذه الغاية سنّ القديس باسيليوس أنظمة خاصة تتوافق مع هذه الفئة الطالبة للعلم. فأمر بأن تفرز للطلاب أمكنة خاصة ينمون فيها ويدرسون، بعيدين عن سائر الرهبان، وأمر بأن لا يشتركوا إلا في بعض الصلوات للتفرّغ للدرس والمطالعة. وفرض أيضاً أن يأكلوا أطعمة خاصة تتوافق مع أعمارهم وأمزجتهم. أنه لا يغفل عن

شيء، ينظم حتى القصاص، فيأمر أن يكون لطيفاً عاملاً للإصلاح وليس سبباً للثورة والحق. ان تربية هذه الفئة يقول القديس «يجب ان تكون لطيفة، خفيفة الوطأة، تساعد على البلوغ الى الهدف بطمأنينة وسلام»^(٤٦).

٤ - رؤية القديس باسيليوس الرهبانية

ان القديس باسيليوس في تخطيطه للحياة الرهبانية، التي أراد بعث روح جديدة فيها، ودقق الاصلاح الضروري في بعض أنظمتها يتبع نهجاً فلسفياً، متدرجاً، يستوحيه من تفهمه الصحيح لحالة الانسان ومن معرفته لطرق الحياة الرهبانية المختلفة، ومن تعمقه في درس أساليب الفلسفة اليونانية ليضع خطة عريضة متكاملة للحياة الرهبانية. وهي في نظره تتويج لحياة مسيحية، ولرغبة ملحة عند الإنسان للاتحاد بالله عز وجل. فليست هي طفرة عابرة، وليست هي نداء عارضاً، بل هي اختيار منطقي، توصل اليه الانسان بعد ان تفهم حسناً جمال الحياة الرهبانية، وعرف ميزاتها الأساسية ورأى سموها على حياة الكمال الاعتيادية. ان الراغب في الحياة الرهبانية انما هو فيلسوف باحث، ومكتشف أصيل لنداء الرب، وليس هو انسان تعرض لحماس، او خضع لتأثير حادث أو أي عامل خارجي^(٤٧).

نحو الخير الأسمى

نوجز الكلام عن طريقة القديس باسيليوس الرهبانية. ان الإنسان، الذي خلق على صورة الله ومثاله يلتم بالسعي الى الله التزاماً عاماً ثابتاً لأن الله هو الخير الذي يفوق كل خير، وكل الخيرات سواء انما هي زائلة وباطلة. فاللذة الجسدية تعاني التعب مع الاستمتاع بالإرتياح، والزواج يتعرض لشرّ العقم والترمّل والزنى، والزراعة قد يضرّها حصول مواسم سيئة، والتجارة يصيبها أحياناً التلف والغرق والخسارة والضيايع. كما ان الغنى هو نصيب يحوك حوله الناس الشرور والأحاييل، وبمحوجة الإنسان وراحته ورفاهيته يتعرض أيضاً كل يوم للمرض والعذاب. فلا خير إذن إلا واحد وهو الله، الذي وحده أيضاً يجلب للإنسان السعادة، ويعطيه السلام والاستقرار والاطمئنان^(٤٨).

ان الخير هو هدف سامٍ انما هيئات أن يبلغ إليه الإنسان بسهولة. فلا بدّ له من جهاد مستمر، ومن تعب مذيب، ولا بدّ له خصوصاً من استثمار كل ما حبا الله الإنسان من

ملكات ومقومات ومؤهلات حتى يصل الى الهدف المنشود. انما الله قد زرع منائر كثيرة تنير الطريق ، فالعقل يبين له الأصول والمؤشرات الضرورية لكي لا يقع في الضلال ، ولا يته في الغرور ، وخصوصاً ، لكي لا يفقد إرشاد البوصلة التي تدله على الله ؛ ثم وهب الإرادة ، وهي ملكة لا تني من شدّة عزيمة الانسان وشحذ همته وحمله على مغالبة العقبات الكأداء التي تعترض مسيرته ، وتثبّط همته ؛ وأخيراً يظهر الضمير مرشداً أميناً . وصالحاً يدلّ الإنسان بغريزة وبغفوية على الخير ليعمل به ، وعلى الشر ليحذر منه . ان الله لم يترك الإنسان وحيداً في المسيرة ، فقد وهبه كثيراً من الوزنات ، ووثق به وبقدرته على السير قدماً اليه (٤٩) .

عقبات كأداء

انماكم تعترض الإنسان من عقبات تقف حاجزاً يسدّ طريقه الى الخير ، وتحجز حريته وتمنعه من متابعة المسيرة للوصول الى الهدف . ان الخطيئة ترهق كاهله وترهق روحه ، وتضعه ، كأنما في بحر لا ركود فيه ولا سكون اذ هو كثير الموج ، عاني المد والجزر ، شديد النوء والعواصف والأعاصير . من فرط التعب يصرخ الإنسان مراراً مع الرسل : « قد تعبنا » ، و« من ينقذني من جسد الموت هذا » الذي هو الخطيئة . انه لنير ثقيل نير الخطيئة الذي وضع في عنق الانسان منذ خطيئة آدم الأب الأول . ويعقب الخطيئة لطمات متلاحقة من الشهوات ، وهي تصرع الانسان بأزماتها وتطرّحه على الأرض تحت وطأة كابوسها . فالإنسان ليس هو عقل ونفس فقط ، بل هو جسد وقلب يموج بالعاطفة ، ويحفل بالشهوات ويستعر لهيب الحماس فيه بنظرة عابرة واحتكاك سريع . وكم يترتب على الإنسان للحفاظ على التوازن ، وللسيطرة على العاطفة المتأججة ، وللتغلب على « شهوة الجسد والعين وفخر الحياة » من جهاد لا يهدأ ابداً ولا يتوقف حتى تتوقف آخر دقائق الحياة في جسم الإنسان على الأرض . ان الإنسان ، في هذا الجهاد ضد الشهوة يشبه الجندي الشاكي السلاح ، والحارس الأمين ، الساهر في كل لحظة وساعة الملتزم ان يشهر سلاحه ضد كل عدو ، خاصة العدو الزاحف في داخل البيت . وتتراكم فوق هذه العقبات هموم الحياة والصعاب والآلام ، وهي لا تفارق الانسان منذ مولده حتى موته ، تضربه احياناً مثل أيوب في جسده ، ومراراً في قلبه ، وخصوصاً في نفسه . فالإنسان ، هو كثير الجهاد ، كثير الاحزان . فكيف مع الخطيئة ، والشهوة والعذاب ، وخصوصاً مع الموت يمكن للإنسان أن يصل الى الخير الذي هو الله (٥٠) .

يد الله المنقذة

في هذه المعركة الحامية الوطيس ، وفي هذا الجهاد المستمر كل يوم للوصول الى الخير يلتزم الإنسان بطرق كل الأبواب وتجربة كل الوسائل التي تساعد على كبح هياج الشر فيه . فلا بد له أولاً من التحديق الى السماء ، والطلب من الله ، فان عنده كل عطية صالحة ، وكل موهبة مفيدة لهذه الحياة . ثم لا بد حسب القديس من معرفة عميقة للنفس والاطلاع على مواطن الضعف فيها واستكشاف المواهب التي بثها الله في الإنسان . فهذه المعرفة هي رأس الحكمة ، وهي الأساس الذي يقوم عليه كل بناء الحياة الروحية والرهبانية . ثم بعد هذا التزول الى الاعماق يبدأ الانسان باستئصال بذور الشر وجذور الخطيئة فيه ، واصلاح ما فيه من خطأ وضعف ووهن . وفي النهاية يصل الإنسان الى مرحلة يلتزم فيها بممارسة العمل الصالح ، ليكون إيجابياً في نهج العمل . وفي هذا المعنى نقرأ كلاماً جميلاً للقديس : « ان الذي خطأ في جسده يلتزم باستعمال الجسد في التعويض والتكفير . انك جدفت ، فعليك ان تسبح الله بفمك ؛ انك قد سرت فعليك ان تعوض بالحسنة ، انك قد شربت المسكر فعليك ان تصوم ؛ انك تكبرت فعليك ان تتواضع ، انك حسدت الغير ، فعليك ان تصلي من أجل من حسدته ؛ انك قتلت ربما ، فعليك ان تتحمل ألم الاستشهاد ، وان ترهق جسدك بالامانة »^(٥١) . ان الإنسان في سعيه الى الخير يتعرض مراراً لخطر الفشل والسأم والنكوص فعليه ان يتسلح بالنعمة ، وان يشد حقويه بالصبر ، ويستمر مصلياً كل حين ، ومتأملاً في مراحم الرب وجزيل احساناته ، وبالوقت نفسه ناظراً الى نفسه ، فهو كثير الزلل كثير الضعف^(٥٢) .

على مفترق الطريق

بعد هذه المرحلة التي سلكها الإنسان للوصول الى الكمال ، يصل الى مفترق طريقين . فهو إما أن يتابع المسيرة في العالم الحافل بالخير والشر معاً فيقوم بكل واجباته المسيحية ، ويلتزم بالمثل العليا التي طلبها الانجيل من كل انسان يريد ان يوثق علاقته بالله ، واما ان يذهب بعيداً فيسلك طريقاً آخر للكمال . وذلك الاختيار هو جواب لداء من السماء تردّد مع ظهور علامات أزمنة خاصة وعامة ، وهو جواب لدعوة خاصة اكتشفت بعد الدرس والبحث وبعد مراجعة رصينة لتطلّبات إله لن يرحم ولن يشفق ولن يتوقّف عن الطلب . وهو اختيار صعب لأنه يستلزم من الانسان كرمًا لا حد له وعطاء وبدلاً يصل احياناً الى التضحية بطاقات طبيعية هائلة ، حسنة وخيرة ، زرعهها الله في نفس الانسان ليبلغ به الى

السعادة والى التنمية الانسانية المتكاملة. ان هذا الاختيار يبين للقديس انه صعود الى القمم ، وتسلق لجبال وعرة ، انما احياناً كثيرة ، التأمل في القمم هو مفيد حتى لأولئك الذين لم يدعوا الى السير في مسالك الجبال وشائك طرق الوديان.

يصف القديس باسيليوس هذه الوقفة أمام الطريقين. فيقول «ان كلمة المسيح تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم». (متى ١١/٢٨) انما هي دعوة لترك الغنى والخطيئة والسلوك في طريق الحياة الرهبانية. ان من يلبي هذه الدعوة السيدية يستحق لعمرى كل إعجاب واحترام.. لكن لا بدّ من التبصّر للعواقب ، فالحياة الرهبانية ليست سهلة. فقد يدرك الانسان ، في رحلته فيها الخور والسأم فترتدّ الى الوراء... ان الله بسط للبشر طريق الزواج وطريق البتولية.. انك انت يا من يحبّ المثل العليا ويرغب في العيشة كالملائكة ويريد ان يكون رفيق القديسين وواحدًا من تلاميذ المخلص ، لا تخف.. ادخل الحياة الرهبانية بشجاعة وفرح. منذ البدء تبصّر حتى لا تستهيك محبة الأهل ، ولا تألق المال ولا غرور المجد.. اعلم انك تبدّل الخيرات المادية بخيرات لا تزول. لا تجزع من ترك الاحباء والاصدقاء. انك ستنال الله عوضاً عن كل شيء...»^(٥٣).

المرشد الفطن

لكن من يعصم الإنسان من الوقوع في الضلال والوهم ومن يقيه من الشطط ، وقد سلك طريق الحياة الرهبانية. لا بدّ في نظام القديس باسيليوس من مرشد فطن يدأب في السهر على حياة الطالب ، وينصحه في الصعاب ويراقبه لئلا يقع في الهوس والغرور ، ويحثّ خطواته للسير بثبات ، ودون ملل او فتور. ان هذه الطريقة عملت بها كل انظمة الحياة الرهبانية الشرقية ، وحتى في الأديار والمناسك المنفردة. فقد شاع مثلاً ان يسكن طالب الحياة الرهبانية الجديد قرب معلم خبير ومرشد فطن. وقد أبقي القديس باسيليوس هذا النظام انما جدّده وثبته بسنّ قوانين تخصّ المرشد والمسترشد. ويبين لدى قراءة بنودها ان القديس يحرص أشد الحرص حتى لا يقع الطالب ، وخاصة الشاب في الوهم والغرور والكبرياء ، ولا يقع في الجهل خصوصاً. فيحتم في كل قوانينه التي تخص الحياة الرهبانية على ضرورة التفطيش عن معلم روحي ، والخضوع له في كل شاردة وواردة ، فان الكتاب قال : «الويل للوحيد فان سقط فن ينهضه». (جا ١٢/٤)^(٥٤).

الحماس

ثم يشترط القديس في من يطلب الحياة الرهبانية الحماس. وفي الحقيقة لا يختار هذه

الطريقة الصعبة من لم يتسرّب الى قلبه الإنجذاب الى المسيح ، ومن لم يُخطف بعشقه ، ومن لم يضطرب قلبه ، مثل تلميذي عمواس لدى رؤية يسوع وعند سماع كلامه . ان كلمات القديس بولس ترنّ في أذن كل طالب للحياة الرهبانية «من يفصلني عن محبة المسيح» . بالأکید لا شيء . لأن الراهب الذي وضع يده على المحراث ، وسار في طريق الرب لن يلتفت الى الورا . فاللهيب متأجج السعير في قلبه يحثّه بأنّات لا توصف ، وتثير مخيلته ، وتشدّ عزيمته ، وحتى تحثّ جسده ، فتدفع به احياناً الى الاستشهاد اليومي والى الموت مع المسيح . ان محبة الله رسخت فيه فأراد ان يصل سريعاً الى من رضي به معلماً وقائداً وحبياً ورباً .

العزلة والصمت

ثم يسير القديس باسيليوس رويداً رويداً بطالب الحياة الرهبانية فيدخله بادئ ذي بدء في الجوّ الذي يجب أن يسيطر على الحياة الرهبانية . فيلزمه بالاختلاء والصمت والابتعاد عن العالم . ألم يعلم الكتاب المقدّس هذا التعليم . ألم يسلك المسيح ، في حياته على الأرض هذا السبيل ، فكان يذهب الى البراري ليصلي وليعتصم بالوحدة مع الله أبيه . ولماذا يا ترى هرب النساك الأولون الى الصحاري البعيدة والقاحلة . أليس طلباً للصمت وسعياً وراء الاختلاء . والقديس باسيليوس رغم انه من دعاة الحياة المشتركة ، لا يني من التشديد على الصمت وعلى الالتزام بالخلوة والهدوء . فهذا هو الشرط الذي بدونه لا تستقيم الحياة الرهبانية ، اذ كيف يمكن للراهب ان يصلي مراراً في النهار ، وان يدرس ويطلع الكتاب المقدّس وان يعكف على اكتشاف نفسه اذا كانت الضوضاء تملأ نفسه ، وتملاً ارجاء الدير (٥٥) .

ان الصمت الذي يريده القديس باسيليوس ليس الصمت الخارجي فقط بل الصمت الداخلي . ان الكلام احياناً هو ضروري ونافع عندما يتم كما يجب وحيث يجب ومتى يجب . لكن مع هذا ، من الضروري للممة النفس لحواسها وأمورها ، وطرح كل الهموم الدنيوية ، والبعد عن الارتباك والانشغال والتحور في محور واحد هو محور الذات والله . حتى في الاديار ، يقول القديس لا بدّ من صمت خارجي مع الصمت الداخلي ، فالقديس يمنع كل عمل يسبّب الضجيج ، ويمنع كل عمل يستلزم السفر والخروج مراراً من الدير قصد بيع المتوج وتصريف الأشغال . وحتى يلزم بأن لا تتقدّم أعمال الغيرة على

الاختلاء، وبأن تكون تربية طلاب الحياة الرهبانية في الأديار في أمكنة خاصة حتى لا ينشئت الرهبان المصلّون والمتعبّدون القدامى. المهمّ في نظر المعلم هو طرح البعثة، والبعد عن الطيش والعمل بهدوء للوصول الى الله. لا يمكن، يقول القديس ان نتمّ الوصايا، ووصية محبة الله خاصة طالما افكارنا تسوح في كل مكان وطالما تراودنا الهوموم العالمية^(٥٦). لا بدّ من حراسة الحواس فهي الباب الذي يدخل منه العالم والشيطان الى النفس فيلبلان الأفكار ويزرعان الارتباك. لا بدّ من صمت يضفي على النفس، وحتى على الجسد الطمأنينة والسكون، فستطيع النفس، وقد خفّ الضجيج حولها، وسكتت الأصوات المقلقة ان ترتاح مع المسيح، وتطمئنّ في الصلاة وتذهب بعيداً في الوحدة مع الله، فتكلّمه وجهاً الى وجه، وتحادثه وتناجيه. وهذا هو الهدف الذي يريد القديس أن يبلغ اليه من وراء التشديد على قانون الصمت والاختلاء^(٥٧).

لا بدّ من تجرّد وامانة

وحيث يدخل الطالب الحياة الرهبانية عليه ان لا يضع رجله في الوهم، ولا يذهب في متاهة الجهل. فلا يمكن السلوك في هذه الطريقة الفاضلة إلا حين يلفّ الإنسان نفسه وجسده بالتجرّد. وبالحقيقة ماذا يعني الاعتزال والانفصال، وماذا يعني هذا الخروج من العالم والعبور الى الدير، اذا كان الراهب لا يزال يعيش بفكره وقلبه ومخيلته خارج الدير. ان الأسوار مهما كانت حصينة وعالية لن تمنع الشيطان وأطيايف الأهل والاصدقاء والأحباء من الدخول الى النفس، ولن تمنعها من أن تصول وتجول مذكرة بالحياة العالمية وما فيها من مغريات. وكذلك النظم مهما كانت قاسية لن تُسكت أصوات الشهوة ورغبة التملّك وحب اللذة. ولا شيء يمكن ان يمنع الراهب من أن يعيش عيشتين، ويسلك في طريقين، وهو داخل حصن الدير المنيع. لكن هل بالإمكان، وهل يجوز الاستمرار في هذه الحالة، وهل هذا هو ما طلبه الراهب لما دقّ أبواب الدير طالباً الدخول في سلك الحياة الرهبانية. لا. «فاما ان الله هو الإله فاعبدوه، واما ان بليعال هو الله فاتبعوه». لا يمكن التراجع طويلاً، ولا يمكن التعرّج على الجانبين. فهذا خداع ورناء وغش. ومن يغش الله يعاقب أشد العقاب.

إذن على الراهب ان يتجرّد عن كل شيء. هذا هو الأساس في الحياة الرهبانية عند القديس باسيليوس. لا يخطر على بال القديس ان يطلب الانسان الانخراط في السلك

المقدّس وهو يجهل معاني التجرّد العميقة. ان التجرّد يعني في النظام الباسيلي نسيان الذات وإهمال كل شيء يعيق العلاقة مع الله. «لا تهتم بقول القديس لا بالغنى، ولا بالفنون، ولا بالجسد، ولا بالصحة، ولا بالجمال ولا باللذة. ولا بالعيش الطويل الهنيء، ولا يشغل بالك المجد والعظمة والسلطان، ولا ترتبك ببجوحة العيش وبسطة الحياة. اهتمّ قبل كل شيء بأمر نفسك»^(٥٨). ان هذا هو الواجب الأساسي لأن الراهب صمّم أن ينسخ صورة الله البهيّة في ذاته، وان يكون كاملاً على مثال الله الذي قال: «كونوا كاملين كما ان أباكم السماوي هو كامل». فيقتضي ذلك منه التطلّع باستمرار الى المثال الرائع، والعمل على حذف الشوائب، وإصلاح النواقص، وإكمال الخطوط حتى يتشابه الرسم مع المثال. ان الفنان والنحات والمصوّر يقضون الأيام الطويلة حتى ينسخوا الصورة، فكم من الوقت يلزم لنسخ صورة الله في نفس الراهب، وكم يتطلّب ذلك من سهر وجهه، والا اختلطت الألوان، وضاع التناسق وأصبحت الصورة مشوّهة ممسوخة لا تعطي الآ بعض الأنوار الباهتة التي تحكي عن الله^(٥٩).

ان غاية التجرّد حسب تعليم القديس الكبادوكي هي إصلاح الطبيعة التي فسدت، وإرجاعها الى حالتها الأولى. كم كانت جميلة تلك الطبيعة لما خرجت من يد الله الذي رأى ان كل شيء هو حسن. كان آدم يعيش في الأعالي بفكره، وكان يعيش في محبة فائقة للإله الذي خلقه ووهبه حياة لا نهاية ومتّعة بنعيم الفردوس. كان له قوة روحية تشبه قوة الملائكة، وقد خادن رؤساء الملائكة، ومثلهم كان يسمع الله. لكن آدم لم يحافظ على نقاء هذه الطبيعة وعلى جمالها بسبب اغواء المرأة وتجربة الشيطان فسقط من الأعالي وفسدت طبيعته بالخطيئة والجهل والشهوة والموت. لكن هل كتب على الانسان ان يعيش في الدلّ بسبب هذه السقطة. الا يستطيع الإنسان الحصول على الحظّ الأول الشهوي وعلى الجمال القديم البهي. ان المسيح أعطى كل انسان وخصوصاً الراهب القدرة على الرجوع الى المثال الأول الذي كان يشبه صورة الله بالتمام. ولذلك يلتزم الراهب بقتل الخطيئة المعشّية فيه وواد الشهوة التي يتأجّج سعيها في جسده. وهذا هو التجرّد، وهذه هي الامانة، التي بهما يقطع الراهب العلاقات المشبّوهة ويترك الاشياء حتى الحسنة التي لا تتوافق مع حياته مع الله. ان غاية التجرّد ليس الموت بل التحرّر، وغاية التجرّد ليس قتل ما فينا من أميال وشهوات وملكات بل تحريرها بواسطة الامانة والسهر من كل عائق يمنع مسيرتها نحو الله. ان التجرّد يعطي الراهب الطمأنينة، فلا تعود تراود فكره هموم ولا تعود

تطوف في مخيلته صور قديمة ، ولا يعود قلبه يستعذب الحياة الماضية في العالم ، بل يكون حرّاً ، مستقلاً منقطعاً الى الصلاة والعيش مع الله بمحبة^(٦٠) .

ان النفس هي خالدة يقول القديس باسيليوس ، اما الجسد فهو زائل . ان حياة الجسد لا تهم كثيراً كحياة النفس . ان النفس هي عاقلة ، اما الجسد فلا عقل له ، وهو يخضع لسلطان الشهوات . فلا بد لاستتباب النظام في الانسان من ان يكون العقل هو الحاكم على الشهوات^(٦١) . هذا هو الخطّ الباسيلي . وهو يستلزم الصوم لأنه أوقف لهيب النار المتأجج وكم أفواه الأسد الضارية . وهو يرفع النفس الى السماء كأنما على أجنحة ، وهو جمال الشيوخ ومربي الشباب ورفيق المسافر^(٦٢) . وعدا ذلك هو يستلزم السهر الطويل ، والطاعة للغير والصمت والتسبيح دون انقطاع والعكوف على الصلاة والبكاء بدموع غزيرة والشغل اليدوي واحتمال المكاره والصبر على الصعاب^(٦٣) . وبهذا النهج من الامانة يبتعد القديس كثيراً عن نظم الحياة الرهبانية المتبعة في مصر وسوريا وفلسطين والتي فرضت إمامات مرهقة وشاقة لا يستطيع كل انسان العمل بها واحتمال مشقتها . ويزيد القديس على لائحة الامانة العيشة المشتركة التي تطلب من الذي يسير في نظامها الالتزام بالخير العام وتفضيله على الخير الخاص وتقبل الانظمة مهما كانت والتكيف حتى في العبادة^(٦٤) . ان الامانة ترمي خصوصاً في نظام القديس باسيليوس الى استئصال الرذائل كالشراسة والكبرياء والحسد والبخل والغضب وغيرها^(٦٥) ومحاربة الأميال الفاسدة بعد اكتشافها وخاصة الشهوة وحب العالم . لكن ليس هذا هو المهم في نظر المعلم ، انه يريد ان يصل بعد هذا الى تثبيت نظام الامانة الداخلية الذي به يتحكّم الراهب بما يفور فيه في الداخل من شهوات ، ويسكن الأصوات الداعية الى اللهو والعشرة الفاسدة والراحة والتلذذ لما تطلبه الأنانية المقيمة . وهو يرمي ايضاً ان يستتب الإنسان في السلام والطمأنينة ويتحرر من كل السلاسل لينصرف الى التعبّد لله والعمل في سبيل الكمال . وهكذا الراهب في هذا النظام لا يعود يستعمل الآما هو ضروري ولا يعود يقبل بسهولة الآ بالضرورات الطبيعية الملحة ، ولا يعود يرضى ان يصرف الوقت الآ في الحاجات الضرورية . انه متجرد عن كل شيء حتى عن الأمور الجسدية لكي يتفرغ كلياً لله وحده^(٦٦) .

العمل الضروري

يدخل في نظام الامانة العمل . والقديس يستند على كلمة السيّد له المجد : « ان العامل مستحق أجرته » (متى ١٠: ١٠) حتى يحثّ الرهبان على العمل ، وحتى يجعل العمل في صلب الحياة الرهبانية . ان الحياة الرهبانية ليست مجالاً للكسل والتقاعدس وليست هروباً من مسؤولية العمل التي أمر الرب بها لما قال : « بعرق جبينك تأكل خبزك » . (تكوين ١٩: ٣) هي سبب نشاط وشغل . لكن القديس يحذّر بأن ليس كل عمل يتوافق مع الحياة الرهبانية . لا بدّ للعمل ان يساعد في حفظ السلام في الدير وان يعزّز جو الهدوء ، ولا بدّ ايضاً من الابتعاد عن كل عمل يشغل البال كثيراً ، ويسلّتم جهداً كبيراً للحصول على المواد الاولية وعلى تصريف النتيجة والمحصول . ثم يحذّر في العمل من اختلاط الجنسيتين . كل شيء نظمه القديس في مجال العمل ، فالراهب يُعطى العمل الذي يتوافق مع مؤهلاته ، وليس ما يطلبه هو ؛ والراهب يلتزم ان يعمل بنشاط وحرارة . وكل واحد يعمل لكمال الجماعة ، كما تعمل الاعضاء لكمال الجسد . « فالعين تراقب مصالح الدير وتسهر على اشغاله ، وهكذا البعض من الرهبان . والبعض الآخر هو مثل الأذن ، يسمعون الشكوى وأنين العذاب فيعملون كاليد لدرء الشرور . وهكذا كل واحد ، يكون في مقامه ، والآ اختلّ التوازن ، وعمّت الفوضى ... » (٦٦) .

صلّوا ولا تملّوا

يصل القديس ، بعد معركة التحرير هذه الى الطلب من الراهب بالقيام بالصلاة . ويا ترى كيف يمكن ان يعيش الراهب دون صلاة . ولماذا هو راهب يا ترى اذا كان لا يصلي . إن أول واجب للراهب حسب تعليم معلم الكبادوك ان يوثّق العروة مع الله الذي من أجله ترك كل شيء ليكون في وحدة كاملة معه . وقد شرح القديس الصلاة ، وبسط انواعها المختلفة وطريقة تلاوتها وأوقاتها . وقد يتطلّب الخوض في هذا المضمار كلاماً كثيراً فنختصره بهذا النص الباسيلي : « لا بدّ من الصلاة صباحاً حتى توجّه افكار القلب والنفس ، قبل كل شيء الى الله ، وحتى تتوج اعمال النهار بها ، وحتى لا يبدأ الجسد بالعمل الا بعد تسييح الرب ... وفي الساعة الثالثة نهض للصلاة مع الاخوة رغم ان ذلك يسبّب انقطاعاً عن العمل . فنذكر أنّنا نزول الروح القدس في مثل تلك الساعة ... وفي الساعة السادسة نشبه بالقديسين الذين قالوا « في المساء وبالغداة ونصف النهار أصلي ... » (مزمو ١٨/٥٤) وبحسن حينئذ تلاوة المزمور التسعين لكي نسأل الرب النجاة من حيل الشيطان ... وفي الساعة التاسعة نصلي حتى نشبه بالرسل (اعمال ٣/٣)

وفي المساء نعود لنشكر الله على إحساناته وعلى العمل الصالح الذي قننا به أثناء النهار، ولنستغفره عن خطايانا... في مبادئ الليل نصلي لأجل الاستمتاع بالراحة والنجاة من الخطيئة، ويحسن وقتئذٍ ان نتلو المزمور الاربعين.. وقبل بزوغ الفجر نسرع الى تمجيد الله هاربين من النوم. لا يمكن ان يهمل جزء من هذه الفروض.. عدا ان تنوع الصلاة هو حسن واختلاف الاناشيد وتعاقبها يحرق من السأم والملل...» (٦٧).

لكن من يصلي عليه ان يصلي حسناً. فكيف ترتفع الايدي الى الله وهي ملطخة بدم القريب الذي نبغضه ونحسده، وكيف نصلي الى الرب ونحن بعيدون عن تتمم وصاياه. ان الصلاة تستلزم عند الراهب نقاوة القلب، اي ان يكون منعقداً من كل أسر، وحرراً الضمير ومتحرراً من كل غاية او مصلحة شخصية، فترتفع حينئذٍ صلاته كالبخور، وتعمل عملها القوي لدى الرب. ولا بد من ثقة في الصلاة، لأن الله لن يستجيب لمن لا يؤمن بقدرته على نقل الجبال واطعام العصافير والاهتمام بجيوش النحل والنمل. اما الشرط الأخير للصلاة فهو الفرح. «اعبدوا الرب بالفرح» يقول صاحب المزامير. لا تذهب الى الصلاة يوصي القديس الراهب تحت ضغط او عن اكراه، فالصلاة هذه لا تنفع، بل تضر النفس وتجلب الدينونة. ثم ان القديس يشدد على الصلاة اللفظية كتلاوة المزامير والترنيم والتسبيح، انما يشدد اكثر على الصلاة العقلية. يريد القديس ان يصل بالراهب الى رؤية الله، والى الوحدة معه. حينئذٍ تصبح حياة الراهب رغم انه يتخللها العمل والشغل مظلمة بروح الله، يرف عليها في كل دقيقة وساعة، وحينئذٍ تصبح الصلاة هواء يستنشقه وطعاماً يغذيه ويحييه (٦٨).

أحب الله واعمل ما تريد

اساس الحياة الرهبانية ورباطها ومحورها وتاجها انما هي محبة الله. وهي المحرك والدافع لها. فما الذي حمل الراهب الى ترك كل شيء. أليس لأنه سمع نداء المحبة. ان هذه المحبة يجب ان تغلغل في كل حياة الراهب والافسدت الحياة الرهبانية وضاع معناها الحقيقي. ويسرع القديس الى القول، ان هذه المحبة ليست علماً يُلقن في الكتب، وليست فناً يُتقن بالترديد والمراجعة، بل هي بذرة، في جوهر الانسان نفسه، زرعها الله حتى تنمو وتتفرع لتحمل الإنسان اكثر فاكثر الى ربط نفسه مع الله. يقول القديس، اننا نحب الخير، طبعاً رغم ان كل انسان يراه في منظر خاص وفي شكل معين، اننا نحب طبعاً من يشبهنا بأخلاقه، ومن يتوافق مزاجه مع مزاجنا، فنلتفت اليه بالمحبة ونبتئه لواجع

الشوق والاخلاص والودّ. وكذلك نحبّ الله طبيعياً لأنه الخير الذي لا يسمو عليه خير. وفي الواقع أي ذكر أحلى من ذكر الله، وأية صورة أجمل من صورته، وأية رغبة تلهب مشاعر الانسان وتحمله الى البطولة والبذل مثل الرغبة في محبة الله. فاذا كان الأمر هكذا، فواجب على الانسان عموماً، وعلى الراهب خصوصاً ان يحبّ الله. وهنا يميّز المعلم فيقول ايضاً ان محبة الله ليست طفرة عابرة، وليست حماساً يذهب سريعاً، وليست عذوبة تضمحل لما تدقّ ساعة الألم وينسدل ظلال الدجى. بل هي استمرار في التعلّق بالله، رغم كل عذاب وألم؛ وهي انجذاب مستمر رغم كالح الغيوم ودجّة الظلام، وهي وحدة تنمو بقدر ما تنمو معرفة الله في قلب الإنسان. ان هذه المحبة هي كل شيء في حياة الراهب، اذا وجدت وُجد معنى الوجود لها، وسبب استمرارها، وهي اذا وُجدت أصبح القانون نافلاً، والنظام غير ضروري وأصبح الأمر بالتقيّد بالندور والواجبات مستهجنًا، لأن محبة الله تحثّ الراهب «بأنات لا توصف» كأنها محرّك دائم تدفعه الى العمل في سبيل مرضاة الله الذي لم يجد الراهب له بديلاً، ومثيلاً، ولم يحب مثله نظيراً^(٦٩).

هذه المحبة لا تنمو إلا بالمعرفة. عندما ينكشف جمال الله، وتظهر احساناته، ويعرف سر الله الذي انما هو سرّ التفتيش المستمر عن الإنسان يخضع الإنسان حينئذٍ لها جس الحب الشديد، ويصير الله للراهب كل شيء. ننقل هنا كلاماً رائعاً للقديس، وهو يختصر كل تعليمه عن المحبة: «اني اعترف بأنّي حيناً أفكر في جميع خيرات الله أجزع وتأخذني الرعدة خوفاً من اني بسبب غفلتي او اشتغالي باشيء لا طائل تحتها اسقط من علو الله وأصير سبب عارٍ للمسيح»^(٧٠).

الوصية الثانية كالأولى

لكن محبة الله تتواجد مع محبة القريب. وهذا ليس بسبب الأمر الالهي، «أحب الرب إلهك من كل قلبك وقريبك كنفسك...» بل بسبب طبيعة الانسان نفسها. فقد خلق الله الانسان كائناً اجتماعياً، فمن الطبيعي ان يحسّ الراهب بحاجة للآخرين ويشعر بؤسهم ويرأف لشقاؤهم، ومن الطبيعي ان الراهب، في النظام الباسيلي لا يعيش لنفسه، والّا لماذا تخلّى عن كل ربط الانانية وتجرد عن كل شيء فلا يمكن الراهب ان يعيش دون محبة. صحيح ان القديس استلزم ان تكون المحبة للقريب ضمن إطار الجماعة، في العيشة

المشركة، لكنه أمر بأن تتخطى محبة القريب حدود الدير، وان تشع منه رفقا ونورا وخدمة. وفي هذا المضمار سبق القديس ما يتغنى به البعض من إنجازات وتطلعات يظنونها رائدة، وخرج عن النهج العام للحياة الرهبانية الشائع في عصره، فجعل الحياة الرهبانية إشعاعاً يصل إلى أبعد حد، وعطاء وبذلاً يطال كل محتاج وبائس. وهذا ما تحقق فعلاً في المشروع الضخم الذي سمّاه البعض مدينة المحبة، والذي قام في قيصرية بسعي القديس باسيليوس والذي ضمّ مدرسة، ومستشفى ومدرسة مهنية وغير ذلك^(٧١).

ولكن اذا كان القديس باسيليوس قد شدّد على محبة القريب وعلى ضرورة إشعاعها، لا ينسى ان يذكر الشروط الضرورية لمثل هذا العطاء. لا بدّ ان يكون الراهب قد بلغ الى كمال يتيح له الخروج من الدير بسهولة وطمأنينة، ومن العمل المفيد للغير. ولا بدّ ان يكون قد اكتشف فيه الرؤساء موهبة خاصة تساعد على الخدمة وعلى العمل. ويعدّد القديس بعضاً من الاعمال التي يمكن ممارستها، في مجال محبة القريب فيذكر الكهنوت اول تلك الاعمال. فهو موهبة تعطى للبعض فقط لخدمة الكنيسة، وليس للجميع. ثم يذكر الوعظ في المدن والقرى للتبشير بالانجيل ولدعوة الجميع الى السلوك في طريق الكمال، ثم الارشاد ثم الكتابة والتأليف، وتربية النشء وتعليم الاحداث. ان المجال واسع لخدمة الغير، وبها يعوّض الراهب عن ولادة الأولاد الجسديين وعن عذوبة الحياة العائلية، فيلد بالمحبة للقريب اولاداً روحيين كثيرين يغدق عليهم كل حنان ومحبة، ويمارس التدبير والتنظيم لخدمة المجتمع. واجمل ما تتجلّى فيه محبة القريب هي اعمال الرحمة التي ذكرها الانجيل، لكن لا بدّ للنظام الرهباني ان يحدّد الطريقة الفضلى لممارستها والقيام بها على احسن وجه^(٧٢).

بهذا نكون قد استعرضنا سريعاً وباختصار رؤية القديس باسيليوس للحياة الرهبانية.

٥ - القديس باسيليوس رائد الحياة الرهبانية في الشرق والغرب.

انتشر نهج القديس باسيليوس في كبادوكيا وانتشر في كل أنحاء سوريا وفلسطين وحتى مصر، وعم كل الاديار فيها. إن Ruffin تعرّف على النظم الباسيلية، وزار الاديار التي تتبعها اثناء تجواله في الشرق فترجم قوانين القديس باسيليوس المطوّلة والمختصرة في كتاب واحد يضمّ فقط ٣٠٠ سؤال وجواب. وقد قام بهذا العمل نزولاً عند رغبة رئيس احد اديار ايطاليا الجنوبية^(٧٤). وهذه الترجمة هي التي عرفها القديس بنادكتوس أب

رهبان الغرب واعتمدها لسنّ قوانينه. ويروي التاريخ ان بعض رؤساء أديار فرنسا في القرن الخامس والسادس استعانوا بقوانين القديس باسيليوس للقيام بإصلاح حالة الأديار المؤسفة في ذلك الحين^(٧٥). ان البابوات أنفسهم: ليباريوس والقديس داماس والقديس لاون ثبتوا وباركوا قوانين القديس باسيليوس وشجعوا على العمل بنهجها. كل هذا يشرح لنا لماذا أُدرجت أسماء قديسين غربيين في لأئحة القديسين في الطقس البيزنطي.

انما انتشار قوانين القديس باسيليوس لم يمنع الاديار من السقوط في الفتور والانحلال. ان بعض الاديار فسدت وفتّر رهبانها واصبحوا دعاة بدع وضلال وحملة ثورة ضد الكنيسة. لذلك ألحّت المجامع المسكونية والخاصة في الشرق على الرجوع الى قوانين القديس الكبادوكي الأصلية والتقيد بها، وعملت على شرحها. لكن مع الزمن، ومع تطوّر العصر قام بطاركة القسطنطينية كيوحنا الصّوام ونيكيفورس وفوتيوس بإدخال بعض التعديل على قوانين القديس باسيليوس. وقد قام خصوصاً بهذا العمل أئمة الرهبان كالقديس نيلس رئيس دير مريم العذراء في قبرص، والقديس تيودورس رئيس دير الستوديون في القسطنطينية، والقديس اثناسيوس إمام الرهبان في جبل آثوس. حتى الأباطرة البيزنطيون أنفسهم تدخلوا في أمر قوانين القديس باسيليوس، وأوصوا بالحفاظ عليها، وساهموا في بعض التجديد فيها؛ وهكذا أصبحت قوانين القديس باسيليوس أصلاً لقوانين كثيرة حملت هذا الاسم نفسه^(٧٦).

ان تاريخ الرهبان الباسيليين هو تاريخ الكنيسة الشرقية. فقد أسهموا في انتشارها وتركيز أسسها ودرء البدع عنها وجلاء حقائق الايمان في تعليمها. فنذ عهد القديس باسيليوس، وقبله أيضاً، كان الرهبان أئمة الفكر، وحملة مشعل المعرفة، والرسل الغيّر الحاملين بشرى الكلمة الصالحة الى الأقطار النائية. فلا عجب ان نرى البطاركة والأساقفة في الشرق كله يخرجون صفوفًا صفوفًا من الاديار، حاملين معهم منها صفاء التعليم، ونقاء السيرة، وشدة المراس لدعم ملكوت المسيح على الأرض. ولمّا عمّ الزواج بين الكهنة في الكنيسة الشرقية، ظلّت الأديار، ولا تزال منبت الأساقفة الغيّر^(٧٧).

ان تاريخ العقيدة المسيحية ارتبط مع تاريخ الرهبان الباسيليين. فهم الذين حاربوا النسطورية والأريوسية وأوقفوا زحفها، وقوّضوا أسس تعليمها. وهم الذين وقفوا في وجه البدعة المحاربة للإيقونات. كان الرهبان طيلة تلك العصور دعامة الكنيسة، وحماها والبوق الصّدّاح يحمل تعليمها الصافي الى كافة الأقطار. قد نجد بين صفوفهم هراطقة،

لكنهم قلة. فأقوى المدافعين عن الايمان المستقيم كان الراهب القديس يوحنا الدمشقي. وكان الراهب القديس مكسيموس أقوى خصم ضد بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح، وكان الراهب تيودورس، والقديس اثناسيوس وسابا رؤساء دير الستوديون أشد المدافعين عن تكريم الايقونات المقدسة. ان التاريخ يشهد ان محاربة البدع والهرطقات خرّجت ألوفاً من الشهداء في صفوف الرهبان.

ويا ترى من حمل مشعل الرسالة الى البلاد الوثنية. ان الشعوب الصقلية، التي كانت تعيش وراء حدود الامبراطورية البيزنطية عرفت الدين المسيحي على أيدي الرهبان الباسيليين. فالقديسان كيرلس ومتوديوس هما أشهر الرسل لدى الشعوب الصقلية. وقد حملوا اليهم مع مبادئ التعليم المسيحي الليتورجيا البيزنطية والفن والترنيم التابعين لها، وأصبحت هذه كلّها، رغم بعض التغيرات فيها صورة شبيهة بالأصول. ونوّه ان الحياة الرهبانية عرفت أوج عزّها عند تلك الشعوب التي رجعت من الوثنية الى المسيحية على يد الرهبان الباسيليين.

وكان الرهبان الباسيليون رسل ثقافة. فقد عملوا من الأديار منائر تشعّ بالثقافة. لا يسعنا تعداد المكتبات الغنية والمخطوطات المشهورة، والخدمات الجلّي التي أدّتها الأديار الباسيليّة الى المعرفة البشرية. ان الأناشيد الطقسية هي عمل الرهبان، فرومانوس المنشد، والقديس يوحنا الدمشقي، وقزما وتيودورس هم من الرهبان الباسيليين. وكم يدين الفن للرهبان. ان التحف المقدّسة في أديار جبل آتوس ودير القديسة كاترينا في سيناء وفي الأديار والكنائس والمتاحف في الشرق والغرب تشهد ان الرهبان برعوا في فن التصوير الكنسي، وفي نقل المخطوطات، وفي حفظ العلوم. انهم ساهموا اكبر مساهمة في تراث الحضارة البشرية.

ومما لا شكّ فيه ان الفتح الإسلامي وما عقبه من ضعف المسيحية في الشرق، وتبعثر تباعها، وتفكّك أوصالها محاذ الأديار وشتّت الرهبان. والأديار التي بقيت هنا وهناك كانت ضعيفة الإشعاع قليلة التأثير. انما لا يزال دير القديسة كاترينا في سيناء، ودير القديس سابا في فلسطين وأديار جبل آتوس تشعّ قداسة ومعرفة. ونأسف ان الأديار المهمة في روسيا زالت من الوجود مع الزحف الشيوعي الطاغى. وكذلك الأديار الرائدة في البلاد الواقعة اليوم في الفلك الشيوعي. ان تراثاً حضارياً قد ضاع وزال من الوجود مع الشيوعية الملحدة.

وفي العمل الوجدوي مع روما قام الرهبان الباسيليون بعمل جبار. فالرهبان مثل القديس يوشافاط وبوسلري بنوا مداميك الاتحاد في بولونيا. لكن تدخل القياصرة الروس وقسمه هذا البلد المسكين حالاً دون ثبات هذه الوحدة مع الكرسي الروماني. ولا يزال الباسيليون عند الاوكرانيين حملة لواء الوحدة الكنسية. وفي الطائفة الملكية الكاثوليكية عمل الرهبان الباسيليون في سبيل الوحدة المسيحية، وثبتوا هذه الوحدة بدم الاستشهاد. وعند سقوط بيزنطية بأيدي الاتراك هاجر الرهبان الباسيليون الى انحاء مختلفة من ايطاليا، والى صقلية، وأسسوا هناك الأديار المختلفة. ونرى في العهود المتوسطة دير Rossano بقيادة الراهب نيلس وغيره من الرهبان الامائل كبرتلماوس وبولس ونيوفيطس، ودير القديس نقلاوس في Ottante، ودير Grotta ferratta حصوناً للإيمان، وبيوتاً للعلم، ومراكز مشعة بالحياة الرهبانية والرسولية. وقد عرف دير غروتا قرأتا شهرة عظيمة بقيادة الكردينال بيساريون المشهور. كل هذه الأديار وغيرها عرفت ازدهاراً عظيماً بسبب هجرة الرهبان من الشرق إليها، لكن بين القرن السادس عشر والثامن عشر عرفت الانحطاط. وقد زالت كلها تقريباً اثناء الثورات العاصفة في ايطاليا. وبقي دير واحد ينطق بالأعجاز تلك هو دير غروتا قرأتا.

ان الرهبان الباسيليين قد أسهموا في تأسيس وبناء وازدهار كنيسة الملكيين الكاثوليك في الشرق. فهم الرسل الأولون، وهم البناة الذين رصفوا الحجارة الاولى ورفعوا المداميك الأساسية، وهم الذين حافظوا على الايمان، وهم الذين نشروا العلوم والمعرفة. بفضل نشاطهم وتضحيتهم المثل، وبفضل دم الشهادة الذي سفكوه في سبيل المسيح، لا تزال الطائفة المشرقية الملكية الكاثوليكية مزدهرة بمشاريعها وعلومها ورسالاتها. هي ابنة حقيقية لكنائس الشرق العظيم، الذي كان القديس باسيليوس أحد أعلامه وقديسيه العظام، ورائد الحياة الرهبانية فيه.

خاتمة

هذه لمحة وجيزة عن نظرة القديس باسيليوس الكبير عن الحياة الرهبانية. هي غيض من فيض. فالكلام عن القديس باسيليوس منظم الحياة الرهبانية في الشرق يستوعب مجلدات كثيرة. اختصرنا الكلام كثيراً، ولكننا قد أعطينا فكرة عامة، وهذا حسبنا.

مراجع خاصة

- (١) القديس غريغوريوس التريزي - تأيينه للقديس باسيليوس.
- (٢) القديس غريغوريوس التريزي - المرجع نفسه.
- (٣) L'Ame Grecque. L'amitié chez Aristote
- (٤) التريزي: الخطب ٤٣.
- (٥) التريزي: الخطب ٤٣.
- (٦) التريزي: رسائله ٦.
- (٧) سقراط: التاريخ الكنسي. الفصل الرابع.
- (٨) غريغوريوس اسقف نيصص. تأييد القديس باسيليوس.
- (٩) طروبارية القديس في الطقس البيزنطي.
- (١٠) متى.
- (١١) التكوين.
- (١٢) التريزي: الخطب ٤٣.
- (١٣) القديس غريغوريوس أسقف نيصص. حياة القديسة ماكرينا.
- (١٤) المرجع نفسه.
- (١٥) اسقف نيصص، حياة القديسة ماكرينا. المرجع نفسه.
- (١٦) رسائل القديس باسيليوس ٨.
- (١٧) 1965:15 déc. — Sélection du Reader's Digest
- (١٨) رسائل القديس باسيليوس.
- (١٩) المرجع نفسه.
- (٢٠) رسائل القديس غريغوريوس ١ - تأييد القديس باسيليوس ص. ١١٤.
- (٢١) رسائل التريزي ١ - تأييد القديس باسيليوس المرجع نفسه.
- (٢٢) حياة القديس التريزي بقلمه. II - ١.
- (٢٣) التريزي. تأيينه للقديس باسيليوس.

- (٢٤) التريتي. حياته بقلمه II - ١ .
- (٢٥) رسائل القديس باسيليوس ٢٢٣ .
- (٢٦) رسائل القديس باسيليوس ١٤ .
- (٢٧) رسائل القديس باسيليوس ٢ .
- (٢٨) التريتي. حياته بقلمه II - ١ .
- (٢٩) غريغوريوس أسقف نيصص. حياة القديسة مكرينا .
- (٣٠) التريتي. تأبين القديس باسيليوس .
- (٣١) التريتي. تأبين القديس باسيليوس Boul. 189
- (٣٢) St Jérôme : De Virus Illius. 116
- Ruffin : Hist. Eccl. II, 9
- Cassien : Institutions
- Sazomène : Hist. Eccl.
- (٣٣) رسائل القديس ٢٩٦ - القوانين المختصرة ٩٥ ، ٩٦ .
- (٣٤) عظة على المزامير: الفصل الثالث .
- (٣٥) عظة على المزامير: الفصل الأول .
- (٣٦) Moralia XXVI - عظة على المزامير ١٤ .
- (٣٧) لوقا ١٧ : ٢١
- (٣٨) رسائل القديس بولس ٢ .
- (٣٩) عظة على « اعرف نفسك » P.Z.XXXI Hom 3 رسائل القديس ٢ .
- (٤٠) المصدر نفسه .
- (٤١) H. Leclercq. Cénobitisme in D.T.C.
- (٤٢) Soveuge. Etude sur St. Pakhome
- (٤٣) القديس التريتي. خطبة ٤٣ . وراجع : Pelladius ٤١ - ٤٢ .
- (٤٤) القوانين المختصرة ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٧ . رسائل القديس ٢٩٥ .
- (٤٥) القوانين المختصرة ١٥ .
- (٤٦) القوانين المختصرة ١١ ، ١٥ ، ٥٣ .
- (٤٧) عظة عن ترك العالم .
- (٤٨) عظة على مزمو ٣٣ .
- (٤٩) عظة ١٢ - P.G. 31
- (٥٠) مواعظ القديس . ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ - P.G. 31 مواعظ على المزامير P.G. 33

- (٥١) نفس المصدر.
- (٥٢) نفس المصدر.
- (٥٣) نسكيات القديس P.G. 31
- (٥٤) رسائل ٢٩٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢ ؛ قوانين مختصرة ١٥ ، ٢٨٨ ، ٢٢٧ ، ١١٣ ؛ قوانين طويلة ٤٩ ، ٣٣ ، ١٣ ، ٣٢ ، ٤٥ ؛ خطبة في ترك العالم P.G. 31
- (٥٥) رسالة ٢ ؛ عظة على المزامير ٣٣ ، ٢٨ ؛ قوانين مختصرة ٢٥ ، ٢٠٨ ، ٣٨ ؛ قوانين طويلة ١٣ ، ٥ ، ٣٨ ، ١٥ .
- (٥٦) (٥٧) قوانين طويلة ٥ ، ٤٤ ، ١٧ ؛ رسائل ٢ ؛ قوانين مختصرة ٣٨ ، ٢٦٣ .
- (٥٨) عظة : اعرف نفسك للقديس .
- (٥٩) القوانين المطولة ٥ ، ٣ .
- (٦٠) عظة على المزامير ٢٩ ؛ عظة على ايام الخلق ٤ ؛ القوانين الطويلة ١٧ ، ٢ ، ٢٨ ... اعرف نفسك ؛ القوانين المختصرة ٦٨ ، ٧١ ...
- (٦١) اعرف نفسك .
- (٦٢) عظة عن الصوم P.G. 33 ٣٣ .
- (٦٣) عظة عن التجرد عن العالم P.G. 35 ٣٥ .
- (٦٤) القوانين المختصرة ٧٢ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ؛ القوانين الطويلة ٢٦ ، ٣٢ .
- (٦٥) راجع القوانين الطويلة والمختصرة .
- (٦٦) راجع القوانين الطويلة والمختصرة .
- (٦٧) القوانين الطويلة ٣٧ .
- (٦٨) راجع القوانين المختصرة والمطولة . وعظة عن التجرد وعن معرفة النفس .
- (٦٩) القوانين المطولة ٢ ، ٣ ؛ والمختصرة ١٥٧ ، ١٧٦ .
- (٧٠) القوانين المطولة ٢ .
- (٧١) القوانين المطولة ٢٤ ، ٣٧ ، ٤٢ ؛ المختصرة ٢٠٧ ، ٢٥٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
- (٧٢) المرجع نفسه .
- (٧٣) القوانين المطولة : ٢٤ .
- (٧٤) P.L. Ruffin. Regulae S. Basilii
- (٧٥) Battifol: Hist. di Rossano; Moris : La grande Grèce. Les moines de Constantinople.
- (٧٦) المراجع نفسها .
- (٧٧) Duchesne

مراجع عامة

HERMANT, Les Ascétiques ou traités spirituels de St. Basile le Grand.

HYMBERTCLANDE, Doctrine ascétique de St. Basile.

ALLARD, St. Basile.

BOULENGER, St. Grégoire de Nazianze.

SASIMES, St. Nicolas Ziet

القوانين المطوّلة والمختصرة : للأب يوسف شماس .



البَحْثُ الثَّالِثُ

القديس باسيليوس رائد اجتماعي

الأب جوزف صغيبي المخلصي

نور سطع في فلك الكنيسة فأضاءها بتعاليمه ، وقديس عظيم فاح عرف طهره في كل المسكونة ، فكان نبراساً للمؤمنين ومحجّة حياتهم في وجود هائج لا يستكين ، انه القديس باسيليوس الكبير الذي امتاز بسيرة صالحة لا لوم فيها ، وكانت حياته بأسرها عملاً متواصلاً وتضحية لا تعرف حداً لها ؛ فهو فعلاً الصديق الذي ، كما يقول الكتاب ، « يدوم ذكره الى الأبد » (مز ١١١/٧) .

كانت الفترة الزمنية التي عاش فيها القديس باسيليوس من الخطورة بمكان كبير ، إن على الحياة السياسية أو على حياة الكنيسة . ولعلّ الفتن الداخلية والثورات الاجتماعية كانت تنتج عن ذلك الترابط الوثيق بين هاتين الناحيتين ، فالمسيحية كانت تنتشر بقوة الروح يوماً بعد يوم ، متخذة من صليب المسيح سلاحاً وحيداً لقهر الاعداء ، ومن تعاليمه أسساً راسخة لحياة جديدة تتنافى تماماً مع المبادئ التي سارت عليها الشعوب الوثنية اجيالاً واجيالاً . والسياسة الرومانية كانت متأثرة الى حدّ بعيد بانطلاقة دينية جديدة عملت وتعمل منذ اكثر من ثلاثة قرون على فرض وجودها وتثبيت قواعدها حتى بلغت الى ما كانت تصبو اليه .

وكان لا بدّ في غمرة تلك التغيرات الجذرية التي استقرّت بنوع عجيب وقلبت المفاهيم الدينية والاجتماعية الموروثة والمعمول بها آنذاك في انحاء الامبراطورية الرومانية من بروز حتمي للعنصر النقدي . ولقد خضعت الكنيسة بفعل طبيعي كغيرها من المؤسسات

لهذا الامتحان الذي اخرجها اكثر صفاء واشد نقاء ، ولكن بعد تزعزع أسسها هدد زخمها وأوهن انطلاقتها الأولى لبناء اكمل للملكوت الله في النفوس . ألم يقل السيد المسيح له المجد : « احذروا الانبياء الكذبة ... سيظهر مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويضلون المختارين أنفسهم ... فلا تصدقوهم » (متى ٢٤/٢٣-٢٦) .

إذن ، فلا نتعجب مما حدث للكنيسة في ذلك الوقت ؛ لقد ظهر آريوس ببدعة جديدة مفسراً العقيدة المسيحية بطريقة تتعارض مع المعتقد الصحيح الذي خلفه لنا الرسل معابنو المسيح في تعليمهم وكتاباتهم . تعرض آريوس لوحدة الثالوث الاقدس نافياً ألوهية السيد المسيح . ومع ان مجمع نيقية (٣٢٥) حارب تلك البدعة وحرّم صاحبها معلناً الإيمان الحقيقي بما يختص بالإبن الذي هو مولود غير مخلوق مساوٍ للآب في الجوهر ، فإن الآريوسية ظلت تعمل بتأثير كبير طيلة القرن الرابع ، « وكان من سوء الحظ انهم نجحوا واستولوا على البطريركية الانطاكية وغيرها وأخذوا الكنائس من الكاثوليك وبقيت في أيديهم نحو خمسين سنة واذلوا الكتلثة اذلاً ، حتى قال القديس ايرونيμος قوله المشهور : « لقد تنهد العالم وتعجب اذ رأى نفسه قد غدا آريوسياً »^(١) .

في خضم تلك الاحداث وُلد القديس باسيليوس . وبفضل محيطه العائلي الصالح ، اعتنق الايمان القويم وعمل على جمع النفوس التي شتتها الاضطهاد ومزقتها الافكار الغريبة فضمها الى كنيسة المسيح . ولذا شهدت حياته زخماً رسولياً لا مثيل له ، إن بعمله الحثيث او بكتاباتاته التي تنم عن توقد ذهني وغيره جياشة قلماً شهد تاريخ الكنيسة مثلها . ان اكثر مؤلفات القديس باسيليوس تدلنا على أنه كان خطيباً رائعاً وكاتباً ماهراً ، استطاع ان يؤلب الجميع حوله بمواعظه الجميلة وخطبه الجريئة التي ردت كثيرين الى الايمان القويم ، وصححت سبل من تاهوا في ضلال الدنيا وظلامها . ولعل سني الخلوة التي قضاها مع صديقه القديس غريغوريوس التريزي كانت ذات أثر كبير في طريقة حياته وكلامه في مختلف المجالات . ان تعمقه في فهم الكتب المقدسة وولوجه أسرار الديانة والمعاني الكبرى التي يحملها تاريخ الخلاص جعلاه يدرك غاية الوجود ويعمل بجد عظيم على تبيان تلك الحقائق التي خفيت عن اذهان الناس او شوّهتها الأفكار المبتدعة والتيارات التي حاربت المسيحية وناهضتها منذ بدء تاريخها . فكان من الطبيعي اذن ان يستوحي القديس باسيليوس افكاره من روح الدين المسيحي ، مرتكزاً بذلك على ما جاء في الكتب المقدسة وكتب الوحي الالهي . ويكفي ان نراجع قوانينه المطولة والمختصرة لتبين

مدى تعلّقه بالكتب الإلهية ومحاولته رؤية الحياة الديرية والدينيوية من خلال منظارها الخاص^(٢).

واذا كان القديس باسيليوس يتركز في خطبه ومواعظه على الكتاب المقدس، فعنى ذلك انه يريد فتح الألفية التي تصل تاريخ الخلاص بتاريخ الإنسان، وحياة النعمة بحياة المسيحي الكائن، ليس في مكان وزمان، وانما في كل مكان وفي أي زمان عبر تلاحق مستديم. فلا نستبعد إذن، إلا في بعض الحالات النادرة، شمولية التعليم عند القديس باسيليوس. واذا كانت الانطلاقة متحددة بشعب ما وبظروف معينة، فإن الهدف بعيد والمرامي متوغلة جداً في أعماق المستقبل. لا يعني ذلك ابداً بُعداً عن الواقع الحياتي للمسيحيين، ولا تباعداً بين حياة القديس وظروف البيئة المعاصرة، بل بالعكس تماماً تبين نظرة في تعاليمه هي أقرب بكثير الى حياة كل يوم منها الى واقع خيالي او مثال لا يمت الى الوجود بصلة.

من هذا المنطلق بالذات يظهر لنا القديس باسيليوس طيلة سني حياته ذلك الكاهن والاسقف القريب جداً من ابناء رعيته، ذا الاطلاع الواسع على واقع حياتهم الدينية والدينيوية، العارف معرفة الأب الغيور بكل دقائقها، مشاكلها وصعوباتها، أفراحها وأحزانها، مآسيتها وتعزياتها. فلقد «درس» جيداً مجتمعه آنذاك وتألم للفساد المنتشر في كل انحاء، فعرف ان الشيطان قد استبدّ بالخراف وعمل على افتراس بعضها وتشيت بعضها الآخر. فوجّه نداءاته للرجوع والتوبة، وألقى مواعظه منذاً بالأعمال المشينة، مطالباً بالعدل والمحبة، رافضاً اشكال الذل والاستعباد، محرّضاً ابناءه بغيرة لا تعرف الملل على اتباع طريق المسيح القويم، مضيئاً لهم سبيل الحياة ومنظماً أحوالهم في مجتمعهم المسيحي على اكمل وجه. فكانت تنظيماته للحياة الديرية بقصد بناء مجتمع رهباني - ودينيوي^(٣) - متكامل، وأيضاً مواعظه واخلاقياته دعوة لتكمّل مسيحي اسمي، فضلاً عن مؤلفاته اللاهوتية والعقائدية.. ولهذا دعت الكنيسة بكل اعتزاز «باسيليوس الكبير، خادم النعمة ومعلم المسكونة».

ان البدعة الجديدة التي دخلت تاريخ الكنيسة كما ذكرنا، والتي شهد تأثيراتها القديس باسيليوس دفعته الى مجابهتها بكل حزم وشدة، مبرراً الإيمان الحقيقي ومدافعاً عن صدق العقيدة الالهية التي حاول تشويها آريوس المضل، فانبرى لتأدية مهمته الجسيمة هذه بكل ما أوتي من فصاحة لسان وعلم متأصل وذهن نير. ولم يكن يخلق كثيراً في أجواء

اللاهوت بعيداً عن عقول الناس ، بل لقد قيل عنه انه «اول انسان في تاريخ الكنيسة كان بإمكانه ان يتكلم في اي وقت وأمام اي جنس بشري بلغة طبيعية ، وفي نفس الوقت تنم عن علم غزير ، لا تنقص أناقتها لا من سهولة ادراكها ولا من قوة وقعها»^(٤) .

وتبرّر موهبة القديس باسيليوس هذه بتفكيره النيرّ الجريء . فهو بالرغم من انه لم يكن فيلسوفاً بالمعنى التأملي للكلمة ، فقد كان يحوي في ذاته أنقى ثقافة فلسفية ، أخذها من احتكاكه بمختلف التيارات الفلسفية السائدة آنذاك : الافلاطونية ، الارسطوطاليسية ، الانتقائية ... هذا ما نلاحظه في شتى مؤلفاته في هذا المجال .

على كل حال ، بالرغم من ان ضروريات الجدل وجهته شطر المسائل النظرية ، فإن ميل نفسه الطبيعي حدا به للاهتمام بتعليم الاخلاقيات المسيحية . لذا فانه ، عدا بعض الرسائل والمقالات التي تتناول الأسئلة العقيدية ، يمكننا اعتبار كتابات القديس باسيليوس ذات طابع توجيهي تعليمي ، مسيحي واخلاقي ، يتناول جماعة المسيحيين في المجتمع بنوع عام . وهذا ما ننتبّه بطريقة غير مباشرة من خلال انعطاف باسيليوس الى اعتبار الوجه الارشادي - التعليمي للكتب المقدسة . لهذا السبب ليس باستطاعتنا ان نقول عن القديس باسيليوس انه عالم اجتماعي بالمعنى الحصري للكلمة ، كما يحدّده علم السوسيولوجيا الحديث ، وانما هو بالأحرى رائد أخلاقي لمجتمع مسيحي في هيكليّة خاصة مستوحاة من الكتب المقدسة ، وبكلمة أخرى هو رائد اول في الأخلاقية المسيحية الاجتماعية . بهذا تميّز باسيليوس عن باقي الآباء الكنسيين الذين سبقوه . لقد تناول هؤلاء الدفاع عن المسيحية وشرح عقيدتها ، بينما لا نلاحظ أيًا منهم تفرد بدرس المبادئ والأسس التي تنظم أحوال المجتمع المسيحي . فكان باسيليوس أول منظّم الحياة الاجتماعية للشعب المسيحي آنذاك . بالطبع ليس بمقدورنا ان نجتمع له نظاماً اجتماعياً خاصاً به - مما لم يكن يفكر به البتة - كما هي الحال مع علماء الاجتماع الحديثين والمعاصرين ، وانما يكفي ان نلقي نظرة على مؤلفاته لنستوضح بعض النقاط التي كانت الأساس المبدئي الثابت لكثير من تبعوه في هذا الميدان .

وتجدر الإشارة هنا الى ان المفهوم الحديث لعلم الأخلاقيات يتناول المجتمعات بتكوينها الخاص وفي ظروفها المعينة ، جاعلاً المقاييس الأخلاقية مختلفة بين بيئة وبيئة أخرى ، وبين جماعة بشرية وجماعة أخرى تختلف عنها في التكوين الجغرافي والثقافة وفي ظروف الحياة عامة . وهذا ما لم يعره القديس باسيليوس كبير الاهتمام ، لا لسبب إلا لأن

عصره لم يكن ليشهد سريعاً مثل هذه التطورات والنظرات التي بلورتها السنين وأثبتتها الأجيال والعلوم الإنسانية المتطورة. يذكر ذلك الأب ريفير في كتابه عن القديس باسيليوس اذ يقول: «لم نعد نفهم اليوم اي علم اخلاقي دون عرض واسع لمبادئه وفرضياته بالقياس النسبي مع كل مجتمع. القديس باسيليوس، على العكس من ذلك، لم يتعرض لهذه الناحية. لذا لا نجد في خطابه إلا بعض التلميحات المتناثرة التي تبرهن على انه استوضح في ذهنه الخطوط الكبرى للأخلاقية المسيحية بما يختص العائلة والمجتمع»^(٥).

ولكن الذي يبرّر تناثر الافكار الباسيلية بهذا الشأن انما هو الغاية التي كان يرمي اليها القديس باسيليوس. بالطبع لم يكن يفكر يوماً بأنه عالم اجتماعي أو اخلاقي ذو صبغة خاصة، أو يسعى لتكوين مذهب خاص به؛ فأراؤه انما كانت توجيهات صادرة عن راعٍ لرعيته، عن أبٍ لأبنائه، تناول شؤون حياتهم الجماعية وتُصلح الاخطاء التي يقعون فيها بغية تنظيم وجودهم وكيانهم كجماعة مسيحية مرتبطة بعضها ببعض لأنها «أعضاء جسد المسيح السري» (١ كور ١٠/١٧). وقد اختلفت هذه النصائح والإرشادات باختلاف الظروف والأوضاع المسببة لها. لكن سموّ الهدف الذي كان يسعى اليه جعله يتخطى هذه الحثثيات ويعرض عن أمور كثيرة بغية تحقيق تلك الغاية الفضلى التي رسمها لنفسه منذ بدء عمله الرسولي، أعني ربط حياة الإنسان بحياة الله من خلال الكتاب المقدس.

على هذا الأساس كان الايمان المسيحي المبدأ الأول لتلك الأخلاقية، وهذا ما ليس لنا ان نتجاهله لحظة واحدة. وبيّن لنا ذلك في الروح الذي يحكي كلامه اكثر منه في استشهادات الكتاب المقدس التي تروّق وعظه وتجعله ذا وقع في النفوس. وفي الوقت الذي بدأت فيه بشارة الإنجيل تحتلّ نهائياً مكان الوثنية المتداعية، ضمن الحضارة اليونانية، وتسحق تحت اقدامها تلك الفلسفة العقيمة، كانت مهمة القديس باسيليوس تحقيق الاندماج المطلوب بين الهلينية والمسيحية في الميدانين العملي والحياتي. وفعلًا، فقد استطاع ان يلخّص ويؤلف العناصر الأساسية من هاتين الثقافتين. فن اليونانية اخذ ثوب الحكمة الشريف ونبهاها، ومن المسيحية اعتبق مذاهبها السامية وأيضاً حرارة تصوّفها في النفس. فشكّلت هذه العناصر مجتمعة النماذج المكتملة للفلسفة المسيحية^(٦).

واذا كان صفاء العقيدة قد ولّد نقاء النفس، فإن صفاء الحياة لا بدّ وان يكون انعكاساً حتمياً لتلك النفس لأنها، حسب تعابير باسيليوس نفسه، أساس الفرد وجوهر وجوده الروحي والأدبي^(٧). فلا مندوحة اذن من ان يأتي عمل القديس باسيليوس

الأخلاقي - الاجتماعي صورة واضحة عن ذلك القديس الذي ملأ الدنيا بتعليمه وكان هداية للنفوس الضالة او الهائمة في خضم هذه الحياة وشقاها.

على كل حال ، سنحاول في هذا الموضوع استعراض الخطوط الفكرية لهذا النشاط الباسيلي الرائع ، بدراسة مقومات المجتمع الأساسية وتركيباته التي تؤثر بنوع مباشر على توازنه الداخلي ، ثم تبين الخطوط العملية التي ساهمت من قريب او بعيد في تأسيس بنية اجتماعية سليمة ، مرتكزة على المحبة والاخوة وعلى حفظ كرامة الإنسان المسيحي الذي اعاد اليه السيد المسيح بهاء صورته القديمة بتجسده واقتدائه إياه بدمه الكريم.

١ - افكار القديس باسيليوس الاجتماعية.

ذكرنا سابقاً ان القديس باسيليوس رام ان ينظم المجتمع المسيحي ويجعل هيكلية أساساً ثابتاً مبنياً على الروح الاخوية وتسيطر عليه المحبة التي أوصانا بها السيد المسيح . ولكن هل يُبنى مجتمع بدون ان يُبنى انسان هذا المجتمع ويرتفع شأنه؟ وهل تستقيم حياة اذا كان الناس يتصارعون للاستئثار بها وكأنها ملك لأحدهم دون الآخر؟ حق الوجود هو حقّ عام والحياة الشريفة هي حقّ لكل البشر دون استثناء ، وليس لأحد ان يعتبر ذاته دون غيره جديراً بهذه الحياة . هذا هو المقياس العام والقاعدة الأساسية للوجود البشري .

ولكن اكثر الاحيان تنقلب المقاييس وتتغير المفاهيم ، فاذا بالقاعدة شيء وتطبيقها شيء آخر ، لا بل بالأحرى تطبيقها الشاذ ينقلب اساساً للقاعدة والأصل يصبح شواذاً لا معنى له ، وهذا ، مع الأسف ، يشهده عصرنا ، كما يشهده عصر القديس باسيليوس . فكان لا بدّ والحالة هذه من العمل الجاد لتصحيح الأمور وتنقية الأفكار وتسوية السبل الآيلة الى الخير والى توطيد الركائز في بناء مجتمع متكامل ينعم فيه كل أفراد به بالسلم وهناءة العيش .

والقديس باسيليوس ، من هذا المنطلق ، لم يترك فرصة إلا واغتنمها لرفض الظلم ومحاربة الشرّ المستوطن في النفوس . لقد أدرك قيمة الحياة الشريفة ونزل الى مستوى الفقراء والمساكين وعرف طعم عيشهم المرير . فلم يكتفِ إذ ذاك بتخفيف آلامهم بأعماله الخيرية ، ولكّنه انقضّ على جذور الشرّ المختبئة وراء تعسف الحكام وظلمهم وفي اعماق قلوب الاغنياء وجشعهم المتزايد . فحارب الخطيئة وتصدّى للإسراف الباطل . راح يكلم الناس ، كبيرهم وصغيرهم ، غنيهم وفقيرهم ، حكامهم وعبيدهم ، باذلاً قصارى

جهده للدفاع عن كرامة الإنسان الذليل ، مطالباً بحقوقه الطبيعية والاجتماعية ، وحثاً الجميع ليتعاملوا بعدل ومساواة وباحترام متبادل . انه عمل المستحيل ليحقق التنظيم الجديد الذي استوحى مبادئه من الانجيل المقدس .

اذن ، يبدو من المستحسن جداً ان نركز في بحثنا على هذه الفكرة وننطلق منها لتفسير مجمل كلام القديس باسيليوس في ما نحن بصددده . هذا كان هم القديس باسيليوس الأول وعليه عمل وجاهد حتى كان له في النهاية النصر ، لأن الإنسان الذي يكرس حياته لغاية معينة ويسعى لأجلها رغم كل الصعوبات والمخاطر ، متدرّجاً برحمة الله ومتكلاً على عنايته الالهية ، لا بدّ له ان ينتصر بانتصارها ويبلغ أهدافه السامية . فيمكننا بالتالي ان نلخص عمل القديس باسيليوس الإنساني والاجتماعي والأخلاقي بقولنا : لقد أراد باسيليوس حفظ كرامة الإنسان ، فعمل على محاربة كل ما من شأنه ان يسخط هذا الإنسان ويحطّ من كرامته .

أ - نظرتة الى الإنسان :

احتلّ الإنسان كقيمة بحدّ ذاته مدار تفكير القديس باسيليوس . فرأى ان الكتب المقدسة ما توجّهت إلا لإنسان خلق على صورة الله ومثاله ، فكان نفحة من نسيم العلي ، روحاً هبّت في داخله ، نفساً تغلّغت في أوصاله ، وكان ان حدث التجسّد الالهي العظيم لخلاص تلك النفس التي سقطت والتي تستحقّ قبل أي شيء آخر الاهتمام والعناية . لقد تأثر باسيليوس بمختلف التيارات الفلسفية ، مقتبساً فكرته هذه من المدرسة الرواقية التي تنادي بسموّ الروح وبازدراء أمور الجسد .

« انتبهوا لأنفسكم ، يقول قديسنا الكبير ، ليس لما هو لكم ولا لما يحيط بكم ، وانما لأنفسكم بالذات ، لأن هناك فرقاً بين هذه الأمور . فالنفس هي ذاتنا ، هي نحن صورة الله فينا . وما لنا فهو جسدنا وحواسنا المتعلقة بالنفس ، واما ما يحيطنا فهو الغنى ومختلف طبيّات الحياة ... »^(٨) .

بناء على هذه المعطيات ، يطلب القديس باسيليوس قبل كل شيء الاهتمام بالنفس ، لأنها المبدأ الأول للشخص ومصدر قيمته وتوازنه . فعلينا بالتالي ان نترك جانباً المتطلبات الجسدية التي هي رغبات دنيوية تنمّ عن تعلق بشري زائل « ولا نهتم بما نأكل وبما نشرب او ما نلبس » (متى ٣١/٦) ، بل نعمل على تنقية نفوسنا وتزيينها بما يليق بقدسيّتها :

« انتبه لذاتك ، اي لنفسك ، فيها يليق الإكرام . حاول ان تجنّبها بصمات الشرّ واعرف ان طبيعتك

مزدوجة: طبيعة الجسد المائنة وطبيعة النفس الخالدة. وبالتالي حياتك مزدوجة: حياة تخص الجسد زائلة، تمر بسرعة، وحياة تخص النفس لا نهاية لها. فانتبه إذن ولا توقّف عند هذه الخيرات الدنيوية العابرة، وكأنها دائمة، كما لا تحتقر الخيرات الأبدية وكأنها وقتية»^(٩).

«اما بالنسبة الى الغنى والقوة والشهرة العالمية والملاذات التي تستأثر بنا بسبب جهلنا، فلا شيء من هذه الأمور دخل معنا الى العالم، ولن يخرج منه اي شيء»^(١٠).

نلاحظ جيداً أن ما تقدّم ليس إلا تفسيراً واقعياً وجديداً لكلمة الإنجيل: «ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه؟ أم ماذا يعطي الإنسان فداء عن نفسه؟» (متى ١٦/٢٦) فقد أراد قديسنا الفيلسوف ان يبيّن التطابق بين هذه الصوفية العالية وبين المثال العقلائي للأخلاقية. ان تسير بوحى من كلام الانجيل، هذا يعني ان تخضع ذاتك لعملية امتحان تثبت في نهايتها تفكيرك المنطقي القائل بوجود تبني الفكرة الأدبية النابعة من صميم طبيعة النفس الخالدة، وسلوك الطرق الحياتية التي توافق هذا المبدأ وترتكز عليه. اما اعتبارك النهج العسكري المبني على زوال الحياة وفهمك المغلوط لهذه الحقيقة فيؤدّيان بك لا محالة الى الانزلاق وضياح قيمك الإنسانية، ومن يدري، لا سمح الله، الى فقدان ذاتك بالكلية.

هذه الفكرة بما يختص الموت وزوال الأشياء البشرية كانت واحدة من أهم الأفكار التي استوحى منها القديس باسيليوس بعضاً من أروع خطابه، وسترّد كثيراً في وعظه عن الثروة والغنى.

بالمقابل، ينطلق القديس باسيليوس بنوع عجيب في تجريد الطبيعة البشرية من عوالمها المادية ومن ترفعها المزيف، ويرتضي مدحها مذكراً إياها باسم كرامتها وعظم شأنها. اذا كانت خيرات الإنسان فانية وليست بشيء، فإن الإنسان عظيم بحد ذاته:

«فمن من الكائنات الأرضية خلق على صورة الله إلا الإنسان؟ ولمن أعطى السلطان على كل الطبيعة ومخلوقاتنا ليختصّها لذاته؟ انه لعمري شرف ائيل يكلّل جبينه ويسمو به الى السماء، فوق الكواكب، ارفع من الشمس تشامخاً وعزة... ومع انه أوضع منزلة من الملائكة لارتباطه بجسد مادي فقد وهب قوة لفهم ومعرفة ربّه وخالقه»^(١١).

ويتابع القديس باسيليوس فيقول ان الحرية التي يتمتع بها الإنسان تجعله ذا كرامة تفوق جميع الكواكب التي تخضع لأنظمة الضرورة الثابتة^(١٢).

وخوفاً من ان يحدث لغط حول مفهوم الإنسان فقد وجد قديسنا من الضرورة

التأكيد دومًا على شمولية الطبيعة الإنسانية لمفهوم الرجل والمرأة على السواء. يجب ان نتبين من خلال هذا التأكيد علامة واضحة وبرهانًا صريحًا بأن المجتمع المسيحي آنذاك كان يدفع ثمن هذه الاعتبارات الوثنية في ما يختصّ بدونية المرأة اذ «برغم بعض المحاولات الدائبة التي قامت بها المدارس السيئية والرواقية القديمة ، فإن الفلسفة الوثنية وآراءها عامة كانت تعتبر المرأة كائنًا سفلًا أخطّ قيمة من الرجل» (١٣).

فالقديس باسيليوس يؤكد إذن على المساواة بين الرجل والمرأة كي يكون الجميع على بينة من أفكاره هذه منذ البداية ؛ وهذه قضية بالغة الأهمية ، خصوصاً في مجال تركيز الأسس المتينة للمجتمع المسيحي المنشود ، يقول :

«لماذا يختار النبي الرجل وحده لينادي له بالطوبى ؟ هل يريد إبعاد المرأة عن هذه الغبطة ؟ لا أبداً ، واحدة هي الفضيلة عند الرجل والمرأة ، بما ان خلقهم أحيط بشرف متساو. اسمعوا سفر التكوين : «خلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلقه ، ذكراً وأنثى خلقهم» (تك ١/٢٧). فيما ان طبيعتهم واحدة ولهم نفس الأفعال ، فكافأهم يجب ان تكون أيضاً واحدة» (١٤).

لنعد الى فكرتنا السابقة ، فقد توغل القديس باسيليوس في فهم هذه الفكرة ، وتأمل ملياً في المعاني التي تحملها. فعندما يقول ان الإنسان ذوكرامة فائقة ، يستمدّها من كونه صورة الله الخالق ، متسلّطاً على جميع الكائنات ، فانه ينطلق بذلك من مبدأ أساسي ثابت جدير بالاهتمام ويضمن لخطواته المستقبلية نجاحاً أوفر وحجباً أوفى يقارع بها منتقديه وخصومه. فلماذا يدافع عن الفقير ضدّ ظالميه ، ويحامي عن العبد ضدّ مستعبديه لولا اقتناعه العميق بسمو طبيعتهم وبفائق شأنهم ؟ هي خطوة جريئة أقدم عليها باسيليوس ، غير هيّاب ولا جزع ، في محاولة تأهيل سيكولوجي واجتماعي. وأول ما قام به انه توجّه الى هؤلاء الفقراء لتعزيّتهم مذكّراً إياهم بقيمتهم الإنسانية الشريفة ، فيقول :

«لا تخف ولا تيأس ، انت يا من تعيش وضيقاً ومردولاً. انت فقير ابن فقراء دون بيت ولا عائلة. انت ضعيف وتفقر الى خبزك اليومي. ترتجف أمام الأقوياء وتخاف الجميع بسبب ذلك وتواضع حياتك... انهض وارفع نظرك الى الله واشكره على نعمه لك ، وتأمل بالخيرات التي أعدّها تعالى لمحبيه... ألسنت ابناً لله على صورته ؟ افرح إذن فهذا يكفيك... وبما انك على صورته ، يمكنك ان تبلغ كرامة الملائكة ضمن حياة اجتماعية منظّمة. أليست كل الحيوانات على هذه الأرض ، الأليفة منها والبرية ، وكل ما يحوي البحر وما يطير في الهواء تخضع لك ؟ والأرض والبحر وكل شيء في خدمتك ؟ تأمل إذن وادرك ان هذه انعامات خصّ الله بها الطبيعة الإنسانية. أضف الى ذلك ما هو أسمى بكثير ،

الله ذاته بيننا ، والروح القدس يوزع مواهبه على كل واحد. فالموت أُميد ، وانتعش أمل القيامة وفتحت لك أبواب السماء ، فأصبح بإمكانك بلوغ المراتب الإلهية ودخول الملكوت. ها الأكايل والجوائز السماوية معدة لمن يكثر الفضيلة ويعمل بوصايا الله تعالى» (١٥).

وفي نفس الوقت يتوجه القديس باسيليوس الى الأغنياء ، ويدعوهم الى التخلي عن المجد الباطل والإزدراء بالدنيا والتفكير باليوم الأخير:

«ايها الغني ، لماذا تترفع بغناك وتفخر بأجدادك؟ أتفاخر بموطنك وتُسّر لجمال جسدك وتفرح لشرف زائل؟ انتبه لنفسك. تذكر بأنك انسان مائت وانك «تراب والى التراب تعود» (تك ١٩/٣)... انحن وانظر الى القبور ، فهل تميز بين عظام الفقراء وعظام الأغنياء؟ بين عظام العبيد وعظام الأسياد؟... أفطن لذاتك إذن وتخلّ عن التكبر والبخل وقساوة القلب» (١٦).

هكذا كان يفعل القديس باسيليوس في اكثر مواعظه ؛ لا يتوجه الى الفقراء والبؤساء إلا ليعزّيهم في مصيبتهم ويحمل عنهم بعضاً من عذابهم وآلامهم ، ثم يصبّ جام غضبه وسخطه على الأغنياء والموسرين ، بأروع أسلوب وبلغة بليغة تنفذ الى أعماق القلوب. وكلام باسيليوس غني في هذا الموضوع ، وكلّه يدور حول هذه الفكرة ، موضحاً ان عظم الانسان لا يقوم بالخيرات الخارجية ولا المحاسن الجسدية ، ولكن به هو ، اي بالحقائق الروحية الخاصة بطبيعته والمكوّنة لشخصيته البشرية ، فالإنسان انما هو روح مقيد بربط الجسد ، حسب تعبير القديس باسيليوس نفسه.

ثم خطا أسقف قيصرية خطوة أخرى على طريق «التحرير». انه تحرير أخلاقي واجتماعي ، تحرير من ربط الفقر والاستعباد التي تكبل الأكثرية الساحقة من الشعب. فبعدما عمل على رفع معنوياتهم بإظهاره لهم رفعة شأنهم ، كونهم خلق الله الشريف ، ها هو الآن يحاول وضع الحجر الأساسي الثاني لبناء مجتمع عادل وصالح.

أراد قديسنا الكبير ان يعرف الناس جميعاً بكل مستوياتهم حدود الحرية التي يتمتعون بها ، بالنظر الى الوجود الالهي في عالمنا ، بعد ان تحقق بشكل منظور في سرّ التجسد العظيم. ان حرية كاملة مطلقة في نطاق الطبيعة أمر غير وارد ولم تثبت أي من الفلسفات التي ظهرت قبل أو بعد عصر القديس باسيليوس ، إلا ما كان منها إلحادياً نافياً نقياً مطلقاً لوجود الله لا في هذا العالم ولا في اي عالم آخر. فلا يمكننا ان نعتبر الإنسان إلا ضمن هذه الوضعية الخاصة. يعني ان هذا الإنسان بغض النظر عن ملازماته الخاصة وصفاته الشخصية ، هو العبد الخاضع أساساً لإرادة الله الخالق. فعندما نقول ان الله

خالق، فإننا نؤكد وجود خلق له، أي مخلوقات مرتبطة أصلاً بإرادة الخالق الذي خلقها وأوجدها من العدم. فعلاقة المخلوق بالخالق هي علاقة ارتباط وتعلق بين الكامل وغير الكامل، بين المحرك والمحرك، تماماً كعلاقة العبد بسيده والرئيس بمرؤوسه. فالإنسان عموماً عبد، بكونه مخلوقاً، لله، بكونه خالقاً^(١٧). وبالتالي فإن الحرية التي أُعطيت له، مهما كُبرت وسمت، فإنها تبقى عاجزة عن إضفاء صفة الاستقلالية عليه، فيبقى مرتبطاً بالله بمفهوم أوسع وأكثر شمولية. «ان رفض الإنسان لطاعة الله وعدم تطابق الإرادة البشرية بالإرادة الهية - وهذا ما نسميه الحرية - ليس إلا شكلاً آخر أكثر ليونة لمفهوم الارتباط الكوني La dépendance universelle»^(١٨).

فضلاً عن هذه التفسيرات الاونتولوجية، يرى القديس باسيليوس ان لا قيمة لأخلاقية بدون الله. فاذا كان يريد ان يثبت مفهوماً أدبياً (أخلاقياً) في مواعظه وإرشاداته، فانه لا يستطيع إلا ربطه بحقيقة الوجود الإلهي، وبالتالي تبيان قيمة العمل الإنساني انطلاقاً من هذه الحقيقة بالذات. يبقى ان نقول ان الأحكام الالهية لا سبيل لأحد أن يسبر أغوارها ويدرك كنهها، كما يقول النبي: «ان أفكاري ليست أفكاركم ولا طرقكم طرقى يقول الرب» (اشعيا ٥٥/٨).

«الله لم يصنع الشر، يقول باسيليوس. فاذا لم يكن من أحد يراقب ويكافئ كلاً حسب استحقاقاته أو يجازيه على شروعه، فن يمنع اضطهاد المظلوم وذبح اليتامى وقتل الأرملة والغرباء؟ ومن يردع المجرمين ويتصدى للأطاع والشهوات؟»^(١٩) فالله إذن في نظر القديس باسيليوس مبدئ الحياة وخالق الأشياء والموحي الأول والوحيد لحياتنا الأخلاقية.

شرحنا النظرة المبدئية «لعبودية» الإنسان - وعذراً من القارئ لإحداثنا انزلاقاً سريعاً في مفهوم العبودية - فالقديس باسيليوس قد يكون استوحى كلمة الرسول «انتم ايها الاخوة دُعيت الى الحرية» (غلا ٥/١٣) ليقول ان الانسان قادر ان يرتفع من العبودية (التبعية) الى الخضوع البنوي. وهذه الفكرة المسيحية يشدد عليها كثيراً، إذ نحن عبيد للأهواء الدنيوية، لأطاعنا وجشعنا، وحريرتنا الحقيقية لن نقوم إلا بانتهاج طرق الخير والتسامي في بلوغ المراتب السماوية.

على كل حال، مهما تعددت الشروحات، فإن البشر بأجمعهم، كونهم مخلوقات لا تميز بينهم خاضعون لمبدأ التبعية، هم متساوون أصلاً في كل شيء، وهذه الفكرة عند القديس باسيليوس ترتدي طابعاً خاصاً وتستدعي بالمقابل مساواة في الحقوق الاجتماعية

ومساواة في الملكية ، اذ ان الخيرات التي وهبنا إياها الله تعالى هي للجميع على السواء دون تفرقة. على كل سنرجع الى هذه الفكرة في كلامنا عن الملكية والثروة.

وهكذا يعمل القديس باسيليوس دائماً للوصول الى غايته ، فيسلسل الأفكار ويفسّر النصوص بوحى من قناعاته الذاتية المستمدة طبعاً من صميم الكتاب المقدس والحياة المسيحية.

ب - نظرتة الى الحياة الجماعية :

ويصل قديسنا أخيراً في تناغم فكري الى تثبيت ضرورة الحياة الاجتماعية. وهذه النقطة مهمة جداً ، لأنه على أساسها ترتكز علاقات الإنسان بما فيها من تشابك وتعتيد ، وبالتالي يجد كلام باسيليوس التوجيهي والتنظيمي معناه الكامل. فبعد ان استعرضنا بطريقة واضحة ماهية الإنسان في فكر باسيليوس ، ووضعناه في إطاره الباسيلي في ما يختص بأبعاده التكوينية ، ها نحن الآن نحاول ان ننظر ايضاً من خلال باسيليوس الى وجوده المحسوس في أطر واقعية لا تمت الى النظرات التأملية بأية صلة. فالإنسان هنا ليس الإنسان المجهول العام ، وانما الإنسان الواقعي ، أعني كل واحد بمفرده ، بالنظر الى مقياس الكثرة ؛ انه الإنسان الذي وجد مع انسان آخر ليحيا معه ويتقاسم وإياه أتعاب الحياة في تعاون متبادل لحلّ مشاكلها وتعتيداتها.

ينطلق قديسنا الكبير من كلام السيّد المسيح القائل : «أحب الرب إلهك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع ذهرك. تلك هي الوصية الكبرى والأولى والثانية مثلها : أحب قريبك حبك لنفسك» (متى ٢٢/٣٧-٣٩) (٢٠). إذن السيّد المسيح أوصانا بالقرب ، وهذا يعني ان عمل الإنسان لا يكتمل إلا إذا أخذ بعين الاعتبار مصلحة القريب ، محترماً حريته ومتوافقاً مع مبادئه الصالحة. ولكنه يعني اكثر من ذلك ، فالحبة للقريب تفترض وجوده في زمان ومكان وضمن جماعة معينة ، لكي تصبح المحبة عملاً واقعياً لا هدفاً خيالياً او مثلاً لا انعكاس له. وبالتالي الحياة الجماعية هي ضرورة وجودية لا غنى عنها. وبهذا المعنى يقول القديس باسيليوس :

«من ذا لا يعلم ان الإنسان حيوان أنيس واجتماعي لا متوحش وانفرادي؟ ليس شيء يختص بطبيعتنا مثل تعلق بعضنا ببعض واحتياج أحدنا الى الآخر ومحبة كل منا لأبناء نوعه. فيحق لله ان يطلب منا ثمار ما غرسه فينا وان يقول : «اني اعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً»

(يو ١٣/٢٤) (٢١). ولشدة رغبته وتفضيله للحياة الاجتماعية، راح اسقف قيصرية يستوحي من الطبيعة ومخلوقاتنا صوراً وأوصافاً يتمثل بها حياة الناس مع بعضهم البعض. فيها هو يشبه الحياة المشتركة بخلية النحل التي كلّها حركة وحياة، يعيش فيها النحل كلّ، يعملون معاً وينطلقون معاً وليس لهم إلا عمل واحد وهدف واحد (٢٢)، او بالخفاش الذي «يتبادل الحب بطبيعته، فزراه يتعلّق معاً الواحد تلو الآخر بشكل سلسلة دليل وحدة وتضامن» (٢٣).

ومن هذه الاستعارات الطبيعية، يلاحظ الى أي حدّ ينطلق القديس باسيليوس في تحديد الحياة الاجتماعية واضفاء طابع خاص على أسسها ومفاهيمها. فانطلاقاً من مبدأ المحبة المسيحية، ترسم بوضوح مسلكية الانسان وتقيم أعماله وكل خطواته العملية؛ ففي الفرح كما في الحزن، في الضيق أم في الراحة، في القلق أم في السلام، تتمحّص أفعال الإنسان وتمتحن نواياه. اننا نعيش في جماعة واحدة، نؤلف جسداً واحداً، كما قال الرسول، ولكل عضو وظيفته الخاصة، «فاذا تألم عضو تألمت معه سائر الاعضاء، وان اكرم عضو فرح معه سائر الأعضاء» (١ كور ١٢/٢٦). هذا هو الأساس الحقيقي والراسخ للحياة المسيحية الاجتماعية. ان ما يريده باسيليوس هو هذه الوحدة وهذا التضامن الذي يكفل للمجتمع المسيحي نظامه ويؤمن له استمراريته تبعاً لمشيئة السيد المسيح، إن على الصعيد الروحي أو على الصعيد المادي. فالمطلوب إذن ان يتعاون الجميع لتلبية حاجات بعضهم البعض، «لانه ليس احد منا يقدر ان يقوم وحده بكل حاجاته الجسدية، بل نحتاج بعضنا الى بعض لقضاء تلك الحاجات» (٢٤)، وبالتالي علينا الاهتمام بمصالح بعضنا البعض دون تنازع. هذا دليل على اننا فعلاً أعضاء جسد واحد رأسه المسيح، تتلاءم فيه الأعضاء مع بعضها البعض وتنسّق الوظائف كلّها بانتظام (٢٥).

على ان كل فرد من أفراد المجتمع خصّ بمواهب معينة، قد تختلف عن مواهب أخرى منحت لأفراد آخرين. لذا من الواجب ان تشترك هذه المواهب كافة، فيصبح كل إنسان نافعاً بما عنده من هبات خاصة، وفي نفس الوقت يجد ما نقص عنده في مواهب الآخرين، يعني «ان الانسان في العيشة الاجتماعية لا يتمتع بموهبته الخصوصية فقط، بل يضاعفها بشارك الآخرين فيها ويحتني ثمرًا من مواهبهم كما يحتني من موهبته» (٢٦). «ولكن الإنسان الذي ينحني في ذاته ما منحه الله من النعم والمواهب ولا يشرك سواه في فوائدها يُدان كأنه دفن وزنته» (٢٧).

كما يرى قديسنا الكبير ان ضرورة الحياة الاجتماعية تقوم على انها الميدان الوحيد الذي تُطبّق فيه التعاليم الالهية وتمارس فيه الفضائل السماوية: «فالذي ليس له من يجعل نفسه أشدّ تواضعاً منه لمن يبدي تواضعه؟ ومن هو معترل عن عشرة الجمهور على من يشفق؟ ومن ليس له من

يقاوم ارادته كيف يروض نفسه على الصبر؟» فان زعم احد ان تعليم الكتب الالهية يكفي لإصلاح العادات الفاسدة فيكون مثله مثل من تعلم حرفة البناء ولم يبن قط او مثل من تعلم الحدادة ولم يمارسها البتة. وفي مثل هؤلاء يصح قول الرسول: «ليس السامعون للناموس هم أبرار عند الله، بل العاملون بالناموس هم يبررون» (رو ٢/١٣) (٢٨).

واذا كانت الحياة المشتركة ان نكون متّحدين بعضنا ببعض في جسد واحد، فان التضامن الاجتماعي يصبح بالتالي ضرورة ماسة للحفاظ على التماسك والإبقاء على هذه الوحدة؛ هذا هو الرابط الذي يظهر وجوده على الصعيد الأخلاقي كما على الصعيد الاجتماعي، ويكون تجاهله أمراً خطيراً يعرض الناس الى نتائج لا تُحمد عقباه.

اما في ما يختص بالوضع الاجتماعي، فإن القديس باسيليوس يحارب بكل قسوة أعمال الاستغلال التي يمارسها الأقوياء ضد الضعفاء فيسلبونهم حتى أجسادهم، ويستعبدونهم كما سزى. ولكنه يريد، ضمن نسبة معينة لاثقة بوجود إنساني كريم، ان يقتنع كل انسان بما قسم له، فلا يطمح بداعي الكبرياء والمجد الباطل الى طلب العلى والكرامات الدنيوية، بل لينظر كل واحد الى حاله ويشكر الله على نعمه وعلى عطايه التي من بها عليه. واذا كان من إنسان أحسن حالاً من آخر، فذلك لأنه من غير الممكن وضع مقياس واحد بين جميع البشر: «فالبعض ينالون نعماً أكثر ويشمرون ثمراً أكثر، والبعض ينالون ويشمرون اقل كما يتضح ذلك من قول الرب: «الذي زرع في الأرض الجيدة هو الذي يسمع الكلمة ويفهمها ويأتي بثمار جيدة الواحد مئة والآخر ستين والآخر ثلاثين» (متى ١٣/٢٣)، ويتضح ذلك أيضاً في مثل الوزنات التي قال عنها الرب: «أعطى الواحد خمس وزنات والآخر وزنيتين والآخر وزنة» (متى ١٥/٢٥) (٢٩). فلا نتعجب اذن مما في المجتمع من تفاوت في الاستحقاق، او نتأثرن من عدم تطابق طبيعي في الحالات الاجتماعية، كأن يتعذب التزيه ويتألم الحكيم، بينما المحتال أو الشرير يعيش في مجبوحة وراحة، ولا نفكرن قط بهذا الأمر، بل بالأحرى «طوبى لمن لا يشك بالله ولن تفلت نفسه من قيود الخيرات الحاضرة لترنو بشوق كبير الى الخيرات المستقبلية» (٣٠).

على كل حال، اذا عدنا الى فكرتنا السابقة عن التبعية التكوينية، نقول انه بالرغم من هذه الاختلافات السطحية، إن في المعطيات الذاتية أو الخيرات المادية الخارجية، أو أيضاً في الأوضاع الاجتماعية، فإن مبدأ مساواتنا الأصلي يبقى صحيحاً وأساسياً، لأننا كلنا عبيد لله وخدامه. وقد نبهنا السيد المسيح الى أننا لن ندخل ملكوت السماوات إن لم

تعتمد علاقتنا المتبادلة على روح المساواة الذي عند الأطفال (متى ١٨/٣). كما أنه بالرغم من وجود اللامساواة الاجتماعية، فإن الإنسان يحتفظ بكل امتيازاته. فالقديس باسيليوس لا يرضى بأن يُضحى بالفرد الإنساني لحساب المجتمع ولا بالمجتمع لحساب الإنسان، هو الذي رأيناه يبرز بكل قوة أهمية الكائن البشري ورفعة كرامته، وفي نفس الوقت أهمية الحياة الاجتماعية. إن الإنسان وجد ليحيا ضمن جماعة منظّمة، أي المجتمع، ولكن المجتمع وجد هو أيضاً للإنسان، والإنسان والمجتمع هما في خدمة الله الذي أوجد بينهما هذا التناغم والائتلاف. وعلى هذا يبقى الأسياد والعبيد كلهم، رغم احتفاظهم بحرية الاختيار، رفاقاً في العبودية يحيطون أنفسهم بنفس الاعتبار إذا كانوا يريدون فعلاً بلوغ ملكوت السماوات (٣١).

هذه إذن نظرة عامة تنطلق من مفهوم باسيليوس عن الحياة الرهبانية ألقيناها مع أسقف قيصرية على مبدأ الحياة الاجتماعية ووضعية الإنسان ضمن هذه الحياة التي استقى كل مبادئها من التعاليم المسيحية التي نصب نفسه كارزاً لها. يبقى علينا أن نستعرض بعض الأسس الواقعية التي بدونها لا يستقيم مجتمع ولا تدوم حياة شريفة ومكرّمة. وسوف نستعرض كذلك بعض المبادئ الضرورية لبناء مجتمع مسيحي متكامل، مع الأخذ بعين الاعتبار كل الخطوات المسلكية والحياتية التي عمل القديس باسيليوس على إرساء قواعدها في النفوس.

ج - نظره الى الزواج :

الزواج فعل طبيعي وُجد منذ وجود الإنسان؛ هو اتحاد شخصين، رجل وامرأة، بغية إنجاب البنين وتعاونهما لأجل تربيتهن وإنشاء عائلة كريمة. ولقد اتخذ الزواج، على مرّ العصور، مفاهيم متعدّدة، وتقلّب تقديره من جيل إلى جيل، وتراوحت قيمته حسب الطابع الذي كان يرتديه. فنذ كلام الله الى آدم وحواء بعد السقطة: «انموا واكثروا واملأوا الأرض...» الى أجيال العهد القديم الى عصر المسيحية ذات النظرات القدسية، تدرج مفهوم الزواج وتغيّرت أطره القانونية وتشريعاته تبعاً للعقلية السائدة وللنظرة الاجتماعية التي تميّزها. ومهما يكن من وضع الزواج في العهد القديم، فإن ما يهّمنا هو تلك الهالة الخاصة التي أحيط بها الزواج في المسيحية. ويكفي أن نذكر قول السيّد له المجد: «من طلق امرأته إلا لعلّة زنى...» (متى ٥/٢٢) لتبيّن مقدار الأهمية التي خصّها بها السيّد المسيح

الرابط الزوجي ، اذ هو ثابت الى الأبد . وما تشبيه الرسول بولس الاتحاد في الزواج باتحاد المسيح بالكنيسة (أفسس ٥/٢١-٣٢) إلا دليل هو غاية في الوضوح على قدسية الزواج وسمو كرامته في الديانة المسيحية . وهذا ما حدا بالكنيسة فيما بعد لرفعه الى درجة السر المقدس . فلا بد من احترام الزواج والحفاظ على قيمته الشريفة ، فقد أوصى الرسول بذلك عندما قال : «ليكن الزواج مكرماً عند جميع الناس ، وليكن الفراش بريئاً من الدنس ، فإن الله سيدين الزناة والفساق» (عب ١٣/٤) .

والزواج قيمة اجتماعية إذ به يتم تأسيس العائلة التي تعتبر النواة الأساسية لحياة المجتمع وتنظيمه . وسنرى معاً كيف عالج القديس باسيليوس هذا الموضوع ، وما هي الاعتبارات التي أوردتها بهذا الخصوص ، راسمين الخطوط الكبرى التي رآها مناسبة ومتوافقة مع المبدأ المسيحي والتي تعتبر في هذا المنحى أسساً ثابتة لمجتمع مسيحي فاضل .

كانت نظرة القديس باسيليوس بالطبع نظرة مسيحية صميمة تعتبر الزواج من أقدس ما في حياة الإنسان ، يحمل في طياته معاني التكريس والعطاء . واذا كان باسيليوس يميل إجمالاً الى اعتبار حياة العفة والبتولية ، فإن الزواج بقي يحتل في عرّفه ميزة خاصة ذات شرع لا يقبل أي تساهل مهما يكن .

من هذا المنطلق ، راح اسقف قيصرية يستوحي آراءه من أقوال القديس بولس الداعية أولاً وقبل كل شيء الى فعل تكريس كامل لله ، وفي هذا يميل باسيليوس الى اعتبار حتمي ، ولكنه اختيار مبدئي حر ، لواقع البتولية ، فيذكر في رسالته الى ديودورس انه «بالنسبة إليّ ، فإن من يطلب مني نصيحة ما عن الزواج ، أفيده بأن وجه هذا العالم في تغير والزمان قصير ، حتى ان الذين هم نساء يكونون كأن لا نساء لهم» . واذا ذكرني أحدهم بقول الكتاب «أنموا واكثروا» ، اسخر منه لأنه لا يعرف أن يميز الظروف التي أوجبت مثل هذه الأقوال» (٣٢) .

فضلاً عن ذلك ، فان اعتبار الحالتين معاً أمر مستحيل ؛ فهو يذكر في السؤال الخامس من قوانينه المطوّلة : «ان الرسول مع علمه بأن الزواج مباح وقد أهل للبركة قد عارض بين الاهتمام فيما للرب والاهتمام فيما للزواج لصعوبة الجمع بينهما قائلاً : «ان غير المتزوج يهتم فيما للرب ، أما المتزوج فيهتم للعالم كيف يرضي امرأته» (١كور ٧/٣٢-٣٣) .

فانطلاقاً ممّا تقدّم ، هل يجب قطع كل الربط التي تميل بنا الى العالم اذا كنا نريد العيش بمعية الله؟ نعم ، يجب باسيليوس : «ينبغي لمن يريد ان يتبع الله حقاً أن يتملص من ربط هذه الحياة وذلك بالجزلة التامة ونسيان العادات القديمة» (٣٤) .

هذه على كل حال نظرة باسيلية لا حالة تفرض نفسها ؛ انها نصيحة ليس إلا مستقاة من روح تعليم المسيح والرسول . وربّ ناقد يقول : اذا اتبع الجميع نصيحة باسيليوس ، فماذا يكون من العالم ؟ انه يزول اذ لا نمو ولا تكاثر ؟ ... بالحقيقة ان باسيليوس لا يرى أي خطر في ان يتبع كل البشر طرق الكمال . قد يكون ان أسقف قيصرية يفكر بأن قرب نهاية العالم تبطل مثل هذه الاتهامات . على كل حال ، لا يؤكّد شيئاً بهذا الخصوص ، وانما يعتبر احداث زمانه مؤشراً للخراب الأخير : « ان مجرد طفل يدرك بأن ما يحدث الآن ينذر بالجحود الذي يهدّنا »^(٣٥) . مثل هذه التخمينات يعتقد انها دعوة غير مباشرة الى اتباع طريق الكمال بالتخلّي عن أفراح الزواج لخدمة الله تعالى وحده .

مهما يكن من أمر ، فلا ينبغي لنا أن نأخذ اعتبارات القديس باسيليوس هذه وكأنها صادرة عن إنسان مزدور او محتقر للزواج ، كلا ، انما هو يدعو الى سلوك طريق اكمل يرضي الله . ومع ذلك ، يقرّ بالزواج كدعوة انسانية ذات وجود أساسي ، ويستوحى كلام القديس بولس فيذكر الرجال بواجباتهم تجاه نسائهم ، « ليجبّوهم كما أحبّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه عنها ليجعلها مقدسة ... والنساء بأن يخضعن لأزواجهنّ كما للرب » (افسس ٥/٢٢-٢٦) ، فيجدن باستحقاق أعمالهن الصالحة البهاء الحقيقي اللائق بالنساء المسيحيّات . وبإظهاره لهن مثال الاتحاد الزوجي الكامل في صورة اتحاد المسيح بالكنيسة ، يحبي باسيليوس شرف الزواج المسيحي وسموّ كرامته .

بالإضافة الى ذلك ، يحاول القديس باسيليوس في بعض رسائله ان يوضّح النقاط بما يختص بحالات زواجية متنوعة لا مجال للخوض بها الآن ؛ انها حالات مستقاة من كتاب العهد القديم يعمل أسقفنا الكبير على تفسيرها وشرحها طبقاً للأوضاع والظروف السائدة آنذاك ، بائتلاف مع التفكير الاجتماعي المسيحي لذلك الوقت . انما نذكر أمراً عاماً وهو ان أسقف قيصرية كان يريد دوماً الإقرار بقوة الرابط الزوجي ، وبمدى الاتحاد العميق الذي يحدثه فعل الزواج . فالزوج والزوجة هما في ترابط وثيق لا انفصام له ، يتقاسمان الحياة متحمّلين أعباء مسؤوليتيها المشتركة . يقول في إحدى مواعظه :

« أيها الرجال ، أحبّوا نساكم . (أفسس ٥/٢٥) . فقد كنتم غرباء عن بعضكم البعض ، ولكنكم جُمعتم بشركة الزواج . لتكن هذه الرابطة الطبيعية ، هذا النير الذي وُضع عليكم بفعل البركة الزوجية ، صلة وصل تجمع فيما بينكم رغم المسافات »^(٣٦) . هذه حقيقة مهمّة لم يرد باسيليوس أبداً التفريط بها ، اذ تقوم أصلاً في أساس بنية مجتمعية سليمة ، خالية من الانشاقات

العائلية والفوضى التي تمرّق لبّ اي مجتمع وتؤدّي به الى الانهيار.

واذا كانت اللحمة الزوجية قوية شديدة التماسك والفاعلية ، فإن التفكّك في الزواج يبقى بالتالي أمراً مستحيلاً. وهذا الأمر شدّد عليه كثيراً القديس باسيليوس ، ولم يسمح ابداً بفصم الرابط الزوجي لأن «ينبغي على الرجل أن لا يفصل عن امرأته وكذلك المرأة عن رجلها ، إلا اذا تعرّض أحدهما لفعل الزنى ، وكان للآخر عائقاً في طريق التقوى. كما انه لا يجوز لمن أبعد زوجته أن يتزوّج أخرى ولا للزوجة المنفصلة ان تعقد زواجاً آخر» (٣٧).

إذن ، هناك سببان شرعيّان للفصل في الزواج في نظر القديس باسيليوس الزنى والخطر الذي قد تعرّض له خلاص الزوج الأبديّ بسبب الحياة الزوجية ؛ اما الطلاق فلا يسمح به بتاتاً. فلا الرجل ولا المرأة باستطاعتها عند انفصالها ان يعقدا زواجاً جديداً ، لأن حالتها متشابهة. وقد جعل باسيليوس من هذا الأمر قاعدة مطلقة لا تقبل التعديل. واذا راجعنا الرسائل القانونية التي يتكلّم فيها أسقف قيصرية عن الحالات المختلفة للزواج والظروف الجائر حدوثها له ، نتبيّن انه يقسو نوعاً ما على فعل المرأة متبّعاً التقاليد المعمول بها ، مع انه يصرّح «بأن كلام السيّد المسيح الذي يمنع فصل الزواج إلا بحالة زنى ينطبق على الرجل والمرأة طراً ، اذا أردنا اعتبار التسلسل المنطقي لهذه الفكرة» (٣٨). وبالمقابل يظهر التشريع الذي يشهد له باسيليوس تسامحاً كبيراً تجاه الرجل. فلماذا اذن هذا التفاوت في الاعتبار والشروط ؟

مع ان باسيليوس يحاول ان يجعل كلام السيّد المسيح مثاله في قواعده الأخلاقية داعياً المؤمنين في وعظه الى اتباع روح الوصايا بدون تردّد ، فانه لم يستطع ان يجابه الأعراف التقليدية المعمول بها ، حتى انه لم يتجرأ على الخوض بعيداً عن حرفية النصوص الكتابية. «اننا نلاحظ في عصر القديس باسيليوس احياء لبقايا افكار قديمة كانت أشد قساوة على ضعف المرأة منها على ضعف الرجل. ومع ان باسيليوس يقول بانطباق كلام المسيح على الرجال والنساء على السواء ، فانه يستعين دوماً بالأحكام والعادات القديمة التي تشدّد كثيراً على أفعال المرأة وتسامح مع أفعال الرجل» (٣٩).

على كل حال ، لا يمكننا ابداً اعتبار باسيليوس شاهداً ضدّ حقوق المرأة في هذا المجال ، هو الذي رأيناه في البدء محامياً عن كرامتها وقيمتها الانسانية. ولا يمكننا ان نحديه عن خطّه الأساسي الداعي الى المساواة في كل شيء لبناء مجتمع أفضل. ان أخلاقياته ترتكز على كلام الإنجيل ومبادئها مستمدة منه. ولذا فإننا نراه ، مع تأثيره وعدم مقدرته

على توفيق كلام الكتاب المقدس ، يرجع دوماً الى انتباه خطه المبدي ، عندما يكتشف الغموض نصوص الكتاب ولا يتردد في تخفيف الأحكام التي تنتصر لها التقاليد والعادات (٤٠).

واخيراً ، يبدو من المستحسن ان نكمل بحثنا في هذا الموضوع بكلمة سريعة عن الزواج والحياة الرهبانية. لقد بذل باسيليوس قصارى جهده للتوفيق بين هاتين الحالتين ، نظراً للصعوبة التي تستجد من جراء ذلك ، وإلا وقع في تناقض ذاتي لم نجده أبداً في تعليمه ومؤلفاته. يجيب عن هذه القضية بقوله :

« اذا تقدّم احد المقتربين بالزواج طالباً الانتظام في سلكنا الرهباني فعلينا ان نسأله هل فعل ذلك برضى قريبه كوصية الرسول القائل : « انه لا يتسلط على جسده » (١ كور ٧/٤). فاذا ثبت انه صنع ما يجب عليه ينبغي ان نقبله أمام شهود كثيرين ، لأنه لا شيء يقدم على الطاعة لله. أما اذا أبى القرين الآخر ولم يهتم مثل اهتمام ذلك بمرضاة الله ، فلنتذكر قول الرسول : « انما دعانا الله الى السلام » (١ كور ٧/١٥) ، ولنتم وصية الرب القائل : « ان كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامراته وبنيه ... فلا يستطيع ان يكون لي تلميذاً » (لو ١٤/٢٦) ، لأنه لا يسوغ ان يفضل شيء على الطاعة لله » (٤١).

فهل استطاع باسيليوس حلّ هذه المسألة؟ قد يكون ولكنّه حلّ مشروط . فلا شيء قطعي اذن. وما علينا إلا أن ننق بالعناية الالهية ونسلم أمرنا الى الله وما لنا إلا الانتظار.

ومجمل الكلام ان صعوبات كثيرة اعترضت القديس باسيليوس في معالجته موضوع الزواج. انه موضوع معقد متأصل في الماضي ، ذو تشريعات مختلفة جداً واحياناً متشابكة لم تكن دون تأثير عليه. ولا بدّ من التنويه الى ان باسيليوس لم يتكلّم كثيراً عن الزواج في خطبه ، إلا أننا نلاحظ لديه بعض إدخالات جديدة كإشارته الى التناقضات السابقة وايضاحه في الغامضات وتخفيفه من العقوبات.

يبقى أن نشير إلى أن الزواج لم يفقد إطلاقاً من قيمته الأخلاقية مع القديس باسيليوس. فهو لم يشجب ولم يحتقر البتّة الاتحاد الزوجي ، وبالتالي لم يسمح ابداً بالطلاق. ورغم عدم التوازن في القيود والأحكام المفروضة على الرجل والمرأة ، فإن الزواج المستحيل تفككه يبقى العامل الأول والأساسي في الحفاظ على ثبات العائلة وديمومتها.

د - نظرتة الى العائلة :

العائلة كما يحددها علماء الاجتماع هي نواة المجتمع ؛ وهي نقطة الانطلاق في تحديد وجوده ، وعليها يركز قواعده ومقوماته وفيها يجد كل معناه . وبما ان العائلة انعكاس للمجتمع الكبير وصورة مصغرة له ، فإن استقراره يكون من استقرارها وتوازنه من توازنها . لذا فإن أي إصلاح يؤول الى ديمومة المجتمع واستمراريته يجب ان يبدأ أولاً بهذه الخلية الأساسية التي هي وحدها كفيلة بضمان صحته وتزهره عن الشر والفساد .

ولتأمين التوازن العائلي ، يجب أن يتمتع كل فرد بنوع من الحرية يتناسب مع وضعه ، خصوصاً ان يحتفظ بقيمته الإنسانية وبحقوقه البشرية التي بدونها يحصل الخلل والبلبل . وهذا ما كنّا نشهده بالنسبة الى المرأة في المجتمع الوثني ، كما ذكرنا آنفاً . فكانت النظرة المسيحية محاولة تأهيل لهذه المرأة ورفعها الى مستوى مشرف يبعد عنها الفروقات ويحفظ لها كرامتها . عرف باسيليوس ان الطبيعة جعلت المرأة أضعف من الرجل جسدياً وفي هذا خاضعة له ، ويتكلم عن «الجبانة»^(٤٢) الانثوية ، وأكد مع القديس بولس بأن للرجل في العائلة دور الأمر وللمرأة أن تطيع في إطار المحبة المسيحية ، ولكنه لم يقف عند هذا التأكيد فقط ، بل راح يجاهر علانية طالباً بإلحاح المساواة الأساسية بين الرجل والمرأة . لن نعود ثانية الى تفصيل هذه الفكرة ، ولكننا نقول ان باسيليوس استوحى من حياته امثلة واقعية عن نساء كنّ كالرجال شجاعة واندفاعاً للتضحية في سبيل المسيح ، أي جدته القديسة ماكرينا وأمه اميليا . وفي موعظته عن استشهاد القديسة جوليتا ، يذكر بلسانها ما كان يدعو لأجله :

«اننا من نفس طينة الرجال ، نقول الشهيذة محرّضة رفيقاتها الذاهبات معها الى العذاب . ومثلهم خلقنا على صورة الله . نعم ، ان المرأة قادرة على العمل بالفضيلة كالرجال : هكذا أراد الخالق . وما نحن في كل شيء سوى شريكات لهم . ان الله لم يأخذ فقط من لحم آدم ليصنع حواء وانما هي «عظم من عظامه» (تك ٢/٢٣) . لذا نحن مديونات لله الأزلي بالإكرام في صمودنا ، في قوتنا وفي صبرنا بنفس المقدار مع الرجال»^(٤٣) .

هكذا أبان باسيليوس مرة ثانية القيمة الحقيقية للمرأة في مجتمع تظلم كثيراً ضد حقوقها وخط من كرامتها ، فكانت ردّة فعله قويّة ، واذا هي في نظره ، مع خضوعها المسيحي السامي لزوجها ، ملكة العائلة وزينتها .

أما الرجل فهو رب البيت وهو الوجه والمرشد في كل شيء ، له حقوق كما عليه

واجبات . وإذا كان التقليد ينتصر له في قضايا الزواج ، كما رأينا ، فذاك لا يعني انه بعيد عن كل واجب أو مسؤولية عائلية . على الرجل أن يهتم قبل كل شيء بعائلته و«يحب زوجته كما أحب المسيح الكنيسة وبذل نفسه عنها»^(٤٤) . و«كما ان الحياة تفرغ سمها خارجاً احتراماً للزواج ، كذلك على الزوج ان يتخلى عن جفاء أطباعه اللإنسانية أحياناً احتراماً للرابطة الزوجية»^(٤٥) .

أمّا بالنسبة الى الأولاد ، فقد عمل باسيليوس جاهداً لإسقاط تلك العادة المشينة التي تسمح للآباء بعرض أولادهم للبيع . انه يعيب على الذين يبيعون أولادهم مدّعين انهم في عوز وضيق . فالولد هو كائن بشري ، له حقوق لا يجوز ابداً تجاهلها . وفعلًا فقد استطاع اسقف قيصرية ان ينتزع من الإمبراطور قراراً صريحاً يدين أعمال بيع الأولاد . ثم راح يبين حقوقهم المشروعة في مختلف ميادين الحياة . اولاً وقبل كل شيء حقهم الطبيعي بالحياة ، ثم حقهم بالحرية في هذه الحياة ، مما يبعد عنهم كل أنواع الخضوع الاستعبادي ، وحقهم كذلك بأن يتلقوا تربية صالحة تساعدهم على النمو المتكامل في حياتهم . وفي هذا الموضوع ، يستبين عالمنا الاجتماعي القديس رجل المبدأ الثابت الصادر عن اقتناع شخصي لا يلتوي ولا يلين . اذا كان الفرد الإنساني ، خليفة الله ، ذا قيمة شريفة بحد ذاته من حيث المبدأ ، فهل بمقدورنا ان ننكر ذلك على الولد؟ واذا كانت القيمة الإنسانية وحدة مجردة وغير مجزأة ، فهل نستطيع ان نحدد زمناً لاكتماها؟ انه لعمرى من المستحيل ان نميز في خلائق الله من حيث هي مخلوقات ، وبالتالي لا نستطيع ان نخضع القيمة البشرية هذه لأوزان ومقاييس .

بالنسبة الى حق الولد بالحياة ، يسعى القديس باسيليوس في رسائله الى تشريع القوانين التي تفتح للطفل طرق الخروج الى النور ، وتحفظ له الحياة التي وهبها مذ تلاحم الخلايا المكونة . فهو يحارب الاجهاض كما ينتفض ضد هجر المولودين الجدد ، معتبراً ذلك جرائم تستحق العقاب . ان حق الطفل بأن يولد هو حق مقدس ، ولا يقل حقه بحفظ حياته اهمية عن ذلك . «فالمرأة التي تلد في الطريق ثم تهجر طفلها تنهم باقتراف جريمة القتل»^(٤٦) . يجب عليها أن تبرّر فعلها هذا ؛ «فاذا كانت قد اهملت بينا هي قادرة على تخليصه ، او لأنها تأمل بأن تسرّ خطأها او أيضاً بسبب تفكيرها اللإنساني ، فلتعتبر قاتلة ولتحاكم على هذا الأساس»^(٤٧) .

ثم يتابع الأسقف دفاعه فيهاجم قساوة قلوب الآباء الذين يعرضون أولادهم للبيع لمصالح شخصية ورغبات أنانية ، فيقول مشبهاً في إحدى مواضعه عن الخلق : «ان النسر

يتظلم كثيراً ضدّ ذريته، فن فرحين يولدان الى النور، يلقي احدهما الى الأرض دافعاً إياه بجناحه، ويحتفظ بالآخر. هكذا ينبذ بعض الآباء أولادهم مدّعين انهم غير قادرين على إعالتهم، أو يعرضونهم للبيع تحت حجة عوزهم وفقرهم» (٤٨).

فليس الأولاد إذن بمنأى عن أي تظلم. فإذا قيض لهم ان ينجوا من موت محتم فانهم غالباً ما يكونون سلعة تجارية يتبادلها الأغنياء والأقوياء. في كلا الأمرين هم معدومو الحرية ويعيشون في عبودية مرغمة. هل كتب هؤلاء التعساء الصغار ذاك المصير المشؤوم؟ وما ذنبهم ليكونوا أداة لإرادية في أيدي الأقوياء العدائي الشفقة؟ لا ذنب لهم بل هو ذنب آبائهم عليهم. فهم يُباعون ويُشترىون ليوفوا ديون آبائهم: «لقد رأيت مشهداً حزيباً، يقول باسيليوس، أولاداً سيقوا الى البيع ليوفوا ديون ذويهم!» (٤٩).

لم يستطع أسقف قيصريّة أن يقف مكتوف الأيدي أمام تلك الفظاعات المشينة؛ فراح يصرخ في وجه أولئك الآباء القساة القلوب موبّخاً إياهم بشدّة على أعمالهم هذه البشعة التي بها يحرمون بنينهم من الحرية والسلام مدى الحياة، داعياً إياهم الى عدم عقد استدانات لا يقوون على تسديدها وإلا كانت لعنة أبوية على بنينهم وبني بنينهم.

ولكن ليس الأمر دوماً كذلك. فبعض الآباء تظلم الحياة في وجههم، وينقلب الدهر عليهم، فإذا هم في فقر مدقع وحالة من التعاسة يرثى لها. فلا أملاك عندهم ولا مال لهم يسدّون به عوزهم. فتراهم أمام خيارين مشؤومين لا ثالث لهما: إما بيع أولادهم وإما الموت للجميع. فما العمل في هذه الحالة البائسة؟! يورد القديس باسيليوس في هذا الخصوص وصفاً رائعاً ويحسّد فيه شعور أحد الآباء الذي دفع به الجوع الى عرض ولده للبيع. ان نفسه تتمزّق وهو حزين لا معين له. يحاول اسقفنا في هذا المشهد ان يفتح قلوب الأغنياء الى شقاء الفقراء ويحثهم على الشفقة والرحمة تجاه هؤلاء المساكين، فيقول:

«نظر الأب التبعس الى داخل بيته فألفاه خاوياً خالياً من كل شيء. فالأثاث والثياب التي عنده لا تساوي الشيء الزهيد... فما العمل؟ بدأ ينظر الى أحد أولاده ليعرضه للبيع، علّه يوقف زحف الموت الحتم! تصوّر اذن الحرب الداخلية التي تتجاذب نفسه وتهزّها بعنف: فعاطفته الأبوية تأبى عليه ذلك، ولكن الجوع يهدّد عائلته بخاطر مشؤوم... كثيراً ما قبل بالفكرة ثم تراجع عنها، وفي النهاية لم يستطع ان يصمد أمام سطوة الحاجة القوية. وعندها راحت عاطفته الوالدية تتمزّق قلبه دون هوادة: من أبيع أولاً من أولادي؟ الكبير؟ لكنني احترم فيه بكريته. الصغير؟ أرأف بسنّه فهو لم

يعرف بعد التعاسة والعذاب. هذا يحجي صورة أجداده وذاك موهوب للدرس. ما العمل؟ بمن أبدأ؟ كيف أتصدى لعاطفتي؟... ولكن اذا احتفظت بهم جميعاً ماتوا من الجوع! واذا بعت أحدهم كيف سينظر إليّ اخوته الباقون!... على كل حال، اذا صحّ ذلك، واشترت بيتاً، كيف أسكنه وقد جعلت فيه بنفسى أمكنة فارغة؟ اذا جلست على الطاولة الملائى بأصناف الاكل، كيف آكل وقد كان ولدي سبب وفرة الطعام هذه؟... وبعد أخذ وردّ عرض ابنه الحبيب للبيع. فكلّ ذلك، يضيف باسيليوس بحث، ألا يحرك في داخلك شيئاً، أيها الغني المتعجرف؟! «^(٥٠)».

بعد هذه اللوحة الحزنة التي فيها يرسم باسيليوس واقع الفقراء المرير مدافعاً ضمناً عن حقّ الولد بالحرية، والأب بالخيرات التي يحتكرها الأغنياء، يتابع باسيليوس كلامه عن حقوق البنين في العائلة والواجبات المترتبة عليهم. فحياة الكائن البشريّ متعدّدة الوجوه كثيرة المقومات، تلعب فيها عوامل عديدة تضني على الإنسان مسحة من حكمة وروحاً من فهم وتوازناً نفسياً واجتماعياً ينتج عن تربية بيتية صالحة. فأن يترك الولد دون توجيه ويهمل في ما هو بأمرّ الحاجة اليه، أعني التعليم والإرشاد، ذلك جريمة بحقّ الولد أولاً ثمّ بحقّ المجتمع الذي سوف يتقبّله ويلقيه في لجج أمواجه المتلاطمة. «يجب على الأهل، يقول علنا الأخلاقي، أن يهذبوا أولادهم بتصحيح خطأهم وإرشادهم بلطف ووداعة كما يريد السيد المسيح، مع العمل قدر المستطاع على عدم تبرير سوء أفعالهم» ^(٥١).

بالإضافة إلى ذلك، ينادي باسيليوس بتوزيع عادل لوسائل العيش على الأولاد؛ فليس أحد يتميّز بشيء عن الآخر، كلّهم واحد ولا تفضيل بينهم ^(٥٢). ولا نستغرب ذلك، اذ ليس من الصدفة أو من العبث بشيء أن يعظ باسيليوس هكذا، بالنظر الى ما تميّز به زمنه من عادات مخجلة، كعرض الأولاد للبيع، ممّا اعتبر أمراً طبيعياً نادى به حتى الفلاسفة ^(٥٣).

واذا كان للأولاد حقوق مهمّة وأساسية لا ينبغي لأحد أن يتجاهلها، فإن عليهم بالمقابل واجبات لا يجوز لهم التهرب منها. أولى هذه الواجبات هي إكرامهم لذويهم واهتمامهم بهم قدر الإمكان، فهم ولدوهم واعتنوا بهم وبذلوا جهدهم في سبيل تربيتهم التربية الحسنة. فبات عليهم لزماً أن يطيعوهم ويعملوا بإرادتهم في كل ما لا يعاكس ارادة الله تعالى. ويعرض لهم أسقف قيصرية مثلاً حياً من الطبيعة عن الحب النبوي الذي يجب ان يكنّه الأولاد لذويهم، اذ يكلمهم عن اللقلق الذي «يتحلّق حول أبيه الهرم، يدفاه بأجنحته ويؤمن له الغذاء بوفرة، وفي طيرانه يعاونه قدر المستطاع ممسكاً إياه من كل الجهات» ^(٥٤).

يستوحى باسيليوس من هذه المعطيات الطبيعية أمثلة واقعية لتنظيم مجتمعه الذي تسوده الفوضى وذلك بتنظيم العلاقات الأبوية- البنوية ضمن العائلة الواحدة. فالنظام الطبيعي الذي أراده الله للحيوانات بواسطة غرائزها ينقله باسيليوس محاولاً تطبيقه على الكائن البشري، فيقول:

«لا يمكننا أن ندرك مدى الحب المتبادل بين صغار الحيوانات وكبارها ضمن العائلة الواحدة، إذ إن الله الذي خلقها شاء أن يعوّض لها عن فقدان عقلها بجرارة عاطفتها. فكيف نفسّر معرفة الحمل الصغير لأمه بلونها وصوتها من بين آلاف الخراف؟ وكيف يسرع إليها للرضاع رغم شحّ اندائها، ومع أنه يمرّ في طريقه أمام كثير من النعاج ذوات الحليب الوافر؟ ثم كيف تعرف الأم صغيرها من بين آلاف الحملان، مع أن للجميع صوت واحد ولون واحد ورائحة واحدة، بحكم حاسة شمنا نحن؟ بالحقيقة إن لها في ذلك ما هو أخف بكثير وأشدّ حيوية من ذكائنا ولا نستطيع له تفسيراً...»^(٥٥).

وفي نفس الموعظة يتساءل باسيليوس عن معنى الاخلال بهذه النظم الطبيعية التي وضعها الله، فيقول:

«أيها الأولاد، أحبوا آباءكم. وانتم أيها الآباء لا تغضبوا أولادكم» (أفسس ٤/٦). أليس هذا ما تقوله الطبيعة؟ إن القديس بولس لا يعلم شيئاً جديداً، وإنما يعمل على توثيق الربط الطبيعية. وإذا كانت اللبوة تحبّ صغارها والذئب يدافع عن جراميده، فماذا نقول عن الإنسان الذي لا يعمل بهذه الوصية ويخرق نظام الطبيعة بعينه؟ كالولد يحتقر شيخوخة أبيه، أو كالأب ينسبه زواجه الثاني بنيه الأوائل؟...»^(٥٦).

إن البناء العائلي لا يكون متأسكاً إلا إذا ساد الاحترام والثقة بين الأهل وبينهم. وتشتدّ اللحمة العائلية بقدر اشتداد العاطفة التي تجمعهم بعضهم إلى بعض. «لا ننس أن مثل هذه الاعتبارات التي تبدو لنا بسيطة، يقول الأب ريفير، كانت تشكّل إحدى أكبر الثورات المسيحية على الحكمة الوثنية. ولذا فإن عالمنا الأخلاقي الكبير القديس باسيليوس يقدم هذا الدين المضاعف المترتب على الأهل وأولادهم كأ نموذج للناموس الطبيعي»^(٥٧).

يبقى لنا أن نعالج في هذا الفصل سؤالاً لا يخلو من الأهمية، لا بل أن أهميته تزداد بقدر ما تناوله آباء الكنيسة العظام الذين أتوا قبل أو بعد القديس باسيليوس. فأكثرهم حاربوا مبدأ العبودية الذي كان شائعاً في أيامهم، وعملوا على نقض الأنظمة الوثنية التي تبيح الرق والاستعباد، انطلاقاً من كلام السيد المسيح القائل: «لا أدعوكم بعد عبيداً بل أبناء» (يو ١٥/١٥). وإذا كانت الثورة المسيحية في هذا الميدان قد حاولت تحطيم كل

القيود التي كبّلت الإنسان طيلة أجيال وأجيال ، فإن الامحاء الشامل والتحقيق الكامل لم يحصل إلا بعد عدة قرون ، إذ من الصعب جداً ، كما يقول علماء الاجتماع الحديثون ، أن يستطيع الإنسان الانعتاق من المفاعيل والضغط التي يمارسها التقليد بأصلياته وعاداته . إن المسيحية ، كما يقول أحدهم ، نقضت جذرياً الأعمال الاستعبادية ، مساهمة في تعزية العبيد الارقاء والتخفيف من عذابهم المصيري المشؤوم^(٥٨) .

ومع ان باسيليوس لم ينتهج كلياً الخط التجديدي ، لكنّه غير جداً من المفاهيم والنظرات الوثنية في ما يختصّ بهذه المسألة . فهو يقبل هذا المبدأ محوراً إياه ، ويعطى العبيد بالطاعة لأسيادهم مذكراً إياهم دوماً « بأن الله هو أحقّ بالطاعة من الناس » (اعمال ٢٩/٥)^(٥٩) . ثم ينصح المعلمين بأن يرفقوا بإخوتهم هؤلاء ويخدموهم . انها أخلاقية واحدة تتوجّه إلى العبيد والأسياد طراً وتشقّ طريقها بتطوّر بطيء في العادات والمفاهيم حتى تبلغ أخيراً مرادها بإقرارها مبدأ استحالة ديمومة العبودية .

الجميع في نظر أسقف قيصرية متساوون أمام الله ، يقول في إحدى كتاباته اننا كلنا « رفاق عبودية »^(٦٠) ، إذ إننا خلّاتق الله وصنع يديه . فلا يعتبرن أي إنسان نفسه سيّداً على أخيه الإنسان الآخر فيعامل وإياه على هذا الأساس ؛ انما ولدنا بالمسيح الأخ الأكبر الذي ننشوق جميعاً لأن نحيا بقربه على مستوى واحد في عداد خرافه المختارة . ان الخليقة الجديدة التي حصلت بتجسّد الإله والنعمة التي استحققتها بموته على الصليب وافدائه إيانا إنما هي رفض للعبودية ، عبودية الجسد وعبودية الروح ، وارتفاع إلى العلى ، إلى بهجة التمتع بالحرية « حرية مجد أبناء الله » (رو ٨/٢١) .

فالحرية بمفهومها العام هي حقّ لكل إنسان ، ولا يحاول القديس باسيليوس قط أن يميّع تلك الحقيقة أو يتجاهلها ، إذ ان كرامة الإنسان التي سعى في قوله وعمله على رفع شأنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمبدأ الحرية وتتفاعل وإياه . ورُبّ سائل يقول : اذا كانت الكرامة الإنسانية لا تستقيم إلا بتوفير الحرية ، فلماذا يقبل باسيليوس مبدأ العبودية ولا يسعى إلى تقويض أسسه ؟ هنا نصل إلى لبّ المشكلة التي تطرّق إليها قديسنا الكبير .

لم يحكم باسيليوس على العبودية بكونها خضوعاً أخوياً ، بل قبلها مفسراً إياها على طريقته الخاصة ، ولكنّه رفض رفضاً باتاً قاطعاً العبودية الاستغلالية ، الاستعباد الرقيّ الذي يستعمل العنف وسيلة والإكراه المتجبر نهجاً . ان العبودية في شرعه هي وصاية من أب لابنه ، من أخ أكبر لأخ أصغر منه ؛ إنها خدمة لا تسلط . فالمعاملة يجب أن تكون بمحبة وبرفق أخوي ، أي على مثال ما فعل بولس مع اونيسيموس ، كاتباً إلى سيّده أن

يرفق به وقائلاً له : « لعله فارقك حيناً لتملكه مدى الدهر ، لا كعبد فيما بعد ، بل كمن هو أفضل من عبد ، كأخ محبوب » (فيلمون ١٥ و ١٦) (٦١) .

وفي مقالته عن الروح القدس ، يذكر باسيليوس باكثر وضوح ما يعنيه في مبدأ العبودية - الوصاية . فهي خير يحصل للإنسان الذي أصبح إماماً متروكاً وإماماً غير قادر على إدارة نفسه :

« لم تخلق الطبيعة أبداً عبداً بين البشر ، يقول أسقفنا . فهؤلاء هم إما أناس أخضعوا لنير العبودية ، كما يحصل لأسرى الحرب ، وإما بسبب فقرهم كما حدث للمصريين مع الفرعون (تلك ٤٧/ ١٨ - ٢٦) ، وإما أيضاً نتيجة تفكير أب حكيم شاء أن يضع أولاده الفقراء الذين لا إرث لهم ولا معين تحت خدمة من هم أحسن حالاً منه وأكثر نبوحة ، مما لا يمكن أن نعتبره حكماً ظالماً بالنسبة الى الأولاد وانما خيراً يسدى اليهم » (٦٢) .

ويتابع قائلاً : « فالذي لا يملك في ذاته المقدرة على حكم نفسه بسبب ضعف عقله وإرادته ، يجد في خضوعه للغير فائدة له ، فيكون بتوجيه سيده كعربة يقودها سائقها أو كسفينة يدير دفتها قبطان ماهر » (٦٣) .

على هذا يوصي القديس باسيليوس الأسياد بأن يكونوا حلماء ، رافقين بعبيدهم الذين يتساوون معهم في نظر الله ، اذ يقول لهم : « اخدموا عبيدكم قدر طاقتكم بالخدمة التي يخدمونكم بها ... بلطافة وبخوف الله على مثال السيد المسيح » (٦٤) . ويتوجه مقابل ذلك الى العبيد حاثاً إياهم على طاعة أسيادهم كما للرب ، قائمين بواجباتهم تجاههم على أكمل وجه ، مستوحياً كلام الرسول بولس (٦٥) : « يجب على العبيد أن يطيعوا معلمهم بحسب الجسد لمجد الله بمحبة كاملة في كل ما لا يتعارض لوصايا الله تعالى » (٦٦) .

هكذا اذن يرى القديس باسيليوس بمنظاره الخاص الصورة الأصلية التي يجب أن يبنى عليها مفهوم العبودية . وهو وان لم يستطع شجب العادة وإلغاءها بالكلية ، اذ من المستحيل ذلك ، فقد أوضح الروابط الحقيقية بين العبيد وأسيادهم وأرسى الأسس الأكثر قرباً وتناسباً مع روح الإنجيل والتعاليم المسيحية السامية .

فإذا نقول أخيراً عن العائلة بعدما عرضنا الوضعيات التي تحيط بظروف كل فرد من أفرادها والعلاقات التي يجب أن تبنى على هذا الأساس ؟ لم ينقص القديس باسيليوس أبداً من قيمة العائلة وأهمية توازنها الداخلي والخارجي ، فأكد أن كل فرد منها ذو قيمة إنسانية مميزة ، بغض النظر عن ملازماته الشخصية وفروقه الاجتماعية . على ان هذه القيمة

لا تستديم إلا باعتناق المبادئ التي رسمها السيد المسيح وثبتتها تعاليم الكنيسة وبصودر الأفعال المتناسبة معها. فخضوع الزوجة المسيحية لرجلها وحب الرجل لزوجته يرسخان بينهما الرابطة الزوجية ، بينما احترام الولد لذويه يعزز ثقته بسلطة أبيه وينمي شعوره بالأمان. فالاتحاد العائلي إذن أو الترابط الوثيق بين أفراد العائلة شرط رئيسي لديمومتها ، وفي نفس الوقت منبع للعواطف المسيحية الصادقة.

هـ - نظرتة الى الغنى :

ولعلّ أروع خطب ظهر فيها القديس باسيليوس متكلمًا عظيمًا ومعلمًا أخلاقيًا فذاً مواظمه الثلاثة الشهيرة ضدّ الأغنياء ، وفيها تبين قوّة شخصية وصدق معتقده وجرأة لسانه الذي لم يرهّب الوعيد ولم يتخاذل في الدفاع عن القضية الأولى والرئيسية التي نذر نفسه لأجلها.

نظر أسقف قيصرية الى المجتمع المحيط به ، فألفاه مقسمًا متفاوت الدرجات ، ينعم فيه الغني بسلام ورفاهية ما لها حدود ، بينما الفقير يتخبط في بؤر التعاسة لا أمل له ولا معين. عاش باسيليوس تلك الحالة التي لفت الأكرثيّة الساحقة من الشعب ، فأحسّ بمرارة حياتهم ، حياة البؤس والشقاء التي سببها جشع الأغنياء وذوي الأطلاع في تملك الخيرات وحدهم ؛ وارتاع لهول الخطب ، فانتصب صارخًا في وجه الظالمين والمستعبدين ، موبّخًا إيّاهم على أعمالهم المشينة ، مذكّرًا إيّاهم بحكم الرب العادل الذي يذلّ الغني المتكبر ويرفع الفقير المتواضع . ولذا نبع كلامه الرائع بهذا الخصوص من صميم قلب فاض بالحبّة لإخوته ودبّجته عاطفة أب روعي كرّس حياته لخدمة ابنائه ورفع شأنهم عاليًا.

أدرك باسيليوس أن لا ديمومة لمجتمع إذا لم يخضع لنظام معين ، أو لم يتمتع أبنائوه بالمساواة الكاملة في الحقوق. فكيف يدوم المجتمع المسيحي ، بأولى حجة ، إذا افتقدت فيه المحبة التي أوصى بها مرارًا سيّدنا يسوع المسيح ، المحبة التي تحيي وتضحي وتنظّم وتساوي الكلّ أمام الله وفي كل شيء !

لذا كان من الطبيعي ان يجد باسيليوس في حرمان الكثيرين من خيرات الدنيا عائقًا في سبيل تأهيلهم وتكامل الشروط التي يفترضها كمال الكرامة الإنسانية. واذا لم يغب عن فكره البتة مثل هذه الحقيقة الأساسية ، راح يفنّد كلامه محاربًا بعنف الطرق والذرائع التي يسلكها أو يستنبطها الأثرياء الطامعون ، ومظهرًا من خلال تفسيرات الكتاب

المقدّس الأوجه الصحيحة لاستعمال الثروة، كما يريد لها الشرع الطبيعي والضمير الإنساني، آخذاً بعين الاعتبار مصالح أولئك التّعساء والمساكين.

عانت الأجيال في تعاقبها على مدى الأزمان مشكلة رئيسية لم تستطع لها حلاً، ألا وهي مشكلة الفقر والغنى المتصارعين أبداً دون هوادة. ولكن هذا الموضوع طرح باكثر حدة واستبان تناقضه المتفاقم في إطار الحضارة التي تميّز بها عصر التجبّر والتسلّط الذي شهده أسقفنا الكبير. إذ بينما هيمنت قلة مميّزة من الناس على موارد الخير والرزق الهائلة، كانت عامة الشعب تعيش في فقر مدقع فريسة العوز والاملاق. فأتت المسيحية تغيّر المفاهيم وتقلب المعتقدات دون أن تعدّل كلياً في العوائد. وراحت أقوال الإنجيل ترتسم على أفواه الخطباء المسيحيين ذوي العلم الواسع فتكتسب طابعاً جديداً يتماشى مع واقع تلك الايام^(٦٧). واذا ألقينا نظرة عامة على موعظة القديس باسيليوس ضد الاغنياء، نلقينا تتسم بكثير من التعاضد العاطفي الذي يطفئ على وجهها التعليمي. وهذا عائد بالطبع الى تلك العاطفة الأبوية الخالصة التي كان يكتّنها الكاهن العظيم لأبناء رعيته. يبدأ باسيليوس كلامه الى الاغنياء طالباً منهم ان يشكروا الله قبل كل شيء لأنه أعطاهم الخيرات وأنعم عليهم بالرزق والبحبوحه، بدل أن يغيطوه بفظاعاتهم المخجلة وأعمالهم العديمة الشفقة، مذكراً إياهم بمثل الانجيل عن ذلك الرجل الغني الذي فكّر ماذا يعمل بعد أن حصلت له غلال وفيره: «سأهدم اهرائي وابني اكبر منها» (لو ١٢/ ١٨). نستجلي من هذه الخطبة جمال التفكير الباسيلي وغنى التعابير المضافة الى رقة الشعور العميق. فيقول:

«لماذا كافأ الله بمثل هذه الوفرة انساناً لم يحسن استعمالها؟» ويحجب: «لكي نرى باكثر وضوح غنى رحمته تعالى الذي يشرق شمس على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والاثمة»... لقد أنعم الله عليه بكثير من الخير رغم عظم ثروته السابقة، ليرى هل بإمكانه، وقد أصبح عنده وفرة خيرات، أن يكره نفسه على أعمال الكرم والسخاء... فانظر، أنت أيها الغني، الى الذي وهبك تلك الثروة، تذكّر من أنت، وما هي الخيرات التي تديرها، من أعطاك إياها، ولماذا فضّلك على غيرك! انك وكيل الله الرحيم على الأرض وقيم على هباته تجاه إخوتك البشر»^(٦٨).

واذا درسنا ملياً هذه الموعظة، نجد أن مؤلفها كان غريباً عن الاهتمامات الاقتصادية العلمية وعن الإعتبارات الحقوقيّة التي يستعملها محامٍ بارع. فهو أبعد ما يكون عن

النظرات المادية المحضة ، ولا يهّمه هذا الأمر لا من قريب ولا من بعيد . إنه يخوض في موضوعه دون فلسفة أو علم ، يحاول أن يوجّه من ضلّ سبيل الخير ويلقي في نفسه البذار الروحي الذي ينبت غلالاً للحياة الأبدية . انه يظهر لنا قبل أي شيء موجهاً روحياً ومعلماً أخلاقياً ليس إلا .

وبعد أن بيّن في عظته هذه خطأ التصرف الذي يسلكه مثل ذاك الغني الجاهل ، يعود ليدكر الإنسان الغني في مجتمعه آنذاك بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه ، موصياً إياه بالمحبة والعطاء :

«لا تفكرن بأن منتوجات حقولك الوفرة معدّة فقط لتلبية رغبات جشعك العارم . إن الربّ سوف يحاسبك عن كل ذلك ... تتساءل ماذا أعمل ؟ ولكن الجواب بديهي وبسيط : أخفف من جوع الفقير ، افتح اهرائي ، أنادي جميع المحتاجين ... تشبه بيوسف ، وتفوّه بتلك الكلمات المملوءة بالحكمة والإنسانية : أنتم يا من تفتقرون الى الخير تعالوا إليّ ، ولينل كل واحد منكم قوّة من لدن الرحمة الإلهيّة ، خذوا حصصكم من الخيرات التي تجري كمن ينبوع لا ينضب . ولكنك ، أيها الأحمق ، أبعد من أن تشبه بيوسف ... لقد فرح غني الإنجيل بحصوله على الخيرات ووعد نفسه بالتّعم بها لسنين عديدة ، ولم يفكر قطّ بإعانة الفقراء والجياع . أعطي فرصة ليشاور نفسه ، ليظهر صدق عواطفه ، فأضاع الفرصة وتلقّى العقاب الذي استحقّه جزاء قراره المجرم . فاحذر من أن تقع أنت أيضاً في مثل هذه السقطة» (٦٩) .

نستنتج ضمناً من هذه الفقرة ، وباكثر وضوح من الفقرة السابقة ، مبدأ أساسياً هو من الأهمية بمكان كبير ، أعني أن للثروة غاية اجتماعية ينبغي ان يدركها الأغنياء وأصحاب الأملاك حتى ينتظم المجتمع وتستوي العلاقات بين جميع أفرادهِ . وهي في نظر القديس باسيليوس مهمّة شريفة فرضتها العناية الإلهيّة على البعض لأجل الخير العميم ، وعليها سوف يؤدّون الحساب :

«لقد أصبحت أيها الإنسان الثري خادماً لله الكلي الرحمة ووكيلاً له أمام إخوانك في العبودية . فاحذر من أن تفكر بأن الخيرات هي لبطنك . فما في يديك أحسبه كفر عك . هذه الخيرات تفتنك لفترة ثم لا تلبث أن تبخر وتزول ، ولكن سوف تؤدّي عنها حساباً دقيقاً» (٧٠) .

فاذا كان الغني وكيل الله ومدير أعماله على الأرض ، أي ان الله هو في أساس غناه وخيراته وعليه أن يشرك بها إخوانه البشر ، فذلك يعني أن لكل إنسان حقّ بأن يملك ما هو بحاجة اليه ويحصل على ما به يسدّ عوزهِ وضيقه ؛ انه حق من عند الله ، لأن الله لم يفرّق

أبدًا في حقوق عبيده : « قل أيها الغني ، لماذا أنت تملك كل هذه الثروة ؟ لماذا أنت غني وأخوك فقير ؟ أكان الله ظالمًا في توزيع الخيرات ؟ » (٧١) .

المطلوب إذن من الغني الخروج من قوقعة أنانيته والتخلص من ربط ماديته باستثمار ثروته وإعانة الفقراء الذين يفتقدون الى خبزهم اليومي :

« إذا وفرت ثروتكم فلا تملوا اليها قلوبكم » (مز ١١/٦١) . والحال انك أيها الغني تحجز ما تمسكه يداك وتسدد منافذ خروجه . وهكذا ماذا يكون من أمر ثروتك المكدسة والراكدة ؟ انها لا بد من أن تفيض وتتخطى الحاجز بسبب احتجازها ... سيبنى الجاهل اهراء جديدة اكبر من الأولى ! لكنه لا يعرف ما إذا كان سيتنعم بها ، لأن نفسه قد تطلب منه قبل أن يحقق مخطّط بخله ، وسينال عاقبة نواياه السيئة .

« ولكن أنت إذا أردت أن تصدقني ، فأفتح أبواب اهراءك على مصاريعها لتبني أسواقًا لخيراتك . وتماثما يخضب نهركبير الأرض عندما يتوزع عليها بأقنية منظمّة ، كذلك أنت ، شقّ أمام ثرواتك مثل هذه الأقنية المختلفة التي بواسطتها تطل كل فقير ومحتاج ... الثروة الجامدة لا تفيد ، ولكنها تصبح خصبة ومثمرة اذا ما نظّم استعمالها » (٧٢) .

فانطلاقًا من هذا المبدأ ، يترتب على الغني مسؤوليات كثيرة ، وعلى قدر الموهبة يطلب الحساب ، وصاحب الوزنة عليه أن يستغل وزنه ويضاعفها بأعمال الخير وبسلوك طرق الصلاح والرحمة . فما ينادي به باسيليوس أمام الأغنياء وما يحثهم على العمل به ليس مجرد أقوال مثالية ونظرات وهمية لا تمت بصلة الى الواقع ، انها بالأحرى نداءات للقيام بواجب أولي لا يقبل أي تساهل وتحوير :

« إن اهراءك يجب أن تهدم لأنها اهراء ظلم فظيع . أهدم ما بنته يداك سوءًا . حطّم هذه المخازن التي ما رفقت بأحد . أزل هذا البيت حافظ بخلك . اقلب هذه السقوف . اسقط هذه الجدران . ان قمحك قد عفّن ، فعرضه للشمس ، وأخرج ثروتك المحبّاة من مدافنها » (٧٣) .

ولو عدنا الى الواقع الاقتصادي المتفاوت الدرجات الذي حاربه اسقف قيصرية ووضع فيه كل زخمه الفكري والخطابي لاستوضحنا جليًا الدوافع التي حدثت بقديسنا الكبير الى سلوك طريقه الجريء وإلقاء مواعظه التي كان لها أعظم الأثر في النفوس . فكيف يقف مكتوف اليدين أمام الفظاعات التي تحصل وما لها من رادع ؛ فالفقير ينهش الكثيرين بأنابه ، والناس يموتون من الجوع ؛ الأولاد يُباعون ويُسْتَرَوْنَ ، والاغنياء في كل ذلك تتكدّس ثرواتهم وتعتظم مواردهم . يكفي أن يرى ذلك الغني يبذر أمواله كيفما شاء

ويشبع رغباته الأنانية، بينما أخوه بقربه في حالة شقاء كبير، يتضور جوعاً ويستشعر آلام موت لا مفر منه، حتى يلتهب غيظاً وسخطاً عليه :

« بماذا أشبهكم أيها الاغنياء البخلاء؟ تدعون ان ثروتكم هي لكم، بحق السماء، قل لي أيها الغني ما الذي لك؟ انك تشبه ذاك الذي يدخل المسرح ولا يجعل أحداً من المتفرجين يدخل، معتقداً انه يملك لذاته ما جعل للاستعمال العام. تستولي أولاً على الخيرات العامة وتسمح لنفسك باحتفاظها، بينما لو أعطيت من مالك ما يفيض عنك لما عاد يوجد أي فقير او محتاج... يا أيها البخيل، أنت غاضب وسارق، لأنك استوليت على كل شيء بدل أن توزعه جعلته ملكك الخاص. اذا سمينا «سارقاً» كل من يختلس رداء غيره مثلاً، فأني اسم أعطي لذلك الذي لا يكسو أخاه العريان بقربه. وهو قادر على فعل ذلك؟ فهذا الخبز الذي تحتكره هو لهذا الجائع. هذا الثوب الذي تحبس عليه في خزانتك هو لذلك العريان. هذا الحذاء الذي تتكسّس عليه الغبار عندك هو لأخيك الذي يمشي حافي القدمين، وهذا المال الذي تدفنه في أرضك هو للفقراء والمساكين... فأنت إذن ظالم بنسبة ما كان بإمكانك إعطاؤه لإخوتك البشر»^(٧٤).

إن ما نلاحظه في كلام القديس باسيليوس تلك القسوة التي لا ترحم، والفصاحة التي تعلن المكونات وتفضح خفايا القلوب. انها ميزة المعلم مهذب النفوس والأخلاق. فهو لا يترك مجالاً إلا ويخوض فيه، ولا غموضاً إلا ويكشف حقيقته. وفي كلامه ضد الاغنياء وأطاعهم، لا يخفي عليه ما يتذرّع به هؤلاء لتبرير أفعالهم فيقارع حججهم الواهية ويسقط أوهامهم، ويجعلهم أخيراً حيارى أمام ذواتهم يتساءلون عن مصيرهم؛ إنها الغاية الروحية التي يرمي إليها دومًا الراعي القديس، فيقول :

«أنت تدعي بأن حفظ أموالك هو لأجل نبيك، عذرٌ واهٍ لبخلك! تتعلّل بأولادك لتدافع عن شهواتك... لكن لا تنسَ بأن المال هو لكثيرين سبب خطيئة، فاحذر من أن يؤول بك ذلك الى فقدان نبيك. ومن ناحية أخرى، أليست نفسك أقرب إليك بكثير من أولادك؟ اعطها اذن الحصّة الكبرى من ميراثك، فهي بذلك أولى، ثم تقسم بين أولادك ما تبقى من ثروتك. هناك كثير من الأولاد بنوا بيوتاً وعرفوا ان يجدوا كرامتهم دون أن يرثوا شيئاً عن آبائهم... ولكن نفسك اذا لم ترأف بها أنت، فمن يرثي لحالها؟»^(٧٥).

«أوقف قليلاً، أيها الغني، سيل ظلمك وتجبرك؛ خذ قليلاً من الوقت للتفكير، وافطن الى ما سوف يؤدّي بك طمعك وتزايد ثروتك. لك حقول كثيرة وأشجار وغبابات، سهول وتلال، انهار ونباتات... ولكن ما هي في نهاية الأمر؟ ثلاثة أذرع من الأرض تنتظرك، قبر من عدّة حجارة يكتفي لاستيعاب جسدك الفاني. فلماذا اذن تجهّد نفسك؟ لمن تقترب هذه المشينات؟ ولماذا تجني أثماراً لا فائدة منها هي بالأحرى غذاء لعذابك الأبدي؟!»^(٧٦).

اشمأز باسيليوس لهذه المعيبات فراح ييكت أصحابها ذوي الأطماع اللامحدودة ويصب جام غضبه عليهم. ولكنه شاء أن يستعمل بالمقابل زخمه العاطفي المؤثر ويسلك طريقاً جديداً علّه يدرك غايته، فاذا هو يرسم بالطف كلمات وأرق عبارات صورة محزنة عن الواقع المرير الذي يكتنف الفقراء المساكين، محاولاً بذلك استمالة قلوب الاغنياء وحثهم على أعمال الرحمة والمحبة. انه يستصرخ ضمايرهم ويهز ما تبقى في نفوسهم من شفقة وحنان. ولكنه لا ييأس منهم، بل يحاول ان يتوجه، كما يقول، الى «قلوب من حجر»^(٧٧)، فيورد لهم مثل ذلك الرجل الذي تصوّر جوعاً وكاد يهلك هو وأولاده، فعرضهم للبيع مكرهاً^(٧٨). انه تصوير رائع لحالة الأب الحنون تجاه هذا الخيار الأليم، بأسلوب رقيق ونفحة شعورية تنفذ الى أعماق أعماق الإنسان.

أخيراً، يرفع باسيليوس عينيه الى السماء، معظماً جبروت الله الذي «يفحص القلوب والكل» (مز ١٠/٧)، ويجازي كل واحد حسب أعماله، فيذكر الأغنياء بذلك اليوم الرهيب الذي فيه يمثلون أمام الديان العادل ليؤدوا الحساب الدقيق عما اقترفته أيديهم: هل كانوا حقاً مثل الوكيل الأمين الذي يباركه سيده عند عودته (متى ٢٤/٢٦)، أم أنهم طمروا وزنتهم كذلك العبد الشرير الذي لاقى جزاء فعله (متى ٢٤/٢٥). في ذلك اليوم، سوف تكشف نواياهم وتعلن مآثمهم وتُدان قسوة قلوبهم وإهمالهم لأعمال الخير والرحمة فيقول:

«ايها الغني، ماذا تجيب الرب الديان ساعة يسألك؟ ماذا؟ انك تزين الجدران بأجمل الألوان وأخوك بقربك لا كساء له! تلبس أحصنتك أبهى الحلل ولا تنظر الى أخيك المغطى بأسمال بالية! تدع قمحك يفسد ولا تطعم الفقراء الذين يموتون من الجوع! تطمر ذهبك في الأرض وتهزأ بمسكين يستجديك ولا فلس عنده!»^(٧٩).

«أجل، انك لا تخاف غضب الله العادل ولا القصاص الذي سوف تناله جزاء قسوتك وجفاء قلبك. فلن يرحمك الرب التقدير لأنك ما رحمت الآخرين، وسوف يغلق في وجهك أبواب السماء لأنك أغلقت أبوابك أمام المحتاجين. رفضت الخبز على الفقراء فلن تحصل أبداً على الحياة الأبدية»^(٨٠).

قد يتبادر الى ذهن البعض، بالنظر إلى كل ما سبق، ان القديس باسيليوس يحاول تحطيم الغنى وإلغاء كل انتقال للثروة أي الميراث، ونسأله متعجبين هل ان باسيليوس يدعو إلى اشتراكية ويحاول باجتهاد إرساء قواعد لها؟ نعم، قد يكون ذلك ولكن بمفهوم خاص جداً! ورُبّ مدّعٍ يحاول ربطه بمفهوم الاشتراكية الحديث، فزده عليه بقولنا ان

اعتبار كلام باسيليوس في روحه ووضعه في إطاره التاريخي والاجتماعي يبعدان عنه شبح مثل هذه الادعاءات. فهو اذ يحدّد الحالات ويعرض الوسائل التي تساهم في تحقيق الغاية الإنسانية والأخلاقية التي لا غنى عنها أبداً في بناء مجتمع صالح، يتوقف عند هذه النقطة بالذات لأهميتها ويشدّد على مبدأ الشركة في الخيرات والتعاون المشترك الذي بدونونه لا تقوم حضارة ولا يسود سلام مها كان الأمر. وهمّة في ذلك ان يرعوي الاغنياء وذوو المطامع فيقوموا اعوجاجهم ويتفكروا بعاقبة حياتهم الفاقدة لكل قيمة. فينال الفقراء بذلك نصيباً في خيرات الدنيا واستحقاقاً لحياة كريمة. ان المطلوب ليس إفناء الثروة الخاصة ونقص حقوق التملك، وانما الاستعمال الحسن لهذه المعطيات الطبيعية، حسب الشريعة المسيحية القاضية بالحبّة ومساعدة الآخرين^(٨١)...

من جهة أخرى، لا نرى في كتابات القديس باسيليوس أية إشارة تدلّ إلى رفضه مبدأ الثروة بحدّ ذاتها أو نقضه لحق الملكية الخاصة. وجلّ ما نفهمه من مواعظه ادانته للواقع الذي لمسه بهذا الخصوص: الأموال والخيرات تتكدّس وتفسد في أيدي الأغنياء بينما الفقراء يزدادون فقراً ويعيشون في حالة يرثى لها. بل على عكس ذلك، نجد في قوانينه المختصرة تأكيداً واضحاً لهذه الفكرة اذ يقول: «الخلاق ليست رديئة من طبعها، فلو كانت رديئة لما خلقها الله، اذ ان كل خليفة الله حسنة كما قال الرسول بولس (١ تيمو ٤/٤)، ثم ان وصيته تعالى لا تأمر بأن نرذل الخيرات ونهرب منها، بل ان نحسن تدبيرها. ولا يدان أحد لامتلاكه اموالاً، بل لافتخاره بها او لأجل سوء استعماله لها»^(٨٢).

على كل حال، لم يشأ باسيليوس، وغيره كثير من آباء الكنيسة، ان يتعرّض، في كلامه عن حياة المحبة، لحق الملكية، الأساس الضروري للنظام الاجتماعي، رغم دفاعه بفصاحة وجراة عن حقوق الفقراء. فهذه الحقيقة كانت أصعب من أن يستطيع انسان أن يقوِّض أركانها أو يقطع جذورها الثابتة في أعماق التاريخ. «في زمن القديس باسيليوس، يقول الأب فاسون، كان احترام الملكية يبلغ أقصى الحدود، وقد شملها الحق الروماني الذي أحطّ من حرية المستدين وحتى من حياته للحفاظ على حرمة حقوق الملكية»^(٨٣). فلم يستطع بالتالي باسيليوس المنادي بإلحاح بأعمال الرحمة والمحبة إحداث أي تغيير اجتماعي جذري، ولم يكن كلامه في هذا المنحى إلا تفسيراً لهذا الواقع واجتهاداً لتكليفه مع التعاليم الإنجيلية السامية.

ومختصر هذا الفصل نقول ان القديس باسيليوس عمل كل ما بوسعه لتبيان الوجوه

الصحيحة في استعمال الثروة ، ساعياً الى تثبيت المشاركة فيها بين ابناء المجتمع على السواء .
واذا كانت المفاهيم والعادات قد اعوجت بسبب ظروف مختلفة المرامي ، فان اجتهاد
اسقف قيصريّة كان لتقويم ما اعوجّ ، مستوحياً أمثال وتعاليم السيّد المسيح له المجد . واذا
كان قد سكب جام غضبه وسخطه على الأغنياء ، فليس لكي يحرمهم من خيراتهم
لحساب المجتمع ، وانما ليسترجع لكل فرد في هذا المجتمع حقه الشرعي ويشركه بالثروات
التي يملكها هؤلاء الاغنياء ، اذ ما تشبّيه الغني بوكيل الله بين البشر إلا للدلالة الواضحة
على ان الثروة هي لخدمة المجتمع وتحقيق أهدافه الأساسية لأجل بناء أشد تماسكاً
وتكاملاً.

و - نظرتة الى العمل :

اذا كان توازن البنية المجتمعية يفرض الأخذ بعين الاعتبار الحقوق المتعددة لكل فرد
في المجتمع على جميع الأصعدة الانسانية والاجتماعية والحياتية ، فإن نموها وديمومتها
يرتكزان على مبدأ العمل الفردي والجماعي والتفاعلات المختلفة التي يمكن ان تنتج عن
هذا المقوم الحياتي الشديد الالحاح . واكثرية علماء الاجتماع المعاصرين يضمنون نظرياتهم
دراسات مسهبة عن هذا الموضوع والتشعبات الكثيرة التي تصدر عنه ، فيحاولون إرساء
قواعد ورسم خطوط تؤمن التنظيم الكامل بهذا الشأن . فالعمل يبقى اذن ضرورة لتكامل
الانسان الكياني وبلوغ مآربه في هذه الحياة .

ولكن النظرة الباسيلية لهذا الواقع تختلف بعض الشيء ولا أقول تتعارض مع ما
سبق . فنظرة أسقفنا نظرة روحية وتفسيراتها تتعدى النطاق الشخصي والفائدة الذاتية
لتستوحي قيمتها من قيمة مسيحية رئيسية أعني بها المحبة . في عرف القديس باسيليوس ،
الأساس ثابت والعمل يبقى مرتدياً طابع الواجب الفرضي ، فيقول في أخلاقياته : « يجب
علينا عند الإمكان أن نعمل لتقاسم الموارد مع الذين يفتقرون اليها »^(٨٤) . ولا عذر للمتكاسل
الذي يعيش في البطالة بينما هو قادر على العمل . ليتشبه بتلك الأسماك التي تقطع البحار
بطريقة عجيبة طلباً للطعام^(٨٥) ، فهي تجدد وتعمل دون كلل لتحقيق الشروط المتوافقة مع
طبيعتها ووجودها ، وبالتالي فالعمل سنّة طبيعية لا بدّ لها من جهد وجهاد .

ولكن الغاية المرتقبة من العمل بالنسبة إلى القديس باسيليوس تنخطى الاعتبار
الطبيعية لتتسامى الى مثالية مسيحية خليقة بأبناء الله . فالسيد المسيح أوصانا بالمحبة قبل كل

شيء : « اني أعطيك وصية جديدة ، ان يحب بعضكم بعضاً . بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً » (يو ١٣/٣٤ - ٣٥) . ولكن هذه المحبة تبقى عقيمة اذا لم ترجع الى أعمال ، تلك التي ترمي أولاً وآخرًا الى خيرنا الروحي واسعاف الآخرين ومساعدتهم ؛ وكل عمل يحدد عن هذا الهدف ينال صاحبه عاقبة أنايته وسوء تصرفه . لذا اضحي العمل بالنسبة الى باسيليوس ذا بُعد روحاني واسكاتولوجي ، فهو يقول :

« ان النهي عن الاهتمام الزائد بحاجات جسدنا لا يبنى الاهتمام والعمل مطلقاً . فقد بقي علينا أن نعمل لنفسنا لا للطعام الفاني بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (يو ٦/٢٧) ، لا لحاجتنا الجسدية فقط ، بل لنسعف القريب أيضاً » (أفسس ٤/٢٨) وسيقول لنا الرب في يوم الدين : « جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني الخ ... (متى ٢٥/٣٥) وبعد ما نفعله مع من كرسوا أنفسهم له كأنه مفعول معه تعالى ويعطي عن ذلك الملكوت السماوي . وبعكس ذلك سيعاقب الذين لم يعملوا ولم يتعبوا ليساعدوا الضعفاء وليخدموا القريب (اعمال ٤/٢٠ و ٣٥) ويرسلهم الى العذاب الأبدي (متى ٢٥/٤١-٤٦) »^(٨٦) . فالعمل اذن انطلاقاً من هذا المفهوم ينظم بأحسن طريقة العلاقات المجتمعية ويضفي عليها جواً من التعاضد والانسجام .

ومهما يكن من أمر المقاييس المختلفة التي تتلبس مفهوم العمل ، فإن بعض الحثيات تكتنف واقعه ويفترض وجودها للحصول على نتائج مرضية وتأمين فاعليته واستمراره : يأتي في الدرجة الأولى الشرط الطبيعي الذي نستقيه من سفر التكوين : « بقرق جيبك تأكل خبزك » (تك ٣/١٩) ، ليضع نصب أعيننا ميزتين أساسيتين للعمل الإنساني :

١ - انه يستوحي قيمته الحياتية من ضرورته . فلا بد للإنسان والحالة هذه من أن يشتغل ويكدّ ليحصل قوته اليومي ويبنى اعمدة شريفة لوجوده الاجتماعي . ومن هذه الرؤية ، يجد باسيليوس في كلام الرسول تأكيداً لما يدعو اليه : « يجب ان نعمل ... لأن من لا يعمل هو غير أهل لأن يأكل »^(٨٧) .

٢ - واقع العمل يفترض تلازم التعب معه ، وهذا هو الثقل الذي تنوء تحته الانسانية . فالجهد ضروري والتعب نتيجة حتمية . ولا طعم لحياة اذا مرّت دونما أتعاب وعذابات . وهذا يذكره باسيليوس في إحدى رسائله معلّقاً على حادثة قايين في الكتاب المقدس : « اعمل في الأرض » . انه قصاص الله لقاتل هابيل . بذا فرض على قايين نوع من الضرورة الغامضة تحته دوماً على العمل . وحتى لو شاء ذلك بملء إرادته ، فانه لن يتمكن من الراحة لأن سيلاً من الآلام سيربطه أبداً الى تلك الأرض عدوته . « سوف تعمل في

الارض» اي ان عملك المستميت في حراثة الأرض لن يترك لك مجالاً للراحة والهدوء .
ليلاً ونهاراً أتعابك تكون كابوساً عليك ، وضرورة العمل الغامضة تلك تضغط عليك
بحقد وكرامية؟^(٨٨) .

واذا كان الأساس لمفهومية العمل يرسم بنفس الصورة السابقة ، من حيث المبدأ ،
فإن الإطار الصالح الذي يحيط بهذا المقوم في حياة المجتمع يتقيد ببعض الترتيبات التي
تبين من الضرورة بمكان عظيم . أفليس المجتمع الصالح هو المجتمع المنظم الذي تتوحد
فيه الطاقات وفيه تنسجم الأعمال مع طبيعة المعطيات ؟ أوليس لكل عضو وظيفة خاصة
تتكمل مع بقية الوظائف ؟ لذا وجب ان تسير أعمالنا كلها بنظام وتناغم ، بعيداً عن
الفوضى التي تفقد الرؤيا الواضحة وتضيع الاتجاه نحو الأهداف المنشودة . « فلا نتقل من
عمل الى آخر لأن طبيعتنا لا تقدر أن تقوم بأشغال كثيرة معاً . ولذا خيرٌ لنا أن نباشر عملاً واحداً
بضبط وأحكام من أن نقوم بأعمال كثيرة من دون اتفاق : لأن الانقسام بين أشغال كثيرة والتنقل في
الأمر بحيث لا يُقضى منها شيء دليل على خفة متأصلة في الطبع أو مدعاة لتولد تلك الخفة »^(٨٩) .
وكي لا نقع في خطر الروتين ، يستدرك باسيليوس الأمر ويحذر من مغبة التهاون
والاسترخاء داعياً الى الجهد واتمام صنائعنا على أكمل وجه : « على كل أحد أن يتنبه لعمله
الخصوصي ويهتم له برغبة ويتممه من دون ملامة بغيره ونشاط وعناية وسهر كما لو كان يعمل على
مرأى من الله »^(٩٠) . « وليبذل كلُّ منا في حالته كلَّ جدٍّ وعناية متممًا ما رسم به الرسول القائل :
« كونوا غير متكاسلين في الاجتهاد » (رو ١٢/١١) ، فيستحق الثناء لأجل نشاطه . أما المتهاون
فيكون له عكس ذلك أي يستوجب التعس والويل ، اذ قيل : « ملعون من عمل عمل
الرب باسترخاء » (ارميا ٤٨/١٠)^(٩١) .

كنا ننتظر أخيراً أن يكلمنا أسقف قيصرية عن الفرح الذي ينتج عن العمل ، بما أن
هذا الأخير نابع عن محبة صادقة للقريب ، وعن التعزية التي يمكن أن يحملها لنفوسنا
وللآخرين . ولكنه لم يوضح في ذلك إلا الغايات « العملية » راسماً الخطوط التنظيمية
والأطر التي فيها تتحرك أعمالنا وتتفاعل مع بعضها البعض . ومع ذلك ، يبقى العمل في
نظر قديسنا الكبير نواة حياتنا الاجتماعية والوسيلة الوحيدة التي بها يتم تطوّر المجتمع
وازدهاره .

ز - نظرتة الى السلطة :

ان من أهمّ المعالم التي يفترض وجودها في مجتمع يسعى للحفاظ على ديمومته واستمرار وضعيته التطوريّة تبين في مختلف الأحوال ذا صلة مباشرة بالواقع التنظيمي لذلك المجتمع كما سبق القول. فالمجتمع الخاضع للفوضى هو لا محالة مجتمع سائر إلى الزوال. أننا كلّنا أعضاء جسد واحد حسب قول الرسول، ولكلّ منا وظيفته الخاصة وميدان عمله الذي لا يتحوّل بأي شكل من الأشكال إلى غيره أو يذوب فيه. ولكن علينا ألا ننسى أن الظروف الحياتية وتعددية الهيكليات والمناصب الاجتماعية تفرض بالمقابل أوضاعاً متعدّدة وتوزّع أدواراً كثيرة ومختلفة، فيكون بالتالي ان العلاقات المشتركة تتغيّر ما بين فرد وفرد ومؤسسة وأخرى. أضف الى ذلك أن خضوع العلاقات المجتمعية لسلسلة من الأنظمة والقوانين هو لعمرى عامل أساسي في تحقيق تلك الغاية الأولى والرئيسية.

من هذا المنطلق، يظهر وجود السلطة وكأنه أمر بديهي ومنطقي «يتحدّد في إطار العلاقة بين الأمر والطاعة، بين منبع السلطة وبين الفرد الذي تمارس عليه، وليس أبداً في إطار تحليل النفسانيات الشخصية، وهذا ما يسمح بالقول ان السلطة مظهر اجتماعي»^(٩٢).

وبارتباط مع هذا الواقع، تبين السلطة، المؤسسة الاجتماعية، أو الفعل الاجتماعي الصادر عنها، وكأنها العامل الذي لا غنى عنه في حياة المجتمع، بالنظر إلى ما يمكن أن تلعبه من دور أو تقوم به كوظيفة مختصة بها. هذا الدور الذي يمكن أن نبرزه على الأقل على صعيدين :

١ - السلطة من حيث المبدأ الاجتماعي قوّة تنفيذية للقوانين المنظّمة لحياة الأفراد ضمن المجتمع الواحد. هي بكلام آخر رادع يصوّب الخطأ ويقوم كل عصيان أو خروج على القانون. وفي هذا المنحى، يرى القديس باسيليوس ضرورة وجود سلطة تسعى للحفاظ على توازن المجتمع الداخلي باحترام نظمه وتساوي ابناءه أمام القانون، اذ ان الشرع الطبيعي، يقول باسيليوس، يؤمن توزيعاً عادلاً لحاجات كل فرد^(٩٣).

٢ - أمّا السلطة من حيث المبدأ السياسي فهي مؤسّسة تعمل على توجيه المجتمع - الدولة وادارة مرافقه نحو أشرف الغايات، باذلة أقصى الجهود في توفير أسباب العيش الكريم للمواطنين ورفع شأنهم عالياً. ويحد أسقف قيصرية تشبيهاً لهذا الواقع عند بعض

الحيوانات ، فيقول في إحدى مواعظه : « ان بعض الحيوانات تضفي على حياتها معنى سياسياً معيناً ، اذا كنا نعتبر أن عمل السياسة هو توجيه الطاقات الفردية نحو غاية مشتركة » (٩٤) .

ولكن السلطة هنا تتمثل بشخص هو الرئيس أو القائد الذي عليه ان يتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه ، وعنه تصدر الأوامر والتوجيهات : « ان ما يلاحظ في حياة النحل هو أنه يعمل تحت أمرة رئيس أو مندوب عنه . فهو لا يذهب إلى الحقول قبل أن يتولى الملك رأس الحملة » (٩٥) . ولعل الفقرات التالية من موعظته ذات أهمية كبيرة لأنها توضح جلياً نظرة القديس باسيليوس الى صاحب السلطة والحيثيات التي تكتنف وضعه الخاص .

يقول باسيليوس : « أما في هذه الجماعات فان انتقاء الرئيس لا يتم بطريقة انتخابية ، لأن « الشعب » قد يخطئ في حكمه ويحمل أسوأ الأشخاص الى الحكم .

كما ان ذلك ليس بفعل قدري ، لأن القدر أعمى وقد يقع اختياره على آخر الجميع ، « وليس بلوغ العرش حق وراثي ، فقد تجعل المباحج والتعليقات هؤلاء الملوك الوراثة أكثر الأحيان جهلاء وفقراء بالفضيلة ... » (٩٦) .

وينهي باسيليوس خطبته دون ان يبين وحتى ان يلمح إلى الطريقة التي يجب ان يتم بها اختيار الرئيس . ويقول جيات في معرض بحثه عن هذا الموضوع انه لا يوجد في مؤلفات باسيليوس كلها أي نص يعالج السلطة المدنية (٩٧) . اما انتخاب الرئيس في الجماعات الرهبانية فيتم من قبل الاخوة المتقدمين ، اذ لا يجوز له ان يتخذ الرئاسة من تلقاء نفسه ، وبعد أن يكون قد أعطى دليلاً كافياً على حسن خصاله في حياته السالفة (٩٨) .

ومهما يكن من أمر الرئيس ، فان السلطة بحد ذاتها خدمة (متى ٢٠/٢٦) . هذه هي وصية السيد المسيح ولا يجوز لأي كان ان يجعل من سلطانه وسيلة لتلبية رغباته الشخصية أو امتيازاً لهضم حقوق اخوته وإذلالهم ، ولا يجوز بالتالي أن تتحول السلطة الى طغيان وتجبر ، فليس لأحد على الأرض سلطان « لو لم يعط له من فوق » (يو ١٩/١١) . وفي نظر باسيليوس ، « الله هو الذي يرفع الملوك وهو الذي يحطهم عن عروشهم » (٩٩) .

فالسلطة إذن في المجتمع المدني ، كما في غيره من المجتمعات ، تقوم على أسس واقعية وعملية ؛ فهي ترتبط من حيث المبدأ بالمقومات الاجتماعية إجمالاً والتي سبق الكلام عنها . فالنظرة التكوينية لشخص الرئيس من حيث هو إنسان تجعله في مصف بقية الناس وتساويه في العبودية معهم أمام الله الخالق . وانطلاقاً من هذا المفهوم الإنساني الذي هو

القاعدة الأساسية لأي اعتبار بشري ، تتوضَّح خطوط الرؤية الكاملة للسلطة على صعيد المجتمع ، رؤية تبلورها التعاليم المسيحية وتجعل بينها وبين الواقع الحياتي نوعاً من الاتصال الحقي الذي يؤالف بين الوضعيتين أشدَّ المؤالفة . فليس الرئيس أمام الواقع الاجتماعي مجرد متفرِّج سلبي ، وإنما هو عامل فعَّال وعنصر لا بدَّيل له في تنظيم الحياة وإرساء قواعد العدالة العامة . على الصعيد المادي ، يقوم بتوزيع عادل للخيرات ، «ويهتم بمصالح مرؤوسيه»^(١٠٠) . وبمَّا ان سلطته من الله تعالى ، فانه يكون «خادماً ومحامياً لأحكامه الالهية»^(١٠١) ، لا يغفل البتة عن إعطاء المثل الصالح بكلامه وأعماله ، لأن السلطات في هذا العالم ، يقول باسيليوس ، توضح معها حياة من هم في طاعتها . فالعسكريون يقتدون معظم الأحيان بقادتهم ؛ وفي المدن يتبلور الشعب تبعاً للأشخاص الذين هم في السلطة^(١٠٢) . ويستعمل الرئيس القوانين والعقوبات لحفظ الأشخاص في واجباتهم اذا حاول أحدهم التهرَّب منها^(١٠٣) . وبإحلاله العدالة ، يعرف كيف يحفظ حقوق الجميع دون غبن أو تحيُّز ، مميزاً في أنواع العقوبات التي يصدرها بحق المخالفين^(١٠٤) .

ولكن الويل لذلك الرئيس الذي يحاول استغلال السلطة والإسراف في غيِّه وأنانيته ، «فإن القصاص ينتظره من قبل الديان العادل ، ويكون له بمقدار القسوة التي عامل بها قديسي الله»^(١٠٥) .

وعلى كل حال ، يرى أسقف قيصرية في وجود السلطة الحازمة والمرشدة خير دليل على عافية المجتمع وسلامة بنيته . فلا المجتمع ولا الكنيسة حتى ولا الجماعة الرهبانية يمكنها أن تستمرَّ بدون سلطة ترعى شؤونها وترسم خطوط حياتها الحاضرة والمستقبلية . ولكلَّ سلطة في هذه الجماعات حيثيات تختلف باختلاف أسسها ومقوماتها وأيضاً الأهداف التي تصبو إليها . ولكن يبقى الجوهر واحداً والمفهوم واحداً ، ويبقى أن يعتبر الرئيس نفسه خادماً المصلحة العامة وموكولاً إليه خدمة هؤلاء الذين وضعهم الله تحت سلطته وتوجيهه .

اعتقد انني أطلت الشرح كثيراً في هذا القسم النظري من حياة القديس باسيليوس الاجتماعية ، وتوسَّعت جداً في عرض الأفكار والنظرات الباسيلية في ما يختصّ بالموضوع . ومع ذلك يبقى هناك أمور عديدة لم أتطرق الى البحث فيها ، إذ مهما تعاضمت البحوث وتكاثرت الشروح وتنوعت التفسيرات ، فما من أحد يستطيع بالفعل أن يضبط بدقة جميع أقوال القديس باسيليوس ويسر أغوار فكره الشاسع ونظره البعيد . أضف إلى ذلك أن ما وصل الينا كتابة عبر التاريخ يبقى أقل بكثير ممَّا تلفَّظ به في كل وقت ومناسبة

وكلما جاءه أحد أبناء رعيته في مشكلة خاصّة. على كل حال ، ان الخطوط التي سبق عرضها لي حقاً خير دليل يرشدنا الى شخصية هذا الراعي الكبير الفكرية ونشاطه الدائب في تركيز أسس اجتماعية واضحة وسليمة. وليس لنا في ذلك إلا أن نتبين القدرة الفائقة التي تميّز بها أسقف قيصريّة العظم من حيث انه تمكّن بشكل عجيب ورائع من جميع الأفكار الأكثر تناقضاً واحلال التناغم بينها: العدالة الى جنب السلطة ، مساواة الجميع رغم اختلاف الظروف والحالات الشخصية ، أولية الفرد الإنسان مع أهمية المجتمع ... واذا كان باسيليوس قد أرسل يوماً الى أحد أصدقائه قائلاً له : «لقد اكتشفت روحك من خلال كتابتك»^(١٠٦) ، فإن أصدق من ينطبق عليه هذا الكلام يبقى بالحقيقة صاحبه وقائله ! ..

٢ - أعمال القديس باسيليوس الاجتماعية

ويأتي القسم الثاني لموضوعنا هذا ، أي حياة القديس باسيليوس العملية ضمن المجتمع ، تكلمة لحياته الفكرية ، معها تتلاقى وتتألف في انسجام فريد لا تناقض فيه ، لتبرز لنا في النهاية صورة من أروع الصور لأسقف هو من أكابر الرجال الذين عرفتهم الكنيسة الشرقية على مرّ العصور.

ان حياة اسقفنا الكبير ، اسقف قيصريّة ، الذي «ذاع منطقه في كل الأرض والى أقاصي المسكونة كلامه» (مز ١٨/٥) مملوءة بأجناد اثيلة وأعمال عظيمة يعجز اليراع عن حصرها ووصفها ؛ فهي عمل مستديم وسعي دائب في سبيل إعلاء شأن المسيحيين أبناء رعيته وامتزاج كامل بكل دقائق حياتهم ، بأفراحها وأتراحها ، امتزاج الخمير بالعجين. لقد كان باسيليوس منارة على جبل ، به صلح الفاسد واستعان المحتاج وتعزّى المحزون. أجل ، لقد امتزج بكل مستويات الشعب ، لم ينسَ احداً من بنيّه ، فهو «الراعي الصالح الذي يعرف الخراف والخراف تعرفه ويذل نفسه في سبيلها» (يو ١٠/١١) ، وراح يوجّه نصائحهم الى كل سائل ولم ييخل بإرشاداته على كل من ضلّ طريقه وتاه في صخب الحياة. أحبّ الجميع ، فهذبّ الشبان وحمل الشيوخ ، ساعد الفقراء وأشفق على المعدومين ، عزّى الأرامل واليتامى وتألم لمصائب البائسين ، دافع عن حقوق المظلومين صارخاً في وجه الحكام ووفر لأبنائه عيشاً كريماً وسُبُلًا حياتية لائقة... أدرك باسيليوس جيداً واقعه الاجتماعي ، ولم يغب عن فكره قطّ الجانب الروحي وما تتخبّط فيه الكنيسة من ضعف

وشقاقت. واذ كان المؤمنون أبناءه يعانون من اضطهاد الوثنيين والآريوسيين، استل سيفه بجراً وسار بقوة وحزم يوحد فيما بينهم ويقودهم في دروب الخلاص. فكان كلامه بلسماً للروح، وتوجيهاته الروحية والأخلاقية طيباً يعطر بشذاه النفوس المسيحية الصالحة. وانا لنجد في هذه الأجواء الميدان الأكثر تناسباً ووضوحاً لتبيان الناحية الأخلاقية - الاجتماعية التي التزمنا ان نقرّ بها للقديس باسيليوس في بدء موضوعنا. وأول ما يمكننا الكلام عنه في هذا المجال هو تنظيمه للحياة الرهبانية.

أ - تنظيم الحياة الرهبانية

يعتبر باسيليوس من اوائل مشترعي الحياة الرهبانية، بما أدخله من تنظيمات ما تزال تستوحى منها الرهبانيات الرومية الملكية في الشرق. وكان همه الدائم في محاولة توفير ما بين الحياة النسكية التي اشتهرت قبله مع القديس انطونيوس والقديس باخوميوس وغيرهما، وبين الحياة الديرية التي تسعى الى تمجيد الله بأعمال الرسالة المتنوعة. ذلك ان كثيرين سبقوا فأدركوا القداسة بعد أن تركوا كل أموالهم وخيراتهم الدنيوية، منتحلين حياة العزلة في البراري، عائشين بالزهد والتقشف، معتقدين بدقة الفضائل الانجيلية، غير منقطعين البتة عن ممارسة الأصوام والصلوات. وكان القديس انطونيوس من أولئك الذين هجروا الدنيا وملذاتها الى حياة النسك والتوحد في عبادة الله. فتبعه عدد من التلاميذ استطاع ان يقيم بينهم حياة مشتركة مبنية على المحبة، تسعى الى تهذيب النفس والعمل اليدوي. ثم جاء بعده القديس باخوميوس ليتابع عمله ويضع قانوناً دقيقاً مكتوباً لأولئك الذين أرشدتهم القديس انطونيوس بوعظه ومثله الصالح. ثم جاء كثير غيرهما أمثال القديس مكاريوس والقديس اثناسيوس.. وبقيت الحياة الرهبانية تتقلب في أنظمتها وتراخى ضوابطها، خصوصاً بعد أن تخلّى معظم الرهبان عن حياة الوحدة وامتزجوا بالحياة العالمية، الى أن أرسل الله رجلاً عظيماً هو القديس باسيليوس الكبير ليقم النظام في هذه الجماعات الديرية وينشئ قانوناً ثابتاً لها. وفعلًا، فقد وضع هذا النظام راغباً في ان يجمع في رهبنته معاً حياة الجماعة وحياة الاختلاء والصلاة الى حياة الرسالة^(١٠٧). ان مبتغاه أن يوجد حياة مشتركة تتكامل فيها المواهب وتنسجم الطاقات وتتآلف المعطيات، وتكون فيها الثروة والخيرات في تصرف الجميع والسلطة في خدمة الفرد. ان مثل هذه الاعتبارات التي عرفناها مع القديس باسيليوس في القسم الأول من الموضوع عملت بنجاح على ازدهار الحياة الرهبانية الباسيلية وإخصابها.

وإذا راجعنا بالتدقيق قوانين القديس باسيليوس الطويلة والمختصرة ، نلاحظ انه تناول بالتفصيل جميع دقائق الحياة الرهبانية ولم يترك اي شاردة أو واردة إلا وأبدى رأيه فيها ، مستوحياً دوماً كلام الكتاب المقدس وتعاليم السيد المسيح ورساله ، هدفه في ذلك أن يبين عائلة متكاملة لا يشوبها أي ضعف ولا تمسها الفوضى ، تسعى بائتلاف وتوافق لتشييد ركائز الملكوت السماوي واتباع طرق الكمال المسيحي ، وقد وصفها القديس غريغوريوس التريزي بقوله : « يمكن ان تشبه هذه الجماعة عائلة كبيرة من الاخوة يخضعون لرئيس وينشدون سبع مرات في اليوم التسابيح والتماجيد للسيد ، ويتناولون معاً الطعام البسيط ، يحرقون الأرض بصمت ويمارسون الفضائل الأساسية للحياة الرهبانية : العفة والطاعة والفرق » (١٠٨) .

وعلى كل حال ، تبقى هذه القوانين القواعد المثلى التي تبنى عليها النفوس العطشى الى اتباع خطى المسيح والسير على دروب الحقيقة . وكم كان لها من عظيم الأثر ! وكم قادت من نفوس الى أعلى درجات الكمال والالتزام الإيماني ، لا شيء إلا لأنها عرفت أن ترفع عالياً شعار الحياة الرهبانية الرسولية مع المحافظة دوماً على روح التأمل والزهد . لقد أظهر فيها باسيليوس شعوراً صادقاً وعميقاً بحاجات النفوس والضروريات الخاصة بعصره ، مما دفع بعضهم الى الإشادة بأولئك الرهبان الذين باتوا بقيادة قديسنا العظيم من أكبر الداعين إلى الإيمان المستقيم والمدافعين عنه ضد الآريوسيين وأنصارهم ، أعداء ألوهة السيد المسيح وروحه القدوس (١٠٩) .

واذ لا مجال هنا لتفصيل كل ما جاء في هذه الفرائض والقوانين ، نكتفي بإلقاء نظرة سريعة ومقتضبة على مفهوم الحياة الرهبانية عند القديس باسيليوس ومتوجبات الراهب ضمن هذا الواقع .

ان الحياة الرهبانية هي الطريق الأضمن والاكثر كمالاً للاقتداء بالسيد المسيح ، وهي تجسيد واقعي للنمط الحياتي الذي عاشه المسيح على هذه الأرض . لذا فانها تبين من القسوة والشدة بمكان لأن سيدنا له المجد « لم يأت ليخدم بل لِيُخدم » (متى ٢٠/٢٨) « وليتم مشيئة أبيه السماوي » (يو ٤/٣٤) . ولهذا دعوته صريحة وواضحة : « اذهب وبع كل شيء وتعال اتبعني » (متى ١٩/٢١) ، « من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني » (مرقس ٨/٣٤) ... من هذه المنطلقات الانجيلية ترسم صورة الحياة الرهبانية التي اشتهرت في المسيحية منذ القرن الثاني للميلاد ، وسعى باسيليوس فيما بعد أن يضع لها قانوناً ثابتاً كما أسلفنا .

تتميز الحياة الرهبانية قبل أي شيء بأنها حياة مشتركة. وهذا النهج فضله باسيليوس على حياة العزلة والتفرد^(١١١). فان مسيحية الراهب خصوصاً والإنسان بنوع عام تبين من خلال علاقاته مع الآخرين، ونحن بحاجة بعضنا إلى بعض. المحبة لا تطلب ما لنفسها، أي ان عيشة التوحد تهتم بمصالح الشخص الخصوصية فقط، بعكس الحياة المشتركة التي هي انفتاح على الآخرين وعطاء سخي. ثم اننا نؤلف جسداً واحداً رأسه المسيح، وكلّ منا عضو في هذا الجسد، «إذا تألم عضو تألمت معه سائر الأعضاء» (١كور ١٢/٢٦)... ثم يعدد باسيليوس فوائد الحياة المشتركة وخطار الحياة المتوحدة^(١١٢)...

واذا كانت الحياة الرهبانية تركز على المشورات الانجيلية، فإن الطاعة تبين اكثرها أهمية وأشدّها ضرورة. فهي روح الحياة الديرية. واذا كان الله قد أوحى الى المسيحيين بأن يخضعوا لرؤسائهم العالمين الذين يستمدّون سلطتهم من القوانين البشرية، فكم يجب بالأحرى على الرهبان أن يطيعوا ذاك الذي جعله الله رئيساً عليهم وأمدّه بالسلطة التي من لدنه تعالى! فعلى كل راهب أن يتمم بفرح العمل الذي أوكله اليه رئيسه^(١١٣).

وبالمقابل يعرض مشترع هذه القوانين مطوّلاً واجبات الرئيس تجاه إخوته. عليه أن يكون معهم كالأب مع أولاده، فيخدم حاجاتهم ويتحمّل بصبر زلاتهم الجسدية والروحية، قائماً بواجب التأديب والتهديب تجاههم، عالماً بأنه سوف يؤدّي حساباً عن هذه النفوس الموكلة إليه^(١١٤).

وبما أن هدف الحياة الرهبانية هو بلوغ أسنى درجات الكمال المسيحي، فإن ذلك لا يتم إلا بنظام قاسٍ يوجّه النفوس شطر هذه الغاية. وبالفعل، فان القديس باسيليوس يظهر من خلال قوانينه المختصرة والمطوّلة قاسياً الى حدّ ما تجاه الرهبان، فهو يريد أن يتموا بالشدة والحرمان شوطهم من الجهاد، «ويكملوا في أجسادهم ما نقص من آلام السيّد المسيح» (كولسي ٢٤/١). ولكي ينجوا من كل تجربة ويدكوا في أنفسهم نار محبة الإله، تبقى حياة الصلاة والتأمل الضمان الوحيد لإدراك هذه الغاية^(١١٥).

ويرى القديس باسيليوس ان على الراهب الاختلاط بالعالم ليستطيع حقاً ممارسة كل النشاطات ونشر التعاليم التي أوصى بها السيّد المسيح، حتى يكون اكتساب الفضائل المسيحية والرهبانية عن استحقاق^(١١٦). فالاجتماع بحاجة الى الرهبان، كما ان الرهبان أيضاً بحاجة الى المجتمع، حيث يجدون ميداناً واسعاً لنشاطهم الرسولي. يذكر الأبرّ في كتابه عن

القديس باسيليوس «ان الأديار أصبحت مع القديس باسيليوس منارة علم وبيوت تربية صالحة، والى مدارسها كان معظم الأهل، حتى الوثنيون، يرسلون أولادهم» (١١٦).

وينظّم باسيليوس كل حيّيات الحياة الرهبانيّة؛ فعلى الرهبان أن يقرأوا لا ما يخلو لهم، وإنما ما هو مفيد لحياتهم الروحية وما يأمرهم به الرئيس، في أوقات مناسبة (١١٧). وعليهم أن يعملوا بجدّ ونشاط غير متكاسلين وغير مهملين لصلواتهم اليومية، معتبرين انهم بأعمالهم يرضون الله ويساعدون أخاهم القريب (١١٨). أما من ناحية طعامهم، فيكون بسيطاً لسدّ حاجات أجسادهم، ولا يأكلون إلا ليحفظوها في الحياة، فلا يعمل في الاديرة إلا الطعام السهل لإيجاده والقليل الثمن (١١٩). وكذلك يكون استقبال الضيوف بتواضع ودون ظهور، متذكّرين قول المسيح لمرتا، ولا تقدّم لهم إلا الضروري واللازم (١٢٠). أما ملبوس الراهب فيجب أن يكون بسيطاً متواضعاً كي لا يقع في غرور الفريسيين الذين يلبسون الثياب الفضفاضة ويجذبون الأنظار (١٢١)، ولا يهتم بماذا يأكل أو ماذا يشرب أو ماذا يلبس، بل فليتكّل تمام الإتكال على عناية الرب التي تستفيق قبل الشمس، كما قال أحدهم. وهناك توجيهات أخرى عديدة وتنظّمات شتى وتحريضات روحية وأخلاقية وردت في قوانين وفرائض القديس باسيليوس لا مجال لذكرها هنا وإلا طال الكلام بنا كثيراً.

نعود ونقول ان الحياة المسيحية هي تطبيق عملي لتعاليم السيّد المسيح، والحياة الرهبانية ما هي إلا كمال الحياة المسيحية. لذا فقد شاء باسيليوس باعتبار عكسي ان يستقي عامة المؤمنين معاني حياتهم الروحية والأخلاقية وحتى الاجتماعية من هذه الاعتبارات والمفاهيم المختصّة بالحالة الرهبانية، وما تشريعاته إلا اجتهادات تفسيرية عملية للتعاليم المسيحية السامية.

على كل حال، ان فضل أسقف قيصرية، قائد الرهبان، في تشريع وتنظيم الحياة الرهبانية عظيم جدّاً، ومتى تبيّنّا فعلاً مدى الأثر الرهباني الذي خلفه في انماء الحياة المسيحية والروحية، نستطيع عندها أن ندرك قيمة عمل القديس باسيليوس، هذا الذي به استحقّ أن يكون في عداد أعظم رجال الكنيسة.

ب - الوعظ والتربية

ناحيّتان أساسيّتان في حياة القديس باسيليوس، فيها يتجلّى عمله الرسولي والتبشيري

الذي جعل منه راعياً ومرشداً تألّب حوله الجميع واخذوا بنصائحه التي كانت لهم النور والهداية في طريق الحياة الشائك. ولقد كثرت مواعظه في المواضيع المختلفة، وفي كل مناسبة كان يلقي بذار الكلمة في حقل النفوس الثائقة الى معرفة الله والارتشاف من ينابيع حكمته. وقد أوردنا بعض فقرات منها في استشهاداتنا. ولم يترك أسقفنا قضية روحية او دنيوية إلا وتكلّم عنها. فمن مواعظه عن الخلق الى مواعظه عن المزامير الى مواعظه ضدّ الأغنياء والمواعظ الأخرى المختلفة بما يختصّ بالممارسات الطقسية والفضائل المسيحية على أنواعها، كل ذلك يبيّن عن زخم فكري لا مثيل له واتّقاد ذهني تجسّد في روحانية فائقة وفصاحة تسحر العقول وتفتن الألباب.

ولا يخفى عن تصوّرنا أبداً تلك الجموع الغفيرة المحتشدة في الكنيسة أو خارجها أو في الساحات العامة تستمع الى أقوال كاهنهم وأسقفهم الكبير الذي تتدفق من فمه سيول الحكمة وتفيض على شفّيته كلمات الحق ذات الوقع العميق. لقد هرعوا جميعهم، كبيرهم وصغيرهم أميؤهم ومثقفوهم، رجالهم ونسأؤهم، للاستماع إليه والاستنصاح به. «انه لا يخفى عليّ، يقول باسيليوس في موعظته الثالثة عن الخلق، انه يوجد بينكم هنا الآن كثير من الصنّاع وذوي الحرف والموظفين ممّن يرجون رزقهم بكل شرف واستقامة» (١٢٢).

وقد تنوّه أنّ باسيليوس يعمل على الطريقة السوفسطائية في خطبه بغية التبجّج بالمعرفة واطّهار مواهبه أمام الجموع المتراخمة لسماعه، انه خطر عظيم يتنافى مع اقتناعاته الذاتية، وقد استدرك له أسقفنا الكبير وراح يعلن بشدّة وصراحة انه «يجب ألا نقاد في تعليمنا الى ميل شخصي وحبّ بالباهة، متملّقين الشعب بهدف إرضاء رغباتنا وحاجاتنا، بل علينا بالأحرى أن نكلّمهم لمجد الله، وعلى اننا في حضرته تعالى» (١٢٣).

من هذا المنطلق، يظهر أسقف قيصريّة وكأنه خادم الحقّ وناقل بشره الى نفوس سامعيه. وهذه الحقيقة لا يمكن التجريح بها، اذ لا مجال البتّة لتوجيه الانتقادات وإلصاق التهمات بمن كرّس حياته منذ بدايتها لنقل كلام النعمة وبشارة الخلاص. وما الدوافع الظاهرة او الخفية التي نستلمحها من خلال مواعظه وخطبه إلا مؤشرات تتوافق مع هذه الغاية المثالية وتنسجم معها تمام الانجسام. واذا كان لنا أن نستوضح في حنايا مواعظه الرائعة الخطة أو النهج الذي اتّبعه لاداء تلك الحقيقة المبدئية، لقلنا بكل ثقة وتأكيد انها التعليم.

التعليم يفترض تعلّماً أو علماً خاصاً لا بدّ منه لتوسيع الآفاق وتهذيب الشخصية.

وعلى هذا تمتع تلميذ اثينا بثقافة عالية اكتسبها على أساتذة اشتهروا بعلم واسع وفهم غزير. فقد غرف من كل العلوم وحاول الاستعانة بها لبلوغ مبتغاه. فليست الفلسفة غريبة عنه، هو الذي امتزج بمختلف تياراتها واتجاهاتها، ولا العلوم الطبيعية التي شكّلت أساساً لتشبيهاته في مواعظه عن أيام الخلق الستة، فالطبيعة كانت بالنسبة اليه مسرحية كبيرة مؤلفة من مئة مشهد ومشهد، حتى ولا علم الجغرافيا او غيره من العلوم الأخرى. وكان همه الدائب في ان يعرف مستمعيه الى عظمة العمل الإلهي وجمال خلقه، وان يرتقي وإياهم من المنظورات الى التأمل بغير المنظورات وتمجيد خالق السماوات والأرض وعظمة جبروته، فيوجه كلامه قائلاً:

«ليكن بهاء هذه الأشياء المنظورة مرقاة لنا لفهم غير المنظور والذي هو فوق كل جمال أرضي. ولترفعنا روعة هذه المحسوسات المحدودة الى إدراك المبادئ السامية عمّن هو سرمدى غير محدود ذو جبروت يتخطى مدارك عقولنا وافهامنا» (١٢٤).

في عدد وافر من مواعظه يعلم باسيليوس الكتب المقدسة بما يستقي منها من أمثال وأقوال ينمق بها كلامه الجميل مطيلاً الشرح والتفسير حتى لتأتي خطبه هذه وكأنها أحاديث سحرية عن حياة عادية بقلب جذاب لا يخلو من الزهو والافتنان. ولكن الغاية تبقى النور المرتسم في رحاب الأسطر والمغلف لأطر الكلمة. فما يصبو اليه باسيليوس هو هدف أخلاقي ذو بُعد انساني واجتماعي. ولولا هذه الرؤيا لفقدت معظم مواعظه مبرر وجودها وأسباب زخرفها الأدبي الفاتن، ولا نسرع في الاستنتاج ان لباسيليوس رغبة باطلة في إبراز مواهبه وتزيين معارفه. قد يكون ان باسيليوس يعمل ليسترعي انتباه المؤمنين، فهو الخطيب المنتبه بدقة الى حاجات مستمعيه ورغباتهم، وليس بشيء إن هو أبان عن حشوية فكرية دائمة التيقظ في نفسه هي ميزة الذوق البيزنطي الرفيع.

ثم ينطلق باسيليوس الى اعتبار أولية التعليم الديني - الأخلاقي كأساس لتهديب الشخصية الاجتماعية وصلاحها طبقاً للمقاييس المسيحية المستوحاة من الانجيل خصوصاً والكفيلة بإرساء قواعد متينة لمجتمع صالح. وما أدبياته إلا تجسيد حيائي لهذه الحقائق الانجيلية الشريفة.

ولا يكفي أسقف قيصرية بإملاء النصائح وتوجيه الإرشادات بشكل عام لرصّ مداميك البناء الإنساني والاجتماعي، بل ينطلق من تصوّر سابق للحالة، تعمل فيه محيّلته الخلاقة وتبرز خطوطه، موضوع النقد والاصلاح، فتأتي كلماته فيه اكثر فاعلية وأشدّ وقعاً

على نفوس الحاضرين عموماً والمقصودين منهم خصوصاً. ويكفي أن نقرأ تلك الفقرات من موعظته الحادية عشرة^(١٢٥)، لنستوضح بجلاء في ذهننا ما سبق قوله.

ويذهب أسقفنا إلى أبعد من ذلك بكثير، إذ يَصَوِّبُ نظره إلى الإنسان من حيث هو كائن - عالم صغير بحد ذاته ، ومن حيث هو جزء من عالم أكثر شمولاً واتساعاً ، اعني به البيئة أو المجتمع الذي فيه يعيش ويتفاعل مع بقية أفرادهِ . ثم يجتهد لسبر أغوار الشخصية البشرية آخذاً بعين الاعتبار مقوماتها الطبيعية والبيكولوجية التي تقرر حالها وواقعها الاجتماعي. وفي هذا المنحى ، يهتم خطيبنا ليس فقط بمحاربة مواطن الشر في الانسان والمجتمع ، وانما يحاول ان ينفذ الى اعماقه بسكب خيالي فريد ، جاهداً في إبراز العناصر النفسانية التي تمت بصلة الى الحالة المعنوية ، هدفه من ذلك أن يتخطى الاعتبار الظاهرية للاتصال بالإنسان الباطني وادراك أبعاده اللاواعية. وان المقطع التالي من موعظته عن الانتباه للذات لينم عن قدرة تحليلية نافذة وخيال مبدع ، فيقول في كلامه عن الشبان :

« ان خفة فكرهم لتوهمهم بأنهم يملكون ما يتمنون. في راحتهم وفي سكون ليلهم يختلقون رؤى وأحلاماً تمن في خداعهم وافسادهم. يتوهمون في تصوّرهم كل شيء : يعدون أنفسهم برغد الحياة ، بهناء الزواج ، بجميل الأولاد وبطول الشيخوخة إلى ما هنالك من تألقات وأوهام... ويذهبون في ضعف مقاومتهم لهذه التخيّلات الى عظام الثروات : فيقيمون لأنفسهم بيوتاً جميلة رحة يملأونها بشتى الخيرات ووسائل التمتع. ومتى تم لهم ذلك ، يستولون على الأراضي ؛ انها توهّات بمقياس أفكارهم الباطلة ورغباتهم الفارغة. ثم يجمعون غلالهم في اهرائهم الخيالية ، ويضيفون على ذلك كله القطعان والمواشي وكثرة الخدم والحشم ، ولا يغفلون عن الاستيلاء على السلطات السياسية : حكم الشعب ، إصدار الأوامر العسكرية ، خوض الحروب ، التتّوج بأكاليل الغار وحتى السيادة الملكية عينها... »^(١٢٦).

وبعد هذا الامعان في الوصف والتفصيل ، عن قصد طبعاً ، ينتقل باسيليوس إلى اعتباراته الخاصة لتقييم هذه الحالة ، وإلى إصدار حكمه على أصحاب تلك النفسيات الموهومة ، فيتابع : « ان مثل هذه الرؤى الوهمية توجّههم شطر كل تلك الأشياء. فيبين لهم في خضمّ جنونهم انهم يتمتّعون فعلاً بهذه الأمانى كما لو انها تحققت لهم وأصبحت في منال أيديهم ! لا ، انه لمن ضعف النفس الفارغة وكسلها الباطل أن تتحالم في حالة اليقظة... »^(١٢٧).

ولكن مهما يكن من أمر ، علينا ان نقرّ في النهاية ان باسيليوس عرف أقصى حالات الانسان النفسية ونفذ الى أعماق قلبه البشري. وهذه المعرفة القديرة جعلت منه مصوراً

بارعاً ثاقب النظر في رسم خطوط المجتمع المعاصر. لقد استطاع ان ينتقل بنجفة بارعة من الفردية الى الجماعية، وان تكون «دراساته» في «علم النفس الفردي» أساساً واقعياً «لعلم النفس الاجتماعي» ونقاط انطلاق موثوق بها لتكملة اللوحات الواقعية في حياة المجتمع^(١٢٨).

و ملخص الكلام ان مواعظ القديس باسيليوس تبقى بشكل اكيد نوراً يهدي الجميع ويرد الضالين الى سواء السبيل. ولا أحد يمكنه أن ينكر الفوائد الجمّة التي جناها أسقفنا من خلال وعظه والأثر الذي خلفه في نفوس المؤمنين والحاضرين إجمالاً. لقد كان الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن الخراف والوعاظ «المحبوب من الشعب»^(١٢٩).

واذا كان من أهداف باسيليوس في وعظه صقل الشخصية الأدبية وقيام بنية اجتماعية متكاملة يسودها النظام، فان تحقيق مثل هذه الغاية الشريفة لا يتم إلا على أساس تربوي يأخذ بعين الاعتبار كل المقومات الطبيعية والمكتسبة ويحاول تكييف الوجود الكياني مع الواقع الديني والأنظمة الانسانية والاجتماعية والاخلاقية المستوحاة منه.

اهتم أسقف قيصرية أولاً وقبل كل شيء بالتربية الروحية لأنها الأساس الذي عليه يقوم الوجود الإنساني من حيث أن الإنسان كائن عاقل مدعو الى حياة الألوهة والازدراء بالحياة الوقتية الفانية؛ هذه نظرة مسيحية صرفة لا قياس لسموها^(١٣٠). وتتميز هذه التربية الروحية في الميدان العملي بدعوة صريحة الى رفض الخطيئة والتحلي بالفضائل التي يعلمنا إياها السيد المسيح، فيقول:

«يجب ان نموت عن الخطيئة ونُصلب مع المسيح، واضعين فيه كل حُبنا. هذا أمر صعب! ولكن ما السهل في نظام الخير؟ لا تكتسب الانتصارات في كثرة النوم، ولا تجني اكايل الظفر في الملذات وصوت الأبواق... ان من يجاهد ينتصر، وبالأتعاب نحصل على المجد. وأقول لكم بدوري، يتابع باسيليوس، «يجب علينا ان نجتاز مضائق كثيرة لندخل ملكوت السماوات» (أعمال ١٤/٢٢). ولكن بعد هذه المحن نتظننا الطوبى السأوية، بينما لا نفرض جهود الخطيئة إلا إلى التعاسة وعذاب جهنم»^(١٣١).

ولبلوغ هذه الغاية، لا بدّ للنفس البشرية من بذل جهود مضيئة واتباع نظام قاسٍ متجرد يوصلها إلى حياة الفضيلة ويمتّعها بحياة النعمة المقدسة. في هذه الحال فقط يمكنها التصدي لمكايد إبليس ومجابهة كل محاولاته لإسقاطها في الخطيئة، أي بكلام آخر يفترض لها «توجيه حسن في الحياة»^(١٣٢)، يعتمد على إظهار عار الخطيئة ووخيم العواقب الناجمة

عن فعلها، مع تحديد الخطوات الممكن اتباعها للمحافظة على حالة القداسة الدائمة. وتكاد تكون اكثر مواعظ القديس باسيليوس عن المزامير، اذا لم نقل كلها، أساساً لهذا «التوجيه الحسن» ومحاولة جادة في رسم خطوط التربية الروحية العالية.

واذا كانت نظرة قديسنا العظيم تخلق بعيداً في اجواء الروح وترجى كبير النتائج من الثقافة الروحية، فما ذلك إلا دليل على خلود كياناتنا الاخروي وحقيقة أبعاده الاسكاتولوجية التي تشكل، في شرع أسقف قيصرية، قاعدة صحيحة ومتمينة لكل واقع إنساني وانعطاف فكري مما لا بد منه لتكامل الإنسان وتفاعله البشري على مختلف الأصعدة. لذا فإن ما يليق به من بذار توجيهي وارشاد تربوي للشباب في موعظته الخاصة بهم يرتكز جملة وتفصيلاً، أساساً وبناء، على هذه الحقيقة التي لا مجال لنقدها والتشكيك بها. وقبل أن نبدأ ببحثنا في موعظته الى الشباب واطهار طرق التربية الفكرية الثقافية التي ارتأى باسيليوس ان يعتمد عليها مع الشباب المسيحي، جميل بنا ان نتعرف ولو بشكل سريع الى النظرة الفكرية المسيحية تجاه الثقافة الكلاسيكية، كما اعتمدها الآباء الذين سبقوا القديس باسيليوس، وموقف هذا الأخير من ذلك الواقع الذي بلورته الأجيال وأملت خطوطه ظروف تلك الأيام الدينية والسياسية والحضارية.

ان التربية الروحية التي سبق الكلام عنها اتخذت في كتابات الآباء في الأجيال الأولى المسيحية طابعاً خاصاً يتميز بصفاء خالص لا يشوبه أي تفكير عقائدي، يدعمها انتشار سريع للروحانية المسيحية التي كانت من شدة التناقض مع الحياة الوثنية بحيث تفلتت كلياً من ربطها لتثبت لذاتها قالباً خاصاً ذا أبعاد وجودية وحياتية مختلفة تمام الاختلاف عن سابقتها. وانعكست هذه المبادئ التكوينية على مختلف وجوه الحياة العامة ومنها الحياة الفكرية، فأصبح موضوع العلاقات بين المسيحية والثقافة العلمية والأدبية موضوع كل زمان ومكان. وكان من الطبيعي ان يحتدم بشدة في عصر بلغ فيه الوجود الهليني أوجه. فها القديس ترتليانوس يرفض الثقافة الدنيوية ويمنع كل اتصال بها ومثله القديس تاتيانوس. هذه التقاليد المتصلبة كانت تفعل في النفوس حتى القرن الرابع وتجد لها مناصرين، الى أن جاء باسيليوس ذو الطبع المعتدل، فتصدى لهذه النظرات وأبعد كل تحوُّف، متخذاً موقفاً توفيقياً، ليس فقط ليمدّ الجسور ما بين التربية المسيحية والثقافة الكلاسيكية، وانما ليجعل من هذه الأخيرة أداة طيعة للأولى وميداناً أكثر اتساعاً لاكتشاف انساني واجتماعي أكمل (١٣٣).

ويعلم لنا باسيليوس جهاراً في إحدى مواعظه عن موقفه هذا والغاية التي يتوخاها منه فيقول : « في ظني ان كل إنسان عاقل يفكر بأن العلم هو الأمر الرئيسي من بين كل ما هو حسن وفي منال عقولنا . ولا أقول بأن علومنا هي وحدها عالية ونبيلة ، لأنها تحتقر أناقة الخارج لتعلق بجمال الأفكار ، وانما أيضاً العلم الذي من الخارج ، الذي يرفضه كثير من المسيحيين القليلي التقدير ويعتبرونه خادعاً وخطراً يبعدنا عن الله ... فمن هذا علينا أن نحفظ بما يمكنه أن يساعدنا على التأمل في الحق ، متجنبين كل ما يؤدي إلى الشر والخطأ والهلاك » (١٣٤) .

واذ توضّحت لدى الجميع مرامي القديس باسيليوس والنظرة التي تبناها في هذا المجال ، كان من الطبيعي أن يعمل ابناؤه برأيه ، هو الراعي الأمين الذي وضعوا فيه كل ثقتهم ، فيقبلوا الى المعارف والعلوم لذلك الوقت . واستدرك باسيليوس الخطر الذي قد يتعرضون له بنهلهم منها دونما تمييز ، فحذّر منه ، خصوصاً وان المعرفة تدخل في نطاق التربية :

« ولذا يهمننا جداً ، يقول باسيليوس ، ألا نكتب بجهل على العلوم ، وانما ان نعرف ما الأفيد منها ... وخوفاً من أن نتعلق بها وننسى علم الله منغمسين في أبحاث باطلة ، يبين من الضروري أن نستعمل التمييز في التربية بطريقة نختار فيها العلم المفيد ونتجنب كل ما هو ضرر وشؤم » (١٣٥) .

مثل هذه النصائح تتوجّه إلى الشباب أكثر منها إلى أي شخص آخر . فالشباب عمر العلم والنهل من المعارف ، عمر الاندفاع لكل شيء ، وأحياناً دون معرفة وادراك . فأراد اسقفتنا العظيم أن يرشد هؤلاء الى الصراط المستقيم وينير لهم دروب الحياة في مختلف ميادينها وخصوصاً الفكرية منها ، مستوحياً الحقائق المسيحية التي تظهر في جوهرها أولية الروحاني على المادي وترجى الحياة الثانية التي ليس لها زوال . ان التربية الثقافية يجب أن تعتمد على المبادئ الإلهية التي علمنا إياها السيد المسيح ، وأن تسير على هديها ، حتى وإن دعا ذلك الى قطع الربط مع المعلمين الدنيويين واحتقار ما يعتبره الرعيل العالمي من أرفع وأكرم ما عنده :

« أيها الشبان ، لا تجعلوا معلمكم الأرضيين يتحكمون بعقولكم وافهامكم ، ولا تتبعوهم أينما قادوكم . خذوا منهم ما هو لمنفعتكم واطرحوا جانباً ما يضرّ بكم ويهدم مستقبلكم . أيها الشبان ، ان الحياة الحاضرة هي كلا شيء ... رجاؤنا أبعد بكثير ممّا نتصور وجهودنا تصبو إلى الحياة الأخرى . ان ما ينفعنا في هذه الحياة هو الذي يجب أن نحبه ونبتغيه بكل قوانا ، وما لا يخدم هذه الغاية هو غير ذي اهمية وجدير بالاحتقار » (١٣٦) .

على هذا الأساس المتين وانطلاقاً من هذه الرؤية المتعالية التي تضع مصلحة النفس

فوق كل مصلحة، من حيث ان النفس هي الجزء الكياني السامي الذي يربط الإنسان بعالم الروحيات وغير المنظورات، تتسلسل اعتبارات القديس باسيليوس التربوية لتضع النقاط على الحروف، ومنها كيفية قراءة الكتب العالمية - بمعنى غير المقدسة وغير الروحية - التي يرى فيها قديسنا بدافع ضميري مدخلاً أو بالأحرى عملية تحضير لفهم معاني الكتب المقدسة والغوص في حكمتها البعيدة. وهنا يبين مرة ثانية قصد أسقف قيصرية التقريبي ما بين الفكرين، فيتابع كلامه إلى الشباب :

«ان عمركم لا يسمح لكم بسر أغوار الكتب المقدسة وإدراك غوامضها. ولبلوغ ذلك، لنا كتابات أخرى أكثر منلاً لعقولنا كأنها ظلال ومرايا تتمرس فيها مسبقاً أعين نفوسنا... فيجب اذن أن نقرأ باختيار للشعراء والمؤرخين والخطباء، وبكلمة موجزة لكل من وما من شأنه ان يحمل فائدة لنفوسنا... اذا كنا نريد ان نحفظ في ذواتنا بريق الخير غير محجوب، علينا ان نبتدئ بقراءة الفكر الديني لرتفع بعده الى المقدسات وأسرار الايمان... فاذا كان هناك من موافقة بين هذه الثقافة وعقائدنا، كانت معرفتها من الإفادة بكان كبير، وإلا فالمقارنة في الحالة العكسية من شأنها ان تثبت اعتقاداتنا الصحيحة» (١٣٧). ثم يذكر لهم في بقية العظة أفعال كبار الرجال وعظام المفكرين، مستوحياً منهم خطوط حياة روحية وفكرية عليهم أن يسلكوها لبلوغ كمال وجودهم في هذه الحياة.

ولكن التربية تتناول ميادين الحياة الاجتماعية كلها، فهي في نظر دوركايم أي علم الاجتماع في فرنسا «عمل اجتماعي، وليس من ميدان أكثر جدارة ووضوحاً منه في تبيان طبيعتها» (١٣٨). وهي والحالة هذه تهتم ليس فقط بتوجيه الشباب وانما بتنشئة الأولاد وكذلك، بأولى حجة عند القديس باسيليوس، بتنمية حياة النعمة والفضيلة في نفوسهم. وتعتمد في ذلك طبعاً على التعليم، الأساس والواسطة لتشبهنا بالله تعالى وتفتح شخصيتنا.

رأينا ان القديس باسيليوس جعل من الأديار مراكز إشعاع وتعليم للجميع، وكان الأهل يرسلون أولادهم اليها للتعليم واقتناء ثقافة روحية وانسانية عالية. وهنا يبين باكثر جلاء عمل باسيليوس التربوي الذي لم يعتمد أبداً على الشدة ولم يقيم البتة على القسوة في تهذيب الفتيان وتأديبهم؛ فالقصاص يجب ان يكون بقصد الإفادة والاستعبار، لا لأجل القصاص بحد ذاته. وبالمقابل، تعتمد الجوائز للتشجيع وخلق اجواء من الانتباه والفرح... (١٣٩) ولا يذكر باسيليوس البرامج الواجب اتباعها في التعليم وانما يمكننا أن نؤكد انه كان يطلب من الأساتذة ان ينشئوا تلامذتهم على تذوق الواقع وحب البساطة.

على مثل هذه المعطيات تركّز اذن العمل الوعظي والتربوي للقديس باسيليوس . وقد كان له كبير الأثر وعظيم التقدير في النفوس المسيحية المؤمنة . «فن خلال وعظه وسماع صوته ، يقول الأب فاسون ، ارتدّ الوثنيون الى الإيمان ، والمسيحيون ازدادوا حرارة وتقوى ؛ الاعداء تصالحوا وأصبح الأسياد يحبون عبيدهم ويعطفون عليهم ، فكان أن عمّ الفرح والسلام في كل البيوت والمدن»^(١٤٠) . وما يقوله الباحثون والكتّاب عن التربية الباسيلية يظهر حقيقة الامتياز الذي استحقّه اسقف قيصرية العظمى ، «فقبل أن تحتلّ الكنيسة مركزها المرموق في المجتمع ، كان باسيليوس قد أوجد الحلّ لمشكلة التربية المسيحية ، دون أن يهدر من إرث البشرية ، محافظاً على أولوية الحقائق الأزلية . وانه لمن أوائل الذين رسموا صورة عملية وواقعية للمدرسة المسيحية»^(١٤١) .

ج - في خدمة الرعية

بحر من العواطف الصادقة ولجج من الأحاسيس الأخوية العارمة اجتاحت كيان القديس غريغوريوس وهو يرثي صديقه ورفيق حياته الراحل القديس باسيليوس . لم يستطع قلمه ، رغم بلاغة رثائه المتناهية ، من ان يعبر عن خلجات صدره وصفاء مشاعره . فنراه يتكلّم بصدق وفصاحة فريدة عن شخصيته وفضائله ، ويقف متحيراً أمام جليل أعماله الخيرية وغنى حياته الاجتماعية ، «فاذا أقول عنه؟ أو كيف أذكر عظم إحسانه وحقيقة مساعدته للفقراء وتخفيفه للآلام البشرية؟»^(١٤٢) .

ولعلنا نجد في هذا التلميح دليلاً بيّناً على الميزة الخاصة التي تميّزت بها حياة أسقف قيصرية فيما بين أبناء رعيته . اننا مهما تكلمنا بإسهاب عن أفكاره الاجتماعية وتنظيماته المختلفة ، تبقى صورة حياته مبتورة وناقصة اذا لم نلقِ الأضواء الكاشفة على عمله الاجتماعي مع الفقراء والمساكين وكل ذي حاجة منها كانت .

واذا تعمّقنا في فحص حياة القديس باسيليوس وادراك الأبعاد الأساسية لشخصيته الفريدة ، نلني انه الرجل الواحد في ذاته المتكامل في معطيات طبيعته النفسانية والإنسانية . فهو صاحب القول المقرون بالعمل والقرار الذي يحطم كل مجاهبة تعترض سبيل تحقيقه . انه شخصية فذة قولها نابع من صميم اقتناعها الداخلي ، وباسيليوس التزم أولاً وآخرًا بكل ما علّمه ووعظ به . ألم يدعُ الى نبد خيرات الدنيا والتعلّق بجبال الآخرة؟ إلى ترك كل غنى مادي وارتجاع الغنى السماوي الذي لا يزوي؟ وها فعله قد سبق قوله ، فباع كل ماله وخيراته ، ووزّع ثمنها على الفقراء والمحتاجين ، متيقناً من «ان غناه يقوم بأن لا

يملك شيئاً مع الصليب الذي كان حياته الوحيدة وأثنى من خيرات كثيرة» (١٤٣). ألم يكلمنا عن الفقر والزهد الكامل بالدنيا وأطايها؟ وها غريغوريوس يذكر في رثائه له «انه لم يكن يملك إلا رداء واحداً وعباءة واحدة؛ وفي البرية، كان يفرش الأرض، يحرم نفسه من أمور كثيرة، وكثيراً ما كان يتنابه الأرق. كان طعامه المفضل الخبز والملح... وفي هذا كله كان يجد زهوه ومجده» (١٤٤).

ولقد سبق القول ان باسيليوس دعا رهبانه - وجميع الناس - الى الالتزام بأعمال الخير والرحمة، لأن الله أوصانا بالحجة ولأننا أعضاء بعضنا لبعض في جسد المسيح الواحد. واقتناعاً منه بسمو هذا العمل المسيحي، واقتداء بحياة معلمه الإلهي انتهج باسيليوس مع ابناء رعيته حياة البساطة والانفتاح، حياة المشاركة والتعاقد التي تجد ملأها في حياة الآخرين بما فيها من صعوبات وأحزان. فكان الكاهن الغيور والأب الحنون الذي يسهر على بنيه ويأتيهم عند الملمات، ويبذل حياته في سبيل راحتهم وسعادتهم. ولقد بقيت لنا والحمد لله رسائله المتنوعة التي تنم عن عناية بالغة شمل بها أولاده في الكنيسة، وعن قلب كبير نابض بالحب لا يعرف الهناء إلا بهناء أحبائه.

اختلط القديس باسيليوس بكل مستويات الشعب، وتعرف على الظروف الاجتماعية والحياتية لكل عائلة وجماعة. كان شجاعاً لا يهاب مجابهة الحكام، يوبخ حيث ينبغي التوبيخ ويسدي نصائحه كلما وجد حاجة وسيلاً إليها. وعندنا في هذا الصدد أعظم حادثة حصلت له مع الحاكم مودستوس تبين بالحقيقة جرأة قديسنا العظيم وقوة عزيمته التي لا يرهبا الوعيد ولا يثني قصدها الضغط والتهديد. نورد هنا بعض فقرات منها إذ من غير الممكن سردها بكاملها:

«- مودستوس: ماذا تبغي، انت يا باسيليوس، من وراء تعتك ومجاهبتك للسلطة؟

- ولماذا هذا السؤال؟ أجاب باسيليوس بكل ثقة ورباطة جأش، اني لا أفهم ماذا

تقول؟

- مودستوس: يعني انك لا تتبع ديانة الملك، فيما نحن له خاضعون ولأوامره

مطيعون.

- ان ملكي، أردف باسيليوس، يرفض ذلك، وهو أحق بالعبادة من أي مخلوق

أرضي، ثم انني خليفة له ومدعو لمشاركته في حياة الألوهة...».

ثم تتابع الحوار بينها واشتدت حدته ولم يكن باسيليوس ليرعوي أو يلين. وإذ طال

المناظرة دون أية نتيجة ، حقق الحاكم وبدأ يتوعد باسيليوس ويهدده بمصادرة أمواله ونفيه ودفعه الى العذابات والموت ، فكان القديس يجيب بهدوء :

« - ان مصادرة مالي لأمر بسيط ، فليس لدي شيء ، اللهم إلا إذا كنت خبيثاً وتريد أن تحصل على هذه الأموال البالية التي ألبسها ! النفي ؟ لا أهابه ، فليس لي موطن على هذه الأرض . العذابات ؟ هل يتحملها من هو نجيل مثلي وذو جسد هزيل ، الضربة الأولى تكفي للقضاء عليّ . الموت ؟ اني أتمناه لأنه يبريني وجه من تتوق إليه نفسي بالكلية ، الذي لأجله أتحمل العذابات المريرة وأموت كل يوم .

- مودستوس : لم يجرؤ أحد أن يكلمني بمثل هذا الكلام .

- باسيليوس : ربما لم تصادف أسقفاً في زمانك من قبل ! » (١٤٥).

مثل هذه الأقوال الجريئة حملت الحاكم على اعتبار هذا القديس الكبير واحترام شأنه ، ولعلها أيضاً جعلت الامبراطور فالنس بذاته يتقرب ويتودد اليه . وعلى كل حال ، ان ما نتوخى قوله من خلال ذلك ، على الصعيد الاجتماعي والانساني ، انما هو ذاك الاكتمال الفعلي للعمل الباسيلي الذي تبني منطلق القوة ، قوة الفكر واللسان ليقم السلام ، واعتنق مبدأ اللاخوف المقرون بالصمود والحزم ليعلن الوفاق بين السلطات الدينية والسياسية ويخطو بذلك خطوة جديدة على طريق « التحرير » الاول ، اي « تحرير الضمائر » (١٤٦) من كابوس الظلمة والتسلط الى حرية النور ، حرية عبادة الله تعالى وحده وتفضيله على أي من المخلوقات البشرية .

لم يكن باسيليوس يلقي التجاوب الكامل للقيام بمشاريع وأعمال خيرية . فالغايات البشرية متعددة وشهوات الحكام في السيطرة والاستغلال هي أقوى بكثير مما نتصور . لذا لم يسلم أسقفنا البتة من تجريحات الأعداء ومعارضة ذوي الغايات ، وكثيراً جداً ما اعترضته الصعوبات وقامت في وجهه المؤامرات ، فكان يذلها ويتنصر عليها بحكمة فائقة متلمساً وجه الخير بوحى من ضميره اليقظ ، منشطاً برجاء ثابت وراسخ بالحياة الأبدية التي بعدها الله لأبراره ومتقييه . كم كان عليه أن يعمل ويجاهد ، وهو الإنسان المريض الذي هزل للغاية ، عندما أراد أن يبني مدينته الكبيرة ، مدينة المحبة التي سيأتي الكلام عنها مفصلاً ! لقد حارب بشدة وبسلاح النعمة والحقد ، وكان عليه أن يجابه الإمبراطور ويتصدى لسهام أعدائه الثائرة . فكتب إلى حاكم المنطقة مبرراً عمله ومعلناً أن الآريوسيين يحاولون سحقه بترويج الأكاذيب الباطلة التي لفقوها بأنفسهم .

وكانت الضربة الكبيرة عندما أعلن الإمبراطور فالنس قسمة الكبادوكية . وهذا إجراء

من شأنه أن يرفع الضرائب ويزيد من موارد خزانة الدولة ، ولكنّه بالمقابل سيء بمصالح الشعب ، ولا فائدة له على الصعيد السياسي ؛ ومن المحتمل ان الغاية المادية كانت الدافع الأساسي في احداث هذا التغيير^(١٤٧).

لم يجد السكان بالطبع سنداً لهم في محنتهم إلا القديس باسيليوس فلجأوا إليه في ضيقهم ورجوه بأن يتوسّط لدى الإمبراطور بإلغاء مثل هذا التدبير ، لأنه سيؤدّي في حال حصوله الى كارثة رهيبية في المدينة . وفعلاً ، لم يألُ قديس قيصرية جهداً للدفاع عن قضية ابنائه وحالهم التعيسة . وبسبب التباعد الحاصل بينه وبين الإمبراطور آنذاك ، كتب إلى أحد أصدقائه مرتينيانوس ، وهو من كبار الموظفين في القصر الامبراطوري بهذا الشأن وختم أخيراً رسالته بقوله : « يجب ان تنبه أصحاب السلطة الى أن تقوية الإمبراطورية لا يتم بتجزئتها ، إذ القوّة لا تكن بالعدد (النظري) وانما بالطاقات الفعلية الثابتة »^(١٤٨).

وقد بذل أيضاً أسقف قيصرية قصارى جهده لإعفاء الفقراء من الضرائب . فكيف يستطيعون دفع الجزية ، وهم بالحقيقة غير قادرين على إعالة أنفسهم ؟ ولا مورد رزق يؤمّن لهم كفاف عيشهم ؟ انها لعمرى حالة يرثى لها . وبهذا كتب باسيليوس الى كبير موظفي الجباية قائلاً : « لتعلمن أن هذا الكاهن الذي يحمل لك الرسالة جدير بثقة حكمتك ، لأنه يخاف الله ؛ ولتأخذن على عاتقك قضية الفقراء فتؤمن لهم العون على قدر استطاعتك ، كما تفضّل بزيارة المأوى الذي تحت إدارته واعفائه كلياً من الضرائب . وعلى هذا فقد سبق وسرّ رفيقك بأن يُستثنى ميدان الفقراء من هذه الاعباء العامة »^(١٤٩).

وهناك كثير من الرسائل الأخرى^(١٥٠) تبين لنا دائماً عمل القديس باسيليوس الجاهد لأجل المساكين ولتخفيف آلامهم ومساعدتهم في الضيقات المختلفة .

ولكن علينا ألاّ نجعل واقعاً عاشه القديس باسيليوس في تلك المرحلة العصبية ، انه واقع الكنيسة المادي الذي تميّز بضعف شامل في المدخول ، إن من حيث التقادم والتبرّعات أو الموارد الكنسية الأخرى ، ومع ذلك يشهد مؤرّخو تلك الحقبة عموماً ومؤرّخو حياة باسيليوس خصوصاً انه كان الأسقف الصالح والإداري الحاذق الذي أقام صروح المحبة واستطاع أن يحافظ بكل دقة ودراية على توازن الكنيسة الداخلي وإرثها الروحي والمادي العام .

واذا كان قديسنا قد اهتمّ بالفقراء والبائسين ورثى لحالهم وللمصائب التي تحلّ بهم ، فإنّه لم ينسَ قط كهنته وريهانه الذين تقع عليهم أيضاً واجبات دفع الضرائب . فقد كتب

الى مراقب الجباية بهذا الصدد متودِّداً إليه بلهجة لطيفة لا تخلو من الصدق والصراحة ، وذلك بعد أن لقي أحد قوانينه^(١٥١) تجاوباً واستحساناً لدى الإمبراطور . يقول :

« واذ أفكر بأنه يتحتم علي الإهتمام بهم (أي الرهبان) قدر استطاعتي ، فإنني أكتب إلى شخصكم الكريم بأن تعفوا أولئك الذين تخلّوا عن الحياة وأماتوا أجسادهم إلى حدّ لم يعد باستطاعتهم تأدية الخدمات العامة لا بأموالهم ولا بأجسادهم ؛ فهم يعيشون طبقاً لنزورهم وبالتالي لا يملكون أي شيء باستعمالهم الخاص ؛ أموالهم وخيراتهم تركوها للجماعة المعوزين ، وأجسادهم أذابوها بالأصوام والصلوات »^(١٥٢) .

ولم يقتصر غنى حياة القديس باسيليوس في الكبادوكيا على علاقات صعيدية مع الحكّام ، ولا نفكر أنّ الأحوال السياسيّة والدينيّة فقط أملت عليه مجابهة السلطات وحسن التصرف لحلّ العقّد الناشئة ، بل بالعكس أخرى بنا أن نطلق في رسم حياته من اقتناعاته المبدئية ولكن من حقائق واقعية لا تدعو البتة إلى الشكّ بها ، أعني علائق مستوية بينه وبين أبناء رعيّته على مختلف طبقاتهم ، ومع الفقراء والمعدّين خصوصاً . وليس لمؤرّخ أو باحث مهما سمّت موهبته من أن يحيط بدقائق حياته اليومية ويفصّل أحداثها في مختلف الظروف الاجتماعيّة والإنسانيّة المتعدّدة .

ولكي يستأصل جذور الشرّ من المجتمع ، بذل باسيليوس الجهود المضنية لنشر الصدق والعدالة والمحبة بين المؤمنين ، واهتمّ بكل فرد من أفراد كنيسته أينما كان . مثال على ذلك انه انتشرت زمناً «موضة الخطف» في كبادوكيا . وعلم باسيليوس ان فتاة من الريف خطفت وان للخاطف شركاء ، ثم وجدت هذه المسكينة مأوى لها في إحدى القرى المجاورة وقد تسلّح سكّان هذه القرية للدفاع عنها خوفاً من ان تُخطف ثانية . فما كان من باسيليوس إلا أن ألقي المسؤولية على كاهن الرعية التي تسكن فيها الفتاة ، ونعته بكلام لاذع ، بالرخاوة واللامبالاة ، وأجبره على إصلاح غلطته بإرجاع الفتاة إلى أهلها مهما كلف الأمر . أمّا بالنسبة إلى الخاطف وأصحابه وعائلاتهم فقد نفاهم جميعاً إلى الخارج ، بعيداً عن جماعة المؤمنين^(١٥٣) .

وقد تضاعف نشاط باسيليوس الاجتماعي خصوصاً عندما أعطت بعض المجامع المدنية التي عقدت السلطة للأساقفة في التدخّل لأجل الضعفاء وحماية الفقراء والمتهمين ظلماً ولأجل ضحايا الظنة والطغيان ... فكرّس باسيليوس لهذا العمل الاجتماعي كلّ نشاطه ، وقسماً من مراسلاته وخطبه . فنصر المظلومين وحامى عن المساكين وكان عوناً

للجميع ، وكثيراً جداً ما عرّض حياته وحرّيته للخطر ولم يكن ليردّ خائباً من لجأ إليه . وقبل أن تنتقل إلى رسائله العزائية التي شمل بها هذا الأسقف الغيور كل محزون وبائس ، ليس لنا أن ننسى تلك المرحلة القاسية التي عاشتها الكبادوكيا سنة ٣٦٨ ، بسبب موجة القحط التي اجتاحتها ، لقلة الأمطار وضعف الغلال الطبيعية واليباس التام . في هذه الفترة المشؤومة التي لم تحمل إلى المواطنين إلاّ الجوع والشقاء ، كان باسيليوس ، وهو بعد أسقف جديد ، يمضي أيامه في تأمين المساعدات وتنظيم الإعانات ، بعد أن تغافل الحكام عن اتّخاذ الإجراءات اللازمة لمكافحة هذه المجاعة . باع إرثه الجديد الذي حصل عليه بموت أمه تلك السنة واشترى بتمنه الأغذية لأبنائه الذين يتصوّرون جوعاً ، ثم هاجم بعنف وقساوة الأغنياء المحتكرين ، بعد أن هالته قساوة قلوبهم وأجبرهم بقوة الكلام والعمل على فتح اهرائهم البائرة أمام الفقراء . ويذكر القديس غريغوريوس انه «كان يجمع في الساحات كل الحياض من رجال ونساء ، أولاد وشيوخ ، من كلّ من كان بحاجة الى عون وعناية ، ثم يجمع كلّ ما يقات به ، من كل ما يمكنه أن يغث الجائعين ويخفف من ألم تلك البطون الفارغة ، ثم يعمل منها قدرًا مملوءة من الخضار العصيدة وأنواعاً مملّحة ممّا هو لدينا يكون طعاماً للفقراء . وبعدها يتمثّل بمعلمه الإلهي الذي ائتمر بالمنديل وغسل أرجل تلاميذه ، فيدور مع صحبته يعالج أجساد المتعبين ويعزيّ أنفس اليائسين ، مبدياً لهم علامات الفرح والاحترام ، عاملاً على تخفيف وطأة الكارثة على نفوسهم» (١٥٤) .

المهم ان عمل الخير كان رائد حياة القديس باسيليوس والتوجيه نهج خطاه ، ولم يكن ليحبس عواطفه مشاركة بأحزان بنيه من الأرامل والأيتام ومؤسساتهم في ظروف حياتهم العسيرة . فهو إذن ليس «كذلك الذي يقترب من المحزونين ، وبدلاً من أن يقدم لهم العون والعزاء ، يساهم في بلبلة عواطفهم» (١٥٥) . ان رسائله في هذا الشأن صادرة عن قلب رقيق عاش تجارب الغير وعانى ما عانوا فكانت كلماته صادقة الى أبعد الحدود . وبالإضافة إلى النصيح الروحي وكلمات التشجيع ، كان يستمطر لهم نعم الله تعالى وبركاته لمزيد من الصبر والتسليم للعناية الإلهية .

يقول في رسالة إلى أحد الآباء يعزيه بفقد ولده : «انها فعلاً لمصيبة جسيمة حلّت بك ، أيها العزيز ، وقد كان لها عظيم الأثر في نفوسنا ، كوننا الأب الروحي الذي يحبّ بنيه ويتألم لألمهم . لا تقدرن مدى الحزن الذي انتاب قلوبنا ساعة سمعنا بذلك الخبر المشؤوم ، فلم نستطع كبت دموعنا التي انهمرت غزيرة حزناً وأسّى على الشباب النضر... ولكن هكذا شاء الله تعالى وهذا هو مصير الانسان... لا تتألن أيها الابن المحبوب على أن ولدك فارق الحياة وهو بعد في عنفوان الشباب ،

وغادر الوجود دون نسل. لتسلمن ذاتك بالكلية الى إرادة الرب وتشكرن تدابير عنايته الإلهية... وها مثالنا في المضايق أيوب الصديق الذي رضي بما حلّ به مردداً قول الحكمة الكاملة: «الرب أعطى والرب أخذ، لقد صنع ما شاء، ليكن اسم الرب مباركا» (١٥٦).

وكيف لا يبكي راعي قيصرية مع الباكين من أبناء رعيته ويتألم لآلامهم وهو الرجل الذي اتّخذ منهم أولاداً حقيقيين له؛ كشمعة أذاب حياته ليضيء لهم سبيل الخلاص بيسوع المسيح ويحصل لهم على الحرية والكرامة. وبنفس الشعور القلبي يرسل معزياً إلى إحداهنّ وقد فقدت زوجها حائناً إياها على إكمال طريق الكفاح ولو بمفردها:

«... ومن لم يذرف الدموع على موت هذا الرجل العظيم؟ أي قلب من حجر لم يلب أمام هول الكارثة؟ أما بالنسبة إليّ فقد انتابني حزن لا يوصف خصوصاً عندما تذكّرت تلك الحماية الكريمة التي كان يشمل بها الكنيسة. ولكن الله الذي أوكله على هذه الخدمة الشريفة هو ذاته العالم بمصائرنا قد نقله الى جواره... فنحزّضك أيّها الابنة على اعتبار هذه الأمور لأنها تجعلك تتحملين الألم بصبر وهدوء. ان الظروف مؤاتية لتخففي من مرارة قلبك وتتقادي لأوامر عقلك.. فطالعة الكتب المقدسة مفيدة لك في مثل هذه الظروف التعيسة... أحرّضك بأن تهتمي بأملك التي أثقلتها الشيخوخة وبابتك التي ما تزال شابة قاصرة، وانت أصبحت الآن سندها الوحيد. كوني قدوة صالحة لبقية النساء... ان أولادك يقوّن الصورة الحية للذي تبكينه؛ فليكن اعتناؤك بتربيتهم حسناً، وفي ما تبقى من وقتك اعلمي لتكوني مرضية أمام الله، ناظرة بأعين الرجاء الى تلك المكافآت السماوية التي وعد الله تعالى بها الصابرين على المضايق حتى النهاية» (١٥٧).

ان موهبة القديس باسيليوس الخطابية ولهجته المؤثرة تتجلّيان بأروع بيان في مثل هذه الرسائل التي تنمّ عن خيال واسع وفكر خلاق فتسبر أغوار الحياة البشرية وتغوص في أعماق الكيان الإنساني لتستنبط المعاني وتخرج أرقّ العبارات وأشدّها تأثيراً في النفوس، يحثّه في ذلك عاطفة أبوية وحنان والدي يفوق كل وصف. وها هو يكتب الى نكتاريوس يعزّيه بفقد ولده فيقول:

«هل من حاجة لأقول لك كم ذرفت من الدموع وأصعدت من الزفرات المؤلمة؟ ومن يقدر أن يكون غريباً عن هذه الفاجعة ولا ينشق قلبه حزناً ولوعة؟... ولكن إذا شئنا أن نبكيه كما يليق، فليس الزمان الحاضر بكافٍ لذلك! ولو تحوّلت مياه الأنهر كلّها إلى دموع، لما ظننت أنّها كافية لتدليل كبير حزننا عليه!.. ولكن ماذا يفيد البكاء؟ لتتأمل، أيّها العزيز، بأحكام الله تعالى وترضخ لإرادته القدوسة، واعتبر ان ابنك لم يمت وانما انتقل الى حياة أخرى جديدة... فكن صبوراً ولتقتد أنت بطهارة نفسه لتستحقّ بها أن تكون ابناً ليسوع المسيح» (١٥٨).

وفي نفس الوقت بعث برسالة مماثلة الى زوجة نكتاريوس ، وفيها من الكلام الرقيق ما يسمو بحق الى مستوى عاطفة الامهات واختلاج قلوبهن الحنون : « انني اعرف جيداً ما هو قلب الأم ، وعندما افكر بذلك الحنان الذي تشملين به الجميع أدرك مدى الألم الذي يمزق احشاءك. لقد فقدت ابنك الذي كان يغار عليك بين جميع الامهات. فيا للشيطان الماكر! ويا للصعقة التي تحتملين! ان الشمس نفسها لو ملكت العاطفة لارتاعت مرتجفة أمام هول الحدث! ». ولكي يهدئ من روعها وشدة حزنها يذكرها بزوال العالم وفناء الأشياء : « انظري الى العالم وما فيه ؛ كله سائر إلى الموت والفساد. السماء سوف تزول يوماً ، الشمس لن تشرق الى الأبد. كله سوف يتلاشى كحلْم وبلحظة واحدة يختفي من الوجود... فلتعزيّ إذن في ما أنت عليه » (١٥٩) .

نستنتج من خلال كل هذه الأحداث والرسائل أنّ القديس باسيليوس لم يكن أبداً غريباً عن واقع أبرشيته الاجتماعي والسياسي ، بل كما ذكرت في مقدّمة العرض ، كان الأب الحنون المطلع تمام الإطلاع على مشاكل بنيه وصعوبات حياتهم . وإذا كان هذا في البدء مجرد افتراض ، فانه أصبح الآن حقيقة جليّة وواقعاً صريحاً لا مجال لتجاهله البتّة . وهذا فعلاً ما أثمر حياة باسيليوس وفجّر لها عطاء زاخراً .

د - مدينة المحبة

إنّ قديساً عظيماً كالقديس باسيليوس لم يعرف إلاّ الحبّ والتضحية لا يمكن أن يتوقّف عند حدّ في العطاء ، ولا يستطيع أن يضع مقاييس وشروط لمحبه التي لا تُقاس ولا تُحدّد . فعندما كان يبذل ذاته لأجل الخراف كان يحسّ بأنّ قلبه يتسع شيئاً فشيئاً ورغبة العطاء في نفسه تشتدّ يوماً بعد يوم . ولكن هل للرغبة ان تتقيّد بقوانين لتظهر الى الخارج ؟ وهل هناك من مجال محدّد لعملها العظيم ؟ لا ، الحياة بأسرها عمل محبة والمحبة أساس الحياة . وهكذا لم يكتفِ أسقف قيصرية بأعمال خيريّة أوجبها ظروف الحياة وبرسائل مختلفة تحمل عواطف التعزية والمواساة ، وانما أراد ان يرفع صروح المحبة ويعمرّ هياكلها بعد أن جاشت عاطفة قلبه وبلغت أوجها المستعر ، فكان تحقيقه العمراني راية حب تحفّق في قلوب المؤمنين .

أنشأ باسيليوس بادئ ذي بدء عدّة مراكز محلية كانت بمثابة « بيوت للفقراء » . فكل مقاطعة كانت تخضع إدارياً لسلطة خورأسقف ، أنشأ فيها بيتاً هو عبارة عن مأوى صغير يستقبل الفقراء من كل القرى المكتبة تحت سلطة الخورأسقف » (١٦٠) .

ولكن أعظم عمل عمراني قام به كان بناؤه الجبار لمدينة المحبة في وسط أبرشيته بالقرب من القيصريّة، حيث لكل مريض وعليل غرفته الخاصة، كما لكل نوع من الأمراض جناح خاصّ ومقرّ للمداواة، وفيه ضروريات العناية الكاملة. وقد كان يتوافد إليها كلّ المرضى والفقراء ممّن نقصهم العون وحرّموا المحبة^(١٦١).

لم يجد باسيليوس الظروف المناسبة لتحقيق مشروعه العظيم، ولكنه مضى فيه رغم كلّ الصعوبات غير هيّاب؛ فجمع الأموال ووضع الخرائط وأمن اليد العاملة، وبدأ العمل بكل جد ونشاط. يكفي ان الشعب كلّه قد أحبه وكان معه يداً واحدة وقلباً واحداً.

يذكر باسيليوس في رسالته الدفاعية إلى الحاكم إيليا، بعد أن وشى به الآريسيون والنّمامون، الأقسام التي تتألف منها مدينة المحبة. وإذا راجعنا هذه الرسالة المهمة تبيّننا فعلاً أنّ القديس باسيليوس انتصر في دعواه على اعدائه والذين نصبوا له المكائد. وما هو إلا زمن قصير حتى ارتفعت أبنية المدينة العظيمة التي انتشر ذكرها في كل المسكونة، وقد سمّاها القديس غريغوريوس «المدينة الجديدة»، بينما أطلق عليها الشعب اسم «البازيليا» تقديرًا وتحليداً لذكر مؤسسها العظيم القديس باسيليوس.

تحتلّ الكنيسة المركز الرئيسي في المدينة، وحوّلها تنتشر الابنية: بيت القديس باسيليوس الذي شاء أن يبقى بالقرب من مرضاه وفقرائه. ثمّ الأجنحة المخصصة لجميع درجات الاكليروس، مرتبة ومزوّدة بكلّ ما تقتضيه أصول الضيافة الحسنة، وفيها شقة محفوظة لحاكم المقاطعة. ويأتي بعدها فنادق المسافرين والحجاج ومأوى للعجز ومستشفى. أما البرص فكان لهم حيّ خاص بهم. وكنا نرى أيضاً مساكن للأطباء وللصيادلة وللموظّفين، ثمّ في درجة أخرى المستودعات الأرضية والاسطبلات وغيرها من الزوائد.

هذه التجمّعات الواسعة كانت تفترض وجود عمّال كثر إمّا للبناء أو للصيانة، فكنّت تجد هناك كل أنواع المهن والاختصاصات. وإلى جانب أبنية الضيافة، تنفتح أمامك المشاغل بكلّ أنواعها، وحتى مشاغل الفنّ كانت هناك؛ وليس بكثير في سياق هذا العرض الشامل إذا قلنا إنّ من المحتمل أنّ المدارس الفنية والمهنيّة المعدّة للأيتام كانت تشكّل جزءاً هاماً من هذه المدينة الضخمة، التي قيل فيها إنّها الوحيدة من نوعها منذ بدء المسيحية وحتى ذلك الوقت.

فعلاً، انه لعمل عظيم ان ترتفع مثل هذه الصروح، صروح المحبة، والفضل كل الفضل يعود لروح باسيليوس الخلاق ولقوة إرادته التي صقلها الحب وبلورتها رغبة عارمة في العطاء الكامل.

ولكي ننهي كلامنا عن مدينة المحبة، لنستمع إلى ما كتبه القديس غريغوريوس عنها في سياق تأييده لصديقه الحميم القديس باسيليوس بلغة بليغة وبكثير من الاعجاب والمديح، فيقول مخاطباً مستمعيه:

«ابتعدوا قليلاً عن المدينة (قيصرية) ومتّعوا الطرف بالمدينة الجديدة، فتجدوها اهراء للتقوى، وكثراً مشتركاً بين المالكين. هنالك فائض المال، وأحياناً الضروري للحياة، يودع بمأمن من الدود الفساد، وبعيداً عن فرح اللصوص، وفي حمى من غزوات الحسد وعمل الزمان الهدام. في تلك المدينة الجديدة، المرض هو موضوع فلسفة، والبؤس غبطة، والشفقة موضع اختبار. إزاء هذا العمل تتضاءل في أعيننا طيبة ذات السبعة أبواب وطيبة مصر، وأسوار بابل وهيكل ارتاميس والأهرام، والنصب النحاسي الجبار لأبولون في رودس، إنجازات لم تعد على أصحابها إلا بمجد حقير!».

بماذا يمكننا أن ننهي هذا العرض الطويل والمسهب عن حياة القديس باسيليوس الإجتماعية؟ لقد غصنا في بحر عميق جداً وما استطعنا أن ندرك له حدوداً ولا أن نسبر أغوار لججه الطامية! بالحقيقة إن أفكاره الإجتماعية لأوسع من أن ترسم بسطور وحياته الرسولية لأعظم من أن تحصر بصفحات. ولكن نأمل مع ذلك أن تكون محاولتنا هذه وافية فترسم صورة عن ذلك القديس العظيم الذي سطع في المسكونة وكانت تعاليمه نقطة تحوّل في حياة الكنيسة والمجتمع المسيحي على العموم.

لا نستطيع أن نتنبأ بالتمام عن مدى التأثير الذي أحدثه أسقف قيصرية على مستوى المجتمع من حيث التنظيم، ولكننا نسلم بشيء واحد وهو أن عمله الراعوي أتى بأشهى الثمار يدلّنا على ذلك تعلق المؤمنين به وإيجادهم في شخصه مثال الأب الروحي الذي يحبهم ويسهر على مصالحهم ضدّ الاغنياء وذوي السلطات. وهذا كافٍ على ما اعتقد لتأكيد حقيقة المعطيات الأولى وتثبيت فاعليتها، انطلاقاً من مبدأ التفاعل الإيجابي والارتباط العضوي بين الفكر والعمل، ليس فقط على مستوى الفرد المتوازن، وإنما أيضاً على مستوى المجتمع ومؤسساته الداخلية.

نتساءل ونحن ننهي بحثنا عن القيمة الموضوعية التي تستأثر بها التعاليم الباسيلية، اذا حاولنا تحيينها، يعني اذا قمنا بعملية نقل لها في الزمان وحتى في المكان. هل أنّ الظروف

والأطر الحاضرة كفيلة بتعظيم هذه القيمة أو بالعكس بتحجيمها؟ اعتقد ان كتابات ومواعظ القديس باسيليوس ، عدا اللاهوتية منها والرهبانية والتي لم يتناولها البحث ، تبقى في عصرنا الحالي من الأهمية بمكان عظيم . فالاجتماع هو هو ذاته من حيث تركيباته الأساسية وتشابكها وما ينتج عنها من تعقيدات مختلفة . ان ما يتغير فيه هو ظاهر التراكيب والوسائل الخارجية التي لا تمس الجوهر بشيء ؛ ولهذا فإنه مهما تعددت المعطيات وتبدلت الظروف الملازمة لواقع المجتمع التنظيمي والحياتي ، يبقى العنصر الأساسي في تكوينه غير متشلم ، يشعّ عبر تحولاته مرتدياً طابع الديمومة الكامل . وان تعاليم باسيليوس الاجتماعية لتتوجه إلى هذا الاسّ بالذات فتلبس معه صفة الشمولية وتكون ذات إسهام فعلي قامت عليه عظمة العمل الفكري الباسيلي في هذا الميدان .

ولكن مهما يكن من أمر ، فلا بدّ لنا من أن نقرّ في النهاية بسموّ المكانة التي احتلّها أسقف قيصرية في الكنيستين الشرقية والغربية . فهو الرجل القديس الذي تألفت مواهبه واتقد ذهنه فكان أولاً وآخرًا في خدمة الإيمان القويم وبناء ملكوت الله على الأرض . وهكذا تبين لنا جلياً قيمة حياة القديس باسيليوس الذي لُقّب «بالكبير» بكل استئمال واستحق أن يدعى «منارة الدنيا وفخر الكنيسة وجهاً» .



ان فوتيوس يعدّ القديس باسيليوس كاتباً من الدرجة الأولى ، بسبب نظام ووضوح أفكاره ، وبسبب ما تميّزت به كتاباته من بساطة التعبير والانقنا والبراعة في التصوير «ان القديس هو مثار عجب لدى كثيرين ، فقد توازنت عنده مواهب مختلفة ، كالفلسفة والبحث العميق والأدب والإدارة» .

Mgr. Battifol: *Anciennes Littératures Chrétiennes: La Littérature Grecque.*

المواشي

24. R.F., Q. 7; P.G. 31, 928 C
25. *Ibid.*
26. *Ibid.*
27. R.B., Q. 62; P.G. 31, 1124 C
28. R.F., Q. 7; P.G. 31, 933 A.
29. R.B., Q. 203; P.G. 31, 1217 A.
30. Hom. in ps. I, 4; P.G. 29, 220 C.
31. Cf. GIET S., *op. cit.*, p. 41.
32. Epist. 160, 4; P.G. 32, 628 B.
33. R.F., 5, 1; P.G. 31, 920 C.
34. R.F., 5, 2; P.G. 31, 921 A.
35. De Sp. Sto. C. 28; P.G. 32, 198 C.
36. Hexaameron 7, 5; P.G. 29, 159 B.
37. Moralia 73; P.G. 31, 849 D.
38. Epist. 188, can. 9; P.G. 32, 678 B.
39. *Ibid.*, 8; P.G. 32, 676 x — 677 A.
40. Cf. GIET S., *op. cit.*, pp. 62-63.
41. R.F., Q. 12; P.G. 31, 840 D.
42. Hom. Quod rebus mund. 11; P.G. 31, 560 D-561 A.
43. Hom. in martyrem Julittam, 2; P.G. 31, 240 D-241 A.
44. Moralia 73; P.G. 31, 840 D.
45. Hexaameron 8, 5; P.G. 29, 160 C.
46. Epist. 199, 33; P.G. 32, 728 A.
47. Epist. 217, 52; P.G. 32, 796 A.
48. Hexaameron 8; P.G. 29, 177 C.
49. Hom. in ps. XIV, 4; P.G. 29, 278 B.
50. Hom. in illud Lucae, Destruam... 4; P.G. 31, 268 D-269 A.
- (١) الأب يوسف الشماس المخلصي، خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية، الجزء الأول، ١٩٥٩، ص ٧٥.
2. R.B., Q. 1; P.G. 31, 1082 B
- (٣) اذ لا كبير فرق عند القديس باسيليوس بين المجتمعين كما سئى.
4. RIVIERE J., Saint Basile, Gabalda, Paris, 1925, p. 15.
5. *Ibid.*, p. 208.
6. *Ibid.*, p. 21.
7. Hom. III, in illud, Attende tibi ipsi, 7 et 8; P.G. 31, 214-218 et la note suivante.
8. *Ibid.*, 3; P.G. 31, 203 A
9. *Ibid.*, 202 B
10. Hom. XXI, Quod rebus mund. 5; P.G. 31, 550 B
11. Hom. in ps. XL VIII, 8; P.G. 29, 450 B
12. Résumé de la suite du développement.
13. RIVIERE J. *op. cit.*, p. 41 note.
14. Hom. in ps. I, 6; P.G. 29, 215 D
15. Hom III, in illud, Attende tibi ipsi, 6; P.G. 31, 211 A et ss.
16. *Ibid.*, 5; P.G. 31, 210 D
- (١٧) نبقى دائماً في إطار المعنى النكوبي لوجود الإنسان.
18. GIET S., Les idées et l'action sociales de Saint Basile, Gabalda, Paris, 1941, p. 29.
19. Hom. Quod Deus est autor molorum, 2; P.G. 31, 332 B
20. Moralia 3, C. 3; P.G. 31, 706 C.
21. R.F., Q. 3; P.G. 31, 917 A.
22. Hexaameron 8, 3; P.G. 29, 172 D — 173 A
23. *Ibid.*, 7; P.G. 29, 181 B

84. Moralia 48, C. 1; P.G. 31, 768 C.
85. Hexaameron 7, 5; P.G. 29, 157 D.
86. R.B., Q. 207; P.G. 31, 1220 C-1221 A et Q. 252; P.G. 31, 1252 A et B.
87. Moralia 48, C. 7; P.G. 31, 773 A.
88. Epist. 260; P.G. 32, 960 C.
89. R.F., Q. 41; P.G. 31, 1024 A.
90. R.F., Q. 41; P.G. 31 *Ibid.*
91. R.F., Q. 24; P.G. 31, 984 B.
92. Encyclopédie Universalis, vol. 2 p. 901, col. 1.
93. Hexaameron 7,4; P.G. 29, 156 B-157 A.
94. *Ibid.*, 4; P.G. 29, 172 D.
95. *Ibid.*, 172 D-173 A.
96. *Ibid.*, 173 A.
97. Cf. GIET S., *op. cit.*, p. 156.
98. R.F., Q. 43, 2; P.G. 31, 1029 A.
99. Hom. in ps. 32, 9; P.G. 29, 344 C.
100. Hom. in principium proverbiorum, 2; P.G. 31, 389 B.
101. Moralia 79; P.G. 31, 860 A.
102. Hom. in ps. I, 6; P.G. 29, 225 D-228 A.
103. Hexaameron 2, 5; P.G. 29, 40 A et B.
104. Epist. 260, 2; P.G. 32, 956 C.
105. Epist. 61; P.G. 32, 417 A.
106. Epist. 163; P.G. 32, 633 A.
107. Pour plus de détails, cf. GIET S., *op. cit.*, p. 184 et ss.
108. VASSON, *op. cit.*, p. 13.
109. *Idi.*, p. 15.
110. R.F., Q. 7; P.G. 31, 928-933.
 (١١١) سبق الكلام عن ذلك ، راجع فقرة «ب»
 من القسم الأول.
112. R.F., Q. 41; P.G. 31, 1021 A-D.
113. Cf. R.F., Q. 30, 43, 50, 51.
114. Pour l'organisation de la prière. Cf. R.F., 37
 + Prière individuelle, Cf. R.B., Q. 238, 261, 278, 312...
51. Moralia 76, C. 1; P.G. 31, 857 B.
52. Hexaameron 8, 6; P.G. 29, 180 A.
53. Cf. RIVIERE J., *op. cit.*, p. 211.
54. Hexaameron 8, 5; P.G. 29, 176 C.
55. *Ibid.*, 9, 4; P.G. 29, 197 A.
56. *Ibid.*, 9, 4; P.G. 29, 196 C-197 A.
57. RIVIERE J., *op. cit.*, p. 212.
58. Cf. GIET S. *op. cit.*, p. 48.
 Cf. aussi Abbé VASSON, *Saint Basile le Grand*, Tolra, Paris, p.503.
59. R.F., Q. 11; P.G. 31, 947 C.
60. Hom. in illud Lucae...; P.G. 31, 264 C.
61. R.F., Q.11; P.G. 31, 948 C.
62. De Sp. Sto. 20; P.G. 32, 160 D-161 A.
63. *Ibid.*, 161 A.
64. Moralia 75, C.2; P.G. 31, 855 C.
65. (Ephèse 6/5, Tim. 6, 1-2, Tit. 2,9-10).
66. Moralia 75; P.G. 31, 856 A.
67. Cf. RIVIERE J., *op. cit.*, p. 219.
68. Hom. in illud Lucae... 2; P.G. 31, 264 C.
69. *Ibid.*, 265 A.
70. *Ibid.*, 2; P.G. 31, 264 C-265 A.
71. *Ibid.*, 7; P.G. 31, 276 C.
72. *Ibid.*, 5; P.G. 31, 272 A et B.
73. Hom. in illud Lucae... 5; P.G. 31, 273 B.
74. *Ibid.*, 7; P.G. 31, 276 C-277 A.
75. Hom. in divites, 7; P.G. 31, 297 C.
76. *Ibid.*, 6; P.G. 31, 296 A.
77. Hom. VII, in divites, 6; P.G. 31, 298 A.
78. Cf. note 50.
79. Hom. in divites, 4; P.G. 31, 288 C.
80. *Ibid.*, 292 B.
81. Cf. ALLARD P. , *Saint Basile*, Gabalda, Paris 1929, p. 175.
82. R.B., Q. 92; P.G. 31, 1145 C.
83. Cf. VASSON, *op. cit.*, p. 502 et ss.
 Cf. aussi RONNAT J.-M., *Basile le Grand*, éd. ouvrières, Paris 1955, p.25.

138. Cf. R.F., Q. 15, 1 et 2; P.G. 31, 951-954 C.
 139. VASSON, *op. cit.*, p. 241.
 140. GIET S., *op. cit.*, p. 246.
 141. Grégoire de Nazianze, discours funèbre, trad. Boulenger, Paris 1908, p.189.
 142. *Ibid.*, p. 183.
 143. *Ibid.*, p. 185.
 144. *Ibid.*, p. 156 ss.
 145. GIET S., *op. cit.*, p. 362.
 146. ALLARD P., *op. cit.*, p. 85.
 147. Epist. 74, 2; P.G. 32, 446 B.
 148. Epist. 142; P.G. 32, 591 C.
 149. Cf. Epist. 143; P.G. 32, 591 D-594 A.
 150. Epist. 144; P.G. 32, 594 B.
 151. Cf. R.B., Q. 94; P.G. 31, 1147 C.
 152. Epist. 284; P.G. 32, 1019 C.
 153. Cf. espit. 270; P.G. 32, 1002 C-1003 A.
 154. Grégoire de Nazianze, *op. cit.*, p. 134.
 155. Hom. in martyrem Julittam, 8; P.G. 31, 255 D.
 156. Epist. 300; P.G. 32, 1043 C...
 157. Epist. 269; P.G. 32, 239 B...
 158. Epist. 6; P.G. 32, 242 B...
 159. Cf. epist. 142 et 143 (plus haut, notes 148 et 149)
 160. ALLARD P., *op. cit.*, p. 110.
 161. Epist. 94; P.G. 32, 486 B...
 162. Grégoire de Nazianze, *op. cit.*, pp. 188-189.
 + Prière communautaire, Cf. R.B., Q.147, 173, 279, 281, 307...
 115. R.F., Q. 7, 4; P.G. 31, 933 A et B.
 116. Cf. ALLARD P., *op. cit.*, p. 41, 2.
 117. Cf. R.B., Q. 96, 180, 307.
 118. Cf. R.F., 38, 41, 42.
 119. Cf. R.F., 16, 52, 53, et R.B., Q. 93, 117, 122,131.
 120. R.F., Q. 20, 3; P.G. 31, 973 B.
 121. R.F., Q. 22, 1; P.G. 31, 977 A.
 122. Hexaameron 3, 1; P.G. 29, 53 A.
 123. Moralia 70, C. 22; P.G. 31, 936 A.
 124. Hexaameron I, 11; P.G. 29, 27 B.
 125. Hom. De invidia, 1; P.G. 31, 372 C-373 A et 5; P.G. 31, 380 D...
 126. Hom. in illud, Attende tibi ipsi, 5; P.G.31, 208 C...
 127. Cf. GIET S., *op. cit.*, p. 257.
 128. VASSON, *op. cit.*, p. 642.
 129. Déjà expliqué, cf. notes 10 et 11.
 130. Hom. in S. Baptisma, 7; P.G. 31, 439 B.
 131. RIVIERE J., *op. cit.*, p. 89.
 132. *Ibid.*, p. 111.
 133. Hom. in princ. prov. 6; P.G. 31, 397.
 134. *Ibid.*, 397 B.
 135. Hom. XXII, ad adolesc. 2; P.G. 31, 566-570
 136. *Ibid.*, 3; P.G. 31, 570 ss.
 137. DURKHEIM E., Education et sociologie, P.U.F. Paris 1966, intr. P.1 et 2.



« أن مختلف تفكير الفلسفة اليونانية يعرفه ويتقنه القديس باسيليوس ؛ وهو يرجع إليه فيستقي من هذا المعين الصافي أفكاراً جديدة ، وشروحاً مختلفة وتحديدات متنوعة .. لقد اشتهر بفلسفة خاصة ، حتى لقبه البعض بأفلاطون المسيحية . المهم ، ان سلاح الفلسفة يستعمله القديس باسيليوس كسلاح دفاعي . فكل مرة يتعرض المعتقد المسيحي لسهام الأعداء ، الذين يستعملون أحياناً سلاح الفلسفة ينري القديس باسيليوس لمحاربتهم بالسلاح نفسه مبرهنًا ان الفلسفة هي إلى جانب العقيدة المسيحية وليس إلى جانبهم هم . قبله ، كان القديس اثناسيوس كقائد بارع يلهب حماس الجنود الواقفين على السلاح في المعركة ؛ ثم اوريجينوس كان معلم المعتقد المسيحي الأكبر ، لكن باسيليوس كان يتكلم في كل ساعة ، وأمام كل نوع من البشر لغة يتواجد فيها العلم والبساطة ، والأدب الرفيع وقوة المنطق . ان العلوم الكثيرة ، التي نهلها القديس باسيليوس جمعت فيه كنزًا من المعرفة لا ينضب ابداً . ان الكلمة كانت للقديس غريغوريوس التريزي زينةً ، أما لباسيليوس فكانت سلاحاً قاطعاً . اننا نرى القديس التريزي أديباً وأحياناً شاعراً مجيداً ؛ أما القديس فكان الخطيب الذي لا يضاهي » .

M. DE BROGLIE, *L'Eglise et l'Empire Romain au IVe S.*, t. IV, 5.



البحث الرابع الإفخارستيا في تعليم القديس باسيليوس الكبير*

الأب لورانسوس فيصل الخالصي

لا نريد في هذا البحث سرد حياة القديس باسيليوس الكبير، المختلفة المراحل والوجوه. فقد تطرق إليها البعض، في هذا العدد الخاص من مجلة الوحدة. انما نحب أن نشدد على النهج الخاص الذي امتاز به هذا المشرقي العظيم، وهو نهج الثقافة اليونانية التي تشرّبها في البيت الوالدي وتمرس فيها أثناء دراسته في مدارس قيصرية والقسطنطينية وأثينا، والتي شغّت منه تأثيراً ولعناً لما مارس مهنة المحاماة، ودرس الخطابة في قيصرية، ممّا جعله متوازن الخلق، متناسق المعرفة، كثير الغوص في الأمور الفلسفية والدينية. وهذا كلّ نراه في تعليم القديس باسيليوس الافخارستي.

١ - مؤلفات القديس باسيليوس التي ورد فيها كلام عن الإفخارستيا

أ - شريعة كتمان السر الإفخارستي

لم يتكلّم القديس باسيليوس مراراً وبإسهاب عن سرّ الإفخارستيا. وليس السبب كما قال Bereille^(١) حرص القديس على التكتّم في الكلام عن سرّ الإفخارستيا، وفي التعريف عنه كما نصّت شريعة الكتمان المسماة La loi de l'areane. بل إن القديس لم

* ترجم هذا المقال من اللغة الفرنسية الى العربية الأب الياس كوير

يسهب في الكلام عن الإفخارستيا ، ولم يتعرّض لهذا السرّ كثيراً لأن الشعب في زمانه كان يتقبّل هذا السرّ بسهولة ، ويرضى بغوامضه ، ولا يستنكف من تناول المتواتر ولا يعترض على شيء يخصّ حضور المسيح بالجسد في هذا السرّ. وفعلاً لا نجد في تاريخ الكنيسة ، في القرن الرابع بدعة تتعرّض لهذا السرّ، وتتناول صعوباته الجمة. فالإيمان بهذا السرّ كان عاماً وبسيطاً. ونرى القديس باسيليوس يؤكد بأن المناولة المتواترة كانت شائعة في قيصرية الكبادوك^(٢). وإذا كانت هذه هي الحال ، فلماذا الكلام مراراً عن سرّ الإفخارستيا؟ رغم ذلك استعرض القديس مناسبات مختلفة ليتكلّم عن هذا السرّ، وليشرح للمؤمنين وللرهبان رموزه وفوائده وضرورته. وقد قام بعمل تجديدي ، اذ أدخل انافوراً خاصاً يميّز بروحانية تتمحور كلّها حول الذبيحة ، وتستمدّ منها أبعادها ومميّزاتها.

ب - مؤلفات القديس الخاصة بالإفخارستيا^(٣)

هذه لأتحة مؤلفات القديس باسيليوس التي تتكلّم عن الإفخارستيا.

١ - الخلقيات أو الأدبيات

هي مجموعة نصوص عن الكتاب المقدّس ربّتها القديس في فصول مختلفة ، وشرح فيها ثمانين قاعدة تخصّ واجبات المسيحي وواجبات رعاة النفوس.

٢ - القوانين المختصرة

هي أجوبة مختصرة على أسئلة طرحت على القديس بخصوص الحياة الرهبانية.

٣ - الروح القدس

هذا الكتاب هو مهدي الى القديس أمفلوك ويرتقي الى سنة ٣٧٥ ، وفيه يدافع القديس عن مساواة الروح القدس للآب والابن ضد الذين أنكروا هذه العقيدة :
Pneumatomaques

٤ - العباد المقدّس

يشرح القديس في هذا الكتاب سرّ العباد وضرورته وفوائده.

٥ - مجموعة خطب

في هذه الخطب الأربع والعشرين يبحث القديس في مواضيع لاهوتية كالايمان وكلمة الله، وفي مواضيع أدبية كالصوم والمحبة.

٦ - رسائل

هي المجموعة المهمة في مؤلفات القديس باسيليوس. نقرأ فيها عن شتى المسائل والمشاكل. وأحياناً يتكلم فيها القديس بإسهاب وأحياناً باختصار. والنسخة البندكتية تعدّ ٣٦٥ رسالة، كتب القسم الأول منها قبل الأسقفية، والقسم الثاني أثناء الأسقفية، والقسم الثالث في تاريخ لا يُعرف بالتحديد.

٢ - تعليم القديس الإفخارستي

أولاً - ميزات هذا التعليم

يتميّز تعليم القديس باسيليوس عن الإفخارستيا بالحرص على التمسك الشديد بالتعليم السيديّ الوارد في الإنجيل، وعلى تقليد الكنيسة المقدسة. فما علّمه المسيح في الإنجيل، وما قبلته الكنيسة دوماً عن سرّ الإفخارستيا يجب الإيمان به، وقبوله مثل حقيقة أكيدة، رغم أنّ الطبيعة البشرية قد تتصعّب قبوله. ولا بدّ، كما علّم القديس من الإيمان بأن كل كلمة إلهية هي صحيحة. وبين هذه الكلمات الإلهية، التي لا يمكن الشكّ فيها كلمات السيّد لأهل كفرناحوم^(٤): «إنّ لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في ذواتكم». وكثيراً ما يردّد القديس هذا التعليم^(٥).

ثانياً - إيمان القديس باسيليوس بحضور المسيح في القربان

كان القديس باسيليوس يؤمن إيماناً شديداً بحضور المسيح في سرّ القربان. قال في إحدى عظاته^(٦): «أنجهلون من هو هذا الذي تتناولونه؟ هو نفسه الذي قال في الإنجيل: اننا سنأتي إليه وعنده نجعل مقامنا»^(٧).

ثالثاً - منفعة المناولة المتواترة

إنَّ أسقف قيصرية يتخطى حدود الإيمان بحضور المسيح في سرّ القربان لكي يؤكد أنَّ الوحدة مع المسيح بواسطة المناولة هي مفيدة وضرورية جداً. «إنَّه حسن ونافع، يقول القديس في إحدى رسائله^(٨) أن يتناول الإنسان كل يوم، أو مراراً كثيرة في حياته، لأنَّ المسيح نفسه قال في الإنجيل «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية»^(٩)، ويعطي مثلاً على هذه المناولة المتواترة ما يجري في كنيسة قيصرية الكبادوك حيث جرت عادة المناولة المتواترة. «اننا، يقول القديس، في هذه المدينة نتناول أربع مرّات في الأسبوع نهار الأحد والأربعاء والجمعة والسبت، وفي الأيام التي نحتفل فيها بأعياد بعض القديسين»^(١٠).

رابعاً - الشروط الضرورية للمناولة الحسنة

المهم في نظر القديس باسيليوس ليس تناول مراراً، لكن تناول مع الإستعداد الحسن والإيمان العميق. والمعلّم الكبادوكي يكرّر الكلام عن الشروط الضرورية لتناول جسد ودم المسيح باستحقاق. وفي هذا المجال يرجع الى ما ورد في الانجيل، والى تعليم رسول الأمم. وفي كتابه «الخلقيات» يحكم كما يلي: «الذي يتقدّم إلى المناولة دون اعتبار لاشتراكه بتناول جسد ودم المسيح لا يستفيد شيئاً. والذي يتقدّم دون استحقاق هو إنسان يستوجب الدينونة»^(١١).

ولا يتوانى القديس عن سرد الشروط الواجبة للمناولة الحسنة. ففي قوانينه المختصرة يشترط الخوف والإيمان والمحبة. فالخوف لأن الرسول بولس يعلمنا «مَنْ يأكل جسد الرب ويشرب دمه وهو على خلاف الاستحقاق إنما يأكل ويشرب دينونة لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب»، (١ كور ١١/٢٩)؛ والإيمان لأن المتناول يثق بكلام المسيح الذي قال: «هذا هو جسدي الذي يُبذل لأجلكم. اصنعوا هذا لذكري» (لوقا ٢٢/١٩) وأخيراً المحبة لأن «محبة الله تحبنا (٢ كور ١٤/٥) فأحسانات الرب نحونا هي كثيرة وعظيمة»^(١٢).

نلاحظ أنَّ القديس يعلم ما قاله الكتاب المقدس، وما يتوافق مع تقليد الكنيسة المقدسة. وفي الواقع، هذه الشروط الثلاثة التي ذكرها القديس هي الشروط نفسها المطلوبة من المؤمنين في الليتورجيات الشرقية ومنها ليتورجيا القديس باسيليوس. فعندما يدعو الشماس المؤمنين للتقدّم الى تناول يهتف بهم: «بمخافة الله وإيمان ومحبة تقدّموا». كلّ هذا لا يكفي في نظر القديس باسيليوس. يريد ان يتقدّم في العمق. لذلك يحتم

تغيراً جذرياً في الحياة. يقول في كتابه عن العباد: «ليذكر من يتقدم الى المناولة موت المسيح وقيامته، وليذكر انه يجب ان يتحلّى بنقاوة الجسد والروح وان يعبر بتعبير واقعي عن الموت عن الخطيئة والعالم والذات بعيشة مع الله ومع المسيح ربنا» (١٣).

يرجع القديس الى هذا التعليم في كتابه الخلقيات. فبعد ذكر الصفات الضرورية في حياة المسيحي يهتف: «ماذا ينقص المسيحي أيضاً من صفات؟ انه يلتزم بطهارة الجسد والروح والسعي الى القداسة بمخافة الله ومحبة والبعد عن كل خطيئة وشر، ثم يتقدم الى المناولة، لأن من يتناول جسد الرب ودمه دون استعداد حسن يأخذ دينونة لنفسه. وعدا هذا ماذا يلزم المسيحي المتقدم الى المناولة؟ يلزمه الاستمرار في تذكر موت المسيح وقيامته وفي الحياة ليس لنفسه بل للمسيح المخلص» (١٤).

ان هذا التعليم رائع، وجدير بأن يغير الذين يعملون به، فيجعلهم هياكل حقيقية للروح القدس، ورسلاً نشيطين. ان المناولة، كما فهمها القديس باسيليوس يجب أن تدخل الى أعماق الإنسان، وتعمل فيها تبديلاً كاملاً وتطهيراً شاملاً، فيقدر الإنسان بسهولة على الاتحاد بالمسيح.

خامساً - المكان اللائق للاحتفال بالإفخارستيا

لا يهمل القديس النواحي العملية في المناولة. ففي القوانين المختصرة طرح هذا السؤال، هل يجوز الاحتفال بالذبيحة الالهية في البيوت. فيجيب القديس: «كلا لا يجوز. ألم يقل القديس بولس الرسول: «أفليس لكم بيوت تأكلون فيها.. غير أنه إذا التزم أحد من باب الضرورة أن يقدس، فليتبخ، في الزمان المؤقت، المحل أو البيت اللائق لثلاثاء يهنا العشاء السيدى» (١٥).

سادساً - الإفخارستيا علامة الشركة بالإيمان الواحد

في الرسالة ٩٣ بعد أن يتكلم القديس عن المناولة المتواترة يطرح هذا السؤال، هل يمكن حين الاضطهاد التناول باليد في غياب الكاهن أو الشماس. ويوجب بالتأكيد مستشهداً بعادة المسيحيين المصريين، الذين شاهدتهم هو بنفسه. ويقول: «لا حرج على الإنسان أن يتناول جسد ودم الرب حين يضطر الى ذلك، خصوصاً في زمن الاضطهادات وفي غياب الكاهن أو الشماس. يثبت ذلك عادة قديمة جرت عليها الكنائس كلها. وفي الواقع أن الرهبان في

المناسك حيث لا يوجد كاهن يحتفظون بالقرآن ويتناولونه بأيديهم أحياناً. وفي الإسكندرية ومصر كل مسيحي يحتفظ بالقرآن في بيته، ويتناوله اذا دعت الحاجة إلى ذلك» (١٦).

سابعاً - الإفخارستيا علامة الشركة بالآيمان الواحد

السؤال الذي طُرح في عهد القديس باسيليوس هو مع أية جماعة يشترك من يتناول بيده، دون وجود كاهن أو شماس. المعروف ان المناولة هي علامة شركة مع الذي احتفل بالليتورجيا أو وزع الأسرار الالهية. وكانت تعتبر المناولة موافقة صريحة للتعليم الذي يقول به المحتفل بالسّر. وهذا الاعتقاد كان شائعاً في القرن الرابع. حتى البابوات أنفسهم دعموا هذا التعليم ونشروه. ثم كان يعتبر تناول برهاناً بسيطاً وأكيداً يدل على إيمان المتناول، في تلك الآونة الحافلة بشتى العقائد.

حلّ هذه المشكلة القديس باسيليوس بقوله: «ان الذي يتناول بيده يشترك مع الكاهن الذي قدّس سابقاً القربان. يقول القديس: «ان من يتقبل القربان بعد ان ينهي الكاهن من تقديم الذبيحة، يشترك معه، رغم انه لم يتناول من يده» (١٧).

٣ - القديس باسيليوس الإفخارستي في الليتورجيا

لا بدّ أولاً من البرهان عن ان الليتورجيا المنسوبة إلى القديس باسيليوس هي حقاً له. فبدون هذا البرهان يكون الكلام عن هذه الليتورجيا واهياً. ونعني في كلامنا عن الليتورجيا الباسيلية الأنافور خصوصاً، لأن الصلوات والطلبات الأخرى قد أُضيفت مع مرور الزمن.

١ - صحة نسبة الليتورجيا للقديس باسيليوس

تشهد وثائق مختلفة ان القديس باسيليوس هو صاحب الليتورجيا التي تحمل اسمه. هو نفسه ذكر ذلك في بعض رسائله (١٨). والقديس غريغوريوس التريزي صديق القديس الحميم قال: ان القديس باسيليوس لما كان بعد كاهناً نظّم الصلاة (١٩). وقال كثيرون من معاصري القديس باسيليوس الكلام نفسه، كالقديس غريغوريوس أسقف نيصص شقيق باسيليوس (٢٠). أمّا الشهادة الناصعة في صحة هذه النسبة فهي للقديس بروكلس بطريرك القسطنطينية من سنة ٤٣٢-٤٤٦ الذي ذكر في كتابه عن تقاليد القداس، بأن

القديس باسيليوس اختصر ليتورجيا القديس يعقوب ، لأنها كانت تسبب ، بسبب طولها ، السأم والملل (٢١) .

ان Fauste الذي هو من بيزنطية والذي كتب «تاريخ الأمة الأرمنية» ، في مبادئ القرن الخامس ذكر ليتورجيا القديس باسيليوس منوهاً بشهرتها ، وذكر جزءاً كبيراً من الأنافور الباسيلي .

وفي كتاب وجهه الشماس بطرس مع رهبان كثيرين سنة ٥٢٠ إلى الأساقفة الأفريقيين الذين نفوا إلى سردينيا نقراً مقطوعاً شبيهاً بنص ليتورجيا القديس باسيليوس . عندنا وثائق كثيرة تشهد بصحة نسبة الليتورجيا الى القديس باسيليوس . نكتفي بما ذكرنا .

٢ - التعليم الإفخارستي في الأنافور الباسيلي

هذا هو النص : «وقد ترك لنا تذكارات آلامه الخلاصية هذه التي وضعناها بحسب وصاياه ، فانه لما أزمع أن يذهب إلى موته الإختياري المجيد الهنيء ، في الليلة التي أسلم فيها ذاته لأجل حياة العالم أخذ خبزاً بيديه المقدستين الطاهرتين ، ورفع اليك أيها الآب ، وشكر وبارك وقدس وكسر وأعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً ، خذوا فكلوا هذا هو جسدي الذي يكسر لأجلكم لمغفرة الخطايا . وكذلك أخذ الكأس من ثمرة الكرمة ، ومزج وشكر وبارك وقدس وأعطى تلاميذه الرسل القديسين قائلاً اشربوا من هذا كلكم ، هذا هو دمي للعهد الجديد ، الذي يهراق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا . هذا أصنعوه لذكري فإنكم كل مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس تخبرون بموتي ، وتعترفون بقيامتي .

«فاذ نذكر نحن أيضاً ، أيها السيد آلامه الخلاصية ، وصلبه الهنيء ودفنه الثلاثي الأيام وقيامته من بين الأموات وصعوده إلى السماوات وجلسه عن يمينك أيها الإله الآب ورجوعه المجيد الرهيب ، مالك ، مما هو لك ، تقربه لك عن كل شيء ومن أجل كل شيء» .

ان القديس كما يتضح من النص المذكور ربط سر الإفخارستيا مع مجمل عمل الخلاص ربطاً محكماً . فالمسيح رسم هذا السر العظيم قبل موته ليكون ذكراً لمحبة العظيمة للإنسان . ولذلك سمى هذا السر سر ذكرى موت المسيح الهنيء .

ثم يلمح القديس إلى المزج مع عصير الكرمة ليتذكر بمزج الخمر والماء الذي سيتم اثناء القداس .

كما ان القديس في هذا النص يربط ذكرى موت المخلص مع ذكرى قيامته وصعوده وسائر حقائق الإيمان، التي لها صلة مع الفداء. ان موت المخلص هو المحور في عمل الخلاص، أما سائر الحقائق فهي تكملة له.

تنتهي كل هذه الصلوات بتقدمة القرايين إلى الله الذي يهب كل عطية صالحة للإنسان.

اما الجزء الثاني فهو يضمّ ابتهالات للروح القدس. وقد أثار هذا الجزء جدلاً شديداً بين الشرقيين والغربيين.

وهذا هو النص: «فلذلك أيها السيد القدوس نحن أيضاً عبيدك الخطاة الغير المستحقين إذ قد أهّلنا لخدمة مذبحك المقدس لا من أجل برنا، إذ لم نصنع شيئاً من الصلاح على الأرض بل من أجل مراحمك ورأفتك التي أفضتها علينا بسخاء نجس وندنو الى مذبحك المقدس. واذ قربنا رسوم جسد مسيحك ودمه المقدسين نطلب اليك وندعوك يا قدوس القديسين ونسألك أن يحلّ برضى صلاحك روحك القدوس علينا وعلى هذه القرايين الموضوعة ويباركها ويقدّسها ويظهر هذا الخبز جسد ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه، وهذه الكأس دم ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح الكريم نفسه المهراق لأجل حياة العالم».

«أما نحن جميع المشتركين في الخبز الواحد والكأس الواحدة فاجعلنا متّحدين بعضنا ببعض في شركة الروح القدس الواحد. ولا تجعل أحداً منا يشترك في جسد ودم مسيحك المقدسين للدينونة أو القضاء، بل لنجد رحمة ونعمة مع جميع القديسين الذين أرضوك منذ الدهر الأجداد والآباء ورؤساء الآباء والأنبياء والرسل والكارزين والمبشرين والشهداء والمعترفين والمعلمين وروح كلّ صديق توفي على الإيمان».

لدى قراءة كلام القديس الوارد أعلاه تظهر صعوبات كثيرة. فإذا يعني القديس باسيليوس بكلمة رسوم Antitypes .

قال اللاهوتيون الأرثوذكس بأن كلمة رسم تعني صورة ورمزاً ودليلاً وإشارة، ولا تعني حقيقة الشيء. ويستنتجون من ورود هذه الكلمة قبل استدعاء الروح القدس ليبرهنوا بأن الاستحالة الجوهرية تتمّ حسب القديس باسيليوس عند الابتهاال الى الروح القدس. وهذا ما جهر به سمعان التسالونيكي (١٤٢٩) ومرقس الأنسي (١٤٤٣) وتبعهما اللاهوتيون الأرثوذكس والبروتستانت. وهذا القول هو المعول عليه في كلّ الكنائس الأرثوذكسيّة.

أما اللاهوتيون الكاثوليك فرأيهم مختلف. فقال البعض بأن كلام القديس نقل إلى بعد كلام القديس ؛ وقال آخرون أن كلمة رسوم تعني الذات والجوهر بعينه. وغيرهم يترجمون النص اليوناني كما يلي: «بعد أن قدمنا لك رسوم..» وقال غيرهم غير ذلك. الحقيقة ان جلّ المشكلة هو في التفتيش في مؤلفات آباء القرن الثالث والرابع عن معنى كلمة رسم في الإفخارستيا.

٣ - البرهان من الآباء

يقول الأب P. Jugie الاختصاصي في الدروس الشرقية: «انه اكيد وثابت ان عدداً كبيراً من الآباء، خصوصاً المنتمين إلى مدارس الإسكندرية والسورية والإفريقية قد سموا القربان حتى بعد كلام القديس رسماً وصورة ورمزاً وعلامة وشبيهاً. وكل هذه الأسماء تعلن ان الإفخارستيا هي سرّ مقدّس، أي علامة حسّية تعني الجوهر والحقيقة عينها أي جسد ودم المسيح. واليوم لا يزال اللاهوتيون يقولون ان الخبز والخمر هما علامة لجسد ودم المسيح الأقدسين».

وبهذا يبين برهان اللاهوتيين الارثوذكس واهياً جداً. فكلمة رسم في ليتورجيا القديس باسيليوس تعني جسد ودم المسيح حتى بعد كلام القديس. خاصة اننا نستعمل نصاً قديماً جداً يرتقي الى القرن الرابع. ومعروف ان ليتورجيا «الرسوم الرسولية» تحوي كلمة رسوم جسد ودم المسيح في صلاة الأنافور: «نشكرك لأجل جسد ودم المسيح الكريمين اللذين نحفل بتكريم رسومهما. ونقرأ أيضاً أن السيد أعطانا رسوم جسده ودمه». ومعروف ان بين ليتورجيا القديس باسيليوس وليتورجيا «الرسوم الرسولية» شبه كبير وقاربة روحية.

٤ - معضلة الاستحالة عند القديس باسيليوس

متى يتمّ تحوّل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح عند القديس باسيليوس؟ إن القديس لم يتعرّض لهذه المشكلة بنوع صريح، بل ذكرها عرضاً لمّا تكلم عن التقليد الذي نقل إلينا بعض الصلوات المهمة والضرورية لكمال السرّ. وبعض عباراته في كتابه عن الروح القدس تذكر التقليد الغير المكتوب، - وهو يوازي التقليد المكتوب - الذي يشدّد على ان استدعاء الروح القدس له أهمية كبرى في تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح المقدسين.

هذا هو النص: «من يا ترى من القديسين ترك لنا كتابة الصلوات الابتدالية إلى الروح القدس المرافقة لتحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح؟ اننا لا نكتفي بالكلمات التي وردت في الإنجيل وفي رسالة القديس بولس، بل نسبقها ونلحقها بصلوات هي مهمة جداً لكامل السر. وقد وصلت إلينا بتسلسل تقليد غير مكتوب».

دار جدل كبير حول هذا النص الباسيلي الناقص. فبعض اللاهوتيين اليونان والروس والبروتستانت مثل Cieplak وغيره رأوا فيه دعماً من المعلم الكبادوكي للتعليم الشائع اليوم عند الأرثوذكس بأن استدعاء الروح القدس بعد كلمات السيد المسيح هو وحده الذي يحول الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح المقدسين. لكن لا بدّ من بعض إيضاحات.

إن كلمة استدعاء، حسب الأصل اليوناني تعني ابتهالاً وطلباً. واستدعاء الروح القدس في الذبيحة الالهية يعني صلاة خاصة وردت في الليتورجيات الشرقية وفي ليتورجيات غربية قديمة، بعد كلمات السيد له المجد التي بها رسم سرّ القربان المقدس. وبها يطلب المحتفل بالذبيحة إرسال الروح القدس ليتحول الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح وحتى يصيرا عاملاً للقداسة في نفوس المتناولين.

فهل كان القديس باسيليوس يا ترى من المؤيدين للتعليم القائل بأن تحويل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح لا يتم إلا باستدعاء الروح القدس؟ لا نظن ذلك. فالنص المذكور لا يقول بأن صلاة الاستدعاء تلي فقط بعد كلمات السيد المسيح، وانها وحدها ضرورية. كلمات القديس المذكورة تقول: ان الصلوات للروح القدس لم ترد في الإنجيل، وانها صلوات مهمة جداً لكامل السر، لأن التقليد ذكرها وثبتها. والجدير بالذكر ان استدعاء الروح القدس كان يعني أصلاً ابتهالاً، ولم يأخذ المعنى الذي تقول به الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية إلا بعد الانقسام المشهور.

نذكر أيضاً أن الليتورجيا المقدسة هي احتفال رسمي، يقوم ليس فقط بإتمام الأمور الضرورية، بل أيضاً بتمام سائر الشروط كالاحتفال والرتب والصلوات المذكورة في الكتب الطقسية، والتي تزيد في غنى التراث الكنسي.

الخاتمة

نختصر المقال كثيراً لنقول انّ القديس لم يعلم بأن استدعاء الروح القدس هو الصورة

الوحيدة للاستحالة الجوهرية، بل انه مهمّ وضروري لكمال السرّ. وكذلك كلمة رسوم اليونانية والعربية لا تعني ان كلمات السيّد في العشاء السري لم تحوّل الخبز والخمر إلى جسد ودم المسيح بل يعني الفكرة الشائعة في عصره بأن الخبز والخمر هما قبل وبعد كلام التقديس رمز لجسد ودم المسيح. وهو بهذا لا يرّد الاّ تعليم الكتاب المقدّس والتقليد بخصوص سرّ الإفخارستيا. فهو صدى مصدرى الوحي الأمين. وتعليمه لذلك هو ثابت وأكيد.



مراجع خاصة

- | | |
|--|---|
| (١٣) عن العباد، P.G. 31. | (١) D.T.C. Eucharistie. C. 1147 |
| (١٤) الخلقيات، P.G. 31. | (٢) رسائل القديس ٩٣ P.G. 31, 32. |
| (١٥) القوانين المختصرة ٣١٠. | (٣) مؤلفات القديس المذكورة في الصفحات (٢٠٦ - ٢٣٦) من هذا الكتاب |
| (١٦) رسائل القديس ٩٣. | (٤) الخلقيات ٧. |
| (١٧) رسائل القديس ٩٣. | (٥) يوحنا ٥٤/٦. |
| (١٨) رسالة القديس ٥٢. | (٦) عظة عن الصوم. |
| (١٩) خطاب التأبين ٤٣. | (٧) يوحنا ٢٣/١٤. |
| (٢٠) تأبين القديس باسيليوس P.G. 35. | (٨) رسالة ٩٣. |
| (٢١) P.G. 36. | (٩) يوحنا ٥٥/٦. |
| (٢٢) P. Jugie Echos d'Orient t. IX. | (١٠) رسالة ٩٣. |
| (٢٣) الروح القدس: ٢٧. | (١١) الخلقيات ٢١٠. |
| D.F. MOREAU, Les Liturgies eucharistiques | (١٢) القوانين المختصرة ١٧٢. |
| M. Jugie: Epiclèse et le mot antitype dans la liturgie de St. Basile. Echos d'Orient t. 9. | |

البحث الخامس الحياة الرهبانية الباسيلية في كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

الأب الياس كويتر المخلصي

كان الاحتفال بمرور ألف وستمائة سنة على وفاة القديس باسيليوس الكبير تظاهرة كبرى وقف فيها كثيرون متأملين بالأعجام الغابرة، التي حفل بها الشرق المسيحي. وقد تخللت هذه الذكرى لقاءات مفيدة، وألقيت محاضرات قيمة، ونشرت مقالات كثيرة في الصحف والمجلات العالمية، وكلها أشادت بالرجل العظيم باسيليوس الذي بزغ من الشرق وأضاء الغرب، وكلها درست نهجه، وخصوصاً طريقته للحياة الرهبانية الفاضلة التي نظمها هو وجدّد معالمها وأصلح ثغراتها وطبعها بالطابع اليوناني المتكامل والمتوازن^(١).

وهي مناسبة لنكتب كلمة عن الحياة الرهبانية في كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك، وهي تنتمي كلّها إلى القديس باسيليوس. قد يكون البحث شائكاً ومتشعباً، فالحياة الرهبانية الباسيلية في الشرق وفي الطائفة الملكية رافقها نور وظلام، ومرّت بها أزمات صعبة، وعصفت بها رياح عاتية. وهي تشبه إلى حدّ كبير حبة الحنطة التي تكلم عنها الإنجيل: فقد ماتت في الأرض، إنما أنت بشمر كثير^(٢).

١ - الشرق مهد الحياة الرهبانية

بدأت الحياة الرهبانية عندما بدأ السيد المسيح حياته على الأرض. إننا نجد في خطوط تلك الحياة السامية، وفي مراحلها المختلفة الركائز الثابتة والمعالن الواضحة للحياة الرهبانية،

التي هي ، في الأساس ، تكرس كامل لله ، وعكوف على الهذيد به ، وسعي دائب لدعم الملكوت على الأرض . ان يسوع الإنسان الإله كان الراهب الأول ؛ والرسول والتلاميذ كانوا الرهبان الأولين ، الأعضاء في الجمعية الرهبانية التي أسسها السيد له المجد ، والتي هدفت ، كما يتضح من الإنجيل إلى العيشة في طريقة مثلى في محبة الله الكاملة ، وإلى تجسيد الأهداف الإنجيلية في عمل متواصل الجهد والحلقات ، يلف الحياة كلها ويطبعا بطابع يسمو على الطبيعة البشرية ويأخذ من السماء آفاقها وأبعادها .

ثم لما انتشرت المسيحية ، بعد حلول الروح القدس وتفرق الرسل للكراسة والتبشير جرت محاولة أولى للبدء بمشروع حياة رهبانية تكون شبيهة بالحياة التي عاشها المسيح على الأرض . وأنا نرى في حياة المسيحيين الأولين التي وصفها كتاب أعمال الرسل (٣) ملامح تنبئ عنها وتشرح ارتباطها بالنهج الإنجيلي . فالمسيحيون الأولون عاشوا حياة مشتركة امتازت بالتجرد ، وعملت لخدمة المحبة ، وركزت على العكوف على الصلاة وكسر الخبز . وليس هذا كله إلا حياة رهبانية أصيلة كما نقول بها اليوم ، وكما عاشها السيد المسيح . ومن الأكيد أنها ليست حياة منظّمة في إطار قوانين ونظم ، وضمن سلسلة من التقاليد الثابتة ، لكنها كانت حياة ترعاها الكنيسة بواسطة الرسل ، وتُشرف على سيرها وتسهر عليها لكي لا تحيد عن النهج الصحيح . فالكنيسة لما خالف حنانيا وسفيرة زوجته نهج الشراكة الحقيقية ، ولما أهمل الرسل والتلاميذ واجب الوعظ والتبشير ، بسبب خدمة المحبة تدخلت وأصلحت الخلل ووكلت إلى النساء اللواتي ندعوهن اليوم بالشامسات القيام بخدمة المحتاجين والباثسين والأيتام (٤) .

في الواقع ، لم تكن المسيحية الأولى بحاجة ، وهي لا تزال قريبة إلى الينابيع الأولى ، وهي لا تزال تسمع أصوات رسل وتلاميذ المسيح ومن خلفهم في السلطة ، إلى حياة رهبانية مستقلة ، منفصلة عن الحياة المسيحية . فالحياة المسيحية نفسها كانت حياة رهبانية بالمعنى الصحيح . فالحماس كان يلهب أفئدة المسيحيين لاتباع المسيح ، والمحبة كانت تتأجج في أنفسهم سعياً وراء تحقيق الأهداف الإنجيلية . ان عهد الانطلاقة الأولى دام أكثر من قرنين .

نعود هنا إلى التعليم الصحيح الذي درجت عليه الكنيسة وهو أن العماد المقدس يدخل الإنسان في الحياة الرهبانية ، وهو يُعتبر بحق النذر الأول والقسم الأول الذي يربط الإنسان بالمسيح ويجعله ليس فقط تابعاً للمسيح ، وتلميذاً له ، وابنًا حقيقياً لله ، بل

شخصاً بدأ بالعماد بتكريس نفسه وحياته لله. وهكذا يبين أن الحياة الرهبانية هي تنويع للحياة المسيحية، وتكملة لها. ان الأساس هو واحد، والهدف هو واحد. ولم يحدث الانفصال بين الحياتين المسيحية والرهبانية، فاستقلت الواحدة عن الأخرى إلا حين ضعفت الحياة المسيحية، وهزل القيام بمتطلباتها، وخفّ الالتزام بالإنجيل، وأصبح المسيحيون بعيدين عن الحماس لتجسيد تعليم المسيح في حياتهم كل يوم.

عدا ذلك لم يكن بالإمكان خلق جماعات رهبانية في المعنى الصحيح في القرون الأولى للمسيحية. فلمؤمنون كانوا في أكثر الأوقات يعيشون في الدياميس، ويهربون إلى الكهوف، وكانوا مشردين، مضطهدين، لا يستقرون في مكان أو في بلد. فقد كان من الصعب على أولئك الهاربين دوماً، الراجفين من ظلم الحكّام وملاحقاتهم، والمنبوذين من الشعب أن يعيشوا الحياة الرهبانية كما نعيشها اليوم أو كما تصوّرها، ويستحيل عليهم بالتالي خلق جماعات رهبانية منظمّة.

نقول أيضاً إنّ الإستشهاد الكثيف الذي حصل في القرون الأولى عوض عن غياب الحياة الرهبانية المنظمّة، وحلّ مكانها. ولا عجب فالإستشهاد هو تكريس كامل لله، وتصوّف يبلغ الذروة وتضحية تصل بالإنسان إلى بذل نفسه في سبيل المسيح. وهذه هي الحياة الرهبانية، كما نفهمها اليوم. فهي إستشهاد يومي، وتضحية بالشيء المباح والحسن في سبيل الالتزام باتباع المسيح. وهي شهادة تحقّق قول المسيح «أنتم شهود لي»^(٥) فالرهبان، هم أول الذين يعلنون للعالم الشهادة الصحيحة عن بطلان خيور الدنيا وثبات القيم الروحية والعمل بموجبها.

بدأت التجمّعات الرهبانية الصغيرة تتواجد عندما ظفرت الكنيسة بالسلام، ونعمت بطمأنينة العيش، بعد أن انتصر قسطنطين الملك على أعدائه، واعتنق المسيحية وأعلنها دين الإمبراطورية الرومانية كلّها. حينئذ أخذ المسيحيون يتجهون إلى التكريس لله ويهربون إلى البراري، ويتجمّعون في تجمّعات صغيرة، يحدوهم إلى ذلك رغبة ملحة للتعبّد لله، وشوق إلى الهذيد به، ان الإستشهاد يجب أن يستمرّ في الكنيسة، مهما كانت طريقته وظروفه.

هناك حقيقة أثبتتها التاريخ، وهي أن عهود السلام في تاريخ البشرية، كانت ترافقها ردّة الى الوثنية. نعم، ان الاستقرار السياسي، والطمأنينة الاجتماعية الثابتة، والهدنة في الحروب والاقتتال كانت تعمل لنهضة علمية وثقافية عارمة، وكانت تثبت أسس

الحضارة البشريّة، فكانت بالخصوص تُفسح المجال للإنسان ليمارس حريته ويجسّد طموحاته المختلفة، ويعيش وفقاً للقيم الإنسانية المختلفة والثابتة. إنما كثرة الملاحى التي كانت ترافق عهود السلام ووفرة البجوحة والرفاهية، وانغماس الطبقة الحاكمة والغنيّة في الترف والبذخ والتبذير، حمل معه بذور فساد اجتماعي، وانهلال خلقي خطير، وبُعدٍ عن القيم الدينية الصحيحة.

فالعهد الذي عقيت عهد قسطنطين المالك، باسم الله، على كافة أرجاء وأقطار الإمبراطورية الرومانية الواسعة الأطراف، والماسك بحزم وقوة بزمأم أمورها، رافقها زحف الاغراء، وسيطرة اللهو والإباحية. وبدأت الوثنية، أي عبادة آلهة هي الجسد والمال والسلطان تطفئ على المجتمع، وتسرب إلى حياة المسيحيين، فخاف كثير منهم أن تزعزع أسس العقيدة المسيحية عندهم، وخافوا أن يزحف الشيطان بحيله المختلفة إلى قلوبهم ونفوسهم فيعكّر صفو محبة الله التي غرسها تعاليم الكنيسة ورجالها القريبين إلى ينباع الأولى المسيحية، والتي ثبتها وأتمها دماء الشهادة والعذاب من أجل المسيح، فهربت جماعات صغيرة إلى البراري وعادت إلى الكهوف، لتسكن هناك مع الله، ولتبتعد عن الأصنام التي بدأت تنتصب تماثيلها، وتشهر عبادتها في كل مكان. فازدهرت، لذلك الحياة الرهبانية؛ فقد كانت ردّة فعل على الوثنية التي أرادت أن تقوِّض أركان دين المسيح الذي بدأ يسيطر على العالم كلّهُ^(٦).

لا نرى حتى مبادئ القرن الرابع حياة رهبانية منظّمة، ومشاركة. فقد كان هناك نسّاك ومتوحّدون يعيشون أحياناً جماعات صغيرة جداً، لا يرتبطون بعضهم ببعض بنظم ثابتة ولا بحياة مشاركة في الأديار. إمام تلك القافلة الكبيرة من النسّاك كان القديس أنطونيوس الكبير، وهو أبو الرهبان، ثم بولس الناسك، وغيرهم، وهم كثيرون جداً. وقد ضاقت بهم البراري، وازدحمت بهم القفار، وقد عدّهم بعض المؤرّخين والرحالة بالألوف. اتنا لا نعرف شيئاً عن عيشة أولئك المتوحّدين إلا ما ذكرته بعض السير، ومنها سيرة القديس انطونيوس الكبير للقديس اثناسيوس الإسكندري. فقد كانت حياة عزلة تامّة، وتقشّف بالغ، وصمت وبُعد عن العالم والناس. وقد بدت لكثيرين غريبة عن نهج الناس، وعن مألوف حياتهم^(٧).

القديس باخوميوس هو أول من عمل على تنظيم الحياة الرهبانية، حسب الطريقة التي ألفها وعاشها في سلك الجندية. وتقول بعض التقاليد أن ملاكاً أوحى للقديس

باخوميوس هذه الطريقة الجديدة للحياة الرهبانية ، التي تختلف كثيراً عن النهج الذي سار عليه النساك والمتوحّدون . وكانت هذه الحياة منتظمة في أديرة ، للرجال والنساء ، ومتّجهة الى العمل ، ومتفرّغة للصلاة ، وساعية إلى الكمال في إطار حياة مشتركة . فقامت لذلك مدن تعجّ بالربان ، وصفها أحد الرحالة فقال إن ديراً للقديس باخوميوس كان يشبه فقير نخل . ففيه عمّال ومزارعون وصناعيون وبنّاءون ، متفرّقين جماعات جماعات ، يصلّون ويعملون ، دائبين دوماً إلى ربط حياتهم بالله بوثاق شديد العروة ، ومنتظم الحلقات (٨) .

وتكاثرت مع القديس باخوميوس الأديار خصوصاً في مصر . وأكّد أحد المؤرّخين أن صدى الأجراس ، وترجيع الترانيم والتسابيح ، كانت ترافق المسافر كل مدّة رحلته من القاهرة إلى الإسكندرية ، والتي كانت تستمر يوماً كاملاً ، بسبب انتشار الأديار الباخومية في كل انحاء مصر (٩) . ثم انتشرت الأديار من مصر ، وعمّت فلسطين وسوريا وبلاد ما بين النهرين وكبادوكيا وغيرها من البلدان . وعرفت الحياة الرهبانية قمماً شامخة فيها ، كالقديس افثيموس وسابا وتيوضوسوس وغيرهم ، وكلّهم قد نهجوا نهج القديس باخوميوس ، وحذوا حذوه وعملوا على تنظيم الحياة الرهبانية في الأديار مع الاحتفاظ بالحياة الرهبانية المتوحّدة انما المرتبطة بالدير القريب .

مع ازدهار الحياة الرهبانية وشيوعها وانتشار الأديار تشدّدت أواصر النصرانية ، ورسخت وانتشرت وصمدت . فالرهبان كانوا المعلّمين الشهب في سماء الكنيسة ، وكانوا الأبطال المدافعين عن حقوقها ، والجنود البواسل ضدّ الجيوش الزاحفة لدكّ حصون عقائدها ونظمها . وكانوا خصوصاً الشهادة الناصعة للمسيح ولتعليمه . وقد ثبت في التاريخ ان عهد الإزدهار في المسيحية كان القرن الرابع ، وهو عصر ازدهار الحياة الرهبانية في الكنيسة الشرقية والغربية ، فالمعلّمون الأعظم ، باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا الذهبي الفم وأثناسيوس وكيرلس وإيرينيوس وامبروسوس الذين ثبّتوا الكنيسة بتعليمهم على القواعد الصحيحة والثابتة ، والذين شرحوا كلام السيّد له المجد بوضوح واتقان ، كانوا من الرهبان .

٢ - القديس باسيليوس منظم الحياة الرهبانية

كان ازدهار الحياة الرهبانية في الأديار طفرة غير منتظمة سرت بين صفوف الشعب

بحماس وانتشرت بسرعة فائقة. فرافقها لذلك خلل في النظم وارتباك في الأهداف وتعثّر في المسيرة. وأصبحت الأديار تضمّ مئات وأحياناً ألوفاً من الرهبان، من جنسيّات مختلفة، ومن عقليّات متباينة، مما سبّب ضآلة في الحياة الرهبانية وبعداً عن الالتزام الكامل بالمسيح. وقليلًا قليلًا، عاد التزوح من الأديار، والرجوع إلى القفار، قصد الهرب من الضجيج والضوضاء، والإبتعاد عن التباين والعمل المرهق. نقرأ عن ذلك في تاريخ أديار القديس تيودوسيوس في فلسطين وأديار القديس باخوميوس في مصر، فقد كانت مدناً حقيقية، صاحبة العمل، رائجة التجارة، وافرة العدد، غابت عنها، لهذا السبب ولغيره من الأسباب الوحدة الحقيقية التي تربط بين الأعضاء، والتي تربط الجميع بالمسيح^(١٠).

أراد إصلاح هذا الخلل رجلٌ يوناني الثقافة، متوازن الخلق عميق النهج هو القديس باسيليوس الكبادوكي. لم يُقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن ساح في البراري، وعاش الحياة الرهبانية كاملة، وتعرّف إلى قمم فيها في مصر وسوريا وفلسطين وبلاد ما بين النهرين. وقد اكتشف في تجواله عيوباً كثيرة تتخلّل الحياة الرهبانية المنتشرة في ذلك الوقت. نقرأ عنها في رسائله وكتابات وقوانينه المختصرة والمطوّلة. فقد تشكى من ضجيج الآلات الكثيرة والصاخبة وأصوات العاملين فيها، وتذمّر من ترك الأديار للذهاب إلى المدن قصد بيع منتوجات عمل الرهبان وزراعتهم، وتشكى بمرارة من سيطرة العمل، وفقدان روح الصلاة وكثرة التقشّفات التي لا تتلاءم مع حياة شغلٍ مضيي ومستمر ومع حياة بشرية كريمة. ان أصالة الحياة الرهبانية بدأت تفقد لمعانها واشراقاتها^(١١).

إن حياة القديس باسيليوس وتربيته وثقافته ساعدته كثيراً على تنظيم الحياة الرهبانية. فقد ربي في بيت تقوى، ورأى أمثلة رائعة في القداسة في والدته وأخوته وأقاربه، ونهل العلم صغيراً في قيصرية الكبادوك ويافعاً في مدارس شائعة الصيت في القسطنطينية وأثينا، وتشرب فيها ثقافة يونانية أصيلة، ومارس مهنة التعليم والمحاماة، فساعدته ذلك على تعميق خبرته وتوسيع آفاقه، فأصبح، وقد نضج في الحياة، وخبر صروف الزمان وسافر وعاشر الحكماء والفقهاء رجلاً متوازن الخلق، واسع المواهب، عميق التفكير ومحكم المنطق.

هدف القديس باسيليوس في تنظيمه الجديد للحياة الرهبانية إلى إحلال التوازن وإلى إرجاع سيطرة العقل والمنطق على العاطفة. كان فيلسوفاً، فأراد أن تنشع الحياة الرهبانية

بوشاح الفلسفة ، وتبتعد عن التهور والمبالغة والشطط والجهل . لا مجال في الحياة الرهبانية التي نظمها القديس باسيليوس للفوضى ، ولا للحماس ، ولا للعاطفة الجاحمة ، بل كل الأمور يجب ان تنتظم بمنطق ، وتتسلسل بإحكام ونظام وتسير وفق نور عقل مستنير بنور الايمان بالله . اننا نرى ، في كل هذا تأثير الثقافة اليونانية على الحياة الرهبانية ، في كل دقائقها وتنظيماتها .

في مراجعة سريعة للقوانين المطولة والمختصرة التي للقديس باسيليوس نلمح أثر هذه العقلانية في التنظيم الباسيلي . نسير بخطى وثيدة ، متدرجة ، منتظمة . فكل سؤال جواب ، ولكل مشكلة حل يعتمد على الكتاب المقدس ، وعلى المنطق وعلى الخبرة اليومية . لا مجال ، في قوانين القديس باسيليوس للبعثرة ، ولا لتراكم الأهداف دون ترتيب . فهناك هدف واحد هو الالتزام بالمسيح ، واتباع أمثلته ، والسير في طريق خاص لتحقيق الهدف المنشود الذي يسعى اليه كل من أراد أن يتبع المسيح عن قرب .

تتميز الحياة الرهبانية الباسيلية بتمازج بدیع وتآلف رائع . فالرهبان في الأديرة الباسيلية ليسوا نساكاً انقطعوا عن العالم تماماً ، وابتعدوا عن خدمة الانسان ؛ بل هم رجال تكرسوا لخدمة الله إنما لبثوا في العالم . هم في العالم لكنهم ليسوا من العالم كما قال الانجيل . فالحياة الرهبانية حسب القديس باسيليوس وكما وصفها صديقه القديس غريغوريوس التريزي تمزج الصلاة بالعمل ، وتقرن الحياة مع الله مع خدمة القريب ، وتسعى إلى الإنقطاع عن العالم إنما لا تأنف من خدمة العالم .

وقد تجسدت هذه النظرية الرهبانية الجديدة في البازيليا المشهورة . وهي إحدى الأمثلة للدير الذي يريده القديس باسيليوس . فقد كانت مدينة تحوي حسب وصف المؤرخين مدرسة مهنية ، ومستشفى ، ومعهداً للدروس وبيتاً للشباب والأولاد ، ومأوى للمحتاجين . وكل هذه كانت تسعى الى خدمة الإنسان ، وتستهدف بذل المحبة للقريب ، إنما كلها أيضاً دون استثناء كانت تسعى الى محبة الله بالتزام بالصلاة والإماتة والعكوف على التأمل في الكتب المقدسة .

نلاحظ في النظام الذي سنّه القديس باسيليوس للحياة في الدير كيف يتخلل العمل الصلاة ، وكيف تتمازج الحياة الرهبانية في الدير مع الرسالة . فالراهب الحائر على موهبة الوعظ والإرشاد يخرج الى التبشير إنما يعود الى الدير ؛ والراهب العامل يلتزم ان ينقطع عن العمل ليصلي سبع مرات في النهار ؛ وكل راهب عليه أن يعكف على قراءة الكتاب

المقدّس ومطالعة سير القديسين. فلا يجوز للراهب الباسيلي ان يتناسى انه التزم أولاً باتّباع المسيح ، وهدف الى تجسيد أمثلة المعلم الإلهي في حياته ؛ نعم هو إنسان كامل ، إنما يجب أن يكون راهباً كاملاً قبل كل شيء.

نشدد هنا على نقطة اعتبرها القديس باسيليوس بالغة الخطورة ، والتزم بها ، وهي احترام القيم الإنسانية والكرامة البشرية. فالقديس ، يفسح المجال في قوانينه للمواهب والوزنات التي أغدقها الله على الراهب ، لكي تتجلى في كل المجالات والنشاطات البشرية وفقاً لقول الرسول بولس ^(١٢) : «فن أوتي النبوة فليتنبئ ، ومن أوتي الخدمة فليخدم ، ومن أوتي التعليم فليعلم ، ومن أوتي الوعظ فليعظ ، ومن أعطي فليعط بسلامة طوية ، ومن يرئس فليرئس باجتهاد ، ومن يرحم فليرحم ..» ان القيم الإنسانية والروحية تمازجت بنوع رائع ، في النظام الباسيلي. فالدير لم يعد سجنًا للراهب تُدفن فيه المواهب ، ولم يعد قفصاً لا يستطيع الراهب الخروج منه ، بل أصبح مع القديس باسيليوس بيتاً يرفّ عليه النظام ، ويتمتع فيه الراهب بحرية أبناء الله ويعمل بترتيب إنما دون إحجاف بحقوق الجسد ، ودون وأد لأية قيمة بشرية ، ودون مهادنة في الالتزام باتّباع إنجيل المسيح.

لذلك عمّت الطريقة الباسيلية الشرق كله. لا نعرف نظاماً غير نظام القديس ، ولا نعرف نهجاً إلا مستوحى من تعليمه. حتى الغرب نفسه سار على خطوات القديس باسيليوس مع القديس بنادكتوس الذي تتلمذ له ، وأخذ عنه نهجاً اتبعته فيما بعد أغلب المؤسسات الرهبانية الغربية. من الأكيد ان تباع الحياة الرهبانية من الشرقيين ، اتبعوا اليوم نظماً مختلفة ، وطرقاً جديدة ، لكن روح ونهج الذي نظم أخلاق البشر ، ونظم خصوصاً أخلاق الرهبان لا تزال ظاهرة في كثير من أطر الحياة الرهبانية ونظمها.

٣ - أفول الحياة الرهبانية في الشرق

منذ القرن السادس بدأت الحياة الرهبانية بالأفول في الشرق كله ، لكي تنمو جذورها وتتبعش فروعها وتنتشر في الغرب. ان أسس المسيحية نفسها قد ترعزت مع ظهور وزحف الإسلام ، ومعالمها الكثيرة زالت ، وشمس المسيحية الساطع ، بدأت بالغروب ثم بالأفول. فالأديار التي كانت تملأ البراري زالت من الوجود تقريباً ، والكنائس ، وهي آيات بيّنة في الفن والهندسة هُدمت أو حوّلت إلى جوامع ومتاحف ؛ والرهبان الكثر تشردوا ثم اضمحلوا ؛ وهزلت تلك الشجرة الباسقة التي أعطت ثماراً

طبيّة. ان المسيحية ضعفت وهزلت بسبب زوال الحياة الرهبانية في الشرق (١٣). كيف هرمت وسقطت تلك الشجرة الباسقة، الفارعة الأغصان. هذا هو نظام الكون. فلا شيء يبقى على حال واحدة، فالحضارات تزدهر، والأمم تنشأ وتنمو، والممالك ترتفع وتشمخ وتعلو حتى لتطال السحاب، وتمتدّ حتى لا تغرب الشمس عن ارجائها وممتلكاتها. لكن لا تلبث أن تدق الساعة فيغيب ذلك السناء ويذوب السلطان ويعقبه أفول ثم زوال. فأين امبراطورية الرومان، ومملكة الإسكندر؛ وأين حضارات الفينيقيين والفرعنة واليونان؛ وأين ذهبت شعوب آسيا والصين والهند، التي يحدثنا عنها التاريخ وعن فتوحاتها وعن نظمها وعن فنّها. هكذا كان نصيب المسيحية في الشرق، فقد أزهرت ثم عادت فذبلت، وتفكّكت.

لا نطيل الكلام عن أسباب هذا الأفول. ان ضعف وتمزّق الامبراطورية البيزنطية، وزحف القبائل الآسيوية من تتر وغيرهم، وظهور الإسلام وما رافقه من حروب وفتوحات، وانقسام المسيحية الى فرق وطوائف وشيع ساعد كثيراً في تفكك المسيحية، وفي هزالتها. ونستطيع القول ان زوال الحياة الرهبانية في الشرق، واضمحلال الأديار، عمل أيضاً على بعثرة القوى المسيحية وعلى ذلك حصون دفاعها. إنّ نزاع المسيحية ومعها الحياة الرهبانية في الشرق بدأ في القرن السابع، وظلّ يتفاقم وتتضاعف نتائجه حتى القرن السابع عشر. فهذه الحقبة يمكن ان نسمّيها بالقرون الوسطى في تاريخ المسيحية الشرقية. نعتز، كما نأى على لآلى نادرة، على قمم في الحياة الرهبانية في الشرق. فالقدّيس يوحنا الدمشقي ورفيقه القدّيس قزما المنشئ والقدّيس صفرونيوس بطريرك أورشليم والقدّيس تاودورس الستوديتي وغيرهم، كانوا قلة، عملوا على بعث الحياة في العظام الرميمة. ان المدارس التي لقّنت أصول الحياة الرهبانية ونظمها زالت. بقيت بعض أديار، إنما لم تكن منائر مشعة، بل كانت أطلالاً تنبئ عن مناسك مشعّة، وحياة خصبة أزهرت في الشرق مدّة طويلة من الزمن.

بقي بعض الأثر، في شرقنا هذا من تلك الجبال الرواسي. فدير السيّدة في صيدنايا ودير القدّيسين سرجيوس وباخوس ودير القديسة تقلا في معلولا ودير القدّيس سابا في جواربيت لحم في فلسطين، وبعض أديار مصر خصوصاً في وادي النطرون، وغيرها من الأديار الصغيرة المنثورة هنا وهناك، تحدّثنا عن المجد الغابر. وفي هذه الأديار كانت الحياة الرهبانية باهتة الألوان، وقليلة التعداد، وبخيلة العطاء والنشاط. ولا شك ان تراكم

الاضطهاد ووفرة المظالم في عهد الدولة العثمانية جعلت الحياة الرهبانية ظلالاً وأطلالاً. وبقيت جزيرة أخرى للحياة الرهبانية، صمدت أمام رياح البحر الزاحف والطاغي، هي أديرة جبل آثوس، الجبل المقدس، وبعض أديار في جوار القسطنطينية. وكلها باسيلية المنهج. وقد تجددت ونشطت كثيراً مع القديس اثناسيوس رئيس أديار جبل آثوس، والقديس تاودورس رئيس دير الستيوديون وغيرهما من الرهبان الأمثال. وقد عرفت تلك الأديار ازدهاراً منقطع النظير إلى حين سقطت القسطنطينية سنة ١٤٥٣ في أيدي الأتراك فتشرد الرهبان، وطارت رفوف منهم إلى الغرب، خصوصاً إلى جنوب إيطاليا حيث أسسوا أدياراً شهيرة مثل دير Rossano بقيادة الراهب نيلس ودير القديس نقلاوس في Otrante ودير Grotta Ferratta. فكانت حصوناً للإيمان ومراكز إشعاع روحي، وبقي فقط دير غرواتا فراتا شهيراً حتى يومنا هذا.

زالت المعالم، لكن الجذور بقيت واستمرت. فالشرق، مهما كلف وجهه وأظلمت سماؤه بسبب الرياح العاتية والغيوم الكثيفة، يحفظ في أعماق تربته وحضارته روحانية تشده دوماً إلى التصوف، والتعبّد، ونشدان الحلوة، وتوثيق الربط مع خالق الكون ورب البشر أجمعين. لذلك بقيت جذوة الحياة الرهبانية كالنار تحت الرماد، تطفو أحياناً لكي تحبو زماناً طويلاً منتظرة يداً ماهرة لتحركها فتنتعش من جديد وتردهر^(١٤).

٤ - نهضة وانبعاث

كان القرن الثامن عشر عصر الانبعاث في الغرب، فقد شهد تحولات جذرية في نظمه، وتغيّرات مهمّة في أطره، تناولت حياة الإنسان في كلّ مرافقها واتجاهاتها ونشاطاتها. إن الإنسان بعد أن قضى سنين طويلة في القرون الوسطى الحالكة الظلام، وذاق مرارة العيش في الدلّ والاستعباد، بدأ يستعيد حريته فانطلق في رحاب الفكر والعلم والسياسة والاجتماع، فغيّر وبدّل وقام بثورة شاملة، دكّت معالم عالم قديم ساده الظلام وأرسى قواعد عالم جديد هو عالم النور والانبعاث^(١٥).

والشرق نفسه شهد التغيّر وبدأ النهضة في مبادئ القرن السابع عشر. فالثورة التي كانت تنفخ لهيبها في أوروبا كانت أيضاً جذوة تحت الرماد في الشرق. ونرى أن الظروف والأحوال التي مهّدت لتلك الثورة في الغرب، هي نفسها كانت تعمل في قلوب

الشعوب الشرقية إننا على مهل ، تهيب لبعث عظيم ولثورة جامحة . إنما يد الأتراك كانت أقوى من يد التغيير ، فكان لا بد من الانتظار .

حفلت هذه الحقبة بتحوّلات سياسية خطيرة في الشرق كلّ . فسلالة الإمبراطورية العثمانية بدأت تتفكّك ، وأخذت الشعوب تتحرّر من يد ما عرفت إلّا ذلك صرح الحرية ، ولجم الثقافة ، وواد كل نهضة بناءة . فنشاهد البلدان البلقانية تثور وتستقلّ ، وكذلك مصر وكذلك الإمارة اللبنانية . إنّ الظلام الذي خيم على الشرق كلّ ، بسبب حكم الدولة العثمانية بدأ ينجلي وبدأت تظهر معالم نهضة شاملة .

رافق النهضة السياسية نهضة اجتماعية وثقافية شملت كل بلدان الشرق الأوسط تقريباً . ففي هذه الحقبة ، نشاهد النهضة تنبلج بأنوارها في سوريا ولبنان ومصر ، فقد فتحت المدارس والمعاهد الكبرى ، وتأسست المطابع ، وترجمت الكتب ، فحفل عالم الفكر بطمأنينة واستقرار ، انطلق معه رجال عظام في رحاب الشعر والنثر والتأليف والترجمة . لا يمكننا تعداد ما أثر تلك النهضة ، وهذا ليس مرادنا ، ولا الإشادة بمعلميها وقادتها ، بل نريد أن نضع الإنطلاقة الدينية ، والبعث الروحي ، في هذا الإطار عينه ، إذ بين البعث الحضاري والبعث الديني صلات متينة ، وتلاحم وثيق ووجودي ، نراه ليس في الشرق فقط بل في الغرب أيضاً^(١٦) .

ان البعث الديني نراه ظاهر الملامح ، ثابت المعالم في لبنان خصوصاً . فقد زحفت قوافل المضطهدين والمظلومين إلى الإمارة اللبنانية لتحتمي في ظلّ راية أمرائها العادلين المتسامحين ، فأصبح جبل لبنان ، بفضل هذه الرعاية ، وبفضل انبعاث إشراقة النهضة فيه معقلاً للطوائف المسيحية ، فحفلت الأديار بالمطابع ، وتأسست الجامعات والمعاهد الكبرى ، واحتلّ رجال الدين ، خصوصاً تلامذة المدرسة المارونية في روما مقدّمة الصفوف في رفع لواء الحضارة المسيحية والإنبعاث الديني والنهضة الثقافية والاجتماعية . ونرى ذلك خصوصاً في نهضة اللغة العربية التي يمكننا التأكيد ان كثيراً من أئمّتها وأعلامها كانوا من المسيحيين .

في هذا الوقت بالذات نشطت مساعي الوحدة المسيحية . فالكرسي الرسولي الروماني أراد توثيق الصلة بين الكنيستين الشرقية والغربية المنفصلتين منذ القرن التاسع . وأرسل لذلك الرهبان الفرنسيين والكبوشيين واليسوعيين وغيرهم ليعملوا في هذا النهج ويحققوا ما كان يصبو إليه الجميع من وحدة ثابتة الأسس راسخة الأركان . وقد قاموا

أيضاً، بما أنهم رهبان متمرّسون على تجديد الحياة الرهبانية، ودعم الرهبانيات الشرقية الناشئة، فنمت وانتشرت واخذت تحل محل الرهبانيات الأجنبية في كل القطاعات التي كانت تعمل فيها في الكنائس الشرقية^(١٧).

كل ذلك ساعد على زحف كهنة أمثال إلى لبنان ليؤسسوا رهبانيات شرقية جديدة على غرار الرهبانيات القديمة وعلى غرار ما رأوه في الرهبان الغربيين. ان كل مؤسسي الرهبانيات الشرقية كانوا تلامذة للرهبان الغربيين إما في حلب أو في دمشق أو في غيرهما من المدن اللبنانية والسورية. فجرمانوس فرحات ويوسف البتن وعبدالله القرألي وجبرائيل حوّا مؤسسو الرهبانية اللبنانية المارونية هم تلامذة اليسوعيين والفرنسيسكان في حلب^(١٨)؛

والمطران أفتموس الصيني مؤسس الرهبانية المخلصية هو تلميذ الآباء اليسوعيين في دمشق؛ والأبوان جاورجيوس سمّان وسليمان كسري الحلبيان ورفاقهما الذين أسسوا الرهبانية الشويرية عرفوا الآباء اليسوعيين في طرابلس الذين كانوا يترددون باستمرار على دير البلمند وينشرون فيه تعليم الوحدة المسيحية^(١٩).

ان الجذوة كانت كامنة والآن بدأت تشتعل بعمل الروح القدس الذي بدأ يهب عاصفاً، مجدداً محيياً في الكنيسة الشرقية. فقامت المدرسة المارونية في روما والأديار في لبنان، وامتلأت بالرهبان الأفاضل الذين نشطوا ليس فقط لتجسيد الحياة الرهبانية في المناسك والمحابس والأديار، بل لعمل عظيم في كل مجالات نشاط الإنسان، فكانوا من بناء النهضة الدينية والثقافية والاجتماعية والوحدوية^(٢٠).

٥ - بين المدّ والجزر

نحصر الكلام عن الحياة الرهبانية في الكنيسة الملكية الكاثوليكية التي انفصلت سنة ١٧٢٤ عن الكنيسة الملكية الأنطاكية، واستقلت استقلالاً تاماً، سعياً وراء الوحدة مع الكرسي الروماني الكاثوليكي. انّ المساعي التي بذلت ونشطت منذ القرن السابع عشر في سبيل الوحدة المسيحية الشاملة أثمرت فخلقت طوائف كاثوليكية مستقلة تنتمي عقائدياً إلى الكرسي الروماني، ومرتبطة معه بوثاق وحدة حقيقية. فزى الكنيسة الملكية، والأرمنية والسريانية والكلدانية والقبطية تتجه كلّها شطر الوحدة المسيحية، عاملة على الإرتباط مع كرسي روما الكاثوليكي الذي قاد تلك الحملة الوحدوية، والذي حافظ

وسهر على العقيدة المسيحية دون نقصان ، والذي استمر طيلة أجيال طويلة الرأس الأول ، والموجه الأول ، والمرجع الأول للكنيسة جمعاء . لكن كل هذه الطوائف الشرقية الكاثوليكية الجديدة عملت بحرص على المحافظة على التراث الشرقي وعلى النظم والتقاليد الشرقية ، بقدر الإستطاعة . وقد اتضح منذئذٍ ان مهمة تلك الطوائف في الشرق هي أن تكون أيضاً همزة وصل تربط بين الكنيستين الشرقية والغربية المنفصلتين ، وعروة وثقى تشد الأواصر بينها .

ومع هذا التوجه الى الوحدة المسيحية ظهرت ثم نشطت الحياة الرهبانية في كل الكنائس الشرقية الكاثوليكية . هكذا نرى في الطائفة المارونية والأرمنية . وفي هذا الإطار ، وفي هذه الحقبة ذاتها نضع انبعث الحياة الرهبانية في طائفة الروم الملكيين الكاثوليك . إن الأسباب التي عملت لإرساء النهضة الشاملة في القرن السابع عشر ، والأسباب التي ساعدت على نشر وترسيخ خطوات الوحدة المسيحية ، هي نفسها ساعدت على بعث الحياة الرهبانية ، وتركيز أسسها ، وتوجيهها شطر الآفاق الواسعة .

لابد من عرض بعض ملامح تاريخية . فالرهبانية المخلصية أسسها سنة ١٦٨٣ المطران أفيموس الصيني رئيس أساقفة صيدا وصور وعكا . وكان هذا الأسقف رجلاً جباراً ، ومصلحاً رائداً ورسول وحدةٍ ممتازاً ، وراعياً غيوراً . يمكننا القول بأنه هو واضع حجر الزاوية لكنيسة الروم الملكيين الكاثوليك . وقد سعى الصيني ، منذ مبادئ أسقفيته إلى خلق جمعية رهبانية ، على غرار الجمعية اليسوعية ، تساعد في تحمّل مسؤولية أبرشية واسعة الأطراف تمتد حدودها من صيدا إلى صور إلى عكا ، وتضمّ الشوف كلّه وجبل عامل ؛ وأيضاً أراد أن تساعد هذه الجمعية على زرع ونشر مبادئ الوحدة المسيحية الحقّة التي اقتنع هو منها وتعلّمها في ظلال الكرسي البطريركي الأنطاكي الملكي في دمشق ، والتي أتقنها في مدرسة الآباء اليسوعيين الذين كان يدعوهم بمعلميه . إن هذه الجمعية المخلصية رأت النور في صيدا سنة ١٦٨٣ ، ثم انتقلت سنة ١٧١١ إلى دير المخلص قرب جون على أثر الأعجوبة الشهيرة التي نجا فيها أحد تلامذة الصيني وهو الأب ابراهيم الطوطو من الموت المحتم بعد إصابته برصاصة طائشة (٢١) .

في هذه الحقبة عينها تأسست الرهبانية الشورية . ان السعي إلى الوحدة المسيحية كان العامل الأول في نشأة هذه الرهبانية . فالرهبان اليسوعيون ، الذين كانوا يعملون في طرابلس كانوا يتردّدون من حين إلى آخر إلى دير البلمند الشهير لنشر مبادئ الوحدة

المسيحية بين صفوف الرهبان ، كما كانت توصي بذلك الخطة التي وضعها الكرسي الرسولي الروماني . فانضم إليهم ، واتبع نهجهم تسعة من رهبان دير البلمند . وكان أشهرهم دون شك المطران نيوفيطوس نصري الحلبي البار . ثم نزلت هذه الفئة الصغيرة من دير البلمند الى ضواحي الشوير الى كنف الأمراء الشهابيين واللمعيين . وسعوا هناك إلى تأسيس جمعية رهبانية جديدة تعتمد الوحدة مع الكرسي الروماني وتسعى إلى الرجوع إلى ينبع الحياة الرهبانية الأصيلة (٢٢) .

بدأت الحياة الرهبانية في ظل الكنيسة الملكية الكاثوليكية ، وفي كنفها . وارتبطت المؤسسة الرهبانية بالمؤسسة الطائفية وخضعت لها . فالبطريرك الأول ، وهو كيرلس طاناس كان من الرهبانية المخالصة والبطريرك الثاني والثالث وهما تاودوسيوس الدهان ومكسيموس حكيم كانا من الرهبانية الشويرية . وكذلك كان معظم الأساقفة في فترة تأسيس ومبادئ حياة الطائفة . فكان ذلك عاملاً لخضوع الحياة الرهبانية لتأثيرات طائفية كثيرة ، ومنها الخضوع لإشراف السلطة البطريركية في الطائفة ، التي كثيراً ما تدخلت في الشؤون الداخلية للرهبانيات ، وعملت على توجيهها إلى خدمة النفوس ، في إطار بعيد عن الإطار الذي أرادته القوانين الرهبانية الأولى . لذلك تغيرت بعض المعالم ، وتبدلت بعض الأطر ، وضاع معها الهدف الذي أراده المؤسسون الصالحون للرهبانيات الملكية .

نذكر ان المطران أفثيموس الصيني كان يهدف من تأسيس جمعية جديدة السير على غرار الرهبانية اليسوعية . فلم يكن يخطر بباله الرجوع إلى النظم الرهبانية القديمة ، ولا العمل حسب القوانين التي كانت تتبع في الأديار المعروفة في زمانه . كان رجلاً يريد إصلاح الأطر الكنسية المعروفة ، قصد البناء . وبدون شك أراد إصلاح الحياة الرهبانية المنتشرة في زمانه التي كانت عقيمة ، بعيدة جداً عن روح وقانون القديس باسيليوس الكبير (٢٣) .

أمّا الرهبان الشويريون فقد كانوا أشد التزاماً بالحياة الرهبانية . فمؤسسوهم كانوا من الرهبان الأمثال والأفاضل تدرّبوا على أصول الحياة الرهبانية في دير البلمند ، وتشربوا تقاليدها الصحيحة وعاشوا قوانينها ونظمها المختلفة . لذلك تشددوا في التأسيس على المحافظة على الطابع الرهباني الحقيقي ، كمارسة التقشف والإماتة والانقطاع عن العالم والصلاة باستمرار ، وفقاً لقوانين خاصة ثم وفقاً لقوانين القديس انطونيوس الكبير (٢٤) . لكن على أثر مجمع اتحاد الرهبانيتين ، وأوامر الكرسي الروماني اتبعوا قانون القديس

باسيليوس. وهذه الأسباب دعوا بالقانونيين الباسيليين الشوريين.

وقد جرى، بسبب ضغط أسباب وظروف طائفية مختلفة، سعي حثيث، من قبل السلطة البطيركية لضمّ الرهبانيتين المخلصية والشورية في رهبانية واحدة. وقد رغب في هذا الضمّ، وعمل كثيراً لأجل تحقيقه البطيرك الأول كيرلس طاناس. وقد أراد من ذلك إبعاد الشقاق عن الطائفة الناشئة جديداً، وطرح التنافس الذي يولد أحياناً كثيرة الخصام والاحتكاك والتصارع. ولم تنجح المساعي رغم انعقاد مجمع في دير المخلص لهذه الغاية، ضمّ رجالات الرهبانيتين المشهورين. فتضارب المشارب، وتباعد المناهج واختلاف الأهداف، حالت دون الوحدة المنشودة. ان الفرقة بين الرهبانيتين كانت عميقة الجذور (٢٥).

لكننا نرى في الرهبانية الباسيلية المخلصية رجوعاً إلى النظام الباسيلي. فالجمع الأول سنة ١٧٢٤ يوصي باعتماد قوانين القديس باسيليوس كقانون عام في الرهبانية. وكذلك رسائل المؤسسين الأولين تخبر عن هذا التحوّل. فكيف حصل هذا. وأين صارت فرائض المؤسس المطران أفثيموس الصيني، ورغبته في جعل الرهبانية المخلصية جمعية مرسلة ناشطة على غرار الرهبانية اليسوعية. ضاع كلّ هذا وضاع بالأسف معه كل أثر لفرائض المطران الصيني. وقد نعثر على بعض بنود منها كضرورة تثقيف الطلاب الرهبان، والسماح لهم بأكل اللحم، والعمل في الرسالة المتجولة في الجوار وغيرها في رسائله الكثيرة. إنما نقول إنّ هذا التحوّل حصل عندما وردت رسالة البابا بنادكتوس الرابع عشر المشهورة في ٢٤ كانون الأول سنة ١٧٤٣ وأيضاً منشوره في ١٢ آب سنة ١٧٥٧ Constituciones Divinis Basilii Magni التي فيها يأمر الرهبان الملكيين الكاثوليك باتباع قوانين القديس باسيليوس الكبير. ان الكرسي الرسولي الروماني كان يعتبر الطائفة الملكية الكاثوليكية طائفة ناشئة، وربية له، يجب رعايتها والإشراف عليها وتوجيهها. وقد عمل الواقع الجغرافي والفكري على تثبيت تلك الرعاية الحنونة، وكذلك ساعد تدخل السلطة البطيركية في شؤون الرهبانيات على تثبيت هذا الاتجاه ودعمه بكل القوة اللازمة (٢٦). وهذه كانت مبادئ وجود العصمة البابوية في الرهبانيات الملكيات الكاثوليكية.

لكن الرهبانية الشورية، حافظت بالعكس على الروح الرهبانية الكاملة. بين الأسباب التي حالت دون توحيد الرهبانيتين الملكيتين في رهبانية واحدة كان تعلّق الرهبان الشوريين ببعض التقاليد النسكية الرهبانية. فقد درجت هذه الرهبانية «على تقديس

النفس في العيشة الديرية» وحافظت عليه حتى إلى الأيام الأخيرة. ولكن الطائفة الملكية في مبادئها، كانت تفتقر إلى رسل وكهنة، ممّا حمل الرهبانيتين على السلوك في طريق خدمة الرعايا والإبتعاد عن الأديار وتخفيف الأعباء الرهبانية عن كاهل الرهبان العاملين والخادمين في العالم. وهذه ثغرة تسرّب منها الفتور والإبتعاد عن الأهداف الأولى التي أرادها المؤسسون. ومع هذا خمد الحماس الذي طالما ألهب قلوب الرهبان الأوائل (٢٧).

حرصاً على الروح الباسيلية عكف الباسيليون الملكيون على ترجمة قوانين القديس باسيليوس واختصارها وشرحها وتعميمها. فالأب يوسف بايلا، المنتمي إلى الرهبانية المخلصية، والذي احتلّ مركز المستشار الأوّل لدى البطريرك الملكي الكاثوليكي الأوّل ولدى القصادة الرسولية ولدى الحكام اللبنانيين هو أول من ترجم سنة ١٧٢٧ قوانين القديس باسيليوس. ثمّ عكف الآباء الشويريون على المهمة نفسها، فصدر عنهم ترجمة جديدة للقوانين الباسيلية، بقلم الأب تيوفيل فارس سنة ١٧٤٥ وقانون رهباني وقانون للمبتدئين والمبتدئات مقتبس من قوانين القديس باسيليوس للأب نقولا صائع والشماس عبدالله زاخر سنة ١٧٥٦. وقد نشر أيضاً الأب يوسف شماس المخلصي نفائس القديس باسيليوس وهي ترجمة للقوانين المطوّلة وكتاب القوانين المختصرة. لكن غاب عن الباسيليين الملكيين السعي إلى خلق أنظمة جديدة توضّح الروح الباسيلية وتتوافق مع حاجات الطائفة المختلفة، وتجسّد في أطر منتظمة تتماشى مع أحوال كل عصر ما سعت إليه القوانين الباسيلية (٢٨).

من الأكيد أنّ الروح الباسيلية استمرّت تتغلغل في حياة الرهبان الملكيين. إنّما لا نجد النظام الباسيلي متكامل الحلقات، واضح المعالم، مميزاً للرهبانيات الملكية الكاثوليكية. ثمّ على أثر الجمع اللبناني الماروني، وتحت تأثير المطران يوسف السمعاني المشهور أتّبع، في فترة من الزمان، الرهبانية الشويرية وحدها نظام الحياة الرهبانية حسب قانون القديس انطونيوس، كما كانت تتبعه الرهبانيات المارونية الثلاث وهي اللبنانية والحلبية والأنطونية. وهذا جعل أيضاً الحياة الباسيلية في الرهبانيات الملكية بين المدّ والجزر (٢٩).

بقي الإسم الباسيلي. ان الحقّ القانوني الغربي سيطر على حياة الكنيسة الشرقية كلها، وانبث في كل مؤسساتها، وطمع على كل الأنظمة والقوانين والتقاليد السابقة. ومعه سيطرت نظم الحياة الرهبانية الغربية على حياة الرهبانيات الملكية وعلى أنظمتها، كما يتّضح ذلك في فرائض سنة ١٩٣٤ التي أعلنها الكرسي الرسولي الروماني قانوناً للرهبانيات

الملكية الثلاث ، وفي فرائض سنة ١٩٥٦ . كل هذا حمل الرهبان الباسيليين على السلوك في نهج بعيد عن قوانين القديس باسيليوس ، وبعيد عن تنظيمه . وفي المدة الأخيرة تكرر هذا النهج ، وضاع كل أثر للقديس باسيليوس .

في الحقيقة لا نجد فرقاً كبيراً بين النظام الباسيلي وبين النظم التي تتبعها اليوم الرهبانيات الملكية الكاثوليكية . فهي تنصّ على تأليف الحياة الداخلية مع حياة الرسالة ؛ وتأمر بمراعاة واجب الصلاة مع ضرورة القيام بالعمل الراعوي والرسولي ؛ وتمزج بين حياة الدير وحياة الراهب في العالم . وهذا هو جوهر الحياة الرهبانية كما علمها القديس باسيليوس . ونحن نرى أنّ تحويراً بسيطاً في النظام الباسيلي ، يمكن أن يكون أساساً لنظام خاص للرهبانيات الملكية الثلاث . وهكذا تحافظ هذه المؤسسات الشرقية على روح الآباء الشرقيين ، وعلى روح القديس باسيليوس ، وعلى نظمهم كما تقول الفرائض الجديدة لبعض الرهبانية^(٣٠) .

يدعوننا هذا كلّهُ إلى الجهر بضرورة إحياء الحياة الرهبانية الصرفة أي النسكية في الطائفة الملكية الكاثوليكية ، وفي سائر الطوائف الكاثوليكية الشرقية . جربت الطائفة الملكية الارثوذكسية هذه التجربة في رهبانية دير الحرف الجديدة . وقد جرت مساعي كثيرة بهذا الخصوص من قبل الكرسي الرسولي عندما أمر بتسمية الرهبان الملكيين الكاثوليك بـ Moines . والآن تجري بعض المحاولات بهذا الخصوص خصوصاً في فلسطين ، وفي إطار الطائفة الملكية الكاثوليكية . لكن هذه التجارب ما زالت في البدء ، وما زالت مترجحة . فلا بدّ من الاقتناع بها ، والعمل بجدّ لأجلها ، ووضع نظام باسيلي متكامل لها حتى تصبح مؤسسة طائفية كاملة وثابتة^(٣١) .

٦ - العصمة البابوية والرهبانيات الملكية

حرص الكرسي الرسولي الروماني على الحفاظ بعناية فائقة على الطوائف الكاثوليكية التي انضمت إليه جديداً ، وبالع في الحرص والسهر على شؤون تلك الطوائف وأمورها الإدارية ، وحتى على ترتيباتها الطقسية . والطوائف الشرقية الكاثوليكية ، وقد كانت حديثة العهد ، تحتاج إلى المال للعيش والعمل ساعدت على وجود هذه الظاهرة وعلى تعميمها . وهكذا زالت الاستقلالية ، والشخصية الذاتية وحرية التصرف والعمل . ومما

لا شكّ فيه أنّ العوامل السياسية أثّرت في خلق هذا المناخ، وكذلك وجوه الحياة الاجتماعيّة المختلفة.

والحياة الرهبانية في طائفة الروم الكاثوليك عاشت تلك الحالة، وخضعت للتأثيرات الناتجة عنها، وأصبحت الرهبانيّات تخضع لرعاية الأب الساهر الحازم، وعناية الأم الحنون كثيراً. فلا نجد طفرة جديدة، ولا ميزة شخصية، ولا إصلاحاً مهماً، لأن كل شيء كان يراقب. ولهذا عانت الحياة الرهبانية في الطائفة الملكية مدّاً وجزراً كبيرين. وبأسف نقول أنها خضعت في كثير من الأحيان لتوجيهات وأوامر المسؤولين الأعلى في الطائفة أو أشخاص بعيدين عن الشرق، وعن الروح الشرقية، الذين كان همهم الأكبر صبغ ظاهرة الحياة الرهبانية الشرقية بصبغة رومانية مستوحاة من الحق القانوني الغربي. هذه هي العصمة البابوية في أبعادها الواقعية. وهذا كان أثرها في مسيرة الرهبانيات الملكية. لا يذكر التاريخ بالتحديد متى بدأت الرهبانيات الملكية تنعم بهذه العصمة البابوية، على غرار الرهبانيات الغربية الكبرى. في زمان نشأة الطائفة خضعت الرهبانيات للسلطة البطريكية، أو الأسقفية، كما كان يجري في الأديار الرهبانية في الشرق، وكما تشهد المجامع الأولى في الطائفة. لكن بسبب تدخل البطاركة والأساقفة في شؤون الرهبانيّات، وتعاضم شكاوى الرهبان، تدخل الكرسي الرسولي وأنعم على الرهبانيّات بالعصمة البابوية الشاملة لكلّ الرهبانيّات الغربية. وهذا مخالف لبعض القوانين البيزنطية، والنظم الشرقية، التي توصي أحياناً بعصمة بطريكية كما في رهبانية جبل آثوس، ودير القديسة كاترينا في جبل سيناء. ودير السيدة في صيدنايا ودير القديسة تقلا في معلولا ودير مار الياس شويا ودير البلمند في لبنان. ففي نظام الكرسي الأنطاكي الملكي يتمتع أحياناً البطريك بالاشراف على الأديار والرهبان الساكنين فيها. وقد نرى أثرًا لذلك في تمتع بعض المراكز البعيدة عن الكرسي البطريكيّ العام Stavropégie

هذه العصمة البابوية ظاهرة قانونية قديمة العهد في الكنيسة الكاثوليكية الغربية. استلزمها تفرّق الرهبان في رسالات واسعة وخدمات متنوّعة، ووجود أديار كثيرة لرهبانية واحدة في أنحاء متفرّقة من البلاد، واستلزمها أيضاً حصر الإدارة والتوجيه. والرهبانيّات الملكيّات عاشت الظروف نفسها، وعانت المشاكل ذاتها، ولذلك احتاجت بل طلبت أن تشملها العصمة البابوية كما شملت الرهبانيات الغربية كلّها. وإنّا نرى ان هذا كان نهج الكرسي الروماني. ففي مبادئ التأسيس وفي الأوامر لاتحاد الرهبانيتين الملكيتين وفي

إعلان قوانين القديس باسيليوس قانوناً لجميع الرهبان الملكيين دليل واضح على إرادة الكرسي الرسولي الروماني في إخضاع الرهبانيات الناشئة لسلطته وتحريرها بالتالي من سلطة البطاركة والأساقفة. ويعزز هذا الموقف صدور الأوامر الرومانية أحياناً كثيرة إلى بعض البطاركة والأساقفة بالقيام بالزيارة الرسولية على الرهبانيات. إذن هم أحرار من الأشراف على الرهبانيات ولذلك هم منتدبون ومكلفون كما شرح ذلك بعلم غزير وإسهاب المطران يوسف السمعاني المشهور.

حارب هذه العصمة البابوية بطاركة طائفة الروم الكاثوليك، وتشددوا في الدفاع عن حقوقهم التي تركز على بعض قوانين المجامع الشرقية وعلى تقليد قديم. من الثابت أن البطاركة كانوا يسكنون، في زمن نشأة الطائفة في الأديار الرهبانية، وكانوا في أكثرهم من الرهبان مع معظم الأساقفة ولذلك تمتعوا بالأشراف على الرهبان. إننا النزاع على البطريركية، وبعض الخلافات الإدارية والعقائدية في عهد المطران جرمانس آدم وشكوى الرهبان من ضغط الإشراف البطريركي، وظهور الرهبانية السمعانية، جعلت العصمة البابوية نهجاً تتبعه وتبغيه بإلحاح الرهبانيات الملكية.

لم يرضخ بطاركة الطائفة بسهولة لهذا الواقع. وبقي الحنين إلى بسط السلطان البطريركي يراودهم. في المدة الأخيرة عادت المطالبة بهذا السلطان تظهر بجلاء، خصوصاً في عهد البطريركين مكسيموس الرابع الصائغ ومكسيموس الخامس الحكيم. وقد بحث هذه المسألة في سينودسات الطائفة^(٣٢). والذي امتاز واشتهر بالتمسك بهذه الحقوق البطريركية على الرهبانيات، هو البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم الذي كُلف، أثناء نفيه ووجوده في روما، بالدعوى العالقة بين البطريركية الملكية الكاثوليكية والرهبانية المخلصية بخصوص وصية البطريرك اغايوس مطر وأمواله، وبخصوص المال الذي جمعه الرهبان المخلصيون وخاصة الأب يوسف زغيب في أوروبا بعد النكبات الكثيرة التي حلت بأديار المخلصيين في لبنان. وامتد هذا النزاع، وتحول إلى مطالبة البطريرك المظلوم بالسيطرة على الرهبانيات الملكية، وإخضاعها للسلطة البطريركية. لكن تلك المساعي باءت بالفشل، فالكرسي الرسولي الروماني كان حريصاً على حقوقه المكتسبة، وعلى العصمة البابوية^(٣٣). ننوّه هنا إلى أن البطريرك المظلوم كان ثاني بطريرك في الطائفة يخرج من صفوف الإكليروس العلماني، فالبطاركة كلهم كانوا قبله من الرهبان. إلا البطريرك اغناطيوس القطان.

هذه العصمة البابوية أو السلطة البطيركية والأسقفية أضاعت كثيراً من الروح الباسيلية في الرهبانيات الملكية. فقد أبدلت النظم الباسيلية بنظم أنطونية، وفرضت فرائض غريبة بنصوصها وروحها وعقليتها، وتبدلت القوانين كثيراً. فالرهبانية المخلصية وحدها من سنة ١٩٣٤ إلى ١٩٧٨ بدلت ثلاث فرائض ومثلها الرهبانية الشورية والخلبية. وهكذا ضاعت القوانين الباسيلية ومعها الاسم الباسيلي أيضاً.

نذكر على سبيل المثال أن الكرسي الرسولي اعتبر لفترة طويلة الرهبان الملكيين كلهم رهباناً بالمعنى الحضري : Moines . هكذا سموا في الرسائل الرسمية وفي الفرائض التي صادق عليها الكرسي الرسولي. إنما ماذا كانت تعني هذه التسمية الرهبانية. هل كانت يا ترى تعني رجوعاً إلى قوانين القديس باسيليوس أم إنها كانت تعني تكريس نظام بندكتي أو نظام آخر يتماشى بالتمام مع حرفية وروح الحق القانوني الغربي. لا نظن أن هدف الدوائر الرومانية المسؤولة كان إحياء التراث الباسيلي.

نقول ببساطة أن الرهبانيات كلها تسعى إلى الكمال الرهباني، وكلها تسعى إلى اتباع المسيح عن قرب وتجسيد تعاليمه في حياة شهادة ملتزمة؛ وكلها تعمل لسنّ قوانين وفرائض ولتكريس عادات وتقاليدها تساعد على تحقيق هذه الأهداف الرهبانية. ولكن الرهبانيات والجمعيات الكثيرة تمتاز الواحدة عن الأخرى كما يمتاز نجم عن الآخر، حسب قول القديس بولس^(٣٤)، بنظام خاص بها، وبطابع خاص يميزها وبأسلوب تتجه في الحياة يختلف عن أسلوب الرهبانيات الأخرى. وهذا ما يجعل الراهب اليسوعي يختلف عن الراهب الدومنيكي، ويجعل الراهب الفرنسيسكاني يتميز عن الكبوشي. فلماذا يا ترى لم تتميز الرهبانيات الملكيات الثلاث بميزة الباسيلية، وهي ميزة خاصة اشتهرت وعرفت وانتشرت في الشرق والغرب؛ ولماذا لم تتميز بعلامات خاصة وفقاً لروح المؤسسين الذين أرادوا خلق جمعيات ورهبانيات لأهداف خاصة ولغايات معينة.

لا نريد أن نضع مسؤولية هذا الضياع على العصمة البابوية أو السلطة البطيركية وحدهما. ولا نريد بالتالي، في هذا البحث درس هاتين الظاهرتين، والتفضيل بينهما؛ ولا نريد أن نتعرض إلى حسنات وسيئات كلٍّ منهما. فهذا ليس موضوع البحث الآن. إنما نريد أن نقول أن العصمة البابوية جعلت الرهبانيات الملكية خاضعة تماماً للكرسي الرسولي الروماني مما أفقدها الميزة الشرقية والصفة الباسيلية، وجعلها تسير في ركب

الجمعيات الرهبانية العام، وجعلها خصوصاً تتعد عن غاية وأهداف المؤسسين الصالحين.

٧ - بين التقليد والتجديد

قرأنا بإمعان وتبصّر فرائض الرهبانيات الملكية الكاثوليكية الجديدة، بعد هبوب رياح المجمع الفاتيكاني الثاني على الكنيسة جمعاء. وهذه القوانين هي حصيلة دروس وأبحاث مستفيضة تمت خلال سنوات كثيرة وتخلّلتها مجامع تجديدية. وبين من تضاعف أسطرها أنّ هذه الجمعيات صمّمت على تحقيق توجيهات المجمع الفاتيكاني الثاني وعلى تجسيد رغبات الكنيسة الظاهرة من خلال نداءات البابوات وتوجيهات المجمع المقدّسة وأوامر الكرسي الرسولي الروماني التي حتمت كلّها ان تتجدّد الرهبانيات، وتبدّل الأطر فيها، وتلبس ثوباً جديداً، يتوافق مع مرتجيات إنسان اليوم الذي شاهد الوصول إلى القمر وعاش أعظم الاختراعات وخبر أعظم التيارات الفكرية والاجتماعية. وهذه المساعي استمرت طويلاً، فقد بدأت مثلاً في الرهبانية المخلصية سنة ١٩٦٨ وانتهت بإعلان الفرائض الجديدة في ١٥ تموز سنة ١٩٧٨.

إنّ كلّ الرهبانيات، دون استثناء، مهما تقادم عهدا، وانتشر مدّها، وعظم تأثيرها في المجتمع تحتاج إلى تجديد. فالمؤسسة التي لا تتجدّد تموت كما قال البابا بيوس الثاني عشر. والكنيسة نفسها سعت إلى التجديد، فبدلت أموراً كثيرة في الطقوس، وألغت تقاليد قديمة العهد، وأصلحت الإدارة وتدخلت حتى يعمّ التجديد كلّ المؤسسات والفئات فيها. ورغم أنّ هذا التجديد كان بطيء الخطوات إلا أنّه كان مفيداً، فقد ثبت السعي في طريق لا بدّ من سلوكه، حتى تماشى الكنيسة، وكلّ مؤسسة تابعة لها في مواكبة إنسان العصر الحالي الذي هو إنسان الأبعاد الكونية.

نحن نقرّ أنّ التجديد الحقيقي هو روح يتسرّب إلى داخل الإنسان. ففي الأعماق، في عقلية الإنسان، وتفكيره وأمياله يتمّ تجدد الإنسان في المسيح يسوع. ونحن نقرّ أنّ التجديد الخارجي مهما تناول أساليب الحياة وطريقها ومقوماتها، لن يستقيم إلا إذا كان تعبيراً عن تجديد حصل أولاً في الداخل، ومسّ تطلّعات الإنسان ومرتجياته، وحتى مفهومه للقيم الإنسانية والروحية.

إنما مصيبة التجديد كانت دوماً البطء، والتمهل والخوف. والخوف هو سبب موت

أحياناً كثيرة. فحين يدقّ النفير، ويرتفع الصوت المنادي للتجديد، لا بدّ من المخاطرة والمغامرة وطرح الخوف جانباً. والرهباّنات الملكية قد أحجمت عن السير في طريق المغامرة، وخافت من السلوك في طريق الجذرية، فلم تطرح بعض التقاليد وبعض النظم في البحر، رغم انها من ذهب ورغم أنّها معطرة براحة القداسة.

إنّ التجديد كان يجب أن يتّجه إلى القديس باسيليوس وينصبّ على اكتشاف الكنوز من تآليفه، والعمل على تجسيدها في النظم والقوانين الجديدة. ان الفرائض الجديدة للرهباّنات الملكية تغتّ كثيراً بالرجوع إلى الينابيع، والتمسك بالتراث الشرقي والعودة إلى الآباء الشرقيين. فهل كان ثمة رجوع الى القديس باسيليوس وعودة إلى قوانينه وتنظيماته الرهبانية، وعمل على صياغتها في فرائض جديدة. وبأ ترى هل من ذكر للقديس باسيليوس في هذه الركعة من الفرائض والقوانين والتنظيمات.

علّم القديس باسيليوس مبادئ روحية قيّمة، وقاد الحياة الرهبانية الى أصولها الإنجيلية، ورُتب أن يكون فيها تآلف وتمازج بين الصلاة والعمل، وبين الاختلاء والرسالة، وبين التقشّف وكرامة الإنسان. وليست هذه الآ التطلّعات والمرتجيات التي يتشدّد بالمطالبة بها كثير من المتجدّدين. والسؤال الذي نطرحه، هل يتنافى يا ترى تعليم القديس باسيليوس ولا يتلاءم مع القوانين الجديدة المقترحة ومع التجديد المرغوب. وهل كان يستحيل الأخذ بقوانين القديس باسيليوس وتنظيمها وترتيبها وصياغتها في نظم حديثة وواضحة.

بين التقليد والتجديد ضاعت الأصالة الشرقية. فلا تفوح من الفرائض الملكية الجديدة نفحة الآباء الشرقيين، ولا نقرأ فقرات من تنظيماتهم أو أقوالهم وهي مشهورة ومفيدة. ونجد في خزائن الكتب أكداً من التشريعات والأحكام والقوانين، وقد سنّها مشرّعون شرقيون. ألم تكن تصلح هذه أو بعض منها لتكون أساساً للفرائض الملكية الجديدة. ان النظام الأفضل هو النظام الذي يربّته رهبان شرقيون، متطوّرون ومتجدّدون، وعاملون للالتزام الكامل بالإنجيل، وهو الذي يستوحي روح الآباء الشرقيين وخصوصاً القديس باسيليوس الكبير.

خرجت الرهبانيات الغربية بقوانين رائدة بعد مجامع التجديد فيها. فاليسوعيون والأوبلا والترايست والبندكتيون وغيرهم نظّموا حياتهم في تنظيم رهباني جديد إنما عصري. وأننا نجد فيها مسحة من حياة المؤسّسين، ونفحة من روحهم. ونجد فيها

خصوصاً ميزات شخصية آلفت بين التقليد والتجديد. وعندنا أمثلة كثيرة، كنّا نودّ تبيانها فضحاً للمتشائمين واليائسين.

حتى الهدف نفسه لكلّ رهبانية ملكيّة هو شامل لكلّ الأهداف الرهبانية. ويا ترى ألم يحدّد المؤسسون للجمعيات الرهبانية خاصة الملكية أهدافاً خاصة. فأين هي. وهل يا ترى ورد ذكر خاص للوحدة مع الإخوة الأرثوذكس، وهل ورد ذكر للإسلام وهو الدين الذي يسيطر على مرافق ومؤسسات ودساتير البلدان التي يعيش فيها الرهبان الملكيون؛ وهل من ذكر للحرب بين العرب واليهود التي لا تزال مستمرة، وللعروبة ونحن نتكلّم بلغتها ونعيش في مناخها من المحيط إلى الخليج. فهل غلب التقليد التجديد، ومات البعث الروحي وغاب عن أذهان الدهاقنة والملافنة في الحقّ القانوني.

أنّا ننادي، ولو جزافاً بضرورة الرجوع إلى المحيط الذي نعيش فيه، والتراث الشرقي، والتفكير العربي في سنّ القوانين والنظم لكلّ مؤسسة حتى الدينية منها. وهكذا تجددت الكنيسة القبطيّة في مصر، وهكذا تجددت الكنيسة في أقطار كثيرة، وهكذا تجددت مؤسسات مختلفة، وأصبحت بذلك رائدة وشهيرة، لأنها عرفت ان توفّق بين القيم الحيّاتيّة وقيم الإنجيل الذي يستمدّ منه كل تجديد النور والحياة.

في كلّ تجديد لا بدّ من مغامرة إيمانية، ولا بدّ من مخاطرة ومجازفة. فقد يحدث التجديد ترجرجات، وقد يحدث عواصف قد ترزع أسس الكيان والوجود وعالم التقاليد القديمة. فلا بدّ من الابتعاد عن الخوف. ان المسيح، في تجديده العظيم، أحدث ثورة عاصفة في بحر البشرية، لا يزال مدّها وجزرها يلطم شواطئ العالم كلّ من أقصاه إلى أقصاه. وكان يجدر بتلامذة المسيح الأخضاء، وهم الرهبان الباسيليّون، أن يغامروا فيقدموا على تجديد يرجع بهم إلى الأصالة الشرقيّة ويوضح لهم معالم الالتزام الكامل بالإنجيل وفقاً لتطلّعات جديدة، ولحاجات تحسّسوا بها في حياتهم كلّ يوم على هذه الأرض، مع إخوان لهم في البشرية والمصير.

٨ - الرهبان الباسيليّون الملكيون ورسالتهم المشرقية

القديس باسيليوس هو أوّل من حمل مشعل الرسالة فأضاء به المسكونة كلّها. أنّا لا نجد نشاطاً بشريّاً إلّا وطرق أبوابه القديس الكبير، وجال فيه وصال عاملاً على أن يليق بذار رسالة الملكوت الإنجيلي في كل نفس مؤمنة. كان العالم، في ذلك الزمان يحتاج إلى

تجسيد حقيقي لبشرى الخلاص ، فكان باسيليوس رسول تلك المهمة الشاقة . وإذا راجعنا فصول حياة القديس باسيليوس ندرك سرّ دعوة الكنيسة له بالكبير . فهو قد شرح كلمة الحياة بحكمة فائقة ، وعلم غزير ، منظماً أخلاق البشر ، وبأسطاً لهم تعليمًا ساميًا حفلت به مؤلفات كثيرة جمعها الأب Migne في أربع مجلدات ضخمة من مجموعته الشهيرة «تراث الآباء الشرقيين» . كما أنّه حقّق في مساوئ الحياة الرهبانية فأصلح اعوجاجها ، وقوم سبلها ، وخطّ لها نهجاً نقله عنه الغرب وسار في نور خطوطه . وأدّى أخيراً رسالة رائدة سبق بها القديس جوزف كوتلنغو والأب فلانغن ، إذ أسس مدينة المحبة المشهورة بالبازلياد . فالقديس باسيليوس رسول ذاع منطقه في كلّ المسكونة ، واشتهرت مآثره عند القاصي والداني .

وسار الباسيليون في خطى مؤسّسهم الرسول العظيم ، فكانوا رجال الكنيسة المدافعين عن حقوقها ، والمعلمين لحجاعاتها والعاملين على نشر رسالتها على الأرض . يكفي ان نذكر وقفة الرهبان في محنة الكنيسة لما هبّت عليها زوبعة البدع وبدعة محاربة الايقونات . نعدّ في تلك الحقبة وحدها ألوفاً من الرهبان الشهداء والمعتزين بالإيمان أمثال تيودورس ، ورومانوس وأثناسيوس وغيرهم . ونراهم أيضاً رسلاً ممثّلين غيرة وحاساً ، يشيرون الأمم ويذهبون إلى البلاد الوثنية البعيدة ، فوصل البعض منهم كالقديسين متودبوس وكيرلس إلى بلاد الصقلية . ولما دكّ الأتراك عرش أباطرة بيزنطية سار الباسيليون إلى الغرب ، فأسسوا الأديار في روسيا وجنوبي إيطاليا ، وكانت مدّة طويلة من الزمن مع مؤسّسها والمشاهير فيها منائر فضيلة وعلم ، كما لا يزال إلى اليوم دير غرواتا فراتا .

نتكلّم خصوصاً عن الرسالة الحضارية التي قام بها الباسيليون . فهم حفظة العلم ، وسدنة الكنيسة . في أديارهم نشأت الأنغام البيزنطية ، وأشرق الفن البيزنطي وترعرع التراث البشري . كم من الكنوز حافظ عليها الرهبان الباسيليون ، هناك أكداًس من المخطوطات والأيقونات وألوف من المتاحف تحفل بها أديار جبل آثوس في بلاد اليونان ، ودير القديسة كاترينا في جبل سيناء وسائر أديرة وكنايس بلاد اليونان وروسيا والشرق . فهي معالم تشهد على مدى الأحقاب بأن البشرية مدينة للباسيليين بقسط كبير من حضارتها وتراثها . ان تاريخ اعلام الفكر اليوناني قد رقد مع غياب القديس يوحنا الدمشقي والقديس صفرونيوس بطريرك أورشليم والقديس مكسيموس المعترف . وكلّهم من الباسيليين .

الباسيليّون الملكيّون الجدد اتّبعوا النهج نفسه ، فكانوا رسلاً إلى كلّ إنسان ، وفي كل مجال ، وفي كل بلد . يمكننا التأكيد أنّ كل حجر ، وكلّ مدمك في بناء كنيسة طائفة الروم الملكيين الكاثوليك قد امتزج بأعراق الباسيليين واختلط بدماء شهادتهم الزكية ^(٣٨) . ان طائفة الروم الملكيين الكاثوليك وجدت معهم ، وترعرت بفضل عملهم النشط ، وما زالت تنعم بدفع محبتهم وغيرتهم ، ولذلك هي في الوجود . إنّ الباني الأول للطائفة هو المطران افثيموس الصيني مؤسس الرهبانية الباسيلية المخلصية ، والبطريرك الأوّل هو كيرلس طاناس الباسيلي المخلصي . وبعدهما تتابعت سلسلة البطاركة والأساقفة الباسيليّين . فالرهبانية المخلصية وحدها تعدّ ثمانية بطاركة وخمسين أسقفًا . وتزيد على هذه الطغمة المباركة ألوفاً من الكهنة والرهبان الباسيليين الذين ساروا من مدينة إلى مدينة ، ومن دسكرة إلى دسكرة ، وسط اضطهاد شنيع ، وحملات مسعورة من الإخوة المسيحيين أنفسهم ، يؤسسون طائفة الروم الملكيين الكاثوليك . ونذكر هنا عرضاً ان الإكليروس العلماني لم يظهر إلى الوجود إلاّ بعد تأسيس إكليريكية عين تراز سنة ١٨١١ وإكليريكية القديسة حنة في الصلاحية في القدس سنة ١٨٨٢ .

يذكر التاريخ أنّ الباسيليّين هم الذين قاموا بالرسالات الكبرى في الطائفة . فالخُلصيون ذهبوا إلى ديار بكر وبلاد الكرج وإلى حوران ؛ وهم الذين ذهبوا مع إخوانهم الشويريين إلى شرقي الأردن . كما يذكر التاريخ أيضاً أنّ البطريرك الشويري تيودوسوس الدهان عهد إلى المخلصيّين بالقيام برسالة في مصر ، فذهبوا ، يتقدّمهم رئيسهم العام الأب أفثيموس زكار ليؤسّسوا هناك طائفة أصبحت مع الزمن مشرقة الإيمان وافرة البرّ والإحسان . ولا نتكلّم عن رسالة الرهبان الباسيليّين في بلاد الاغتراب ، فقد لحق هؤلاء الرسل بالمهاجرين يؤسّسون الرعايا ، ويننون الكنائس ، ولا يزالون حتى يومنا الاكثرية الساحقة في خدمة المغتربين الروحية .

وحمل الباسيليون رسالة القلم ، المؤسسون الأوّلون كانوا من أعلام عصرهم . فالمطران افثيموس الصيني لُقّب ببقّة العلم ، والأب نقولاوس صايغ كان شاعراً مجيداً . لا يمكننا تعداد رجال الفكر والقلم الباسيليين الملكيين . يكفي مراجعة تاريخ الطائفة للأب يوسف شماس المخلصي لمعرفة أسماء سلسلة ذهبية من الرهبان الذين خدموا الطائفة في رسالة العلم والقلم . نؤّه فقط إلى مطبعة الآباء الشويريين التي تأسّست بين سنة ١٧٢٤ - ١٧٣٣ والتي اشتهرت بطبع آلاف من الكتب الدينية والثقافية ؛ وكذلك مطبعة الآباء المخلصيين في

بيروت التي تأسست سنة ١٨٦٥ وانتقلت إلى دير المخلص سنة ١٩٢٨. ونذكر أيضاً أن المدرسة البطريركية في بيروت أسسها البطريرك غريغوريوس يوسف سنة ١٨٦٦ بمساعدة الأب جرجس عيسى الشويري. وكذلك الرهبانية الشويرية أسست سنة ١٨٩٨ المدرسة الشرقية في زحلة. كم من الطغمت تخرج في مدارس الباسيليين، وفي معاهدهم الاكليريكية. ان الخدمات الجلّي التي أداها هؤلاء للبلاد وللمؤسسات تشهد أن الباسيليين كانوا ولا يزالون من حملة لواء النهضة الدينية والثقافية في البلاد المشرقية.. وللتدليل على ذلك أيضاً نذكر المجلات التي أصدرها الباسيليون: الرسالة المخلصية، الوحدة في الإيمان، النحلة، حياة وعمل، الشرقية وغيرها من المجلات والدوريات التي ساهمت في رسالة الفكر المسيحي في الشرق.

نودّ من صميم القلب ان تتابع وتكامل هذه الرسالة الباسيلية. ونلخص اقتراحاتنا بما يلي:

في **مكتبات الرهبانيات الباسيلية** كنوز ثمينة دفيئة، من المخطوطات والرسائل والوثائق. وقد حرص الأجداد الأمثال على الحفاظ عليها، ونسخها وشراؤها بعد أن أحرقت الأديار وضاعت الكتب بين أيدي السارقين والجهلة. قد حانت الساعة لنفض الغبار عن اكداسها ونشر فهرسها والكشف عن محتوياتها. ففي ذلك تساهم الرهبانيات الباسيلية مساهمة جلّي في توضيح معالم تاريخ البلاد العربية خصوصاً مصر وسوريا ولبنان وتاريخ الطوائف الشرقية وفي تعزيز الآداب العربية.

ثم نودّ مخلصين ان **تعزيز اللغة العربية**، فتدرس آدابها وتُنشر آثارها. بين الباسيليين نجد أعلاماً في اللغة والشعر والبيان. ونذكر الأب نقولاوس صايغ الشويري والأب نقولا أبا هنا المخلصي والإثنان علما مشهوران. ونجد غيرهم كثيرين ممّن بحثوا في اللغة العربية وترجموا وساهموا في النهضة الأدبية العربية. فلا بدّ لهذه الرسالة ان تشهر وتتابع وتكامل في المدارس الباسيلية والمعاهد الإكليريكية، خصوصاً أن رسالة الباسيليين الملكيين اليوم تتجه الى خدمة المحيط العربي.

كذلك نرغب في تعزيز **المعاهد الثقافية والإكليريكية والمؤسسات الاجتماعية** التي هي في عهدة الباسيليين. ممّا لا شكّ فيه أن وجود طائفة الروم الملكيين الكاثوليك ارتبط بوجود مؤسسات باسيلية كالمدارس في المدن والقرى، والمعاهد الإكليريكية والمؤسسات الاجتماعية والمجلات والدوريات. واليوم نؤكد أن نهضة طائفة الروم الملكيين الكاثوليك

وانتشارها يرتبط بوجود معاهد باسيلية رائدة، تعمل على نشر الثقافة، وتعزيز الدين، وخدمة المجتمع، إذ أنها تدفع طغيات من الرجال لخدمة الأوطان والطوائف وكل المؤسسات. إن رسالة الباسيليين كانت دوماً خدمة الناس كلهم في كل حاجاتهم وتطلعاتهم.

نجهز بفكرة عزيزة على قلبنا وعلى قلب كثيرين، وهي تأسيس معهد ديني عالي على غرار معهد البلمند وجامعة الكسليك بإدارة الباسيليين. بهذا نضن تتعزز وتنهض الطائفة، لأن كل مؤسسة لا تعتمد على رجال فكر وعلم، ولا تتجه إلى الاختصاص، ولا تعهد إدارتها إلى رجال آمنوا بالحقيقة وأحبوها، هي مؤسسة مهددة بالإنهيار. فرسالة هذا المعهد هي تخريج رجال يتحملون مسؤوليتهم في الكنيسة الملكية، والمجتمع بضمير حي، وعلم غزير، وثقافة واسعة.

ثم لا بد من إنشاء مجلة باسيلية جامعة. إن الباسيليين الملكيين حملوا في القرون الثلاثة الأخيرة لواء الفكر المسيحي وعملوا لأجل انتشاره بواسطة مجلات باسيلية مشهورة وبواسطة كتب وكراريس تتناول شتى المواضيع. فلا بد من العمل على إحياء التراث الشرقي والطائفي بواسطة مجلة واحدة يشرف عليها الباسيليون، وهم الذين يقومون بحمل أعبائها والتخطيط لها وتديج مقالاتها. وهذا العمل يستلزم طرح البعثة، فالبعثة هي ضياع للجهود وللعمل الصحيح.

من الضروري تحديد الحياة الرهبانية الباسيلية النسكية الكاملة. ونقترح لذلك تخصيص أحد الأديار الباسيلية يتجمع فيه الرهبان، من كل الرهبانيات الباسيلية الملكية الكاثوليكية، ومن سائر الرهبانيات والجمعيات والفئات فيعملون بتصميم واعٍ ومعرفة صحيحة على تأسيس فرع خاص للحياة الرهبانية النسكية تتخطى أطرها القسمة البغيضة والتقاليد المتبعة، وحتى بعض القوانين البسيطة، ويعيش هؤلاء الرهبان وفقاً لنهج الحياة النسكية الرهبانية الشرقية الكاملة. إن هذه الأمنية قد نادى بها كثيرون، وتمنوا أن تتحقق، وقد عملوا على تجسيدها حفاظاً على تراث شرقي قد اضمحل تقريباً في المشرق العربي. ونحن نضن أن هذه المهمة هي واجب على الباسيليين قبل غيرهم، فبين صفوفهم فئة ترغب في الانزواء في الأديار للتفرغ للصلاة، والتأمل والعمل اليدوي والتأليف، على غرار رهبان دير الحرف في لبنان ورهبان دير تيزه في فرنسا.

نشدد أخيراً على إحياء التراث الشرقي اليوناني. نرى مبادرات خيرة لنشر مؤلفات

الآباء الشرقيين، وقد صدر البعض منها. فمن الضروري ان يقود هذه الحملة الباسيليون أنفسهم، وبينهم أعلام في اللاهوت والآداب والحقوق واختصاصيون لا بدّ من شهرهم كالنور على المنارة اي ترجمة لبعض الكتب من المجموعة الشهيرة من المجموعة الشهيرة Sources chrétiennes هي أمنية غالية نرجو أن يحققها الباسيليون، ثم نرجو ان تحوي برامج المعاهد الإكليريكية والدينية، دروساً خاصاً عن التراث الشرقي، وعن التراث الملكي وهو غني جداً.

خاتمة

هذه بعض أفكار خطرت لنا في الذكرى المئوية السادسة عشرة لوفاة القديس باسيليوس. أردنا أن نرجع بعض الأضواء لهذا الذي ندعوه في قسم النذور المفروض في فرائض الرهبانيات الملكية الكاثوليكية «مؤسسنا القديس باسيليوس العظيم».

في ٢ آب ١٩٧٩

الاعتراف

إن رؤساء الكنيسة لأنهم يقضون حياتهم في البرّ والطهارة يضحون أهلاً لأن يفضي إليهم المؤمنون بخطاياهم الخفية، التي لا يعرف بها أحد إلاّ ذلك الذي هو وحده فاحص القلوب وعارف خفايا ما في قلب الإنسان. وعندما تكشف خطايا بالاعتراف تكون مثل عشب يابسة تستحق ان تحرق بالنار.

القديس باسيليوس الكبير

مراجع

- (١) صدرت أعداد من مجلات كثيرة عن القديس باسيليوس : المسرة : في أعداد كثيرة من سنة ١٩٧٩ ؛ الوحدة : عددان خاصان من سنة ١٩٧٩ ؛ Le Lien : عدد خاص من سنة ١٩٧٩ عدد ٢ .
- (٢) يوحنا ٢٤/١٢ .
- (٣) أعمال الرسل : ٤٢/٢ .
- (٤) أعمال الرسل : ٣٤/٤ - ١/٥ .
- (٥) لوقا ٤٨/٢٤ .
- (٦) Daniel-Rops — L'Eglise des Apôtres et des Martyrs. Ch. 3
- (٧) حياة القديس أنطونيوس — للقديس اثناسيوس الكبير. مختصر عنها في مجلة صديق الكاهن : ١٩٧٨
P.G. St. Athanase
- (٨) طالع بهذا الخصوص
- P. Placide, Peseille: L'esprit du monachisme pachômien. Abbaye de belle Fontaine 1973.
- (٩) Mensuel Juin 1979
- (١٠) المراجع المذكورة في ٨ و ٩ .
- (١١) طالع عن القديس باسيليوس المراجع التالية :
- Les Ascétiques au traités spirituels de St. Basile — Hermant
- Doctrine ascétique de St. Basile — Humbertelade
- Vie de St. Basile — Allard.
- St. Basile et son temps. Ives Courtomme. Belles Lettres. Paris — 1973.
- (١٢) رومة ٦/١٢ .
- (١٣) طالع عن هذا الموضوع : أسد رستم : الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم ١٩٥٥ .
- Dict. Théo. Cath. — St. Basile — Basiliens. Col. 501-510.
- (١٤) نفس المرجع .
- (١٥) أسد رستم : لبنان في عهد الأمير فخر الدين الكبير سنة ١٩٣٦ ؛ أسد رستم : الأصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي باشا . اربعة مجلدات : ١٩٣٠ - ١٩٣٤ ؛ الأب قسطنطين باشا : تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية المخلصية في جزئين ، المطبعة المخلصية ؛ الأب يوسف شماس : خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية في ثلاثة أجزاء ، المطبعة المخلصية ؛ الأب أثناسيوس حاج : الرهبانية الباسيلية الشورية في تاريخ الكنيسة والبلاد ، في جزئين .

- (١٦) يوسف مزهر: تاريخ لبنان في جزئين؛ عادل إسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي ١٨٩٠ - ١٩٥٨؛ فيليب حتي: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. تاريخ العرب ١٩٥٠.
- (١٧) الأب قسطنطين باشا: تاريخ الطائفة الملكية والرهانية المخلصية I: ٥؛ الأب يوسف شماس: تاريخ الكنيسة الملكية II: ٥، ٦.
- (١٨) الأب يوسف محفوظ: مختصر تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونية.
- (١٩) الرهبانية الشورية للأب أنناسيوس حاج. I: ١.
- (٢٠) راجع: الأب باشا: الكتاب المذكور له؛ الأب شماس: الكتاب المذكور له؛ أسد رستم: الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب، لبنان في عهد الأمراء الشهابيين؛ بولس قرألي: تاريخ الأمير فخر الدين الكبير؛ يوسف مزهر: تاريخ لبنان، في جزئين.
- (٢١) الأب باشا: تاريخ الطائفة. الجزء الأول؛ الأب شماس: تاريخ الطائفة III.
- Charon Cyrille, Histoire des Patriarcats melkites II, III, 1910, 1911.
- (٢٢) الأب أنناسيوس حاج: تاريخ الرهبانية الشورية.
- (٢٣) وصية المؤسس: الأب باشا: تاريخ الطائفة I.
- (٢٤) الأب حاج: الكتاب المذكور.
- (٢٥) الأب باشا: تاريخ الطائفة. الجزء الثاني؛ والأب حاج II: مجمع دير المخلص.
- (٢٦) الأب باشا: تاريخ الطائفة المذكور، الجزء الثاني؛ الأب حاج: الكتاب المذكور.
- (٢٧) الأب باشا: تاريخ الطائفة II؛ الأب حاج: الكتاب المذكور I؛ الأب شارون: الكتاب المذكور له II.
- (٢٨) الأب يوسف نصرالله: مجلة Le Lien: 1979.
- (٢٩) المصدر نفسه - والأب باشا. والأب حاج I: ١.
- (٣٠) طالع فرائض مجامع التجدد في الرهبانية المخلصية وفي الرهبانية الشورية.
- (٣١) Le Lien 1978, 1, 2.
- قرارات سينودس آب ١٩٧٩.
- (٣٢) الوحدة في الإيمان، ١٩٧٧.
- (٣٣) Un Lutteur Infatigable. Patr. Maximos Mazloum. Cha. 13.
- وثائق الرهبانية، البطريك مكسيموس مظلوم. الأب شارون: الكتاب المذكور له I.
- (٣٤) ١ كور ١٤/١٥.
- (٣٥) الأب حاج I؛ الأب شماس ١، ٢، ٣.
- (٣٦) وثائق الرهبانية المخلصية - البطريك بجوت.
- (٣٧) وثائق مخلصية، للبطريك ديميتريوس قاضي.
- (٣٨) الأب شارون II.

البحث السادس القديس باسيليوس الكبير من خلال رسائله

الأب يوسف داغر المخلصي

نودي بالقديس باسيليوس ، في الشرق والغرب ، وعلى ألسنة الناس جميعاً بأنه من أعظم الوجوه في تاريخ المسيحية . فقد كان أسقفاً لمدة تسع سنوات فقط وقد توفي سنة ٣٧٩ عن عمر لا يتجاوز التاسعة والأربعين . ونعرف من رسائله انه كان ناحل الجسم يعاني من أمراض كثيرة رافقته كل حياته . وكان أيضاً شاحب اللون ضامر الجسد ممّا حمل صديقه القديس غريغوريوس التريزي إلى القول : « كان يبدو للناظر دون لحم يغطي جسمه ودون دم يجري في عروقه » .

إننا نعجب بالحقيقة كيف أنّ رجلاً ابتلي بأمراض متنوعة ومزمنة ، ومات في سن مبكرة استطاع أن يقوم بالأعمال التي ذكرتها سير حياته . كان واحداً من الأدباء الممتازين في عصره ، بلغ شأواً بعيداً بقدر ما تسمح الطبيعة البشرية ، حسبما كتب القديس غريغوريوس التريزي . وكان أيضاً راعياً صالحاً لرعيته ومدبراً حكيماً لسائر الكنائس . وأخيراً كان مؤسساً للحياة الرهبانية المشتركة ، ومصلحاً للتيورجيا ، وشارحاً للعقيدة المسيحية ومعلماً للكنيسة . وقد أعلن رسمياً معلماً وأباً للكنيسة جمعاء ، بعد اثنين وسبعين سنة لوفاته في مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ اذ أجمع الآباء على اعتبار « القديس باسيليوس الكبير مدبراً للنعمة ومفسراً بأحكام كلمة الحق لكل العالم » .

نوخّي في هذا المقال توضيح صورة القديس باسيليوس كما ظهرت من خلال رسائله ، وسماع الصوت الذي ينبعث منها .

نشر الآباء البندكتيون في دير القديس Maur ٣٦٥ رسالة كتبها القديس باسيليوس منذ سنة ٣٥٧ وهي سنة عماره وعزلته حتى سنة وفاته ٣٧٩ . وهذه المجموعة من الرسائل توضح

صوراً كثيرة ، وتحتوي مواضيع مختلفة وتظهر الواناً شتى من التعبير والإنشاء . أننا نرى فيها ظهورات لصداقات حميمة ، وخوارج عفوية متدفقة ، وشروحات عميقة للعقيدة المسيحية ؛ كما نرى أيضاً فيها توصيات تخصّ مظلومين وفقراء ، وكلمات تعزية لمحزونين ، وعبارات مشاعر الودّ والمشاركة مع المتألّمين والمحرومين ؛ وخصوصاً نرى في هذه الرزمة رسائل تعالج أموراً اجتماعية وروهبانية ، وأخرى تعالج مسائل تاريخية ، وطقسية وليتورجية . وهذه كلّها تعتبر بحقّ من الأسس التي يعتمد عليه تاريخ القرن الرابع المسيحي . انما ، نتبين من خلال كلّ تلك الرسائل شخصية القديس باسيليوس الفدّة ، وأخلاقه العالية وأعماله الكثيرة ، وتأثيره العظيم على كلّ عصره .

١ - حياة رهبانية ونسكية

حسب تقاليد ذلك العصر انتظر باسيليوس البلوغ إلى سنّ السابعة والعشرين حتى يقبل سرّ العماد المقدّس . وفي الوقت نفسه قصد ان يكون راهباً . « كنت ، كتب هو نفسه ، مثل إنسان استيقظ فجأة من نوم عميق . وقد رأيت نوراً عجبياً ينبثق من المسيحية ، وأدركت بطلان وفراغ حكمة عظماء العالم الذين ذهبوا كلّهم وغابوا عن الوجود ... ثم قرأت الإنجيل ، وتعلّمت منه أنّ الطريق الصحيح للكمال هو ترك وبيع كلّ شيء ومشاركة الفقراء والمساكين ، ثم طرح الاهتمام الزائد بالأمر العالمية ، وأخيراً رفض السباح للنفس بمحبة أي شيء أكثر من الله » .

في زمان القديس باسيليوس كان يوجد رهبان ونسّاك ، ولكن لم تكن ظهرت إلى الوجود بعد الأديرة المنظّمة . فالناسك كان يعيش وحيداً ، في صومعة مستقلة ونائية ، يصرف وقته في الصلاة والتأمّل الروحي والعمل في فلاحة الأرض أو زراعتها ليحصل قوته اليومي . وكان النسّاك ، في ذلك الحين يعيشون دون قانون ونظام عام ودون نذور . وفكر باسيليوس بالأمر هذا ملياً ودرسه في نطاق الفلسفة الصحيحة فرغب في الإصلاح . لكنّه قبل ذلك ، وبعد توبته ورجوعه إلى الله ، قضى مدة من الزمن سائحاً في براري مصر وسوريا وفلسطين يزور المناسك ويتعرّف على قمم في النسك والزهد . وقد دهش من نقشّات أولئك المتوحّدين وأعجب بطريقتهم ، واندهل من سمّوئيل مقصدهم لأنهم لم يكثرثوا للجوع وللعطش وللبرد وعاشوا وكأنّ لا جسد لهم كمواطني السماء . ان القديس باسيليوس أعجب بنهج قداسة النسّاك ، ولكنّه لم يرغب في الانخراط في طريقتهم . لذلك عكف ، عندما رجع إلى كبادوكية على البحث مع معلّمين أفاضل عن طريقة مثلى للحياة الرهبانية . وبدأ هو نفسه يعيش تلك الطريقة . واختار

مكاناً لهذه التجربة شاطئ نهر الـ Iris في مقاطعة البنطس قرب بحر الأسود. وشاركه في تلك الخبرة أخوه الأصغر بطرس الذي أصبح أول راهب باسيلي. وسريعاً تكاثر عدد التابعين لطريقة القديس باسيليوس الرهبانية فالتزم أن يؤسس أول دير لهم في آسيا الصغرى.

في ذلك الوقت كانت والدته القديس باسيليوس اميليا وأخته ماكرينا تعملان للعيشة في حياة رهبانية كاملة. كانتا قد تحررتا من المسؤوليات العائلية. وباعتا الأرزاق والأملك واراندا التكريس لله بالصلاة والعبادة. وهناك على الضفة الثانية من نهر الـ Iris بُني أول دير نسائي وقد ساهم باسيليوس في تحقيق هذه الرغبة وفي وضعها في إطارها الصحيح.

وكتب باسيليوس إلى صديقه غريغوريوس التريزي يدعوه إلى الحضور ليساعده في تنظيم الجماعة الجديدة. وقد وصف له ديره الجديد مثل واحة سلام تكثر فيها الأشجار، والتلال الخضراء، وتحفل بكل أنواع الطيور. «هناك، كتب القديس باسيليوس جبال عالية تكسوها الأشجار المختلفة، وتشق سفوحها وأعماقها وديان متعرجة، وتنسبط عند أقدامها سهول خصبة، وتنفجر منها أنهار وجداول. حتى لتبين تلك البقعة للناظر، وقد أحاطت بها الجبال والأشجار الكثيفة كالأسوار، مثل جزيرة، لا تضاهيها جمالاً وروعة حتى جزيرة «كاليسو» التي تغنى بها هوميروس. وعلى مرتفع، وسط هذه البقعة تقوم صومعتي التي تشرف على كل الأرجاء. ياله من منظر خلّاب اذ ترى السهل منبسّطاً أمام عينيك، والنهر يجري هادراً، وتنظر الأزهار المتنوعة، وتسمع تغريد العصافير الممتزج مع خرير الماء... لكن المهم ليس ما ذكرت، بل تلك العزلة التي أتمتع بها. إنّ هذه الخلوة هي بعيدة عن ضجيج العالم، لا يأتيها الزوّار إلا نادراً. يقصدها أحياناً بعض الأشخاص طلباً لصيد الوحوش البرية مثل الغزلان والماعز البرية والأرانب والديبة وغيرها...»

وجاء غريغوريوس وانضم إلى جماعة باسيليوس الجديدة التي تألفت من رهبان كثر جاؤوا من كل حذب وصوب. وإزاء هذا التكامل والتكاثر عكف باسيليوس على سنّ قانون تسير بموجبه جماعة الرهبان الأولى. من بنود هذا القانون ان الرهبان يلتزمون أن يقوموا بكل الأعمال بأنفسهم، فهم الذين يحرثون الأرض ويغرسون الأشجار ويحصدون القمح، وينون الصوامع والأديار. كل راهب يملك ثوباً واحداً وعباءة واحدة، وينام على الأرض وفي العراء. في هذه الجماعة الأولى كان الرباط الأساسي ليس النذور بل قاعدة واحدة عامّة، وقانون واحد ثم مائدة مشتركة وصلاة وترنيم وشغل معاً.

في رسالة أخرى إلى القديس غريغوريوس التريزي يصف حياته الجديدة فيقول: «حياتي في هذه العزلة هي حياة تعب وتقوى تغدّي فيها النفس بالتفكير بالأمور الروحية السماوية. ثم هي حياة عبادة لله تتصاعد فيها الترانيم وتمتزج مع تساييح أجواق الملائكة. وترى الرهبان يسرعون عند انبلاج الفجر إلى حمد الله

الخالق بالترنيم والتسبيح ، وعندما تشرق الشمس بنورها الساطع يعود كل راهب إلى عمله وشغله مازجاً الصلاة بالعمل كما يمزج الملح بالطعام . إن الإلهام الذي توحى به هذه الصلوات والترانيم تبعد الأوهام والأخطار فيعيش الرهبان بالفرح والارتياح . ثم إن الصمت هو بدء تطهير النفس ولذلك فاللجنة لا تعود تتكلم وترتّبك بأمر الناس ومشاكلهم ، والعيون لا تعود تنطلق إلى بشرة جميلة وشكل بديع ، ولا إلى هيئات رشيقة القد وحلوة الشمائل ، والآذان لا تعود تنصت إلى نغم جميل ولحن عذب ، يعمل بإيقاعه الموسيقي على تغذية اللذات العابرة ، ولا تعود تسمع أيضاً النكات السمجّة والأقوال البذيئة . إن النفس تتحرّر بالصمت والعزلة من الإهتمام المفرط بالأمر الدنيوية ، ومن البعثرة والإرتباك بسبب تسرّب التلذذ بالشهوات الحسية . بهذا التحرّر فقط تستطيع النفس الارتفاع والصعود في مراقي الكمال والمحبة لله .

إن المسيحي وخصوصاً الراهب يلتزم أن يتعلّم كيف يتكلم . كتب القديس : « ليكن حذراً من التحدّث بخشونة وفظاظة ، ولتكن الأسئلة بسيطة والأجوبة خالية من الأنانية وحبّ الذات ؛ لا يقطع أحد المتحدث عندما يشرح أمراً ما أو يسرد بياناً عن شيء حصل معه ، ولو قام ذلك بفخار وتباهي . ليتكلم الراهب بهدوء ، وليسمع بحشمة واعتدال مصغياً إلى تعليم الآخرين .. ليكن الصوت في الحديث منخفضاً .. إن المتحدث عليه أن يكون لطيفاً في جميع اتصالاته الإجتماعية ، عاملاً على ترطيب الأجواء بدمائة أخلاقه وبتأدّبه ، مبتعداً عن الخشونة والقساوة حتى عندما يوبّخ الآخرين ... » .

وفقاً لتعليمات باسيليوس التي ذكرنا البعض منها يمارس الراهب مراقبة أمياله ودوافع أعماله ، وحتى ينظّم حاجاته إلى الطعام والنوم ، فيؤالّف بين ساعات الراحة والأكل وسائر الواجبات الطبيعية وبين أوقات الصلاة .. ويقول القديس « ليتبع الراهب عن الشراهة في الأكل ، وليفكر دوماً بالله حتى أثناء ممارسته أعمالاً جسدية كالأكل والنوم .. ليجلس كل أماله وهو شاكر الله ، حامد نعمه الغزيرة ، مندهش ومتعجب من الذي يسوس العالم والأشياء بحكمة ويستنبط الأشكال المتنوعة ويدبّر التركيب العجيب للجسد ... ليكن أيضاً النوم خفيفاً ، ومتقطعاً لا يصل بالراهب إلى الترهّل والكسل لئلا يتعرّض إلى الموت المفاجئ ... »

ورغم تدهور صحة القديس باسيليوس وأمراض جسده المتنوعة عاش حياة رهبانية نسكية صارمة إلى حين وفاته . وعاش وهو أسقف في فقر وعوز ، يعتمد في معيشتة على الصدقات ومساعدة الأصدقاء والمحسنين الخيّرين ، حسب ما كتب هو نفسه في رسائله المتعددة : « إنني ما زلت ، حتى الوقت الحاضر أعيش على نفقة الأقارب والأصحاب ، لا أملك شيئاً يخصني لكنني أنعم بثروات أصدقاء كثيرين محبين ... » .

كان باسيليوس الإبن الثاني ، والصبيّ الأوّل بين عشرة أخوة لزوجين مسيحيين فاضلين يعيشان في ثراء وبجوحة ، ويتمتّعان باحترام الناس ، وينعمان بوفرة الخدم والحشم . لكن

باسيليوس صمّم على تطبيق تعليم الإنجيل فباع أرزاقه الواسعة ووزّع ثمنها على المساكين. وكان باسيليوس طيلة حياته مجباً للفقراء وشديد الاهتمام بالمعوزين والمحتاجين. وقد أسّس لذلك واحة رجاء ومحبة، تقبل على الرحب والسعة الغرباء، ويعالج فيها المرضى، ويتدرّب الشبان في مدرستها على المهن الحرّة المختلفة. وكان باسيليوس شديد اللهجة، قاسي التوبيخ، في نداءاته المتكرّرة للأغنياء حتى يساعدوا الفقراء. قال «انك ترفض العطاء، مدّعياً انك لا تملك إلا ما تحتاج اليه، ولكن يحكم عليك بأنك كاذب الخاتم الذي يلمع ذهبه في إصبعك، فكم من السجناء يمكن تحريرهم بثمان واحد من هذه الخواتم الثمينة.. وكم من العراة يمكن كسوتهم بالثياب الضرورية، من فيض الثياب المكسدة في خزائنك. كيف تصدّ بعد ذلك الفقير والمحتاج. انت فقير، ولكن يوجد أناس أكثر فقراً منك، فأنت تملك ما يكفيك لتعيش عشرة أيام، لكن ذلك الإنسان لا يملك ما يكفيه ليوم واحد... لا تخف أن تعطي القليل الذي عندك، ولا تضع اهتماماتك الخاصة قبل الحاجة العامة...»

إنّ القديس باسيليوس أوضح تصوّراً جديداً للحياة الدينيّة، فهو يعلم أنّ حياة طاهرة مقدّسة لا تكفي وحدها، بل على الرهبان أن يقوموا بعمل الخير نحو الآخرين. ولذلك، هو قد أسّس دوراً للأيتام، ومدارس للثقافة، ووضع خطة للرهبان حتى يتدرّبوا فيكونوا أساتذة صالحين. هو أوّل من قبل الجنسين في المدارس، «ان التربية يجب أن تكون مفرّحة ومشوّقة، تعطي العقل الطمأنينة والنفس الراحة والسلام. ويقول أيضاً أنّ التربية الصحيحة تكون دون إكراه، ودون ضغوط، حتى القصاص يجب أن يعطى باعتدال. أنا ينبّه على أنّ الأطباع الشريرة يجب أن تعامل بقسوة... أمّا الذي يظهر استعداداً طبيعياً، وطواعية في التربية فيجب أن يرتفع، ويرسل إلى مدرسة خارج الدير يعلم فيها أساتذة ماهرون...»

٢ - الصداقة والمحبة

كان باسيليوس رجلاً ينعم بصداقة أشخاص كثيرين. «منذ زمن شباني إلى شيخوختي، كتب هو نفسه، نعمت بوفرة الأصدقاء، وكنت أحبّد الصداقة وأسعى إليها». وإلى هؤلاء الأصدقاء الكثيرين باح باسيليوس بحوالج نفسه وكشف عن دوافئ قلبه. كتب للأسقف فاليريان «رغم ذلك انك بعيد عني، تفصل بين أجسادنا مسافات هائلة، إلّا أنّك قريب إليّ، وحاضر في قلبي، بواسطة الرسائل وبواسطة المعانقة الحيّة التي احتضنك بها والتي تبعث في أعظم الشوق وأعظم المودّة.. وفي الحقيقة علّمتنا التجارب والخبرة اليومية صحة هذا المثل المأثور والسائر: مثل الماء البارد الذي ينزل على الأرض العطشى، هكذا تقع في القلب البشري القادمة من بعيد. إنّ القحط في المحبة، والإنقطاع في الودّهوشي رهيب وخطير. وسبب ذلك هو بسيط جداً، فإنّ المحبة تبرد عندما يتكاثر الشرّ. ولهذا السبب كانت رسالتك عزيزة وجميلة الأثر في قلبي، ولهذا أيضاً أُجيب عليها سريعاً، باعثاً بالجواب مع حامل رسالتك إليّ».

كتب أيضاً إلى صديق آخر ، هو مكسيموس الفيلسوف بلح عليه ، ويتوسّل إليه لكي يأتي إلى زيارته وقال له : «إني بسبب كثرة الأمراض أبقى دوماً في بلدي وبيتي ، مثل الشجرة التي تستمر في مكانها دون تغيير... أما أنت فأنت تتمتع بصحة جيّدة ، وقد جعلت نفسك مواطناً في العالم الواسع ، فيمكنك أن تحضر إليّ وتزورني في بلدي الذي هو بلدك أيضاً...» .

وإلى صديقه أوسابيوس أسقف ساموساط كتب يصف أمراضه التي تلزمه بالبقاء سجيناً في غرفته ، ويصف أيضاً حزنه العميق بسبب وفاة والدته . «عندما أتعافى قليلاً من الأمراض ، يجيء الشتاء فيحبسني في البيت ويمنعني عن السفر والخروج بعيداً حتى عن غرفتي... انه لكثرة خطاياي أيها الأخ الجليل حرمت من تعزيتي الوحيدة في الحياة وهي أمي . إني لست بشوشاً ولا أبتسم لأحد ليس فقط بسبب يمني ، بل أيضاً بسبب إني حرمت من نفس لا مثيل لها بين الذين لا يزالون بعد أحياء... إني لكثرة أمراض ، وملازمتي للسريّر أتوقع قرب نهاية حياتي...» .

كان باسيليوس يحتاج إلى أصدقاء يزورونه ، ويكتبون له ، ليعثوا العزاء في قلبه وسط محنة وشدائده . وقد أصبح شديد التأثر ، وافر الإحساس هو أيضاً تجاه أحران الآخرين وآلامهم . فكان يسرع إلى تعزيتهم ومؤاساتهم . فقد كتب إلى صديقه نكتاريوس رئيس أساقفة القسطنطينية الذي فقد ابنه «ان حزن العالم كله ، لا يقدر أن يعبر عن عميق مشاعر المؤاساة التي نحسّها . لا ، وحتى مياه الأنهر ، لو صارت دموعاً لا تكفي للتعبير عن الحزن الذي سببه هذا الحادث المفجع . اننا لم نحرم من ولد ، بل أرجعناه إلى الذي وهبنا إيّاه ؛ إن حياة الفقيد لم تتوقف ، بل تغيرت وتحولت إلى الأحسن ، إن الأرض لا تخفي الشخص الذي نحب ، بل السماء تستقبله .. ان وقت الانفصال لن يطول . فما دمنا في هذه الحياة ، فنحن مسافرون على الطريق ، إلى مكان الراحة نفسه ؛ فالبعض لا يزال يسير ، والبعض الآخر قد وصل ؛ وآخرون لا يزالون يسرعون . لكن مكان الإستقبال هو واحد...» .

كتب رسالة أخرى إلى زوجة نكتاريوس يقول لها : «فكرت أن ألزم الصمت احتراماً لشعورك ، معتبراً انه كما أن العلاجات حتى البسيطة تزعج وتسبب التهاباً في العين ، كذلك المؤاساة التي تقدّم في مناسبة حزن كبير أو خسارة عزيز ، قد تسبب ، رغم انها تبعث أشعة الأمل والسلوان ، بعض الانزعاج والمضايقة في نفس المصاب بالحزن... إني عارف كم هي عميقة محبة الأمهات ، وأعرف لطفك الجمّ ومحبّتك لجميع الناس ، لذلك فإنّي أدرك أن حزنك كان عميقاً جداً في هذا المصاب الذي حلّ بك . فقد فقدت ابناً ، تشتهي كلّ الأمهات أن يكون أولادهن شبيهين به ، لوبيح حياً ؛ وعندما مات كلّهن أيضاً يكن أسفاً عليه كأنهن فقدن ابناً لهن... إن هذه هي إرادة الله ، وهذا تدبير عنايته ، التي يؤكدها لنا الإنجيل بقوله : ان شعرة من رؤوسنا لا تسقط دون إذن الآب السماوي... ولذلك أقول لك أيّها السيّد إن الذي جاء إلى الأرض سيذهب منها ، وما قد حدث ، فقد حدث بإرادة الآب الذي خلقنا .. ومن يقدر أن يعارض مشيئة الله؟؟ فلنخضع لهذه الإرادة ، فإننا لا نقدر أن نقاومها... لا نجعل المصيبة تتغلّب عليك .. ولا أظن أن هذه

الكلمات التي كتبها تكفي وحدها لبعث العزاء والسلوان ، فإنك أيضاً بحاجة إلى صلاة في هذا الظرف الحاضر .
وانا أشاركك معك بالصلاة لكي يشددك الرب ، وينير نفسك وعقلك ، وهكذا تحصلين ، من نفسك على
ينابيع التعزية ومصادر السلوان ...» .

إن القديس باسيليوس لم يكن يحبس عواطفه مشاركة بأحزان بنيه من الأرامل والأيتام
ومؤاساتهم في ظروف حياتهم العصبية ؛ ولم يكن «كذلك الذي يقترب من الحزوين ، وبدلاً من أن
يقدم لهم العون والعزاء يساهم في بليلة عواطفهم» . ان رسائله في هذا الشأن صادرة عن قلب رقيق
عاش تجارب الغير وعانى ما عانوا ، فكانت كلماته صادقة إلى أبعد الحدود . وبالإضافة إلى
النصح الروحي وكلمات التشجيع ، كان يستمطر لهم نعم الله تعالى وبركاته لمزيد من الصبر
والتسليم للعناية الإلهية .

يقول في رسالة ، مثلاً إلى أحد الآباء يعزّيه بفقد ولده : « انها فعلاً لمصيبة جسيمة حلت بك ،
أيها العزيز ، وكان لها عظيم الأثر في نفوسنا ، كوننا الأب الروحي الذي يحب بنيه ويتألم لألمهم . لا تقدرن
مدى الحزن الذي انتاب قلوبنا ساعة سمعنا بذلك الخبر المشؤوم ، فلم نستطع كبت دموعنا التي انهمرت غزيرة
حزناً وأسى على الشباب النضر . ولكن هكذا شاء الله تعالى ، وهذا هو مصير الإنسان ... لا تتألن أيها الابن
الحبيب على أن ولدك فارق الحياة وهو بعد في عنفوان الشباب وغادر الوجود دون نسل ، لتسلمن ذاتك
بالكلية إلى إرادة الرب وتشكرن تدابير عنايته الإلهية .. وها مثلنا في المضايق أيوب الصديق الذي رضي بما
حلّ ، مردداً قول الحكمة الكاملة : « الرب أعطى والرب أخذ ، لقد صنع ما شاء ، ليكون اسم الرب مباركا » .

وكيف لا يبكي راعي قيصرية مع الباكين من أبناء رعيته ويتألم لآلامهم وهو الرجل الذي
اتخذ منهم أولاداً حقيقيين له ، كشمعة أذاب حياته ليضيء لهم سبيل الخلاص بيسوع المسيح
ويحصل لهم على الحرية والكرامة . وبنفس الشعور القلبي يرسل معزياً إلى إحداهن وقد فقدت
زوجها حائناً إياها على إكمال الكفاح بمفردها : « من لم يذرف الدموع على موت هذا الرجل العظيم . أي
قلب من حجر لم يلم أمام هول الكارثة . أمّا بالنسبة إلي فقد انتابني حزن لا يوصف خصوصاً عندما تذكّرت
تلك الحاية الكريمة التي كان يشمل بها الكنيسة . ولكن الله الذي أوكله على هذه الخدمة الشريفة هو ذاته العالم
بمصائرنا قد نقله إلى جواره .. فنحزّضك أيها الابنة على اعتبار هذه الأمور لأنها تجعلك تتحملين الألم بصبر
وهدوء . ان الظروف مواتية لتخفّين من مرارة قلبك وتقادي لأوامر عقلك .. فطالعة الكتب المقدسة مفيدة
لك في مثل هذه الظروف التعيسة ... أحرّضك بأن تهتمّي بألمك التي أثقلتها الشيخوخة وبابتك التي ما تزال
شابة قاصرة وانت أصبحت الآن سندها الوحيد . كوني قدوة صالحة لبقية النساء ... ان أولادك يبقون
الصورة الحية للذي تبكينه ، فليكن اعتناؤك بتربيتهم حسناً ، وفي ما تبقى من وقتك اعلمي لتكوني مرضية أمام
الله ، ناظرة بأعين الرجاء إلى تلك المكافآت السماوية التي وعد الله تعالى بها الصابرين على المضايق حتى
النهاية » .

إنَّ موهبة القديس باسيليوس الخطيبيَّة ولهجته المؤثرة تتجلَّيان بأروع بيان في مثل هذه الرسائل التي تمَّ عن خيال واسع وفكر خلاق فتسرُّ أغوار الحياة البشريَّة وتغوص في أعماق الكيان الإنساني لتستنبط المعاني وتخرج أرق العبارات وأشدَّها تأثيراً في النفوس ، يحثُّه في ذلك عاطفة أبوية وحنان يفوق كل وصف . وها هو يكتب إلى والد فقد ولده يعزيه فيقول : « هل من حاجة لأقول لك كم ذرفت من الدموع وأصعدت من الزفرات المؤلمة . من يقدر أن يكون غريباً عن هذه الفاجعة ولا ينشق قلبه حزناً ولوعة ... ولكن إذا شئنا أن نبكيه كما يليق فليس الزمان الحاضر يكافٍ لذلك . ولو تحوَّلت مياه الأنهر كلَّها إلى دموع ، لما ظننت أنها كافية لتدليل كبير حزننا عليه ... ولكن ماذا يفيد البكاء . لتأمل أيها العزيز بأحكام الله تعالى ونرضخ لإرادته القدوسة ، واعتبر ابنك لم يمت وانما انتقل إلى حياة أخرى جديدة .. فكن صبوراً واقتدِ انت بطهارة نفسه لتستحقَّ بها أن تكون ابناً ليسوع المسيح » .

نستنتج من خلال كل هذه الرسائل أنَّ القديس باسيليوس لم يكن أبداً غريباً عن واقع رعيته ؛ فكان الأب الحنون المطلع تمام الإطلاع على مشاكل بنيه وصعوبات حياتهم .

٣ - التعليم الإفخارستي

كتب القديس باسيليوس رسائل كثيرة يشرح فيها ويفسِّر مسائل ومشاكل العقيدة المسيحية . خصوصاً كتب عن الثالوث الأقدس ، وعن الإيمان النيقاوي ، وعن مساواة الآب لابن الروح القدس في الجوهر والطبيعة . وكان في هذا كله يدحض هرطقة بعض الخارجين عن الكنيسة مثل الآريوسيين والإفنوميين والصابليين والأبوليناريين . فقط نريد أن ننوِّه إلى رسالة مهمَّة عن سرِّ القربان المقدَّس ، كتبها إلى الشريفة سيزاريا سنة ٣٧٢ . أنَّ هذه الوثيقة تشهد أنَّ الكنيسة كانت تسمح بحفظ القربان المقدَّس في البيوت لأجل المناولة اليومية . كتب القديس : « إنَّه لجميل ومفيد تناول القربان المقدَّس كل يوم ، فقد قال يسوع في الإنجيل : من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية (يوحنا ٦/٥٤) ، أنَّا ، نحن في كنيسة قيصرية نتناول أربع مرات في الأسبوع ، في يوم الرب (الأحد) وفي أيام الأربعاء والجمعة والسبت ، وفي كلِّ يوم يكون فيه ذكر لقديس . ولا ضرورة لأشرح بأنَّ المسيحي ، في وقت الإضطهاد يمكنه أن يأخذ المناولة بنفسه ، دون حضور كاهن . فهذا ليس إهانة للقربان المقدَّس ، ولا مخالفة لأوامر الكنيسة ، فقد أقرَّ التقليد العام هذه الممارسة . فنرى أنَّ المتوحِّدين ، الذين يعيشون في البراري يتناولون القربان المقدَّس بأيديهم ، ويحتفظون بالقربان في صوامعهم ومناسكهم . وفي الإسكندرية ، وفي مصر أيضاً كان بعض الأتقياء يحتفظون بالقربان المقدَّس في بيوتهم ثم يتناولونه عند الحاجة ، أو يوزِّعونه على من يطلبه لسبب شرعي . ولا عبرة لقول البعض أنَّ موزع القربان يختلف عن مقدِّم الذبيحة ؛ فهذا ليس بأمر مهم ، لأنَّ القربانة تحتفظ بقوَّتها الروحية ، وبعمقها الكثيرة حتى حين لا يوزِّعها الكاهن نفسه الذي قدَّم الذبيحة ... » .

لم يتكلم القديس باسيليوس مراراً وبإسهاب عن سرّ الإفخارستيا لأن الشعب في زمانه كان يتقبّل هذا السرّ بسهولة ، ويرضى بغوامضه ، ولا يستنكف من تناول المتواتر ، ولا يعترض على شيء يخص حضور المسيح الحقيقي في هذا السر. ومثلاً لأنجد في تاريخ الكنيسة ، في القرن الرابع بدعة تتعرض لهذا السرّ وتناول صعوباته الجمة . فالإيمان بهذا السرّ كان عاماً وبسيطاً . إننا نرى القديس يؤكّد في رسائله بأن المناولة المتواترة كانت شائعة في قيصرية الكبادوك ، وأنه أصلح بعض الأمور في الليتورجيا التي كانت تستعمل في عهده : «إنّه حسن ونافع ان يتناول الإنسان كل يوم ، أو مراراً كثيرة في حياته ، لأن المسيح قال في الإنجيل : «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله الحياة الأبدية» . ويعطي مثلاً على هذه المناولة المتواترة ما يجري في كنيسة الكبادوك . وقد أصلح الليتورجيا لأنها كانت تسبّب أحياناً السأم والملل...» .

وفي رسائله الكثيرة يشدّد القديس على الشروط الثلاثة التي ذكرت في الآيات الكريمة . من يأكل جسد الرب ويشرب دمه وهو على خلاف الاستحقاق إنما يأكل ويشرب دينونة لنفسه إذ لم يميّز جسد الرب . (١ كور ١١/٢٩) ، «وهذا هو جسدي الذي يبذل لأجلكم اصنعوا هذا لذكري (لوقا ٢٢/١٩) و«انّ محبة الله تحنّنا» . (٢ كور ٥/١٤) وهذه الشروط الثلاث هي التي ذكرها في الليتورجيا التي أصلحها عندما يضع في فم الشماس هذا النداء للمؤمنين : «بمخافة الله وإيمان ومحبة تقدّموا» . وقد حلّ القديس مشكلة الشركة في تناول جسد ودم الرب . فقد تساءل البعض في عهد القديس هل الذي يتناول بيده يشترك مع الكاهن الذي قدّس سابقاً القرايين ، فيقول القديس في إحدى رسائله «ان من يتقبّل القربان بعد أن ينهي الكاهن تقديم الذبيحة ، يشترك معه ، رغم انه لم يتناول من يده» .

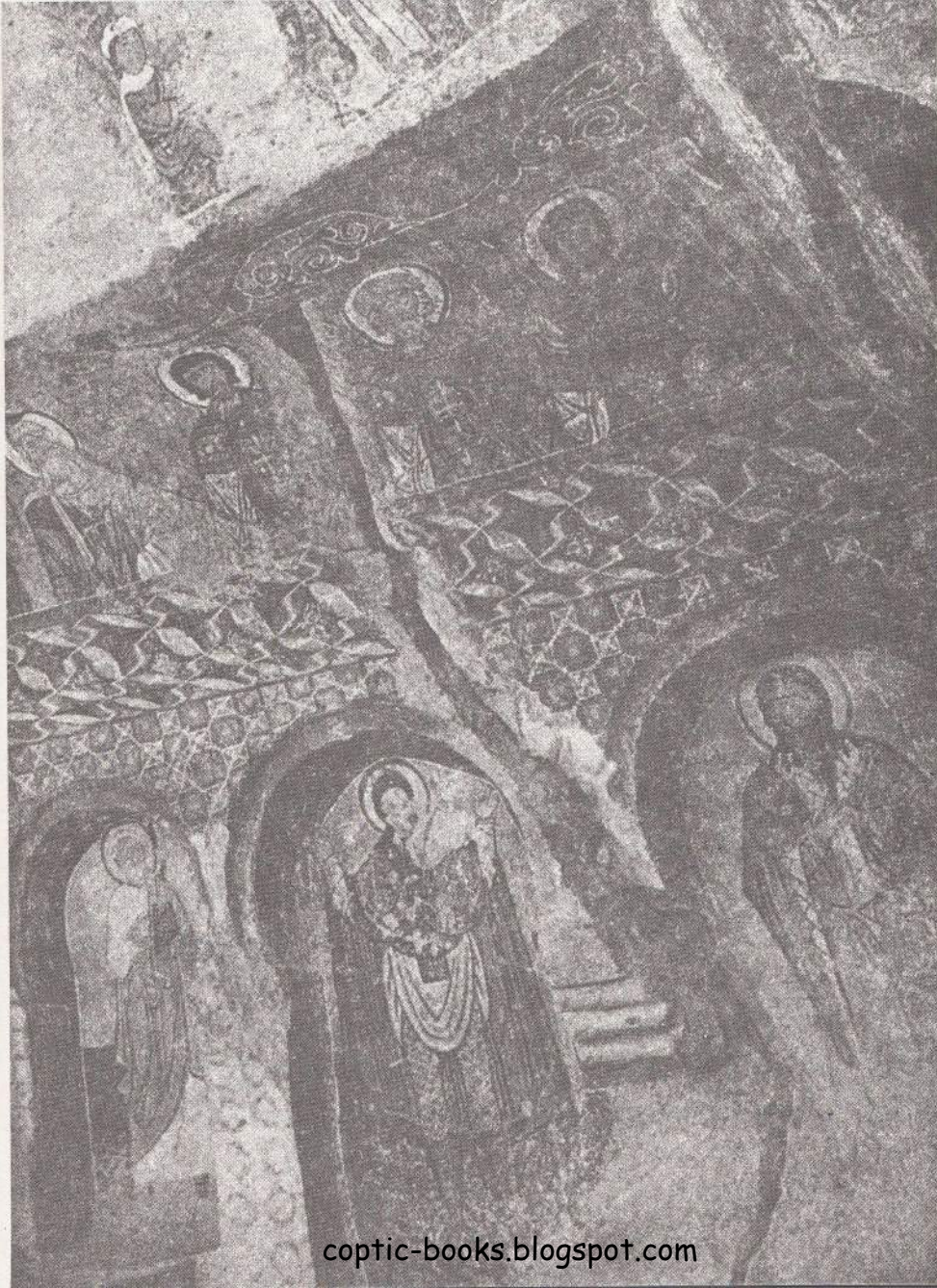
يتميّز تعليم القديس باسيليوس عن الافخارستيا بالحرص على التمسك الشديد بالتعليم السيدي الوارد في الإنجيل ، وعلى تقليد الكنيسة المقدّسة . فاعلمه المسيح في الإنجيل ، وما قبلته الكنيسة دوماً عن سرّ الافخارستيا يجب الإيمان به ، وقبوله مثل حقيقة أكيدة رغم ان الطبيعة البشرية قد تستعصب قبوله ولا بدّ ، كما قال القديس في رسائله من الإيمان بأن كل كلمة إلهية ، واردة في الإنجيل هي صحيحة ، وبين هذه الكلمات «إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فلا حياة لكم في ذواتكم» .

* * *

توفي القديس باسيليوس الكبير ، وهو في التاسعة والأربعين من عمره ، في أول كانون الثاني سنة ٣٧٩ . والكنيسة الشرقية تحتفل بتذكّره في أول كانون الثاني من كل سنة ، لأنها تعتبره

قديسها الكبير. فهذا الاحتفال كل سنة بعيد هذا الملفان ، والاحتفال أيضاً بذكرى مرور الف وستمائة سنة على وفاته ، هي لكل المسيحيين ، وخصوصاً لأولاده الرهبان الباسيليين في كل مكان الهام ، ووحى ، ودعوة إلى اقتفاء آثاره والنسج على منواله .

إحدى قاعات الأديرة التي نحتها في الصخر رهبان القديس باسيليوس الكبير



البحث السابع القديس باسيليوس الكبير في المخطوطات العربية

الأب الياس كويتر المخلصي

لا تزال في العيد المئوي السادس عشر لوفاة القديس باسيليوس الكبير. ولا يزال الاخصائيون يتبارون في نشر ماثر هذا القديس العظيم وفي تبيان ما حققه في حياته القصيرة من أعمال عادت بأعظم النفع على الكنيسة جمعاء. وقد وضح من خلال الدروس الكثيرة والمقالات والمؤتمرات التي التأمّت في هذه المناسبة ان هذا القديس هو بالحقيقة مصباح أشرق في سماء الكنيسة الشرقية ، وانه قاعدة تثبتت عليها كنيسة المسيح ، وانه رجل من رجالات المسيحية العظام ، يمكن ان يكون في كل جبل وبلد مشكاة لكل العاملين لانتشار الإنجيل وتثبيت قواعد ملكوت المسيح على هذه الأرض .

ان القديس باسيليوس كان عظيم التأثير في عصره وفي كلّ العصور. فكلماته لا تزال تتردّد حاملة بين تضاعفها فوح التقليد الرسولي وصدى أصوات آباء الكنيسة الأولين ؛ ولا يزال تعليمه ينير كل نفس ظامئة إلى الحقيقة ؛ ولا تزال حياته منارة يستهدي بأنوارها كلّ من رغب في الحياة الفضلى . والقديس باسيليوس اذ أصلح الحياة الرهبانية في الشرق ووجهها التوجيه الصحيح جعل الرهبان الشرقيين كلّهم تقريباً من تّباعه وناشري أفكاره ونهجه . فنستطيع ، بعد كل هذا أن نقول أنّ القديس باسيليوس هو من القديسين العظام الذين طبعوا بطابعهم المميّز الحياة المسيحية والرهبانية في الكنيسة الشرقية والغربية معاً .

ان أكّداس كتب القديس المنشورة وشروحها وترجمتها لدليل واضح على تأثير هذا الملفان اليوناني على التراث الكنسي . ونريد في هذه العجالة ان نستعرض مؤلفات

القديس باسيليوس في المخطوطات العربية ، خصوصاً أنّ الرهبانيات الملكية والشرقية كلّها التي عاشت وتعيش في المحيط العربي تتبع كلّها قوانينه وتسترشد بنور تعاليمه .

هذا البحث توخى فقط سرد أسماء المخطوطات العربية الباسيلية وبعض أسماء مترجميها ومصادرهما وأماكن حفظها . لكن ليس هذا هو المهم . إذ لا بدّ من درس هذه اللائحة بتبصّر علمي وتاريخي ، وتمحيص مضمونها ، وكشف مصادر ترجمتها وأسماء المترجمين لها . وسيكون هذا موضوع درس تحليلي نرجو القيام به قريباً . اننا نعتبر هذه اللائحة قاعدة تصلح لدرس تفاعل اللغة العربية مع اللغة اليونانية وتطوّرها ، وتصلح لدرس مصادر الترجمة وأصحابها ، كما تصلح لرؤية تأثير القديس باسيليوس وسائر الآباء الشرقيين على الأدب النصراني في الشرق . وهذا موضوع طرّقه كثيرون من الاختصاصيين ، لكن ليس في إطار ترجمات القديس باسيليوس . ولنلمح هنا باختصار إلى أنّ القديس باسيليوس أثّر كثيراً على الرهبان الشرقيين الملكيين . وهؤلاء ، بدورهم كما اشتهر في تاريخ النهضة العربية ، وخصوصاً ، اللبنانية ، أثّروا كثيراً على مسيرتها وتركيزها ، إذ كان البعض منهم من روادها الميامين .

يعذرنا القارئ إذ لم نتمكن من إحصاء كل مخطوطات القديس باسيليوس العربية . فهذه مهمة تستلزم أسفاراً ومراجعات في فهارس لم نتمكن من الوصول إليها بسبب الأحداث الراهنة . لكننا في يقين ثابت أنّ المخطوطات الغائبة تشبه التي ذكرت في هذا البحث ، وترجمتها هي الترجمة ذاتها . وهذا ليس عقبةً للباحث المتبصّر . ونظنّ أنّ هذا القدر من المخطوطات يكفي للخوض في أبحاث كثيرة ، كما ذكرنا سابقاً . إنّما نشدّد على ضرورة كشف مساهمة المسيحيين الملكيين في بعث اللغة العربية ونهضتها وتركيزها ، ومساهمة الرهبانيات الملكية وأفرادها ومؤسساتها في هذا السعي الحميد ، وضرورة تكلمة المسيحيين والرهبان لهذه المسيرة التي هي تقليد وتراث ونهج .

١ - المخطوطات العربية لكتبة النصرانية

نشر فهرس «المخطوطات العربية لكتبة النصرانية» الأب لويس شيخو اليسوعي ^(١) . ونقل عنه أسماء المخطوطات العربية التي تخصّ من قريب أو بعيد القديس باسيليوس .

١ - كتاب الاكساميرون

وهو تفسير ستة أيام الخليقة. منه نسختان في المكتبة الشرقية. وهو في تسع مقالات و١٢١ فصلاً. عرّبه عبدالله بن الفضل الانطاكي في سنة ٦٥٦٠ للعالم (١٠٥٢م). وعلى إحدى النسخين شروح لعبد الله المذكور. ومن هذا الكتاب نسخ أخرى في مكتبة الفاتيكان، وفي مكتبة باريس (Ms. Ar. 134)، وفي مكتبة الموارنة في حلب وفي دير الناعمة للرهبان البلديين وعند الأب جرجس شلحت في حلب.

٢ - قوانين مار باسيليوس

منها عدة نسخ مخطوطة في مكتبة باريس (Mss. Paris 234, 235, 238, 251) وفي مكتبة الروم في القدس (٥٦٤). وهذه القوانين على صنفين: القوانين المنتشرة أي الواسعة في عدد خمسة وخمسين قانوناً. والقوانين المختصرة وهي ٣١٣ على طريق السؤال والجواب. وقد طبع القسمان في رومية سنة ١٧٤٥. وقرأنا في تاريخ قسطنطين طرابلسي ان معرّب هذه القوانين هو القس تاوفيلس فارس الراهب الحلبي الرومي الكاثوليكي. ولعلّه نقّح ما سبق تعريبه لأيي الفضل الأنطاكي.

٣ - نسكيات مار باسيليوس

هي ٣٢ رأساً في الآداب الرهبانية وتصرف النساك. منه في المكتبة الشرقية نسختان.

٤ - كتاب ترتيب وقوانين الرهبان النساك

وهو أسئلة وأجوبة. في المكتبة الشرقية منه نسخة مكتوبة بالكرشوني تاريخها سنة ١٦٩٦م تبلغ ٢٣٩ صفحة بحقلين.

٥ - كتاب صلاح الحكيم وفساد الذميمة

عرب هذا الكتاب البطريرك اثناسيوس دباس. يوجد نسخة منه في مكتبة القس بولس سباط (ROC, XIV. p.352) وفي مكتبة الموارنة في حلب وفيها يقال ان المطران جرمانس فرحات أصلح تعريبه وكتبه القس عبد المسيح الحلبي الماروني سنة ١٧٣٠. ويوجد نسخة منه في دير الشرفة.

٦ - مسائل باسيليوس و غريغوريوس

وهي نحو مائة مسألة في أمور روحية يلقي بعضها القديس غريغوريوس التريزي على القديس باسيليوس فيجيب عنها. وكذلك يسأل باسيليوس عن غيرها فيجيب غريغوريوس. منه نسخة في مكتبة الكلدان في ماردين بالكرشوني. وعنها نقلت نسخة المكتبة الشرقية سنة ١٨٩٧. وفي مكتبة باريس (Ms. 213)، نسخة أخرى. وقد دخلت نسخة جديدة من أجوبة القديس على مسائل القديس غريغوريوس التريزي في المكتبة الشرقية.

ميامر القديس باسيليوس

وفي جملتها مقالته في قراءة الكتب الوثنية. في المكتبة الفاتيكانية (١٤٨٤) وفي المكتبة الشرقية ميامر متفرقة منه. وفي مكتبة باريس (Ms. 258) مديحه للأربعين شهيداً.

٨ - ليتورجيا القديس باسيليوس

منها نسخ مختلفة في مكتبي الموارنة والروم الكاثوليك في حلب، وفي المكتبة البطريركية الأرثوذكسية في دمشق، وفي القدس في مكتبة القبر المقدس. وهي تابعة لليتورجية القديس يوحنا فم الذهب. وفي المكتبة الشرقية، في بعض مجاميعها عجائب مار باسيليوس وسيرته المنسوبة إلى تلميذه القديس امفيلوشوس.

٩ - مديح الاربعين شهيداً

بين ميامر القديس باسيليوس ميمر في مديح الأربعين شهيداً الذين استشهدوا في مدينة سبسطية. في مكتبة باريس نسخة عن هذا الميمر. (Ms. 258)

٢ - مخطوطات المكتبة الشرقية اليسوعية

نشر الأب لويس شيخو لأتحة كاملة عن مخطوطات المكتبة الشرقية التابعة للجامعة

باسيليوس في المخطوطات العربية ٢٠٩

اليسوعية في بيروت (٢). وكذلك أكمل هذا الكتاب بالعنوان ذاته الأب عبدو خليفة اليسوعي (٣). من هذين الكتابين نأخذ العناوين التالية:

١ - تفسير سفر التكوين للقديس باسيليوس

هذا المخطوط لا يحوي الا شرح الفصل الأول من سفر التكوين. ولا يذكر فيه لا اسم المترجم ولا تاريخ الترجمة. اشترى هذا المخطوط للمكتبة الشرقية في حلب سنة ١٩١٤. رقم المخطوط ٤٤٤. من القرن التاسع عشر.

٢ - نسكيات القديس باسيليوس

هذا المخطوط يحوي على ترجمة قوانين القديس باسيليوس التي وردت في (Migne P.G. 31) في ثلاثين فصلاً. (ص ١-٩٤) ويظن أن ترجمتها هي لابن الفضل، وهي لا تتوافق مع النص اليوناني، سواء في ترتيب الفصول وسواء في تفصيلها. من القرن التاسع عشر. رقم ٤٨١.

٣ - عجائب القديس باسيليوس

هذا المخطوط يحوي على ٤٩ عظة للقديس يوحنا الذهبي الفم. ويحوي أيضاً عجائب القديس باسيليوس وهي أربع عشرة (ص ٢٣٩-٢٨٩). اشترى للمكتبة الشرقية سنة ١٩٠٩. هو من القرن الخامس عشر. رقم المخطوط ٤٧٤.

٤ - قوانين القديس باسيليوس

في هذا المخطوط، نجد القوانين المطوّلة والمختصرة للقديس باسيليوس (ص ١٠-٢٣٨) وهذه الترجمة تختلف عن النص اليوناني. وهي بقلم الأب تيوفيل فارس، وقد طبعت في روما سنة ١٧٤٥. وقد نسخت في نيسان سنة ١٦٩٥. من القرن السابع عشر. رقم ٤٨٢.

٥ - تفسير ستة أيام الخلق

هذا ترجمة كتاب القديس المشهور وهو في ٩ فصول. ترجمه إلى العربية عبدالله ابن

٢١٠ _____ القسم ٢/البحث ٧

الفضل سنة ١٠٥٢. وزاد المترجم على النصّ اليوناني شروحات كثيرة. ويعقبه ترجمة كتاب القديس غريغوريوس أسقف نيصص عن ستة أيام الخليقة أيضاً. من القرن الثامن عشر، رقم ٤٧٩.

٥ أيضاً - تفسير ستة أيام الخليقة

في هذا المخطوط نجد تفسير القديس باسيليوس لستة أيام الخليقة. (ص ١-١٨٨) ينقص هذا التفسير شروحات ابن الفضل. ويعقب كتاب القديس باسيليوس كتاب أخيه القديس غريغوريوس النيصصي عن خلق الإنسان وعن تفسير أيام الخليقة. من القرن التاسع عشر رقم ٤٨٠.

٦ - ميمر في الأربعين شهيداً

هو جزء من مخطوط بعنوان ميامر وبعض أخبار. وهو يحوي مواعظ وقراءات تتوافق مع أعياد السنة الكنسية. يرجّح انه ترجمة عبدالله بن الفضل. في صفحة ٥٦٣ نجد ميمراً للقديس باسيليوس الكبير في مديح الأربعين شهيداً. اشترى في حمص سنة ١٩٠٣. هو من القرن السادس عشر. رقم ٥١٢.

٧ - اربعة وعشرون ميمراً من ميامر الآباء القديسين

يحوي هذا المخطوط أربعاً وعشرين ميمراً دينياً للقديسين يوحنا الذهبي الفم وغريغوريوس وباسيليوس وايفانوس وكيرلس الإسكندري وافرام واسحاق النينوي. اشترى في بيروت سنة ١٩١٢. رقم ٥١٣.

٨ - ميامر مار اسحاق

هذا المخطوط يحوي على ميامر ورسائل لاسحاق النينوي. ومن صفحة ٤١١-٤٨٤ يحوي على نسكيات للقديسين غريغوريوس ويوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير ومكاروس. هو من سنة ١٥٥٢. اشترى في بيروت ١٩١٢. رقم ٥٠٦.

٩ - كتاب مجموع قوانين الرسل المقدسين والمجامع المقدسة المسكونية والمكانية

يحتوي على مجموعة قوانين كنسية. ينتحل الكتاب له، البطريك سلفستروس القبرصي، إنما هو لالياس بن فخر. بين القوانين التي وردت في هذا المخطوط قوانين القديس باسيليوس (٢١٣-٢٤٣). يرتقي إلى سنة ١٧٥١. وقد اشترى في بيروت سنة ١٩١٣. رقم المخطوط ٥١٧.

١٠ - ميامر للآباء القديسين

يحتوي هذا المخطوط على ٣٠ ميمراً لأهم الأعياد المسيحية. وهي للقديسين اليونانيين يوحنا الذهبي الفم، وغريغوريوس التريزي، وباسيليوس الكبير، وايفانوس، واثناسيوس، وكيرلس الاورشليمي وكيرلس الإسكندري، ولبعض القديسين السريان والأقباط كالقديس افرام، ويوحنا السروجي وبولس البوشي. هو من سنة ١٧٤٠ اشترى في مدينة ماردين سنة ١٨٩٥. رقم المخطوط ٥٠٩.

١١ - مجموع من أقوال الآباء الأبرار ومعلمي الكنيسة

يحتوي هذا المخطوط على ٥٣ موعظة تتناسب مع الاحتفالات الطقسية البيزنطية. وهي في أكثرها للآباء اليونان ومنهم القديس باسيليوس الكبير. ونجد فيها بعض عظات لكتبة كنسيين مثل تيودورس أسقف حرّان واسحاق النينوي. هو من القرن الثامن عشر. اشترى في بيروت سنة ١٩٠٢. رقم المخطوط ٥١٠.

١٢ - كتاب أصول الدين للجاثليق إيليا الثاني

هو مجموعة كتب دينية مختلفة. نجد في الجزء العاشر منه اسئلة طرحها القديس غريغوريوس على القديس باسيليوس الكبير. رقم المخطوط ٥٦٣. هو من القرن التاسع عشر.

١٣ - قصص وأخبار الآباء القديسين

يحتوي هذا المخطوط على سير بعض القديسين، منهم الكسيوس رجل الله، والقديسين

كيريكس وبوليطا أمه، والقديس بنديمون، وغيرهم. ويحوي أيضاً على عجائب القديس باسيليوس (١٨٣-١٩٣). هو من سنة ١٦٧٧ واشتري في ماردين ١٨٩٥. رقم ٦١٥.

١٤ - أخبار ستة قديسين

هذا المخطوط يقصّ سير بعض القديسين مثل القديس افيموس وباسيليوس الكبير بقلم تلميذه البار ايلاريوس من أجل أخاه بطرس. من القرن السابع عشر. اشتري من مكتبة جبرائيل دلال في بيروت سنة ١٩٠٥. رقم ٦١٦.

١٥ - كتاب ليتورجيات

يحوي هذا الكتاب كتباً مختلفة من الطقس البيزنطي. ومنها قدّاس القديس باسيليوس (١٥٠-٢٢٩). وهو الكتاب المستعمل في كنيسة حلب للروم الملكيين. سنة ١٨١٧. رقم ٨٥٧، ٨٦٠، ٨٦٦، ٨٧٣، ٨٧٤، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧.

١٦ - من أقوال القديس باسيليوس

تجد من الصفحة ١٨٥ إلى ١٨٨ فقرات من أقوال القديس باسيليوس، من القرن الثامن عشر. ١٨٥٢، رقم ١٠٨١.

١٧ - من قوانين القديس باسيليوس

قانون الإخوة المبتدئين. رقم ١٠٩١.

١٨ - عجائب العذراء مريم

يحكي هذا الكتاب عن عجائب العذراء مريم، وعجائب القديس باسيليوس (١٤٦-٢١٠) سنة ١٧٢٦. رقم ١٠٩٤.

١٩ - مجموع

في هذا المخطوط نجد أبحاثاً كثيرة. منها قوانين للقديسين الرسل وباسيليوس وغيره،

٢١٣ _____ باسيليوس في المخطوطات العربية

وقانون القديس باسيليوس منقول عن ثلاث كتب. وعدة الجميع منها ثلثية وثلثة وثلثين قانوناً يأتي ذكرها. فالكتاب الأول منها مائتين وسبعين قانوناً؛ وأيضاً قوانين أخر عدتها أربعة عشر قانوناً؛ وقوانين أخرى للقديس نفسه. من القرن السادس عشر. رقم ١٣٩٩، ١٤٠٠.

٢٠ - مجموع

يحتوي هذا المخطوط على مقالات وصلوات مختلفة. نجد فيه خدمة القداس الإلهي للقديس باسيليوس، وأناشيد استقسامات للقديس باسيليوس الكبير يقالوا على المصابين من الشياطين ولكل مرض. القرن السابع عشر. رقم ١٤٠٤ و ١٤٠٦ (عربي-سرياني) من سنة ١٦٥٥.

٢١ - أسئلة غريغوريوس وأجوبة باسيليوس

يحتوي هذا المخطوط من صفحة ١-٩٠ على أسئلة القديس غريغوريوس وأجوبة القديس باسيليوس. حوالى سنة ١٨٢٧. رقم ١٤١٧.

٣ - مخطوطات دير البلمند

نشر فهرس مخطوطات دير البلمند، قرب طرابلس، الأبوان رشيد حدّاد وفاز فريجات المخلصيان سنة ١٩٧٠^(٤) ومنه نستقي المعلومات التالية:

١ - ليتورجيا القديس باسيليوس

في المخطوطات رقم ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، نجد نسخاً عن ليتورجيا القديس باسيليوس الكبير. وقد ترجمها عن النص اليوناني «بكل كدّ وتعَب، ملاتيوس كرمه مطران حلب سنة ١٦١٢» ونجد بينها نسخة لليتورجيا القديس طبة البطريك الانطاكي سلفسترس التي ظهرت في رومانيا سنة ١٧٤٥.

٢١٤ _____ القسم ٢/البحث ٧

٢ - ميامر مار اسحاق السرياني وميمر عن الزهد في العالم وفي الكمال

يلي ميامر القديس مار اسحاق ميمر للقديس باسيليوس الكبير عن الزهد في العالم ، وفي الكمال . هو ناقص الأخير . رقم المخطوط ١٢١ .

٣ - ميامر ومواعظ

في هذا المخطوط نجد ميمراً للقديس باسيليوس الكبير عن مدخل الصوم المقدس ، أعني يوم أحد مرفع الجبن . رقم المخطوط ١٢٥ .

٤ - عظة للقديس أوسابيوس - الفردوس العقلي

في آخر المخطوط نجد بعض أقوال للقديس باسيليوس الكبير . رقم المخطوط ١٣٠ .

٥ - مجموع

يحتوي هذا المجموع على مسایل القديسين غريغوريوس وباسيليوس . وعددها ٩٤ في أكثر من ٤٠ صفحة . رقم المخطوط ١٣١ .

٦ - مجموع

يحتوي هذا المجموع عجائب القديس باسيليوس . ويبلغ عددها العشرة . ينقصها الأعجوبة الأولى . رقم المخطوط ١٣٥ .

٧ - مجموع

يحتوي هذا المخطوط على ثلاثين ميمراً للقديس باسيليوس رئيس أساقفة قيسارية القبادوق . وهي النسكيات . رقم المخطوط ١٤٣ .

٨ - مجموع

في الجزء الثامن من هذه المجموعة نجد سيرة باسيليوس الكبير . كتبها ايلاريون تلميذه .

باسيليوس في المخطوطات العربية ٢١٥

وهي ناقصة في الأخير. لا يوجد منها سوى ١٢ رأساً في حوالي ٥٠ صفحة. رقم المخطوط ١٥٨.

٩ - مجموع

فيه عظة للقديس باسيليوس ، مطلعها : ينبغي للذي يقول « انه يتوب عن خطاياہ قد وقع فيها ». رقم المخطوط ١٥٩.

١٠ - مجموع

في الجزء الخامس نجد ميمراً للقديس باسيليوس الكبير عن يوم الأحد والجمعة ، وعن خروج النفس من الجسد. رقم المخطوط ١٦٠. عدد صفحاته ١٤.

٤ - مخطوطات مكتبة دير المخلص

بدأ بنشر لأتحة مخطوطات مكتبة دير المخلص الأب رشيد الحداد^(٥). وننقل أسماء المخطوطات التي تخص القديس باسيليوس في هذا الكتاب ، وأسماء المخطوطات التي لم ترد فيه.

١ - قصص وميامر من أخبار القديسين

يحتوي هذا المخطوط على حياة بعض القديسين وميامرهم. في الجزء ٢١ نجد إحدى عشرة أعجوبة للقديس باسيليوس. العجيبة الأولى في القسّ والمجدوم. نسخ في ٩ آذار سنة ١٧٩٣. رقم ٢٨.

٢ - تفسير ستة أيام الخليفة في خلق الإنسان

هذا تفسير القديس باسيليوس لستة أيام الخليفة في تسع ميامر. وقد زاد عليها المترجم وهو أبو الفتح عبدالله ابن الفضل الانطاكي شروحات مختلفة منفصلة عن تفسير

القديس . ونجد فيه هذه المقدمة : نقله من اللغة اليونانية والرومية إلى لغة الأعراب عبد الله ابن الفضل الأنطاكي لطلب الأجر والثواب وذلك في سنة ١٠٥٢ . رقم ١١٤ .

٣ - مختصر نسكيات القديس باسيليوس الكبير . وعجائبه .

مختصر مؤلفات القديس باسيليوس النسكية ، وهي أجوبة القديس على أسئلة الإخوة الرهبان . يتألف هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء ، الأول في ٢٨ ، والثاني في ١١ ، والثالث في ٨ فصلاً ، وكل منها يقسم إلى أسئلة . فالفصل الأخير مثلاً يحوي على ٦٠ سؤالاً . وقد نسخ في ١٣ ك ٢ سنة ١٧٤٠ ويتبعه عجائب القديس وعددها اثنتي عشرة أعجوبة . وهو ينسب خطأ للقديس ايلاريون تلميذ القديس باسيليوس . رقم المخطوط ١١٨ .

٤ - مجموع

يحوي هذا المخطوط على عدة كتب . في الجزء السابع نجد «معان نافعة للنفس» ويتبعها فقرات عن الثالوث الأقدس للقديس باسيليوس الكبير . من القرن الثامن عشر . رقم ١٧٣ .

٥ - روضة الفريد وسلوة الوحيد

هو مجموعة مواعظ . نجد في بدء المخطوط ثلاثة مواعظ للقديس باسيليوس عن تقديس يوم الأحد ويوم الجمعة وعن انفصال النفس عن الجسد ، ثم عدم جواز تناول دون اعتراف ؛ ثم أباطيل العالم وضرورة الخروج منها . من القرن التاسع عشر . رقم ١٨٢ .

٦ - تفسير ستة أيام الخليقة

هو للقديس باسيليوس ، والترجمة لعبد الله ابن الفضل . نسخ في ١٥ أيار سنة ١٨٣٣ . رقم ٢١٨ .

٧ - سيرة القديس باسيليوس الكبير

عربها عن الإيطالية الأب يوحنا عجيمي سنة ١٧٤٠ وكان النجاز من نسخها يوم

٣١ أيار سنة ١٧٤٢ م. رقم ٤٩٢.

٨ - تفسير ستة أيام الخليفة

هو للقديس باسيليوس وقد ترجمها عبدالله ابن الفضل ويقول في المقدمة انّ تفسير اليوم السادس أكمل شرحه أخو القديس باسيليوس ، أي القديس غريغوريوس أسقف نيصص.

الناسخ مجهول ، والمخطوط من القرن التاسع عشر. وهو نسخة ثانية عن المخطوط رقم ٢١٨ ونخط ناسخ آخر. رقم ٥٨٤.

٩ - سيرة القديس باسيليوس الكبير

عَرَّبها عن الإيطالية الشماس يوحنا عجيمي سنة ١٧٤٠ وهذا المخطوط هو نسخة ثانية عن المخطوط ٤٩٢. رقم ٦٣٦.

١٠ - تفسير السفر الثالث من التوراة

مخطوط بأربعة أقسام. القسم الأول بعنوان : تفسير السفر الثالث من التوراة ممّا فسّره القديس باسيليوس وترجمة النص تختلف عن ترجمة الشماس عبدالله الأنطاكي الدارجة. كتب هذا المخطوط بخط جميل الخطاط يواصف مطران قارا وأنجز نسخه في ٢٧ آب سنة ٧١٣٥ لآدم (١٦٢٧ م). رقم ٦٧٨.

١١ - قانون الإخوة المبتدئين المخلصين

مقتطف من كتاب الفرائض للقديس باسيليوس الكبير عدد القوانين ١٢ يليها خاتمة ، ثم فصل في المبتدئين ومعلمهم. رقم ٩٢٨.

١٢ - تأملات وأفاشين

القسم الأول : تأملات روحية لقوة النفس وإرشادها.

القسم الثاني : يتضمّن أفاشين استقسامات للقديس باسيليوس الكبير يقالوا على المصابين من الأرواح النجسة الشياطين وكل مرض .. رقم ٩٣٧ .

١٣ - الحاوي الكبير

تأليف البار نيفن القاطن في الجبل الأسود بقرب انطاكية وقد ترجم أحدهم . ويتضمّن أولاً ٦٣ مقالة موضوعها تلخيص نسكيات القديس باسيليوس الكبير والسلمي والباتريكون ، وأمثاله كثيرة . وهذا المخطوط من القرن السابع عشر أو الثامن عشر . رقمه ١١٩٨ .

١٤ - سيرة مار باسيليوس والقديس يوشافاط - وسفر طوبيا .

يتضمّن هذا المخطوط في قسمه الأوّل سيرة القديس باسيليوس الكبير . وقد نسخته الأخت خرستينا ب . م . من راهبات يسوع المخلص ، في دير سيّدة البشارة التابع لدير المخلص ، سنة ١٨٠٧ م رقم ١٢٠٦ .

١٥ - قوانين مار باسيليوس

١ - مخطوط رقم ١٢١٥ : كتاب القوانين الرهبانية المطوّلة . للقديس باسيليوس الكبير . وقد ترجمها من اليونانية الأب يوسف الشماس ب . م . ونسخها سنة ١٩٢٥ م .

٢ - مخطوط رقم ١٢١٦ : قوانين مار باسيليوس مختصرة ومنقولة من اليونانية إلى الإيطالية على يد الكردينال بيساريون . وقد ترجمها من الإيطالية الأب يوسف بابيلا سنة ١٧٢٧ بمساعدة المطران فينان . ثمّ نسخها في ٢٥ تشرين الأوّل سنة ١٧٣٩ في دير سيّدة الجبل بلا دنس بقرب دير المخلص .

٣ - مخطوط رقم ١٢١٧ : مختصر قانون القديس باسيليوس . اختصره الآباء المخلصيون وترجمت من اليونانية سنة ١٧٤١ م . « بكل استقامة كلمة فكلمة... » وأعيد نسخها سنة ١٨٥٧ م .

٤ - مخطوط رقم ١٢١٨ : قوانين مار باسيليوس . اختصرها ونقّحها الأسقف بيساريون (الكردينال) وتمّ نسخها سنة ١٧٣٧ م .

٥ - مخطوط رقم ١٢٢٠ : قوانين مار باسيليوس - فرياض المخلصين هذا المخطوط يمكن أن يكون أغلب الظن من القرن الثامن عشر.

١٦ - أخبار وعجائب قديسين

منها عجائب القديس باسيليوس الكبير. وقد نسخها الأخت سوسنا ب. م. دون أن يذكر تاريخ نسخها. رقم ١٥٤٠.

١٧ - مجموعة أخبار وحوادث

القسم الثاني من المخطوط يتضمن عجائب مار باسيليوس. وقد تملك هذا الكتاب الأخت ميلانه ب. م. ويمكن أن تكون هي التي نسخته في القرن الثامن عشر. رقم ١٥٥٠.

١٨ - أخبار قديسين وقديسات وميامر لقديسين

منها الفصل ١٢ تحت عنوان: من نسكيات القديس باسيليوس الكبير (صفحة ٩٧-١٠٤). وقد نسخ هذا المخطوط يعقوب ابن منصور الحداد قبل سنة ١٨٤٦ م. رقم ٢٣٦٣.

٥ - مخطوطات دير سيّدة البشارة للراهبات الباسيليّات الشويريّات

نشر فهرس مخطوطات دير سيّدة البشارة للراهبات الشويريّات في الذوق الأب فايز فريجات سنة ١٩٧١. وهذه عناوين المخطوطات التي تخص القديس باسيليوس الكبير فيه ^(٦).

١ - قانون رهباني

هو قانون رهباني أو فرائض في ثلاثة أجزاء. يلاحظ أن ما في هذا القانون الرهباني

٢٢٠ _____ القسم ٢/البحث ٧

مأخوذ عن قوانين القديس باسيليوس الكبير، الكبيرة والصغيرة. وفي عنوان كل رأس ذكر للموضوع الذي استقى منه الكلام. ويعتقد أن هذا هو قانون مجمع رهبان دير الشوير. ونظراً إلى قدم عهده، فانه جزيل القيمة. نسخ في ٤ تشرين الأول سنة ١٧٤٠. رقم ٦٧.

٢ - مجموع

في الجزء الثاني من هذا المجموع ميمر للقديس باسيليوس الكبير في شرف السيرة المنفردة. وهو تابع للقوانين المختصرة. رقم المخطوط ٦٨ وعدد صفحاته ١٣. وهو من القرن الثامن عشر.

٦ - مخطوطات دير الشرفة

نشر الأب اسحق أرملة السرياني كتاب «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» سنة ١٩٣٦. وعن هذا الكتاب ننقل ما يخص القديس باسيليوس الكبير^(٧).

١ - ليرجيّات

ورد في كتاب الليترجيّات هذا، ليرجية لمار باسيليوس القيصري. وقد ترجمها عن اليونانية الى السريانية فيلكسينس، ونسخها اسحاق ابن المقدسي سنة ١٥٥٤. رقم ٣/٢ ورقم ٣/١٥ و٣/٤٣.

٢ - كتاب التصحيح في آلام المسيح على الوجه الصحيح

هذا المخطوط له عنوان آخر وهو «فصول مختصرة في تثليث الاتحاد». لابن العسال سنة ٦٥٩. على أن مؤلف هذا الكتاب هو الصني أبو الفضائل ماجد وقد كتبه مؤلفه سنة ١٢٧٤. وهو منسوخ بالسريانية. وقد أورد المؤلف بعض أقوال من ملافة الروم واليونان ومنهم باسيليوس القيصري. + ٣٧٩ ... رقم ٩/٥.

٣ - أخبار موسى الكلم وغيرها

هذا المخطوط بعضه كرشوني وبعضه عربي. وهو مجموع من كتب شتى. في الجزء الخامس نجد: مسائل من كتاب المعلم والتلميذ من قول مار باسيليوس ومار غريغوريوس. وهي أسئلة وأجوبة بين القديسين. ١ تشرين ثاني ١٧٥٧. رقم ١١/١٤.

٤ - قوانين ومقالات روحية للربان

هذه المخطوطة السريانية، نسخ غريغوريوس عبدالله سطوف البطريك السرياني (١٩٠٦-١٩١٦) تتضمن نقلاً من القوانين الواجب ان يحفظها الرهبان. وأضيف إليها مقاله للقديس باسيليوس عن الصلاة. ٢٠/١٥.

٥ - صلاح الحكيم وفساد العالم الذميم

هو للقديس باسيليوس. نقله إلى العربية كيركيز أثناسيوس البطريك الأنطاكي سنة ١٧٠٥. وقد أصلح تعريبه المطران جرمانوس فرحات. رقم ٧/١٥.

٧ - مخطوطات القاهرة

نشر جورج كراف الاختصاصي المشهور فهرساً للمخطوطات العربية المسيحية في القاهرة^(٨). وعنه ننقل المعلومات التالية:

١ - نسكيات القديس باسيليوس

هو جزء من مخطوط يحوي صلوات مختلفة مقتطفة. الجزء الأول هو من نسكيات القديس باسيليوس والقديس اثناسيوس. من القرن الخامس عشر. رقم ٤٣٢.

٢ - نسكيات القديس باسيليوس

مخطوط يحوي على كتب نسكية. الجزء الثاني هو كتاب نسكيات القديس باسيليوس مع مقدمة مبتورة. ١٠ حزيران سنة ١٧٩٦. رقم ٤٨٤.

٣ - عظات على ستة أيام الخليقة

هذه العظات هي للقديسين باسيليوس وأخيه غريغوريوس أسقف مدينة نيصص. حسب المقدمة ، كتب القديس باسيليوس العظات عن الخمسة أيام الأولى ، والقديس غريغوريوس أسقف نيصص العظة عن اليوم السادس ؛ ثم أرسل الكتاب كله إلى شقيق القديسين بطرس. هو مترجم عن Migne . من القرن الثالث عشر. رقم ٣٥١.

٤ - عظات عن ستة أيام الخليقة

كالمخطوط السابق. من ٢٣ شباط سنة ١٧٩٨ . رقم ٣٨٠.

٥ - مجموعة مواعظ

مخطوط يحوي على مواعظ مختلفة. في الجزء الثاني نجد عظات عن الصوم المقدس لمعلمي الكنيسة. بين هذه المواعظ نجد البعض منها للقديس باسيليوس. من القرن السابع عشر. رقم ٣٤.

٦ - مجموعة مواعظ

مخطوط يحوي على مواعظ لأسبوع الآلام ولآحاد الفصح والعنصرة. نجد في الجزء الأول عظة للقديس باسيليوس عن كبرياء الشباب وضعف الشيخوخة. من ١٤ نيسان سنة ١٧٨٣. رقم المخطوط ٧٧.

٧ - مجموعة مواعظ للصيام

نجد في الجزء الثاني عشر عظة للقديس باسيليوس عن الإنسان الغني ولعازر الفقير، وهي لنهار الجمعة السابعة. من القرن الثامن عشر. رقم ٨٧.

٨ - مجموعة مواعظ

فيها نجد عظة للقديس باسيليوس عن ميلاد السيد المسيح. من القرن الرابع عشر. رقم ٩٥.

٩ - مجموع

في الجزء الثالث من هذه المجموعة من ص. ٢٤٩-٣٤٥ نجد ثلاثين عظة للقدّيس باسيليوس. من القرن الثالث عشر. رقم ٣٨٦.

١٠ - مجموعة مواعظ

في هذا المخطوط ثمانية عشرة عظة. ومنها للقدّيس باسيليوس الكبير. ٢٤ أيار سنة ١٧٨٢. رقم ٤٤٦.

١١ - مجموعة مواعظ

بينها نجد مواعظ للقدّيس باسيليوس عن التوبة، عن قصاص الرجل الغني وسعادة لعازر، عن نهار الجمعة السابع من الصوم؛ ونجد أيضاً مقتطفات من مؤلفات القدّيس. رقم ٤٥٣.

١٢ - مجموعة مواعظ

في الجزء الثاني من هذا المخطوط نجد عظة للقدّيس باسيليوس عن العذراء البتول ألقاها في الكنيسة التي بناها أنوميوس في شرقي قيصرية. من القرن الثالث عشر. رقم ٤٥٦.

١٣ - مجموعة مواعظ

في الجزء الثامن من هذا المخطوط يوجد ميمر للقدّيس باسيليوس في مديح العذراء مريم. ألقاه حين دشّن كنيستها في مدينة فيلي. من ٢٩ آب سنة ١٧٤١. رقم ٤٧١.

١٤ - ليتورجيات

في الجزء الأول نجد ليتورجيا للقدّيس باسيليوس حسب الطقس القبطي. من القرن الثالث عشر. نسخه ابراهيم ابن اسحاق القبطي، من أورشليم. رقم ٣٣.

١٥ - ليتورجيات

يدعى هذا الكتاب بالخلوجي ، وهو يحوي على ليتورجيا القديس باسيليوس في القبطي والعربي . من القرن الثامن عشر . رقم ٦٨٥ .

١٦ - مجموعة قوانين

هو مقتطفات من قوانين الرسل ، والقديس اكلمنضوس ، والقديس باسيليوس واييفانوس . من القرن الثامن عشر . رقم ٤٤٢ .

١٧ - مجموعة قوانين

في الجزء الثاني من هذا المخطوط الذي يحوي على مجموعة قوانين . نجد قوانين للقديس باسيليوس . من القرن الثامن عشر . رقم ٤٤٤ .

١٨ - مواعظ

هو مجموعة مواعظ لقديسين كثيرين . في الجزء الرابع نجد العظة التي ألقاها القديس باسيليوس عند تدشين كنيسة لمريم العذراء في مدينة فيلي . ١٨ آذار ١٦٩٣ . رقم ٤٤٥ .

١٩ - مجموع

الجزء الثاني هو العظة نفسها عن العذراء مريم التي ذكرت في رقم ١٨ . من القرن الثامن عشر . رقم ٦٥٦ .

٢٠ - مجموع

في الجزء الثامن العظة نفسها المذكورة أعلاه . من ٢٩ آب سنة ١٧٤١ . رقم ٤٧١ .

٢١ - مجموعة مواعظ

في الجزء الثامن من هذه المجموعة نجد ميمراً للقديس باسيليوس عن العذراء مريم

ألقاه في الكنيسة التي بناها أمونيوس في قيصرية ؛ ثم يذكر العجائب التي جرت في تلك الكنيسة المذكورة. ٢٦ تشرين ثاني سنة ١٧١٧. رقم ٥٦٤.

٢٢ - مديح القديس باسيليوس

في الجزء الثاني من هذا المخطوط نجد سرداً مفصلاً لعجائب القديس جاورجيوس منذ طفولته حتى استشهاده ، وفي حين تدشين الكنيسة المشيدة على اسمه في مدينة اللد. وقد ورد ذكر هذه العجائب في مواعظ الآباء القديسين ومنهم القديس باسيليوس الكبير. من القرن السابع عشر. رقم ٧١٥.

٢٣ - مجموعة

هو مجموعة مواعظ وعجائب. في الجزء الثالث نجد ميمراً للقديس باسيليوس في تدشين كنيسة للعدراء مريم بناها بروسيدوس في شرقي مدينة قيصرية وتبدأ هكذا : هلموا إليّ اليوم أيها الشعوب المحبين للسيد المسيح ... ١٠ تشرين أول ١٦٨٦. رقم ٧٢٠.

٢٤ - مجموعة كتب أدبية

أولها هو كتاب أسئلة وأجوبة القديسين باسيليوس وغريغوريوس. ٢٢ تموز ١٦٨٩. رقم ٣٤٤.

٢٥ - مجموعة

في الجزء الأول نجد كتاب أسئلة وأجوبة القديسين باسيليوس وغريغوريوس. من القرن الثامن عشر. رقم ٤٥٤.

٨ - مخطوطات مكتبة القبر المقدس في القدس

صدر فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة القبر المقدس التي تخص دير الروم العامر في القدس الشريف. وقد جمعه الشماس كلاوبا كيكيلدس مدير المكتبة. وطبع في القدس سنة ١٩٠١^(٩). وعنه نقل هذه المعلومات :

١ - كتاب الناموس

يحتوي على قوانين مختلفة. في الجزء الثامن والعشرين رسالة للقديس باسيليوس الكبير إلى امفيلوشيوس أسقف ايقونيون ، ثم رسالة أخرى ثانية قانونية للأسقف نفسه. نسخ سنة ١٨٦٦. رقم ١.

٢ - كتاب الناموس

هذا الكتاب يتضمن الأربعة عشر مجعاً بقوانينها ورسائلها وغيرها من قوانين باسيليوس وأبيفانوس والملوك ، وشرح الأمانة المستقيمة وايضاها. وقد تمّ نسخه ١٦٣٧ ورقم ١٢.

٣ - ليتورجيات

يحتوي هذا المخطوط خدمة القديس الإلهي ليوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وخدمة البروجيازمني. رقم ١٤.

٤ - مجموعة مواعظ

هو مجموعة مواعظ وأقوال لبعض القديسين. يقول يواكيم الذي نسخه. هذا الكتاب مختصر عن كتاب سرياني. ويستفاد من المقدمة ان مترجمه هو الشماس عبد الله بن الفضل الذي استند على كتب يونانية وعلى مجموع الصفي ابن أبي المفضل. نلاحظ فيه بعض مواعظ واسئلة للقديس باسيليوس منها: «كيف ينبغي للإنسان»... و«الصوم الحقيقي..» و«ان النصرى..» سنة ١٥٦٥. رقم ٢٤.

٥ - مجموعة مواعظ

هذا الكتاب يحتوي على عظات وأقوال لقديسين كثيرين ، وتفسير للمزامير التسعة الأولى. ونجد بعض عظات للقديس باسيليوس رئيس أساقفة قيصرية. نسخ ابراهيم الياس من بيت جالا سنة ١٣٦٩. رقم ٤٦.

٦ - قوانين القديس باسيليوس

كتاب قوانين القديس باسيليوس الكبير في النسك. كتب من اثناسيوس متروبوليت عكا سنة ١٨٢٥. رقم ٥٢.

٧ - الليتورجيات

كتاب خدمة القداس الشريف ليوحنا الذهبي الفم وللقديس باسيليوس. منسوخ ومقابل على أصله اليوناني بيد ملاتيوس مطران حلب سنة ١٦١٢. رقم ٨٤، ٩٥، ١٢٦ (سنة ١٦٥٣) ورقم ١٢٨ (سنة ١٦١٢) و١٣٧ (عربي وسرياني) و١٤٢ (سنة ١٦٦٣).

٩ - الفهرس للأب بولس سباط

هذا الفهرس هو لأخوة بأسماء المخطوطات التي اطلع عليها الأب بولس سباط^(١٠)، ولكنها ليست جزءاً من مكتبته المشهورة. وقد ورد ذكر القديس باسيليوس في المخطوطات التالية:

١ - كتاب ترتيب وقوانين الرهبان النسك

هو كتاب يحوي قوانين وأنظمة الرهبان والنسك. يخصّ ورثة مخائيل عبيدي - حلب. رقم ٧٢/٢٥٠.

٢ - مسائل وأجوبة بين باسيليوس الكبير وغريغوريوس التاولوغس

وهو اسئلة وأجوبة تبودلت بين القديسين باسيليوس الكبير، وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبي الفم. يخصّ ورثة عبدالله بردعجي. ٧٢/٢٥١ وكذلك ٤٣١/١٤٠ يخصّ ورثة قسطنطين انطاكي.

٣ - مسائل وأجوبة في بعض نصوص الإنجيل

هو مخطوط يحوي الأسئلة والأجوبة التي تبودلت بين القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس اللاهوتي بخصوص بعض نصوص انجيلية. يخصّ ورثة عبدالله بردغجي. رقم ٢٥٢/٧٢٠.

٤ - تعليم ومواعظ

هو يحوي على مواعظ رهبانية. يخصّ ورثة عبدالله بردغجي. رقم ٢٥٣/٧٢.

٥ - أدعية واستسقامات لباسيليوس الكبير ويوحنا فم الذهب

يحوي على صلوات واستسقامات تتلى على المعترين بالأرواح وعلى المرضى. يخصّ الخوري باسيل شمعاع وغيره، ٢٥٤/٧٢.

٦ - مديح للأربعين شهيداً

ميمر في مديح الأربعين شهيداً الذين ماتوا في سبسطية. يخصّ ورثة طوروس شدرقيان وكركور صايغ وغيرهما. رقم ٢٥٥/٧٢.

٧ - ميمران على مريم الخاطئة التي بكت عند رجلي الرب

ميمران للقديس عن مريم الزانية. يخصّ الشماس حبيب كلزي. رقم ٢٥٦/٧٢.

٨ - سيرة القديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس الثاولوغس ويوحنا فم الذهب وكيرلس الاسكندري

هذه السير كتبها أو ترجمها البطريك مكاريوس الحلبي ابن الزعيم. حوالي ١٦٧٢. يخصّ ورثة قسطنطين أنطاكي. رقم ١٠٥١/٤٢٦.

باسيليوس في المخطوطات العربية ٢٢٩

٩ - ميمر في مديح الحياة الرهبانية التي أسَّسها القديس انطونيوس لمار باسيليوس الكبير

وهي ترجمة المطران اغناطيوس جربوع مطران حلب على الروم الملكيين. (١٧٧٦) يخص الشماس عبدالله الأرمني. رقم ١٢٠٥/٤٨٠.

١٠ - كتاب صلاح الحكيم وفساد العالم الذميم

هو ترجمة البطريك اثناسيوس دباس. (+١٧٢٤) عن اليونانية. يخص جرجي عقاد. رقم ١٤٠٣/٥١٢.

١١ - ميمر على مريم الخاطئة

هو للقديس باسيليوس. ترجمة المطران ملاطيوس كرمة مطران حلب الذي أصبح بطريركاً باسم افثيموس (+١٦٣٧) يخص الخوري قسطنطين خضري. رقم ١٧٣٥/٦٤٤.

١٢ - خدمة القديس باسيليوس الكبير

ترجمة البطريك افثيموس كرمة. يخصّ الخوري مخايل شحور وغيره. رقم ١٧٤١/٦٤٤.

١٠ - فهرس مخطوطات الأب بولس سباط

نشر الأب بولس سباط السرياني الحلبي فهرساً لمخطوطاته^(١١). وهو يذكر القديس باسيليوس في المخطوطات الآتية :

١ - مجموعة

في الجزء السابع من هذه المجموعة نجد مواظ للقديس باسيليوس عن يوم الاثنين،

٢٣٠ _____ القسم ٢/البحث ٧

والاربعاء والجمعة من الأسبوع العظيم ، وموعظة عن انفصال النفس عن الجسد. نسخ
سنة ١٥٤٤. رقم ٢٦.

٢ - تراجم وميامر الالباء القديسين الأطهار

تقرأ طول السنة في الأعياد المورانية. في هذا المخطوط نجد ميمراً للقديس بمناسبة
ميلاد المسيح (الجزء السادس) وميمراً عن الغني والفقير لعازر (الجزء ٢٢) وعن أباطيل
العالم (الجزء ٢٧) نسخ سنة ١٧٠٧ من الشماس شكرالله بن مخائيل زنده. رقم ٣٨.

٣ - مجموعة

في الجزء الثاني ، نجد مقالة للقديس باسيليوس عن الثلاث الأقدس. نسخ ١٧٦٦.
رقم ٤٣.

٤ - مجموعة

في الجزء الرابع نجد أسئلة وأجوبة القديسين باسيليوس وغريغوريوس ويوحنا الذهبي
الفم. نسخ سنة ١٦٨٦. رقم ٤٩.

٥ - مجموعة

نجد في الجزء السابع والعشرين الأسئلة والأجوبة التي تبودلت بين القديسين
باسيليوس وغريغوريوس بخصوص بعض مشاكل في الانجيل. نسخه الشماس عيسى بن
شمعون من الجزيرة من دير مار بهنام سنة ١٤٤٠. رقم ١٢٥.

٦ - مجموعة

يحتوي هذا المخطوط في آخره على صلوات واستسقامات من القديس باسيليوس تتلى
على المرضى وعلى من اعتراهم الشيطان. من القرن الثامن عشر. رقم ١٥١.

٧ - مجموعة ليتورجيات

نجد في الجزء الثاني ليتورجيا القديس باسيليوس بالسرياني والكرشوني. من القرن السابع عشر. رقم ١٨١.

٨ - مجموعة

في الجزء الثالث نجد بعض فقرات من مؤلفات آباء الكنيسة للبرهان على أن القديسين لا يتمتعون بالسعادة السماوية قبل القيامة الأخيرة. من القرن الثامن عشر. رقم ٢٤٩.

٩ - مجموعة

يحتوي هذا المخطوط ، في الجزء الخامس منه على عجائب القديس باسيليوس الكبير. وهي ثلاثة عشر. لا يُذكر المؤلف ولا المترجم. من القرن الثامن عشر. رقم ٣٢٠.

١٠ - كتاب صلاح الحكيم وفساد العالم الذميم

هو كتاب للقديس باسيليوس يشرح فيه بطلان العالم وملذاته ويقود الإنسان إلى الطريق الصحيح في الحياة. وهو مقسوم إلى ثلاثة أجزاء. وقد ترجمه عن اليونانية البطريك اثناسيوس دباس بطريك انطاكية سنة ١٧٠٥ ، وقد راجعه ونقحه المطران جبرائيل فرحات مطران حلب الماروني. من القرن الثامن عشر. رقم ٣٣٧.

١١ - مؤلفات جبرائيل فرحات

كتاب يشرح فيه المؤلف الحياة الرهبانية ، ويلخص بعض قوانينها. في الجزء الثامن يختصر قوانين القديس باسيليوس عن الحياة الرهبانية. نسخ سنة ١٧٢٣. رقم ٣٤٦.

١٢ - خبر القديس أنطونيوس

ألف هذا الكتاب المطران اغناطيوس جريوع (+ ١٧٧٠) مستنداً على حياة القديس أنطونيوس للقديس اثناسيوس وصفرونيوس وغيرهما... في آخر الكتاب نجد ميمراً يمدح

٢٣٢ _____ القسم ٢/البحث ٧

فيه القديس باسيليوس الكبير القديس انطونيوس الكبير. من القرن الثامن عشر. رقم ٣٤٩.

١٣ - صلوات واستسقامات

هي للقديس باسيليوس تتلى على المرضى والمعتزين بالأرواح. من القرن الثامن عشر. رقم ٤٠٨.

١٤ - عجائب القديس باسيليوس

ذكرت في مخطوطات كثيرة. لا يذكر هذا الكتاب إلا اعجوبتين فقط. هذا الجزء الرابع من المخطوط وغيره مترجم عن السريانية. في سنة ١٥٣٩. رقم ٥٤٢.

١٥ - حياة الأربعين شهيداً

الجزء الرابع من هذا المخطوط يتضمن مديح الأربعين شهيداً للقديس باسيليوس الكبير، ويتلى في يوم عيدهم في ٩ آذار. من القرن السابع عشر. رقم ٦٧٢.

١٦ - حياة القديس باسيليوس.

هي بقلم تلميذ القديس ايلاريون. من القرن السابع عشر. رقم ٦٩٠.

١٧ - عظة عن التوبة والدينونة الأخيرة

وهذه تنسب للقديس باسيليوس الكبير. من القرن السادس عشر. رقم ٧٧٢.

١٨ - حياة القديس باسيليوس

في ١٤ فصلاً. من القرن السادس عشر. رقم ٧٧٥.

١٩ - مجموعة

في الجزء الأول نجد ميامر للقديس باسيليوس، وفي الجزء الرابع ميمراً عن الموت ويوم الجمعة العظيم. من القرن السابع عشر. رقم ٩٨٧.

٢٠ - تعليم ووعظ القديس باسيليوس

هذه هي الجزء الثالث من المخطوط. ويحوي تعليم ووعظ القديس باسيليوس (٣٤١-٣٨١) جزء كبير من هذا المخطوط الثمين هو من القرن الثامن عشر. رقم ١٠١٨.

٢١ - مجموعة

نجد فيها في الجزء الثاني أسئلة وأجوبة التي تبودلت بين القديسين باسيليوس وغيغوريوس. «المسألة الأولى أخبرني يا أخي أول الخليقة التي خلق الله إيش هي كانت...» وفي الجزء الخامس خطاب القديس باسيليوس عن العالم الزائل.. نسخه القس داود بحارة الروم بمصر سنة ١٧١٥. رقم ١٠٢٨.

٢٢ - ليتورجيات

كتاب ليتورجيات شامل يبدأ «عندما وقفت أنا الفقير ملاتيوس على النسخة العربية والسريانية وقابلتها على نسخة الأصل اليونانية والرومية..» من القرن السابع عشر. رقم ١٠٥٧.

٢٣ - مجموعة

في الجزء الخامس نجد «الاربعة شهداء بقلم القديس باسيليوس». من القرن السادس عشر. رقم ١١١٢.

٢٤ - مزامير داود

مرتبة حسب الطقس اليوناني. ويسبقها فقرات من مؤلفات القديسين غريغوريوس التالولوغس ويوحنا الذهبي الفم وباسيليوس. من القرن السادس عشر. رقم ١١٤١.

٢٥ - عجائب القديس باسيليوس

في الجزء التاسع من هذه المجموعة نجد ذكرًا لاعجوبتين فقط للقديس باسيليوس. الأولى صنعها من أجل أخيه بطرس أسقف مدينة سبسطية؛ والثانية من أجل الكنيسة التي أخذوها الأراقة في مدينة نيقية وردّها. نسخ هذا المخطوط الشماس موسى بن سيدهم الدمياطي سنة ١٧٣٧. رقم ١٢٨١.

١١ - المخطوطات في لبنان حسب فهرس الأب يوسف نصرالله

نشر الأب يوسف نصرالله فهرساً للمخطوطات العربية في لبنان. ولم يستطع زيارة واحصاء كل المخطوطات. وكتابه يحوي لائحة بالمخطوطات التي حقق فيها واطلع عليها فقط (١٢). ويذكر عن القديس باسيليوس ما يلي:

١ - مسایل باسيليوس وجرغوريوس

هو جزء من مخطوط، فيه أجوبة من القديسين باسيليوس وجرغوريوس على أسئلة بخصوص العقائد المسيحية والآداب الكنسية وممارسة الأسرار. مكتبة الآباء البولسيين. رقم ٣٦.

٢ - مجموع

مخطوط يحوي على مواعظ وأقوال مختلفة لبعض القديسين. ومنها صفحتان تبدأ بالقول: قال القديس باسيليوس ان النصارى قد منعوا عن محبة المجد الباطل. مكتبة مار عبدا هرايا. رقم ٧٥.

٣ - كتاب القديس باسيليوس النسكي

وهو جزء مختصر من نسكيات القديس باسيليوس الكبير رئيس أساقفة قيصرية الكبادوس. يتضمن أقوال مسایل وأجوبة سأل عنها الإخوة الرهبان المحبون لله. مكتبة دير البنات أو سيّدة المعونات. رقم ١٩.

٤ - تفسير ستة أيام الخليفة

هو ترجمة عبدالله ابن الفضل الأنطاكي لكتاب القديس باسيليوس المعروف. وقد ترجم سنة ١٠٥٢، وقد زاد المترجم بعض الشروحات على النص. نسخ قبل ١٧٥٦. مكتبة دير الشوير. رقم ٣٢٠.

٥ - كتاب تفسير ستة أيام الخليفة

كتاب كالسابق، مكتبة دير الشوير. رقم ٣٢٢.

٦ - مسائل باسيليوس وغريغوريوس

هو أجوبة القديسين المذكورين على أسئلة تبودلت بينهما عن الكتاب المقدس ،
والعقائد المسيحية والشؤون الليتورجية والتهديبية . ويظهر ان أول ترجمة كانت في اللغة
السريانية ثم ترجمت إلى العربية . ومجموع المسائل هي ١٥٢ ، أحياناً تختصر . وأحياناً
تكون كاملة . مكتبة دير الشوير . رقم ٣٣٠ وقد نشر هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٩٢٦
السيد جرجس يعقوب بعنوان «مسائل دينية قديمة» .

٧ - مجموع

يحتوي في الجزء الخامس ميمراً للقديس باسيليوس عن كلمة موسى : «يا بني انتبه
لنفسك» . وفي الجزء السادس ، مقتطفات من نساكيات القديس باسيليوس . مكتبة دير
الشوير . رقم ٣٤٧ .

٨ - مجموع

في الجزء الأول كتاب نساكيات أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير . وهو
مختصر لكتب القديس المختلفة : النساكيات والقوانين المختصرة والمطولة . مكتبة المطران
ايليا كرم . رقم ٤٣٣ .

٩ - الميناون

مخطوط ثمين ، نجد فيه بعض الطروباريات والقناديق الملكية في اللغة السريانية ، وفي
تضاعيفه نجد ميمر القديس باسيليوس عن الأربعين شهيداً . مكتبة المطران ايليا كرم . رقم
٤٣٦ .

١٠ - كتاب الكنوز العديدة

وهو يحتوي شروحات مختلفة لأهم الأعياد المسيحية . جزء كبير مترجم ، وجزء كبير هو
للبطريرك مكاريوس الحلبي . وفي آخر المخطوط ص . ١٦٨ - ١٧٨ نجد ملحفاً بعنوان :
مسائل وجوابات من القديسين باسيليوس وغريغوريوس . مكتبة اسكندر المملوك . رقم
١٣ .

١١ - المكتبة الوطنية في باريس

١ - مجموعة مقالات مسيحية

هو مجموعة مقالات مسيحية مختلفة. ويحوي على عظة للقديس باسيليوس الكبير عن الحبل بلا دنس ١١٩٩ هـ. رقم ٤٧٩٤.

٢ - مختصر قانون أبونا باسيليوس

هو قوانين القديس باسيليوس الكبير. ترجم من اليونانية إلى العربية لاستعمال الرهبان الكاثوليك الملكيين. ويعقبه قوانين خاصة لهؤلاء الرهبان. من القرن الثامن عشر. رقم ٥٠٧٦.

١٢ - المكتبة الامبروسية

في المكتبة الامبروسية في ميلانو مخطوط مهم هو «الميامر العربية» «Homélie Arabe». وقد درس هذا المخطوط الأب J. Sauget اختصاصي المكتبة الفاتيكانية المشهور، ونشر بحثه في مجلة Analecta Bollandina. ويتضح من هذا الدرس ان هذا المخطوط هو مجموعة ميامر لقديسين مختلفين تتلى على مدار السنة في الكنيسة الملكية الشرقية. وقد ترجم الى العربية من السريانية التي كانت اللغة الطقسية في الكنيسة الملكية حتى أواسط القرن السادس عشر. وهذا المخطوط هو مهم لأنه يحوي مواعظ كثيرة، لقديسين مختلفين، ومنهم القديس باسيليوس، ولأنه يظهر أن اللغة السريانية كانت شائعة في الكنيسة الملكية الأنطاكية، ولأنه يوضح تقدّم الترجمة العربية على مدى الزمان. فالترجمة العربية في هذا المخطوط هي ترجمة سقيمة الكلمات. وسقيمة التركيب كما يظهر في هذه الفقرة: «نبتدئ بعونة الله من الميامر الانذارية لسائر الأعياد السيادية والآحاد الرفاعية والصومية والذكارين القديسية، متوسّلين بالطاهرة الزكية البريّة من كل دنس وخطية.. ونذكر من قبال كل واحد من الأفاضل..».

خاتمة

ربما تعجب القارئ من هذا السرد المملّ للمخطوطات العربية الباسيلية. ونحن ندرك سرّ تعجّبه. ولكننا كما ألقينا، في بدء البحث أنّ هذا السرد انما هو قاعدة صالحة لدرس علمي مستفيض يتناول أموراً كثيرة. وهذا ما توخيناها أولاً وآخرًا. انما نستدرك لنقول ببساطة ان مخطوطات كثيرة ذكرت في هذا المقال ولم تذكر حتى في الفهارس المشهورة كفهرس Graff والأب لويس شيخو، بسبب ان بعض المكتبات في المشرق العربي تمتعت عن كشف لائحة المخطوطات فيها انما لتعتن المسؤولين عنها وانما لأن اللوائح العلمية لم تكن جاهزة بعد.

نقول أيضاً أنّ هذه الطريقة المتبعة ليست الفضلى. فكان يمكن الاختصار وتبويب المخطوطات الباسيلية في باب واحد، وفي فصل محدّد، مع ذكر اسماء المكتبات والمترجمين والأرقام وسائر المعلومات. لكننا آثرنا هذه الطريقة لشهر مراكز المخطوطات العربية ولتبيان المصادر المختلفة لمن يريد البحث، وللإعلان عن وفرة الدفائن الثمينة، ولكشف تعددية البحوث التي يمكن درسها والولوج فيها. ان الطريقة المثلى في نظرنا هي الطريقة الواضحة، والسهولة البسيطة.

انّ الأبحاث التي بدأها البعض للكشف عن مساهمة النصرانية في نهضة الأدب العربي يجب أن تستمر، حتى تبحث أصولها كلّها، وتدرس معالمها، وتحاط بكل جوانبها، وينظر في أسماء أعلامها، فتتكامل بذلك الصورة. انما لا بدّ من درس مساهمة الملكيين في هذا المجال. ففي هذا البحث المتواضع ظهرت بعض المعالم لهذه الدراسة، اذ كشفت اسماء أشهر المترجمين الملكيين للقديس باسيليوس، وأشهر ترجماهم. ونودّ مخلصين ان يعمل معنا الرهبان الباسيليون الملكيون حتى تشهر كنوز المكتبات الملكية والرهبانية الكاثوليكية، وهكذا تتكامل صورة الطائفة الملكية الشرقية التي منذ وجدت في الشرق أضاءت معرفة وحضارة.

مراجع

- (١) كتاب المخطوطات العربية لكتبة النصرية، الأب لويس شيخو اليسوعي، مطبعة الآباء اليسوعيين - ١٩٢٤.
- (٢) Catalogue Raisonné des Manuscrits de la bibliothèque orientale de l'Université St. Joseph - Beyrouth. للأب لويس شيخو اليسوعي. المطبعة اليسوعية - بيروت ١٩٢٢.
- (٣) Catalogue raisonné des manuscrits de la bibliothèque orientale de l'Université St. Joseph, Seconde Série. Ignace - Abdo Khalifé S.J. - 1951.
- (٤) فهرس مخطوطات دير البلمند. رشيد حداد وفايز فريجات، دار الكلمة - بيروت ١٩٧٠.
- (٥) فهرس مخطوطات دير المخلص، صيدا، الجزء الأول. الأب رشيد حداد المخلصي، دار الكلمة - بيروت ١٩٧١.
- (٦) فهرس مخطوطات دير سيّدة البشارة للراهبات الباسيلييات الشويريات في زوق مكابيل الأخ فايز فريجات، دار الكلمة - بيروت ١٩٧١.
- (٧) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة، الخورفسقفوس اسحق ارملة السرياني، جونية، مطبعة المرسلين اللبنانيين ١٩٣٦.
- (٨) Catalogue des manuscrits arabes chrétiens conservés au Caire. Georg Graff, Imp. Vaticane. 1934.
- (٩) برنامج كتب الخط العربية الموجودة في مكتبة القبر المقدس. جامعه الشماس كلاوباكيكيلدس، مدير المكتبة، مطبعة القبر المقدس ١٩٠١.
- (١٠) AL-FIHRIS, 3 parties, R.P. Paul Sbath, Le Caire 1938.
- (١١) الأب يوسف سباط. مكتبة مخطوطات الأب يوسف سباط في ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٢٨.
- (١٢) Catalogue des manuscrits du Liban, Joseph Nasrallah, 1958 4 Tomes.
- (١٣) Catalogue des manuscrits arabes, des nouvelles acquisitions (1884, 1924), Bibliothèque Nationale. E.Bloch. Paris - 1925.



«ان القديس باسيليوس هو رجل رصين، حكيم، متقشف حتى في الكلمة التي يقولها. هو رجل تأمل ملياً الإنجيل، فعرف أمراض الإنسان كلّها. هو المعلم الاكبر لقيادة النفوس».

FÉNELON, *Dialogues sur l'Eloquence*, III.

القِسْمُ الثَّالِثُ

مَوَاعِظُ الْقَدِيسِّ بَاسِيلْيُوسِ الْكَبِيرِ



صورة أبينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير

للقديس غريغوريوس النريزي

من الناس قوم برزوا في إحدى المناقب وآخرون في أحد أشكال الفضيلة وهي كثيرة ولكن ما من أحد بلغ إليها كلها في أكثر المحامد أو أدرك في المحمدة الواحدة شأواً بعيداً. أما باسيليوس فقد أتى على جميعها حتى أضحت مفعرة للطبيعة. فلنجل النظر في ذلك.

١ - فقره

من ذا يمدح تجرده وحياته الخالية من المقتنى ومن فضلات المعيشة. لعمري ماذا كان يمتلك ما خلا جسده والأغطية الضرورية لستر جسمه. غناه كان الاستغناء عن كل شيء والصليب وحده الذي رافقه وكان يحتسبه أثمن لديه من الأموال الوفرة. ليس بوسع إنسان، ولو شاء أن يحوز كل شيء ولكن بوسعه أن يتعلم ازدياء كل الخيرات فيظهر أعلى منها. ولما كان باسيليوس يعتقد ذلك ويجري عليه لم يكن بحاجة إلى أن يصعد على قاعدة من المجد الفارغ ولا أن ينادي على رؤوس الأشهاد: «إن أقرطيس هو الذي حرّر أقرطيس الثبي»^(١) إذ كان همه في أن يكون حقيقة لا أن يظهر فاضلاً. ولم يأو إلى برميل في منتصف الساحة حتى يتنعم بولائم الجميع متخذاً الفقر تجارة جديدة^(٢). ولكنه كان

(١) ان اقرطيس هذا كان فيلسوفاً من فئة الفلاسفة المعروفين بلقب «الكليين» وقد عاش في القرن الثالث للمسيح. يحكى عنه أنه لما ترك أمواله لينقطع إلى عيشة الفلسفة صعد على مكان مرتفع وصرخ متبهاً أمام الناس: «ان اقرطيس هو الذي حرّر أقرطيس الثبي» يعني أنه هو الذي حرّر نفسه من ربة الأموال.

(٢) كان ديوجينيس الفيلسوف يقطن في برميل في وسط ساحة المدينة لكي يستجلب أنظار الناس فتهاول عليه الصدقات الوفرة وهكذا كان يتصيد المال والغنى من طريق التظاهر بالفقر. وهو أشهر الفلاسفة الكليين عاش بين سنتي ٤١٤ - ٣٢٤ قبل المسيح.

فقيراً معوزاً وهو لا يرغب في الكرامة. ولما فضل اطراح كل الأشياء التي في حوزته جاز بخفة بحر هذه الحياة.

٢ - قناعته وامساكه

انه لأمر عجيب الامساك والاكتفاء باليسير وأن لا ينغلب المرء للمذاته ولا ينقاد لجوفه كما ينقاد لسيد عنيف وسافل. فمن كان أكثر اعراضاً عن الاعتناء من باسيليوس أو أهزل جسماً منه؟ ولست أغالي فانه ترك الشبع والامتلاء لفاقدي اللب وللذين حياتهم حيوانية منخفضة إلى الأرض. لم يكن يعتبر كثيراً كل أصناف الماكل التي لا فرق بينها عقيب مرورها في الحلق. بل كان يعيش بالقوت الضروري فقط على قدر ما يتيسر له. على انه قد عرف لذة واحدة وهي أن لا يظهر بمظهر المترفع وأن لا يفتقر في سبيل ذلك إلى حاجات كثيرة. بل كانت لذته أن يمتع النظر في الزنابق والطيور التي جمالها غير مصنع وطعامها قريب المتناول (متى ٦: ٢٦) وذلك تبعاً لمشورة مسيحي الذي افتقر لأجلنا بالجسد لكي نستغني نحن بلاهوته. لذلك كان يفتخر بثوبه الوحيد وعباءته الوحيدة وافتراشه الأرض وانقطاعه عن الاستحمام. ألد غذائه وعشائه كان الخبز والملح: وهذا لعمرى إدام جديد! ومشروبه الصرف الغزير ما تفيض به الينابيع للذين لا داء بهم. عن ذلك كانت تنشأ علاجاتنا وبه يقوم استشفائنا وفيه همّ كلينا. إذ كان يجب أن أساويه في الأمراض مع بقائي دونه في سائر الأشياء.

٣ - بتوليته

عظيمة هي البتولية والعزوبة والانتظام مع الملائكة ذوي الطبيعة البسيطة. وأخشى أن أقول: والانتظام مع المسيح، الذي لما شاء أن يولد لأجلنا قد وُلد من بتول فاشترع البتولية لكي تنقلنا من ههنا وتفصلنا عن العالم. أو بالحري تجعلنا نستخفّ بالعالم لأجل عالم آخر، بالحاضر لأجل الآتي. فمن أكرم البتولية أكثر من باسيليوس ومن سنّ الشريعة للجسد ليس بمثاله فقط بل بجهوده أيضاً؟ من إنشاء ملاحي العذارى ووضع السنن المكتوبة التي بها طهر الحواس ونظم كل الأعضاء وحرّض على البتولية الصادقة؟ لقد عطف الجبال إلى الداخل، من الأمور المنظورة إلى الأمور الغير المنظورة. فأدوى حسنه الخارجي وانتزع من النار وقودها وكشف دخيلة قلبه لله الذي هو وحده عريس النفوس

الطاهرة والذي يُدخل معه النفوس الساهرة إذا ما أتت للالتقاء بمصاييح مضيئة ومؤونة وافرة من الزيت.

٤ - رزانه ولطف أخلاقه

إن بعض المنتقدين من ذوي المرارة يقذفونه بالكبرياء والصلف ويقابلونه بقوم ليسوا من المثال في شيء... ولكني أرى أنهم يسمون كبرياء توازن الأخلاق ورباطة الجأش وعدم الابتذال. ويلوح لي أنهم لا يترددون عن تسمية الرجل الشجاع جسوراً والمتبصر بالعواقب جباناً والرصين مجافياً للناس والصديق رجلاً لا يُعاشر. ولقد أصاب من لاحظ أن الرذائل ملاصقة للفضائل بل كأنها وإياها متجاورة متحاذية^(٣). ومن السهل جداً أن تؤخذ الأمور على خلاف حقيقتها في نظر الذين ليس لهم إلمام بأمثالها.

أي إنسان قد أكرم الفضيلة وعاقب الرذيلة وكان عطوفاً مع المستقيمين جافياً مع المنافقين أكثر من باسيليوس؟ وهو الذي كانت ابتسامته في غالب الأحيان ثناءً وسكوته توبيخاً يعذب الإثم في صميم الضمير. أما إذا لم يكن مهذاراً ولا ضحكاً ولا كثير الاختلاف إلى الساحات العمومية ولا مرضياً لكثيرين يجعله نفسه كلاً للكل لكي ينال الخطوى لديهم فهل في ذلك من عتب عليه أو حرج؟ أو ليس هو أولى بالمديح منه بالذم في نظر الرجال العاقلين؟ إلا إذا ذم الأسد لأنه لا يُرى له منظر قرد بل منظر مهيب وملكي وهو الذي وثباته نفسها شريفة تحبُّ ويعجب بها، وإذا قضي العجب من الممثلين على المسارح وحُسبوا من ذوي الكياسة واللطف لأنهم يسترضون عامة الناس ويستضحكونهم بصياحهم ولطم خدودهم. على أنه لو بحثنا عن طيب المعشر فأَي إنسان كان حلو المجالسة على قدر ما عرفت في باسيليوس أنا الذي خبرته أكثر من غيري؟ مَنْ كان أرقّ منه كلاماً في رواية الأخبار وفي المزح بأدب والتوبيخ بلطف؟ لم يكن ليحول اللوم إلى خشونة ولا الصفح إلى وهنٍ وتراخٍ بل يتجنب عدم الاعتدال في كليهما. وكان يستعملها بفتنة وفي الوقت المناسب، جاعلاً لكل أمرٍ وقتاً حسب وصية سليمان.

(٣) من أقوال مينندر Ménandre الشاعر اليوناني: «إن الشرَّ ينبت بالقرب من الصلاح» وقال أرسطو الفيلسوف: «إن مداخل الرذائل قريبة من مداخل الفضائل».

٥ - في بلاغته وسموّ عقله وتبحّره في الإلهيات

ولكن ما تلك التي ذكرناها بالنسبة إلى مقدرة هذا الرجل في الكلام وصولته تعليمه التي أخضعت أقاصي الأرض؟ اننا ندور حول أسفل الجبل وكأننا معرضون عن الارتقاء إلى ذروته. ونعبر في خليج تاركين البحر العظيم البعيد القرار. اني أعتقد أنه وإن وجد في غابر الأيام أو مستقبلها بوق يتغلغل صدهاء في طبقات الفضاء أو صوت إلهي يشمل أطراف العالم أو هزة تخفق لها المسكونة على أثر انقلاب أو حدث مدهش، فإنما هو صوته وعقله اللذان تفرّد بهما عن الجميع وتفوّق عليهم بمقدار ما نفوق نحن طبيعة الغير الناطقين.

من فاقه في تطهير ذاته للروح وتأهيلها للكلام عن الأمور الالهية؟ من استنار أكثر منه بنور العلم فانعم النظر في أعماق الروح ومع الله قد استقصى أعمال الله؟ من أعطي بياناً أكثر منه ليعبر عن مكنونات ضميره بحيث لا يميل إلى إحدى نقيصتين: معنى يفتقر إلى بيان يحلوه أو بيان لا يساير المعنى، كما يحدث لكثيرين؟ ولكنه قد خرج بفخر من كلا المأزقين فكان مساوياً لنفسه دائماً في توازن واعتدال. إن الفحص عن كل الأشياء حتى عن أعماق الله قد شهد به للروح، لا كجاهل بها، بل كغائص في نعيم المشاهدة. أما باسيليوس فقد بحث عن كل ما هو للروح فكان أنه هذب الأخلاق كلها وعلم سموّ التعاليم فقال بالأنظار عن الحاضرات وصرفها إلى المقبلات.

٦ - تأثير تأليفه

ان داود يمدح جمال الشمس وعظمتها وسرعة وقوة سيرها. فهي مشرقة كعروس وعظيمة كجبار ولها قدرة على اجتياز الأبعاد حتى انها تضيء على السواء أقاصي الأرض إلى أقاصيها ولا تُنقص المسافات حرارتها. أما باسيليوس فجعله الفضيلة وعظمته التكلم باللاهوت وسيره الحركة المتواصلة المؤدية إلى الله في مصاعدها وقوته بذر الكلام وتوزيعه. فيجب عليّ أن لا أخاف من القول فيه: «في كل الأرض ذاع منطقه وفي أقاصي المسكونة قوة كلامه» وهو القول الذي أطلقه بولس على الرسل أخذاً عن النبي داود. فأني زينة للنوادي اليوم من بعده؟ وأي لذة في الولايم والمجالس والمخاف؟ أي هناء لذوي المناصب وللذين تحت ولايتهم، للمتوحدين وللرهبان، للذين اعتزلوا الأشغال وللذين

يزاولونها ، للمتفرغين للفلسفة الخارجية أو لفلسفتنا؟ لم يبقَ إلا سلوة وحيدة وهي العظمى أعني مضافاته وتأليفه . ولم يبقَ للكُتَّاب إلا أن يتعلَّلوا بعده بكتاباتهِ . لقد صممت التفسير القديمة التي أجهد قوم نفوسهم في تعليقها على الأقوال الإلهية . وتعالى صوت الحديث منها . وفي اعتقادي أن أقدر الناس كلاماً من تفرَّد بحفظ أقوال باسيليوس فحملها على لسانه وفقَّه بها الأسماع . لأنه وحده قد أغنى الراغبين في العلم عن كل الذين مضوا .

أما أنا فلا أقول فيه إلا هذا وهو انني عندما آخذ بيدي «تفسيره لسته أيام الخليقة» وأردده بلساني أكون بصحبة الخالق واعرف أسباب الخلق ويزيد تعجبي من الخالق أكثر من قبل مستخدماً نظري وحده كمعلم . وعندما أطلع مقالاته الجدلية ، أرى نار سدوم تحوّل إلى رماد الألسن الشريرة الكافرة ، أو برج بابل الذي شيد بحماقة مقوضاً أحسن تقويض . وعندما أتصفح كتابه «في الروح القدس» أجد الله الذي فيّ وأجهر بالحق معتمداً على علمه اللاهوتي وتبحره في الالهيات . وعندما أنظر في التفسير الأخرى التي بسطها للقصري النظر بعدما كتبها ثلاثاً على ألواح قلبه المكيّنة (٢ كو ٣: ٣) تحدّثني نفسي بأن لا أتوقف عند الحرف ولا أنظر إلى المعنى من علّ بل أتغلغل إلى داخله فأسير من عمق إلى أعماق ومن قرار إلى قرار ، مهتدياً إلى النور بالنور حتى أبلغ أقصى غاياته .

وعندما أتأمل في «تقاريظ» المجاهدين (الشهداء) أحتقر جسدي وأضمّ نفسي إلى الذين يمدحهم وأهبّ للجهاد . وعندما أنعم النظر في «أقواله الأدبية والعملية» أتطهر نفساً وجسداً وأضحى هيكلاً أهلاً لتقبّل الإله ، وآلة طرب يضرب عليها الروح ، ومشيداً بمجد وقدرة الله . به أصبح موقعاً وموزوناً وأصبح غير ما كنت متغيراً متغيراً إلهياً .

ترجمة

الأب كيرلس حداد المخلصي

الرسالة المخلصية ، ١٩٣٤ - ٢

«إِعْرِفْ نَفْسَكَ»

للقديس باسيليوس الكبير

ان الله عندما خلقنا وهبنا ملكة الكلام حتى نبادل بعضنا بعضاً أفكار قلوبنا وحتى يشاطر كل منا قريبه بهذه المبادلة مظهرين للنور ما ينبطنه في القلب من أفكار وكأنه كنز من الكنوز . فلو كنّا ، لعمرى ، أرواحاً مجردة لا تتصل الواحد منا بالآخر مباشرة ، ولكن بما أن نفوسنا متلبسة بكثافة الجسد ، فانها تولّد أفكاراً تفتقر إلى الجمّل والتعابير لتفصح عن المكنون في داخلها . وحينما يستعير فكرنا نبرات صوتية للإفصاح عن مكنوناته فهو يعبر الهواء ، محمولاً في الكلام ، كأنما على قارب ، ويصل من القارئ إلى أذن السامع . فإن لقي ثمة هدوءاً وسكوناً عميقاً ، رسا في آذان المستمعين كما يرسو الزورق في المرافئ الآمنة . ولكن إذا هبّت دونه جلبة السامعين كزوبعة هوجاء ، فانه يضيع في الهواء . إذن ، فليخيم الهدوء ، بصمتكم ، عند كلامي ، فلربما بدا لكم شيء نافع وجدير بالحفظ .

كلام الحق عسير التناول ولذا ، فهو يفرّ بسهولة من الغافلين . فالروح المدبّر قد أوضح بكلمات قليلة ومقتضبة معاني جمّة ، كي تعلق بالذاكرة بسبب إيجازها . فانه من شرط بليغ الكلام أن لا تختفي معانيه بالعبارات أو تزدان بالألفاظ النافلة فتشبه الأثواب الفضفاضة . وأما الآية التي ثلّيت عليكم ، منذ برهة ، من سفر موسى فلا شك أنكم تذكرونها جميعاً لأنكم تنصتون بإصغاء ، هذا إن لم تكن قد تاهت عن آذانكم لأجل قصرها . وهذه الآية هي : «راقب نفسك ، كي لا يكون إنمّا الفكر المخفي في قلبك»^(١) .

اننا ، نحن البشر ، محمولون على ارتكاب الإثم في فكرنا . لذلك فالذي جبلّ وحدة قلوبنا ، والذي يعلم أن أكثر خطايانا ينجم عن فكرنا ، ويتم بالنية ، قد حذّرنا أولاً أن نضبط عقولنا بطهارة كلية . اننا نقترف الإثم بسهولة تامة ، وهذا ما يستدعي قسماً وافراً من الانتباه والسهر . فكما أن أطباء الأجسام المتيقظين يشدّدون ضعفاء البنية ، ويتلافون الطوارئ بحمية واقية ، كذا هو طبيب النفوس الحقيقي ، الذي يرى الجميع بنظره

(١) تثنية الاشتراع ١٥: ٩ الترجمة المعول عليها هي الترجمة السبعينية .

ويعرف أننا سريعو الزلل ، قد سبق فحذرنا من الإثم باحترازاات جدّ قوية ، لأن أعمال الجسد تقتضي ، حتىّ تمّ ، زماناً ومشقّة وفرصة ملائمة وعوناً من سائر الأعضاء ، إلى غير ما هنالك ، وأمّا خطرات الفكر فتتولد فوراً وتحدث بلا جهد وتمّ بلا صعوبة وكل وقت يوافقها .

لا يندر أبداً أن نرى ، بعضاً من المغرورين بذواتهم لكرم أخلاقهم ، السادلين نقاب التواضع على ظاهريهم ، ينجذبون - وهم جالسون وسط من يشيدون بمناقهم - بفكرهم نحو الخطيئة ، بخفة قلب خفيّة ، فينظرون بخيالهم موضوع أشواقهم ويتصوّرون علاقات أو أحاديث أئيمة . وفي الداخل ، وعلى مسرح قلبهم السريّ ، بعد أن يصوّروا اللذة في داخلهم بكل جلاء ، يقترفون الإثم دون أن يرى رقيب أو بصير «إلى أن يأتي الذي سينير خفايا الظلام ، ويوضح أفكار القلوب» (٢) .

فاحذر إذن «كي لا يكون الفكر المخفي في قلبك إثماً» لـ «أن كل من نظر إلى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (٣) . ومن حيث أن أعمال الجسد تلاقي في وجهها العقبات الجمّة ، في حين أن من يخطئ بالشوق يرتكب إثمه بسرعة توازي سرعة الفكر ، لذلك أعطانا الله ، عزّ وجلّ ، دواءً واقعياً وسريع الفعالية إذ شهد وقال : احذر أن يكون إثماً الفكر المخفي في قلبك (٤) .

ولكن الأولى بنا أن نعود إلى ما قدّمنا به كلامنا في مستهلّ هذا الخطاب . يقول كتاب الله العزيز : «تأمل ذاتك» . ان كل حيوان يدبّ على وجه الأرض له بين يديه ، من جودة الإله الذي سوّاه ، جميع المبادئ الضرورية لصيانة كيانه وحفظه . وإذا أنعمت النظر تتحقق أن السواد الأعظم من البهائم يحجم غريزياً مبتعداً عن كل ما يضرّه ويؤول عليه بالوبال ، ويميل بالعكس ، بارتياح شديد إلى الاستمتاع بكل ما يعود عليه بالنفع والفائدة . لذلك ، فالله تعالى الذي أخذ على عاتقه إرشادنا ، قد أعطانا هذه الأمثلة الجلييلة ، بمعنى أن ما تأتيه هذه الكائنات بدافع الغريزة ، تأتيه نحن بإرشاد العقل وتحت إشرافه وحتى أن ما يتيسّر لها بلا فطنة ولا مشقّة ، يتيسّر لنا نحن بأعمال الفكر وإجهااد الدماغ ، وحتى نحافظ أيضاً بحرص على ما غرسه الله فينا من الملكات والمبادئ ، معرضين

(٢) تشيئة الاشتراع ٩: ١٥

(٢) كورنثس ٥: ٥

(٣) متى ٥: ٢٨

عن الإثم كما ان البهائم تعرض عن العلائف السامة ، تائقين هياماً إلى البر ، كما ان هذه تتوق إلى المراعي الخصيبة اللبنة. تأمل إذن ذاتك حتى تكون جديراً بأن تميز بين ما يجلب لك الضرر ويوردك التهلكة وبين ما يقودك إلى الخلاص والنجاة.

ولكن بما أن النظر في الذات يأتي على وجهين الأول يُراد به التحديق بالعيون الجسدية إلى الأشياء المنظورة ، والثاني هو عبارة عن توجيه البصيرة ، بقوى النفس الروحية إلى التبخر في الأشياء التي جسّد لها ، فان زعمنا أن هذه الوصية مُلقاة على العينين لبرهننا حالاً وسريعاً أنها فوق الطاقة ، لأنه كيف يمكن لأحد أن يشمل بصره كل كيانه؟ لأن العين لا يمكنها أن ترى نفسها. فهي لا تمتد إلى الهامة ولا تعرف ما هو الظاهر وما شكل الحيّا ، ولا كيفية تنسيق الأحشاء في الداخل. فيكون من الكفر إذن أن نقول ان شرائع الروح القدس مستحيلة وفوق الطاقة.

بقي الآن أن نفهم ما تتضمنه هذه الوصية باعتبار أنها موجهة إلى الروح. «تأمل نفسك» أعني راقبها من جميع الأنحاء ، ولتكن بصرية نفسك يقضى لتعهدك بالسهر. «انك تجوز وسط الفخاخ»^(٥) والعدو قد نصب الحبال ، مخفية تحت الثرى ، ومدّها لك من كل صوب وجهة. فأرّع نظرك إذن إلى كل شيء حتى «تخلص مثل الظبي من الأشراك ومثل العصفور من الحبال»^(٦). فانه لا سبيل إلى قنص الظبي بالأشراك لحدّة بصره. وأما العصفور ، فلخفة جناحيه ، يرتفع إلى علو شاهق يجعله بمأمن من مطامع الصيادين ، اللهم إذا أخذ حذره وانبه لذاته. فاحذر أن تبدو أقل سهراً على ذاتك من سائر العجاوات ، خشية انك إذا ما عثرت في هذه الحبال ، تغدو فريسة الشيطان «عبده وطوع مشيئته»^(٧).

«تأمل ذاتك» أعني لاحظ لا ما هو بين يديك ، أو حواليك ، لكن لاحظ ذاتك فقط . لأننا نحن شيء ، وما هو تحت حوزتنا أو يحيط بنا شيء آخر ، فنحن على مثال خالقنا فُطرنا من نفس وروح. ما نملكه هو الجسد وحواسه ، وما يحيط بنا فهي الأموال والأشغال وسائر حاجيات الحياة. فما معنى هذه الآية إذن؟ معناها ان استخفّ بالجسد ولا تبال به ، ولا تجدد في طلب ما يطيب له ، من صحة كان أم من جمال أم من طول

(٧) تيموثاوس ٢: ٢٦

(٥) سفر الحكمة ٩: ٢٠

(٦) سفر الأمثال ٦: ٥

عمر. ولا تعلله بلذائذ الشهوات. ولا يغرنك النضار والمجد والعظمة والجبروت. ولا تأبه كثيراً لأُمور جعلت لخدمة حياة زائلة، فتستعظم شأنها، ولا تهمل انصباك عليها، نفسك التي تخصك دون سواها. لكن «راقب ذاتك» لا غير. زينها واعتز بها، وامح عنك بدأك، كل شر لطمخها الإثم به، وكل وصمة لوثتها بها الخطيئة. لا بل حاول أن توشىها لتتلاها بهاء، وتتدفق بنور الفضيلة وسناها. ادرس ذاتك من أنت يا ترى، واعرف ما هو جوهرك. ان جسدك هو رهن الفناء، وأما نفسك فهي بنت الخلود. واعلم أن لنا حياتين: حياة جسدية سريعة الزوال، وحياة أخرى روحية لا تعقبها نهاية، ولا يعترىها فناء.

لاحظ ذاتك ولا تتعلق بالزائلات على أنها خالدة. ولا تعبت بالخالدات على أنها هدف لصفوف الزمان وتقلبات الدهر. استخف بالجسد فهو سريع الزوال. وعليك بنفسك، اعتز بها فهي لعمري الخالدة دون سواها. اعرف ذاتك بكل دقة ووضوح حتى تعلم كيف تمنح لكل ما يفيد، فللجسد القوت واللباس، وللنفس تعاليم البر والسيرة الصالحة والانقطاع إلى الفضيلة وتقويم ما اعوجج من الأهواء. لا ترفه الجسد ولا تسع بافراط وراء التخمّة «لأن الجسد يشتهي ما هو ضد الروح، وكلاهما يقاوم الواحد الآخر»^(٨)، فاحذر أن يعلق حب الجسد في فؤادك فينشغف به ويتولى ما هو أحطّ قدراً ومترلة زمام السيادة والسلطان. انه كما يجري الأمر في كفتي الميزان، إن ثقلت كفة أضحت الثانية بالفعل ذاته دونها وزناً، كذلك شأن الجسد مع الروح، فشعب الواحد هو حتماً فاقه عند الآخر. ان رتع الجسد على أسرة الملذات وتهدل من فرط السمينة فلا بد للروح عندئذٍ من أن تضمر ويحلّ بها السقام.

إن هذه الوصية بعينها تلائم ضعاف البنية وأقوياءها. فالأطباء يفرضون على السقاماء عندما تحلّ بهم الأمراض أن يهتموا أنفسهم بذواتهم، وأن لا يهملوا ما يمكنه أن يعود عليهم بالنجاة. كذلك «الكلمة» الذي هو طبيب نفوسنا الحقيقي يشفي النفس التي لوثتها الخطيئة بفضل هذه المعونة المتواضعة. «اعرف نفسك» حتى توفق بين نوعية إثمك وكيفية مداواته. فإن كان عظيماً مميّناً، فأنت بحاجة ماسة إلى اعتراف جدّي، وعبرات مرّة، واسهار متواصلة، وأصوام لا تنقطع. وان كانت زلتك عرضية فلتعادلها توبتك. فقط

«اعرف ذاتك» لتدرك إن كنت سليم النفس أم عليها ، لأن كثيرين من المعترين بأسقام عضالة فتاة ، لا يعرفون البتة أنهم مرضى ، لعلّة تغافلهم وقلة اهتمامهم . فعظيمة ، إذن ، تلك الفائدة التي يجتنيها أصحاب الأبدان من هذه الوصية ، في أية حالة كانوا ، فهي تشفي من كان سقيماً وتصون من هو كامل العافية . فإنّ كلاً منا ، نحن المتلمذين «للكلمة» يعتبر خادماً واحدة من المهن تلك التي عيّنها لنا الإنجيل . وذلك البيت الكبير ، الذي هو الكنيسة يجمع بين جنبه ليس أواني من كل صنف ، من ذهب أو فضة أو خشب أو خزف فحسب ، بل هو يضمّ كذلك شتى الفنون والمهن . فبيت الله ، الذي هو كنيسة الله الحيّ يسجّل بين صفوفه صيادين ومسافرين ، مهندسين وبنّائين ، حرثة ورعاة ، جنوداً ومصارعين . وهذه الآية الوجيزة ستلائم جميع هؤلاء موضحة للكافة بأجلى بيان ما يحتم أن يكون عليه واحد منهم من الدقة والغيرة عند القيام بعمله . هل أنت صياد أرسلك الرب الذي قال : «هأنذا مرسل صيادين كثيرين فيقنعونهم عن كل جبل»^(٩) فترقب بكل اعتناء مخافة أن لا تفلت طريدة واحدة ، فيقنصوهم . حتى ، إذا ما انتزعتها بكلام الحق من الرذائل المتحكمة بها ، تقودها إلى ما فيه خيرها . أنت مسافر نظير ذاك الذي كان يصلي : «ثبّت خطواتي»^(١٠) ، راقب ذاتك كي لا تنه عن جادة الطريق ، أو تميل يمنة أو يسرة ، بل سر في الطريق السلطانية . أيها المهندس ضع أساس الإيمان الذي هو المسيح يسوع واجعله وطيد الأركان راسخاً . أيها البناء انظر إلى ما تبنيه كي لا يكون خشباً أو هشيماً أو تبناً بل «ذهباً أو فضة أو حجارة ثمينة»^(١١) . أيها الراعي ، لاحظ ذاتك كي لا تهمل فرضاً من فروضك الرعائية . وما هي تلك الفروض ؟ انها هدي الضال ، وتضميد الجريح ، وشفاء المريض . أيها الحارث أعزق حول التينة المجذبة وقدم لها كلّ ما يمكن أن يساعدها على الإنتاج والعطاء . أيها الجندي «اشترك في مشقات الإنجيل»^(١٢) ، وأبل بلاءاً حسناً ضدّ أرواح الشرير ، وأهواء الجسد ، خذ سلاح الله الكامل ولا ترتبك بهوم الحياة لترضي الذي جتّدك . أيها المصارع ، لاحظ ذاتك ، كي لا تتعدّى نواميس هذه الرياضة . فانه لا أحد ينال الاكليل ما لم يجاهد جهاداً شرعياً . تشبّه ببولس الرسول الذي جاب الأقطار وجاهد وصارع . أما أنت فاحرص ولا تغض الطرف عن نفسك شأن المصارعين المحنّكين . صنّ بساعدك الأعضاء الرئيسية ، التي هي هدف لسهام العدو . واجعل نظرك

(١١) ١ كورنثس ٣: ١٢

(١٢) تيموثاوس ١: ٨

(٩) ارميا ١٦: ١٦

(١٠) مزامير ١١٨: ١٣٣

شاخصاً أبداً نحو خصمك . وفي عَدْوِكَ حَدِّقْ إلى الأمام . وهكذا سرٌ حتى تحوز قصب السبق . صارع في الحرب الأعداء غير المنظورين ، وأما غرض هذه الكلمة الأوحده فهو أن لا تكون في حياتك مجندلاً على الحضيض أو نائماً ، بل أن تكون ثابت القدم ، نابذاً عنك الكرى ، مكباً على درس ذاتك بالحكمة والسهر .

إن هذا اليوم قصير ، فانه لن يسبح لي أن أعدد للقائين بمهام إنجيل المسيح جميع واجباتهم ، كما لن يسبح لي أيضاً أن أبين قوة هذه الوصية ، وكيف أنها توافق الجميع بلا استثناء . «لاحظ ذاتك» ، كن فطناً ذا حنكة واستشر في أمورك . احرص على ما تملك ، متوقفاً أي شيء قد يطرأ عليك ، ولا تفقد باستهتارك ما أنت حاصل عليه ولا تعلق آمالك بما لم يحصل حتى الآن - ولربما لن يبرز قط إلى حيز الوجود - كأنه قد صار في قبضة يدك . أوليس أمر بديهي أن يحل هذا الداء بالشباب ، وهم الذين لحقة عقولهم ، يظنون أن ما يرجونه قد صار في حوزتهم . فانهم والحق يُقال ، عندما ينعمون براحة البال وسكونه يتخيلون أوهاماً باطلة لا قوام لها ، ويتنقلون بسرعة الفكر إلى هذه التخييلات ، فيحلمون بمرور الحياة وبزيجة شريفة ونسل كريم ، وبشيخوخة متأخرة ، واجماع الكل على اجلهم وتقديرهم . لكن إذ انهم لا يستطيعون التوقف عند هذه الآمال ، يأخذهم الزهو ، حاملين بالوظائف البشرية العالية ، فينبون القصور الجميلة الشاهقة ويفرشونها بأفخر الرياش وأجوده ، ويحوطنونها بالرياض الغناء ، ويفضي بهم الغرور إلى أنهم يفصلونها عن فلك محيطهم الأرضي . ثم يجمعون هناك غلالهم في أهراء خيالية . ويضيفون لها مواشي وعدداً وفيراً من العبيد والاماء . ثم يضيفون إلى هذه كلها الوظائف المدنية ، وقيادة الشعوب ، والجيوش والحروب ، والانتصارات ، وحتى الملك عينه . ويخلقون فوق هذه الأشياء جميعاً ببطل أفكارهم الفارغة ، حتى انه يتراءى لهم أنهم قد بدأوا ينعمون بما يرجونه كأنهم قد ظفروا به وأمسى تحت أقدامهم . ان هذا الداء ، هو داء نفس مريضة بطالة ، تحلم بأمور كهذه بينما يكون الجسم مستيقظاً واعياً .

فهذه الآية تحط من عجرفة الروح ، وتنزل من غلواء الأفكار الجاحمة ، وتكبح ، كأنما بلجام ، تقلب الأفكار وعدم ثباتها ، وتدلي بهذه الوصية السديدة قائلة : «تأمل في ذاتك» ولا تحلم بما هو غير موجود ، لكن استعمل ما هو حاضر في سبيل منفعتك وخيرك . وأظن أن مشرع الناموس قد عمد إلى هذا التحريض ليستأصل متناً هذه العادة الذميمة . لأنه أسهل على المرء أن ينقب . بفضول ، عن شؤون غيره من أن يهتم بأمور

نفسه. فخشية أن تقع بهذه الأجبولة قال لنا: كفّ عن التنقيب في زلّات غيرك، ولا تعطِ سبيلاً لأفكارك حتى تبحث عن عيوبه بل بالأحرى «راقب ذاتك»، أعني أجّل بصيرتك بدرس ذاتك. فما أكثر الذين، حسب قول الرب^(١٣)، ينظرون إلى القذى في عين أخيه ولا يفتنون إلى الخشبة التي في عينهم. فلا تكفّ إذن عن درس ذاتك لترى إن كنت سالكاً بمقتضى الناموس. إنما لا تندفع إلى الأمور الخارجة، ولا تجد منقّباً لتعثر على عيب في قريبك مثل الفريسي المتكبر، المغتر بنفسه، الذي أقبل ليزكي نفسه، ويمتهن العشار بازدراء. لا تملّ مناقشة ذاتك الحساب، فلعلّك قد خطت برغباتك، أو أن لسانك قد سبق فكرك. أو لعلّ شراً صدر عنك فان وجدت في حياتك آثاماً كثيرة (وستجد بلا ريب لأن كل إنسان يخطئ) قل كلمات العشار هذه: «يا الله اغفر لي أنا الخاطئ». «لاحظ ذاتك». فهذه الكلمة سوف تمثل أمامك، وتجديك نفعاً إن كنت متمتعاً برغد العيش، أو كانت كل حياتك تجري كجدول عذب بصفو وهناء، فتكون لك كمرشد صالح يوقفك على حقيقة الأمور الدنيوية. وعندما تكون تحت صروف الحدّثان تردّد هذه الكلمة على قلبك في حينها حتى لا تذهب في سكرة المجد إلى الخيلاء والعجرفة، ولا تسقط من فرط الغم في الفشل والقنوط. هل أنت معترّ بثروتك الواسعة؟ أم أنت متباه بحسبك وطيب محتدك؟ أم أنت تفتخر بوطنك وبما أنت عليه من الأناقة والجمال إلى غير ذلك من الأبحاد؟ «تأمل ذاتك» فانك مائت، «لأنك تراب»، وإلى التراب تعود^(١٤) انظر إلى الذين سبقوك وتمتّعوا بملك هذه الإنعامات نفسها فأين هم الذين تبوّأوا المناصب المدنية؟ أين هم فحول الخطباء؟ أين هم الذين نظّموا الأعياد الوطنية؟ أين هم الأنام الأغنياء، أين هم ذوو الجياد المطهّمة والمُعَدّة لميادين السباق؟ أين هم القادة أرباب الحرب، وحكّام الولايات، أصحاب الجور والاستبداد؟ أليسوا جميعاً غباراً ورماداً؟! أليس الكل غداً أو هاماً وأحلاماً؟ أوليست آثار حياتهم قد انحصرت في قليل من العظام؟ طأطأ الرأس واهبط في القبور، وحاول، ان استطعت، أن تميّز بين العبد والمولى، بين الغني والفقير. فرّق إن كان بمقدورك، بين الملك والأسير، بين الجبار والصعلوك، بين الجميل والقيبح. وعندئذٍ إذ تقف على حقيقة جوهرك فانك لن تشمخ بعد قط، بل انك تباشر الاهتمام بنفسك، إذا كنت قد فقهت.

هل أنت من نسب وضيع ساقط ، فقير بين الفقراء لا وطن لك ولا ديار ، أم أنت سقيم الجسم عليل ، تفتقر إلى قوتك اليومي ، وتهلع فرقاً أمام ذوي السلطان ، وجلاً بحضرتهم أجمعين لشظافة عيشك وبؤس حالك ؟ «لأن العوز ، كما يقول الكتاب ، لا يقاوم الانتهار»^(١٥) . فلا تيأس من نفسك لأنك لا تملك في هذه الحياة شيئاً من الموجودات التي يطمح كل امرئ إلى امتلاكها . ولا تطرح عنك كل أمل حميد ، لكن اسمُ بنفسك إلى ما قد أعدَّ لك سالفاً من الخيرات ، وما هو مخزون لك للمستقبل .

فأولاً أنت إنسان ، وأنت وحدك بين الحيوانات محبوب على صورة الله . أفلا يكفيك هذا ، إن أحكمت النظر ، أنك قد جبلت ، لحسن حظك ، بيدي الله الذي أبدع كل هذه المبرّوات ؟ وثانياً بما أنك قد فطرت على صورة خالقك الذي صنعك أفليس بوسعك أن تضاهي الملائكة مجدداً بسيرتك الصالحة القويمة ؟ فلقد حبلك الله نفساً عاقلة بها تدركه ، وتبحث بفكرك عن طبيعة الكائنات ، وتجنّي الذنوب الحكيمة . ان الحيوانات الأرضية بأسرها ، داجنة كانت أم متوحشة وكل ما يعيش في المياه ، وكل ما يطير في الهواء ، هي مستعبدة لك ، وأنت سيدها . أفلم تستنبط الفنون ، وتؤسس المدن ، ألم تبلغ إلى جميع ما هو ضروري لا بل إلى ما يُعدّ من سبيل البذخ والترّف أيضاً ؟ أفلم تشق في عباب البحار سبلاً سهلة بفضل فطنتك وذكاك ؟ أولاً يحود عليك البرّ والبحر بما تفتقر إليه في حياتك ؟ أليس لأجلك تُظهر السماء والهواء ومحافل الكواكب العلوية كل ما فيها من نظام وجمال ؟ فلم إذن تنكسر نفسك غمّاً ، لأنك لا تملك جواداً ذا حكمة فضية ؟ أفليس لك الشمس التي تسكب النور عليك في عدوها السريع سحابة النهار أم لأنه ليس لك أوّانٍ من ذهب ومصابيح من فضة ؟ فلك البدر الذي ينيرك بأنواره الغزيرة . أم لأنك لا تمتطي المركبات المصفحة بالذهب ؟ إنما لك قدمان ، فهما مركبتك التي رافقتك من طيّ الحشا . فلماذا إذن تغبط من له الجيوب الملائى ، ومع ذلك يفتقر إلى أقدام غيره حتى يبرح من مكان إلى مكان ؟ أو لأنك لا ترقد على سرير عاجي ؟ لكن لك الأرض التي هي أثمن من العاج ، لك الراحة العذبة في حضنها ، والوسن الخفيف الناعم الذي لا تعكره الهموم والأحزان . أم لأنك لا تجلس تحت مظلة مغطاة بالذهب ؟ فعندك السماء المتألّثة بسناء كواكبها الساطعة - هذا من الوجهة البشرية - ولكن ما يفوق هذا كثيراً

هو نزول الإله بين البشر لأجلك وتوزيع الروح القدس ، وإبادة الموت واضمحلاله . هو الأمل بالقيامة والنشور ، والوصايا الإلهية التي تؤدي بك إلى الكمال . لك السبيل الذي يقودك إلى الله بواسطة الوصايا وملكوت السماوات المهيأ لك وأكاليل العدل المعدة للذين لم يحجموا عن الفضيلة رغم ما كابدوا في سبيلها من المشاق والأتعاب .

لو كنت تلاحظ ذاتك جيداً لوجدت حواليك هذه اللائىء لا بل كثيراً غيرها ، ولكنك تمتعت بما هو بين يديك دون أن تغتم لما تفتقر إليه . وفي أي حالة وجدت ، وكانت هذه الشريعة نصب عينيك ، تمدك بالغوث والمعونة . هكذا مثلاً أتملكت أفكارك سورة الغضب ، ودفعتك إلى التفوّه بألفاظ بذية ، أو إلى اقتراف أعمال وحشية ضارية ؟ فإن لاحظت ذاتك فلسوف تحمد الغضب كما يكبح جواد حرون ، إذ تشعر بضربات الحصى كأنما يجلدات السباط ، وتلجم لسانك وتفتّ في ساعدك ، فلا ترفعه على من أثار سخطك . وإذا ما الشهوات الرديئة هاجت فيك وهوت بنفسك إلى الأشواق السافلة ، فإن عكفت على ذاتك ، وذكرت أن هذا الأمر الذي يسوّغ لك الآن مريباً عذباً ، سينقلب فيما بعد إلى مرارة العلقم ، وان اللذة التي يستجديها الجسد الآن في الإدمان على المنكرات ، ستلد آكلة سامة ترعى بدننا ، وتذيقنا ، على غابر الدهر ، أمر العقاب في جهنم النار . وان لظى شهواتنا سيذكي اللهب الأبدى . والتمتع السافلة يعنى ذكرها حالاً ، ويعقبها سكون داخلي رهيب يأخذ بمجامع النفس ، كما أن الصمت يحيم وجلة الجوارى المتشاجرات يكفّ عند حضور ربّة المنزل الجليلة .

«لاحظ إذن ذاتك» واعلم أنّ في نفسك قوتين : قوّة روحية واعية ، وقوّة شهوانية عمياء . فالأولى ينبغي لها أن تستلم زمام القيادة ، وعلى الأهواء أن تنقاد لها صاغرة . فلا تسمح مطلقاً للقوى العقلية فيك أن تصبح عبدة للأهواء وخانعة تحت نيرها . ولا ترفض قط أن يثور نائر الأهواء على العقل وان تعتصب هذه لذاتها حتى التسلط على النفس . ان التبصّر العميق في ذاتك ينهج لك سبيلاً كافياً للتبحّر به تعالى ، لأنه إن لاحظت ذاتك تصبح بغنى عن البحث عن الخالق في نظام الطبيعة ، بل تمنع النظر في ذاتك ، كما في عالم صغير ، إلى حكمة الخالق السامية . واعلم أن الله لا جسم له ، مثل النفس المنتشرة فيك والتي لا جسم لها . وانه لا يحصره مكان ما ، لأن نفسك أيضاً لا تقيم بمكان خاص بها دون غيره ، لكن هي محصورة في مكان لأنها متّحدة بالجسد . آمن أن الله غير منظور بتأملك بنفسك ، لأن النفس لا تقع تحت حاسة العين المجردة ، إذ لا لون لها ، ولا

شكل ، ولا مفرغة في قالب مادي ، لكنها تعرف ما تقوم به من الأعمال وحسب . وبالمعنى عينه فلا تحاول أن تبصر الله بعينيك ، لكن شدّد روح الإيمان في ذهنك ، وليكن عندك منه تعالى إدراكاً روحانياً . أكبر ذلك الفنان الذي ضمّ قوى نفسك إلى جسدك ، بحيث تصل إلى أقصى أطرافه ، وتجمع كل الأعضاء ، مهما بعدت ، في شركة وائتلاف واحد . تفحص ماهية القدرة التي يستمدّها الجسد من النفس ، وما هو الانفعال والتأثير الذي تتأثر به النفس من الجسد ، وكيف ان النفس بدورها تتعذب من الأمراض التي تأتيها من الجسد ، وأي خلايا عند النفس لاقتباس المعارف . وتفحص أيضاً كيف ان الاستزادة من الاطلاع والتوسع في العلم لا تمحو المعارف السابقة ، لكن الذكريات تلبث واضحة جليّة دون أن يعترها أدنى تشوش أو خلل ، بل تبقى منقوشة في الجزء الأشرف من النفس ، كأنها محفورة على اسطوانة من نحاس ، وكيف انها عندما تلتين وتنقاد لأهواء الجسد ، تفقد جلالها الخاص بها ، وكيف انه إذا تطهّرت من أدران الإثم تأخذ في السعي بجِدٍّ لمشكلة خالقها .

لاحظ ، إن حسنَ في عينيك ، تركيب الجسد بعد أن تأملت في خواص النفس . وأكبر عبقرية ذلك المهندس الالهي الذي أحلّ النفس الناطقة في محل يناسب شرفها الرفيع . جبل الإنسان واقعاً مستقيماً دون غيره من سائر الحيوانات ، حتى يعرف من هيكله هذا أن أصول حياته متفرّعة من فوق . لأن ذوات الأربع جميعها تطرق بنظرها إلى الأرض ، وإلى جوفها ، وكأنني بنظر الإنسان المصوّب أبداً إلى السماء ، يرشده إلى أن لا يرفّه جوفه ، ولا الشهوات التي من تحته ، لكن عليه أن يصبو ، بكل أشواقه ومهيج فؤاده ، للارتقاء نحو العلا . ثم بعد أن وضع له رأسه في أعلى هامته ، حصر له فيه أكثر حواسه شرفاً : فهناك البصر ، والسمع ، والذوق والشمّ وكلّها مجاور بعضها بعضاً . وهي وان كانت محصورة كلها في مكان ضيق ، فلا واحدة منها تعيق في شيء عمل الأخرى . فالعينان تحتلّ المرتبة الأعلى في المراقبة بمعنى أنه بفضل هذه المنزلّة لا يعترضها عن إتمام عملها عضو من أعضاء الجسد الأخرى . ولكن بما انها نازلة بين الجفون كأنها في معقل ، فهي مضطرة لأن تنظر إلى الأمام بفضل تلك الأهداب البارزة التي تعلوها . أما السمع فليس مفتوحاً بخط مستو لكنه يلتقط الأصوات من الهواء في ممرّ لولبي ، كثير التجاويف . وهذا التدبير نتيجة حكمة سامية ، حتى يتمكن الصوت من أن يمرّ بلا عائق ، أو بالحريّ أن يرنّ إذ يتصدّع بتلك التجاويف . وهكذا فلا شيء مما يحدث في الخارج يعود قادراً أن

يقف عقبة في سبيل السماع. تأمل طبيعة اللسان ، كيف أنه لدن مرن ، وبلبي بدوراته المختلفة كل حاجات الكلام. وأما الأسنان ، وإن كانت تحسب من أعضاء الآلة الصوتية ، إلا أنها كسور قوي يذود عن اللسان. وهي تستخدم أيضاً للقوت. فبعض يقطع الأكل وبعض يطحنه. وهكذا فإن أنت اعتمدت هذا الأسلوب لتتفحص سائر الأعضاء كاستيعاب الهواء بالرئتين والمحافظة على حرارة القلب ، والجهاز الهضمي ، ومجاري الدماء ، فن كل هذه الأشياء تبين حكمة الخالق التي لا ندّها ولا نظير. بنوع انك تقول مع النبي : «ان علمك أدهشني من ذاتي»^(١٦).

«تأمل إذن ذاتك» حتى تبلغ إلى معاينته تعالى ، الذي له المجد والعزة إلى دهر الدهور ، آمين.

عربها عن اليونانية
الدكتور نجيب حجّار
خريج اكليزيكية دير المخلص

« اِهْتَمِّ لِدَاتِكَ » (تثنية ١٥: ٩)

للقدّيس باسيليوس الكبير

« اهتم لذاتك » ولست أعني أن تهتم لما هو لك أو لما هو حواليك بل أن تهتم لنفسك لا غير. فنحن شيء ، وما هو لنا شيء آخر ، وما حوالينا شيء آخر إنما نحن بالنفس والروح لأننا كوناً على صورة الخالق. وأما ما هو لنا فهو الجسد وحواسه. وما حوالينا فهو المال والأشغال وسائر مقتضيات العيش.

فما معنى قول الكتاب إذن؟ - هو أن لا نهتم للجسد ولا نسعى بكل وجه وراء ما يعود لمصلحته كالصحة والجمال ولذائد الشهوات وطول العيش. لا تهرك الفضّة والمجد والعظمة ولا تأبه لأشياء جعلت لخدمة هذه الحياة الفانية فتستعظمها وتستخفّ في سبيل الحرص عليها بحياتك التي تفضلها كثيراً. بل « اهتم لذاتك » أي لنفسك فأياها جملّ وبها اعتنّ بحيث تنبذ دونها بتيقّظك كل لوثة ناجمة عن الإثم وتطهّرها من كل غضاضة تلحق بها بسبب المعصية. حتى إذا ما كسوتها بجمال الفضيلة فاضت إشراقاً.

تفحص نفسك من أنت. واعرف طبيعتك. إن جسمك لمات وأما نفسك فخالدة. إن فينا حياة مزدوجة: حياة جسدية سريعة الزوال وحياة نفسية لا نهاية لها.

« فاهتم لذاتك » ولا تتعلق بالزائلات كأنها خالدة ولا تستخف بالخالدات كأنها زائلة. إستهن بالجسد فانه يزول واهتم بالنفس فهي الشيء الخالد ادرس ذاتك بكل تقصّ حتى تعرف أن تقسم لكلّ ما يوافقه. فللجسد القوت واللباس ، وللنفس تعاليم التقوى والسلوك الحسن والتمرن على الفضيلة وتقويم الأهواء. فلا تسمن الجسم فوق الحد ولا تهتم بإفراط في شواغل الجسد « لأن الجسد يشتهي ما هو ضد الروح والروح يشتهي ما هو ضد الجسد. كلاهما يقاوم الآخر » (غلاطية ٥: ١٧) فاحذر أن تفضل الجسد فتولي السلطان الأعلى للأدنى.

الأب كيرلس حداد

المخلصي

خِدْمَةُ الْآخَرِينَ

للقدّيس باسيليوس الكبير

ما الصعب والمؤلم أو المستحيل في قول الربّ: «بِعْ ما عندك وأعطه للمساكين»؟ لو أنه كلّفك أن تحرث الأرض أو أن تخاطر في المتاجرة، وتتحمل ما يتبع ذلك من الجهود، لفهمت ما يعتريك من الحزن، ولكنه يعرضُ عليك الحصول على السعادة الأبدية، بطريقة سهلة وبدون عمل أو عرق، فلماذا لا تُسرُّ بسهولة الخلاص بدلاً من التحسُّر وتعريض نفسك لفقدان الأجر على عملك؟ فإذا كنت لم تقتل حقاً كما تقول، ولم تسرق، ولم تشهد زوراً، فإنك تجعل كل جهودك باطلة، حين لا تضيف إلى ما يمكنه أن يفتح لك ملكوت الله. لو تقدّم إليك طبيب ليُصلح لك عضواً مؤثراً من أعضائك، فإنك لا تتردّد، بل تقبل ذلك بطيبة خاطر، فلماذا تحزن وترزع حين يتقدّم إليك طبيب النفوس وهو يريد أن يُصيرَكَ كاملاً بأن تُضيف إليك ما ينقُصك جوهرياً؟ لا شك أنك بعيد جداً عما يقتضيه حبُّ القريب، وتشهد زوراً بأنك تحبه مثل نفسك. إنَّ ما يعرضه عليك الرب دليل قاطع على خلوك من المحبة الحقيقية. لأنك لو كنت حفظت حقاً منذ صغرك وصيّة الحبِّ لقريبك، وساويت ما بينك وبين أخيك لما أمكن أن تكون لديك هذه الثروة الطائلة! إنَّ الاهتمام بالفقراء يستدعي نفقات عظيمة، إذا أردنا أن ينال كل واحد منهم الضروري، وأن يستفيد جميع الناس من خيرات الأرض ويحصلوا على ما يسدُّ حاجاتهم. فمن يحب قريبه كنفسه، فلا ينبغي أن يكون عنده أكثر من أخيه، ومن الأكيد أنَّ عندك أملاً كاملاً واسعة. فمن أين نشأ هذا التفاوت، إلّا من إثارك تمتعك الشخصي على سعادة الآخرين؟ فكلاماً زدت غنىً نقصت حباً. لو أنك أحببت قريبك لكنك قد وزعت من زمان طويل جزءاً من أموالك. ولكنك متعلق بهذه الخيول تعلّقك بجزء من روحك. ويؤلمك حرمانك منها كما يؤلمك قطعُ عضو من أعضائك.

وإنك لتخفي ما بقي من مالك، بعد الإسراف، في خزائن من حديد، وتقول: المستقبل مجهول، ولا بدّ من التحصُّن مما يفاجئ من الضرورات! صدقت: ليس من المؤكد أنك تحتاج إلى هذا المال، ولكن شيئاً آخر مؤكّد: هو خطيئتك. فإنك لما لم

تستطع أن تبذّر ثروتك بالرغم من حماقاتك ، أخفيها وفي إخفاء ثروتك دفنت قلبك . لقد قال المسيح : « حينما يكن كترك يكن قلبك » . لهذا تثقل على الأغنياء وصايا الله . وتبدو لهم الحياة كريمة ، إذا لم يُنفقوها بالتبذير . فشاب الإنجيل الغني وأمثاله أشبه بمن أراد أن يزور مدينة ، فقام بسفر شاق طويل في سبيل الوصول إليها ، وما كاد يقف على بابها حتى أخذ منه الخمول مأخذه فعاد أدراجه ، وقد جسر ثمة جهده ولذة رؤيته تلك المحاسن التي قاسى ما قاسى من التعب لأجلها .

هذه صورة من يحفظون وصايا الله ويأبون أن يُضحّوا في سبيل البائسين بشيء . إني لأعرف كثيرين منهم .

بما يعرف الطمع ؟ بخرق الشريعة الإلهية إذ يفكر الإنسان في نفسه قبل أن يفكر في غيره . وذلك بحسب الشريعة القديمة لأنه قد كُتب : « أُحِبُّ قَرِيبَكَ مِثْلَ نَفْسِكَ » وبحسب شريعة الإنجيل إذ يُمسِكُ الإنسان لمنفعته الخاصة أكثر مما يحتاج إليه في يومه ، لأنه كُتب : « يا جاهل في هذا الليل تموت ، وماذا يبقى لك من خيراتك ؟ » ومعنى ذلك أن من يجمع لنفعه دون غيره ليس غنياً في نظر الله .

عندما يقول ربُّنا يسوع المسيح : « يستحقُّ أجرته » ، لم يكن يعني أيّاً كان ، لأنه يضيف إلى ما سبق : « مَنْ يَعْمَلْ لِمَعَاشِهِ » (متى ١٠ : ١٠) . والقديس بولس يوصينا بالشغل ، وبعمل الخير بأيدينا ، فالشغل فرضٌ علينا . فلا واجب الصلاة ، ولا حُجَّة الراحة مما يعفينا من العمل الجهد ، بل يُحْتَنَى على المزيد من الكدِّ حتى يُقال عَنَّا ما قيل عن القديس بولس : « قضى عمره في العمل والجهد ، محتملاً السهر الطويل والجوع والعطش » .

وليس الدافع إلى واجب الشغل هذا حاجة جسمنا إلى الراحة بل واجب المحبة الأخويّة . لأنَّ الله يريد أن نعاونَ بتعبنا على بقاء مَنْ هم دوننا قوة ، كما كان القديس بولس يفعل ، كقوله في أعمال الرسل : « لقد بَيَّنْتُ لَكُمْ بِطُرُقَ مُخْتَلَفَةٍ كَيْفَ كُنْتُ أَشْغَلُ يَدَيَّ لِأُسْعِفَ الْفُقَرَاءَ » وكتابته إلى أهل أفسس : « اشتغلوا حتى تستطيعوا أن تساعدوا المحتاجين » .

إذا فعلتم ذلك استحققتُم أن تسمعوا المسيح يقول لكم ساعة الموت : « تعالوا يا مباركي أيُّ ، رثوا المُلْكُ المُعَدُّ لَكُمْ لِأَنِّي جَعْتُ فَأُطْعِمْتُمُونِي ، وَعَطَشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي »

(موعظة ٦ ، ٣)

ترجمة الأب الياس كوير

الخلاصي

عن المخطوطات الخلاصية القديمة

مَدِيحُ الْقَدِيسِينَ الشَّهَدَاءِ الْأَرْبَعِينَ

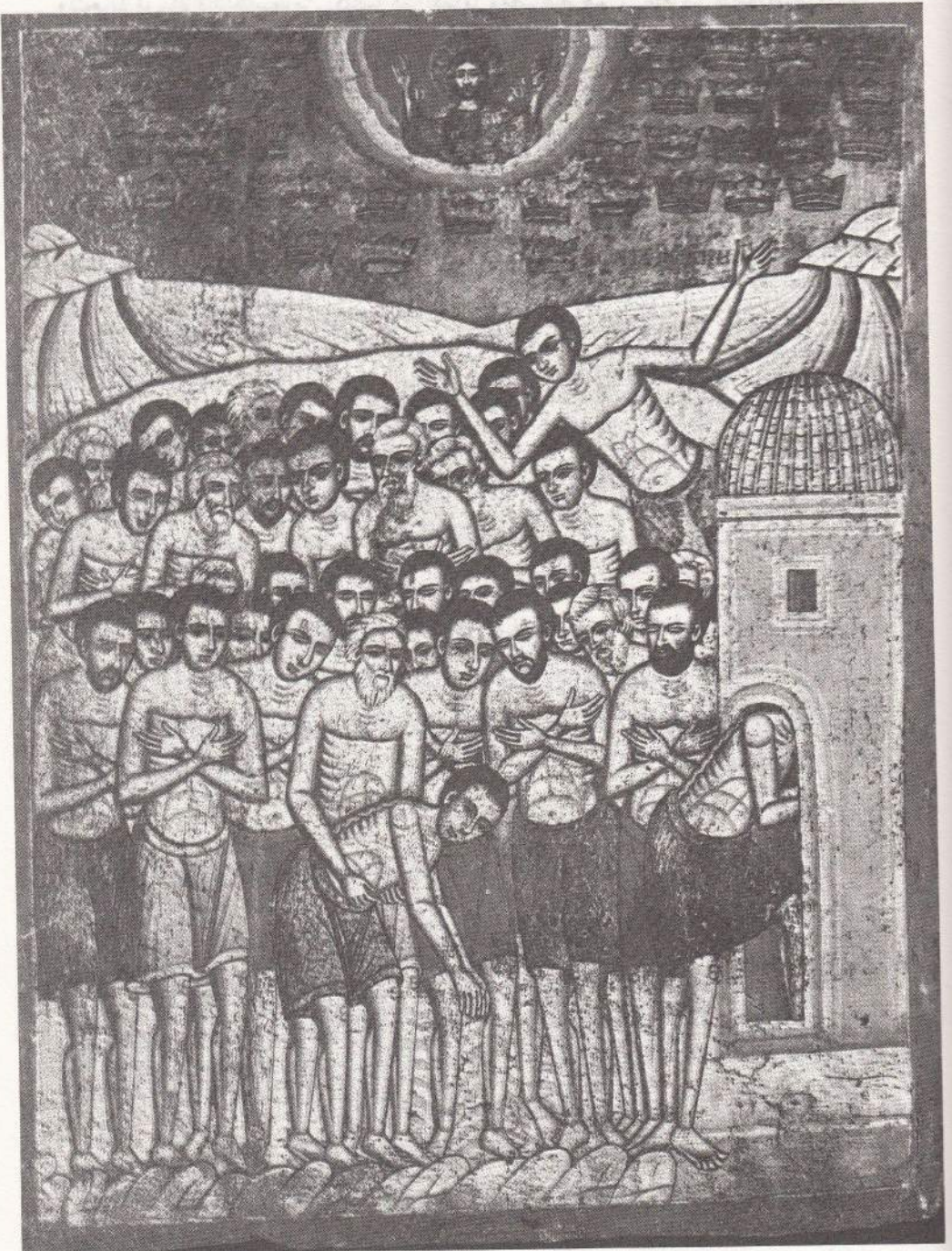
للقديس باسيليوس الكبير

مقدمة

أيسأم من ذكرى الشهداء من يحب الشهداء؟ ان اكرام الصلّاح من شركائنا في العبودية يبرهن على حبنا لسيدنا العام. ومن الواضح أن من يثني على الرجال العظماء يُظهر من نفسه أنه لا يتأخر عن الاقتداء بهم إذا ساحت الفرصة. فقرّط إذن الشهيد عن اخلاص فتضحى شهيداً في النية وتحطى ، بلا اضطهادٍ ولا حريق نار ولا ضرب سياط بنفس الأجر الذي فاز به. ليس من يُعرض لتعجبنا واحداً أو اثنين ولا عشرة من الطوباويين فقط ، بل أربعون ، وكأنما لهم نفس واحدة في أجسام شتى تجمعهم وحدة الإرادة والرأي في الإيمان. وقد أبدوا نفس الثبات تجاه الأخطار ، ونفس الدّود عن الحق. كلهم متماثلون فيما بينهم. متعادلون في الرأي ، متعادلون في الكفاح. ولهذا أهلوا لأكلّة مجد متساوية. فأَي قول يقوم بوصف علوّ منزلتهم؟ انه لا لسان ولا أربعون لساناً تكفي لأن تمدح كما يليق شجاعة عدد كهذا من الأبطال. على أنه لو كان الممدوح واحداً لكفى به لأن يعجز قوة بياننا، فكيف بهذا الجمع الغفير، والجيش الكبير، الذي لا يسام قهراً ولا يُغلب في الحروب، كما يُجلّ عن أن تدانيه المدائح.

١ - بيان المقصد والتقسيم

ولكن تعالوا نستحضرهم بالذكر في وسط هذا المحفل ونُعَمِّم للحاضرين الفائدة المجتناة من ذكرهم ، مصوّرين للجميع كأنما في رسم مآثر هؤلاء الرجال الشجعان. ان الخطباء والمصوّرين ، متى أرادوا أن يمثّلوا فعل بأس في الحروب ، أخذ الأولون يزيّنونه بوشّي الكلام ، والآخرون ينقشونه على الألواح ، وهكذا يستنهضون الكثيرين إلى الشجاعة وعلوّ الهمة. فالأمر الذي يبيّنه كلام الخطيب بالسمع يُعرب عنه الرسم بالصامت بمحاكاته للواقع. فلنصِف نحن أيضاً هؤلاء الشجعان ولنُبْدِ أعمالهم كأنما للعيان



ولنحرّكُ إلى الاقتداء بهم من كان أكثر إقداماً ومضاهاة لهم في العزم. فهذا يقوم مدح الشهداء ان يُستحثَّ على الفضيلة المؤمنون المجتمعون.

٢ - وطنهم ونسبهم

ان تقارِظ القديسين لا تحتل استبعاداً لنواميس التقارِظ العادية. لأن المادحين يستخرجون موضوع مدائحهم من مصادر عالمية، وأما الذين قد صُلب العالم لهم فكيف يقدر شيء من أشياء العالم أن يكون وسيلة لفخرهم. لم يكن هؤلاء الشهداء وطن واحد بل كل منهم قد نشأ في بلدة ما. فإذا إذن. أنقول انهم بلا وطن أم وطنهم البسيطة جمعاء. كما ان ما يقدمه كل عضو من أعضاء الجمعية يصبح مشتركاً بين جميع المتقدمين، هكذا كل واحد من هؤلاء المغبوطين قد أشرك الجميع في وطنه، والجميع قد اشتركوا في وطن كل واحد. ولكن ما بالنّا نبحت عن أوطانهم على الأرض، ولا نفكر أن مدينتهم الحالية هي مدينة الشهداء، مدينة الله التي الله صانعها ومبدعها، أورشليم العليا الحرّة أم بولس وأمثاله. إن نسبهم البشري مختلف وأما نسبهم الروحي فواحد. فإن لهم أباً واحداً هو الله، وجميعهم أخوة. لم يلد لهم رجل وامرأة بل وُلدوا بتبني الروح القدس، وآلفت بينهم وحدة المحبة المتبادلة، فهم الجوق المهيأ والجيش العظيم الذي أُضيف إلى أولئك الذين يمجّدون الله منذ الدهر. لم يتجمعوا فرداً فرداً، بل انتقلوا دفعة واحدة. ولكن كيف كان انتقالهم؟

٣ - مناقبهم الطبيعية

ان هؤلاء الأبطال كانوا ممتازين على قرنائهم بعظمة الجسم وقوة الفتاة ومثانة العَصَل، فانخرطوا في سلك الجندية، وأبدوا من المهارة في القتال ومن ثبات الجنان ما نالوا معه من لدن القياصرة أول مراتب الشرف، فأضحوا في أعين الجميع أشهر من نار على علم في البأس والإقدام.

٤ - أمام ديوان الحاكم

ولما أعلن ذلك الأمر الكفري الناهي عن الاعتراف بالمسيح تحت طائلة العذاب،

أخذ المضطهدون يتوعدون المسيحيين بكل أصناف النكال. وثار قضاة الظلم وغضبهم عظيم يضطرم على عباد الإله الحقيقي. فالغش والخداع قد اجتمعا عليهم وأصناف التبايح قد أعدت لهم. فالمعذبون لا يشفقون، والنار أضمرت والسيوف أرهف والصليب نُصب. الهاوية والدولاب والسياط: كل شيء مهيباً. هرب البعض من المسيحيين والبعض خضعوا والبعض وهنوا قبل التجربة مرتاعين من الوعيد وحده. وآخرون إذ دنا الخطر خانتهم قواهم. وغيرهم نزلوا إلى الميدان، ولما لم يستطيعوا أن يبلغوا إلى غاية جهادهم تحاذلت أقدامهم في منتصف الجهاد، وكمثل من كذبتهم الزوبعة في عرض البحر ألقوا ما كان معهم من وسق الصبر. حينئذٍ قام هؤلاء الصناديد الغير المغلوبين، جنود المسيح، وجاؤوا إلى الوسط أمام الوالي الذي أراهم الأوامر الامبراطورية وأمرهم بالخضوع لها. فأجابوا بجرأة وشجاعة غير هيأين من المشاهد الهائلة أمامهم ولا جزعين لما توعدوا به، وأعلنوا جهاراً أنهم مسيحيون! فأكرم بها من ألسنة نطقت بذلك الكلام فتقدس به الهواء وصفقت له الملائكة وجرح به إبليس والشياطين. وأما الرب فكتبه في السماوات.

صرخ إذن كل واحد منهم لما حضر في الوسط: اني مسيحي! وكما ان الذين يتزلون إلى حومة الميدان للصراع يذكرون قبلاً أسماءهم ثم يتوجهون إلى موضع الكفاح، كذلك فعل هؤلاء الشهداء مطرحين الأسماء التي أعطيت لهم في يوم مولدهم ليتسمى كل واحد باسم المسيح مخلص الجميع. فأصبح لهم تسمية واحدة، ولم يعد بينهم من يسمى فلاناً أم فلاناً بل كلهم أضحو يدعون «مسيحيين».

وماذا كان من أمر المعتصب؟ لما كان داهيةً خبيثاً لجأ إلى الخدعة تارة وإلى الوعيد أخرى. فابتدأ يحاملهم بحلو الكلام أملاً منه بأن يُرخي عزمهم في الإيمان. فأخذ يقول لهم: «لا تستهلكوا شبابكم ولا تستبدلوا طيبات هذه الحياة بموت معجل. انه لمن العار أن جنوداً قد اعتادوا أن يُجَلُّوا مبرزين في الحروب يموتون موت الأئمة الأشرار.» وزاد على ذلك أن وعدهم بأموال طائلة ومراتب شرف ومناصب من قبل الامبراطور محاولاً بكل مكيدة وخدعة أن يغلب ثباتهم. وإذا لم يكسر شوكتهم بهذه الوسيلة انتقل إلى نوع آخر من الحيل، فتهددهم بضربات وميتات وتعذيب لا تُطاق. هذا ما فعل قاضي الظلم. ولكن ماذا فعل الشهداء يا ترى؟ أجابوه: «لماذا نفرنا يا عدو الله بالابتعاد عن الإله الحي والاستعباد للشيطان الرجيم، بعرضك لنا خيراتك؟ ما عسى أن تكون ما تمنحه بالنسبة إلى ما نتعهد أن نحرمنا إياه؟ اني

أكره منحة نتيجه العقاب ولا أرضى بكرامة تولد العار. انك تقدّم لي أموالاً تفنى ومجداً يزوي ويبس. تزعم أنك تجعلني صديقاً للملك ولكنك تجعلني نائياً عن الملك الحقيقي. ما بالك تمثل لعيني شيئاً حقيراً تافهاً من أشياء العالم، والعالم كله مزدري لدينا؟ بل ان جميع ما نراه لا يوازي الخيرات التي نترجأها ونشتاق إليها. أترى هذه السماء ما أجملها وأعظمها؟ والأرض ما أوسعها وكم فيها من الغرائب؟ انه لا شيء من كل ذلك يعادل سعادة الصديقين. كلّ هذا زائل وأما سعادتنا فثابتة. واحدة أشتهي: ألا وهي تاج البرّ. مجد واحد أنا مستهام به وهو مجد الملكوت. اني أحنّ إلى ذلك المجد العلوي وأخشى عذاب جهنم. تلك النار هي التي تروّعني، أما ناركم التي تتوعدون بها فلا أرهاها إذ هي مساوية لنا في العبودية وقد تعلمت أن تحترم الذين يحتقرون الأوثان. اني أحتسب ضرباتكم كسهام يرشقها صبيان. تُشخّنون جسمي جراحاً: ولكن اعلّموا أنه على قدر ما يقاسي سوف يتمجد، وان تحاذل سريعاً ومات فانه يتخلص من جوركم أيها القضاة الظلمة الذين لا يستخدمون الجسد إلا ليستولوا على النفس أيضاً. وإذا لم يُفضّلوا على الله غضبوا كأن قد أحقنا بهم إهانة فظيعة فيتوعدوننا بشرّ الأعذبة ويعتدّون علينا إيماننا جنائية. غير انكم لن تلاقوا منا رجلاً جبناءً يحبون الحياة أو يهابون صعباً في سبيل محبة الله. وها انا مستعدّون لاحتمال عذاب الدولاب والأحصنة والحريق وكل صنف من أصناف التعذيب».

٥ - الحكم بالموت

فلما سمع المتعجرف الشرس هذه الكلمات شقّت عليه جرأة أولئك الجنود الصناديد وفار فائر غيظه فعلق يفكر في استنباط وسيلة يذيقهم بها الموت مُراً طويلاً، إلى أن اهتدى إلى اختراع في غاية الهَمْجِيّة ودونكم ما هو:

لَمَّا تَأَمَّلَ طبيعة البلدة فوجد أنها شديدة البرد جداً، وفصل السنة فرأى انه فصل الشتاء، اغتم ليلة اشتد فيها الزمهرير والبرد وهبّت ريح شالية تقطر سمّاً ثم أمر بأن يعرّوا جميعاً ويقفوا هكذا في العراء في نصف المدينة إلى أن يجمد الدم في عروقهم فيموتوا. ولا أخالكم تجهلون أنتم الذين اخترتم برد الشتاء، كم ان هذا العذاب شديد. فانه يستحيل على الذين لم يذوقوا طعمه ولم يختبروا في أنفسهم حقيقته أن يُحسنوا تصويره لنا. فالجسم ينفذ فيه البرد القارس فيصير أذكن اللون أسوده لجمود الدم فيه، ثم ينتفض وتأخذه القشعريرة وتصلطك الأسنان وتتقلّص الشرايين والعروق، وكل الأعضاء تتشنج بغتة منقبضة فيشعر الإنسان بوجع شديد وألم لا يوصف ينفذ حتى إلى تقيّ العظام فيجعل للمس لمن تجمّد الدم في عروقه عذاباً لا يُطاق. وبعندئذٍ تسود الأطراف كأنها قد أحرقت

بالنار ثم تتناثر شيئاً فشيئاً. وتراجع الحرارة عن أطراف الجسم إلى القلب تاركة الأعضاء التي تنسحب منها ميتة والأعضاء التي تلجأ إليها متألّمة، ريثما تُقبل المنيّة ببطء مع تجمّد الدم. حكم إذن عليهم بأن يقضوا الليلة في الفضاء في مستنقع كانت المدينة التي فيها جاهد القديسون قائمة على جوانبه. وكان قد غشاه الجليد فأضحى كسهل يمكن أن تتسابق فيه جياد الخيل ويمشي فوقه السكان آمنين. أما الأنهار التي كانت تجري بدون انقطاع فحال دونها الجليد فوقفت عن جريها. والمياه السائلة من طبعها تحولت إلى صلابة الحجارة. وكانت ريح الشمال القارسة تودي بحياة كل ذي نسمة.

٦ - إلى بحيرة الجليد

وهنا تأمل بأس هؤلاء الأبطال. فانهم حالما سمعوا ذلك الحكم خلع كل واحد ثيابه عن آخرها ومشوا إلى الموت موت الجليد بحث بعضهم بعضاً كأنما على استلاب غنيمة. وكانوا يقولون: «لستنا نخلع ثوبنا بل الإنسان العتيق الفاسد بشهوات الغرور» (أفسس ٤/٢٢). اننا نشكرك يا رب على اننا بتجرّدنا من هذا الرداء نطرح الخطيئة. لقد تردّينا بمشورة الحياة وها نحن نزرعه لأجل المسيح. فلا تعلق بثيابنا لننال الفردوس الذي أضعناه. بماذا نكافي الرب؟ ان سيدنا قد عرّي مثلنا، أفعظيم أن يتألم العبد كمولاه؟ بل اننا نحن أنفسنا قد عرّيناه لأن تلك الجسارة إنما كانت فعل الجنود وهم الذين جرّدوه من ثيابه، واقتسموها بينهم. فعلينا إذن نحن الجنود أن نمحو تلك الشكاية المكتوبة علينا. ان الشتاء قارس ولكن الفردوس عذب. ان الجليد مؤلم ولكن الراحة حلوة. لنصبر قليلاً فيكون حضن أبي الآباء دفناً. فلنستبدل ليلة بطول الأبد. إلّا فلتسودّ القدم محترقة لتتنقل يوماً مع الملائكة. ولتسقط اليد لكي تُرفع بدالة إلى السيّد. كم من زملائنا الجنود قد سقطوا في ساحة القتال ليحافظوا على أمانتهم للملك زائل. وأما نحن أفلا نطوّح بحياتنا هذه محافظة على الأمانة للملك الحقيقي؟ كم من أناس ماتوا موت الأثمة لأنهم أخذوا في إثمهم، أفلا نحتمل الموت لأجل البر. فلا نجزع يا زملاءنا في الجنديّة ولا نُولّ الشيطان ظهراً فارّين من وجهه. هي أجساد فلا تستبقوها. وبما أن لا مفرّ من الموت فلنمت لكي نحيا. لتكن ذبيحتنا أمامك يا رب (دانيال ٤٠/٣) واقلبنا كضحية حيّة مرضيّة عندك (رومية ١٢/١) ان التقدمة حسنة والمحرقة جديدة مُصلحة بالبرد لا بالنار. « بهذا الكلام كانوا يستنهضون همهم ويشحذ الواحد عزيمة الآخر كمثل حرس يُزجّون الليالي في أوان الحرب صابرين

بجلادة على الأذية الحاضرة طربين للأفراح المستقبلية هازئين بالعدو. وكان للجميع دعاء واحد، وهو هذا: يا سيد، اننا دخلنا إلى الميدان أربعين فلتتوج نحن الأربعين ولا يقل عددنا الكريم فانك شرفته بصومك الأربعيني، وبمثله دخلت الشريعة إلى العالم. كما ان إيليا التمس الرب، فبعد صوم أربعين يوماً استحق مشاهدته. تلك كانت صلاتهم.

٧ - فشل أحدهم ونزول الحارس مكانه

إلا أن واحداً منهم قد غلبَ من شدة العذاب فأخلى موضعه، ومضى تاركاً في نفوس الشهداء غماً لا تسليه له. غير أن الله تعالى أبى أن لا تتم صلاة عبده، فان الجندي الذي فوّضت إليه حراسة الشهداء كان قريباً منهم في محلّ رياضة جسدية يستدفي. وكان ينتظر ما سوف يكون، مستعداً لقبول الذين يلجأون إليه ملقين سلاحهم. لأن الحاكم كان قد فكر بأن يجعل بالقرب منهم حمّاماً لتتبيأ المساعدة السريعة للذين يرجعون عن عزمهم. هذا ما افتركه به الوالي بحبثٍ عندما اختار ذلك المكان لتعذيب الشهداء. وغايته أن يفلّ ثبات المجاهدين بأعداده هناك ما يلزم من أسباب الراحة. فما كان منه إلا أن أوضح بأجلى بيان صبرهم العجيب. فانه ليس العزيز من صبر وليس في يده شيء بل من امتنع عن التمتع وهو في فضل من العيش.

وحين كان القديسون يحاهدون كان الحارس يراقب ما سيحدث. فأبصر مشهداً عجبياً: ملائكة هابطين من السماء، ومعهم أشياء أشبه بعطايا سنية من قِبل الملك القدير يوزعونها على أولئك الجنود. ففرّقوا تلك الهبات على جميعهم ما خلا واحداً تركوه بدون جائزة مُحْتَسِبه غير أهل لها. وللحال فشل ذلك الجندي الهارب، وذلك البطل المأسور، نعمة المسيح الواقعة ما بين أنياب الذئاب. وأما ما يُتَوَجَّعُ له بالأكثر فهو ان ذلك المسكين خسر الحياة الأبدية ولم يتنعم بهذه الحياة لأن جسمه قد انحلّ حال نزوله في حمّام الماء الحارّ، فسقط ذلك الحب الحياة ميتاً، وارتكب الخطيئة بلا جدوى. أما الحارس فلما رأى انه فشل قصد الحمّام وأخذ موضعه فألقى ثيابه وانضمّ إلى الشهداء صارخاً على مثاهم: «اني مسيحي». فأدهشهم بارتداده الفجائي وأكمل عددهم وأزال بانضوائه إليهم الغمّ الذي حلّ بهم بسبب ذلك المسكين، فاعلاً فعل الجنود في ساحة الحرب. فانه كلما سقط منهم واحد في الصفوف الأولى بادر غيره لأخذ محله وسدّ الثلمة لئلا تدور الدوائر على الجيش بسبب سقوط ذلك الجندي. هكذا فعل هو أيضاً. رأى

تلك الآية السماوية فعرف الحق ولجأ إلى السيد فأحصي في عداد الشهداء. وجدّد ما حدث للرسول فان يهوذا خرج من بينهم فقام متياس مقامه (أعمال ١/١٦). اقتدى ببولس الذي كان بالأمس مضطهداً فأصبح اليوم مبشراً. ودعوته قد آتته أيضاً من السماء «لا من قبل الناس ولا بإنسان». (غلا ١/١) آمن باسم ربنا يسوع المسيح واعتمد به لا عن يد آخر بل بإيمانه عينه. لا بالماء ولكن بدمه نفسه.

٨ - نهاية جهادهم

ولما جاء النهار وفيهم رمق من الحياة دُفعوا إلى النار وألقي رمادهم في النهر لكي تجتمع كل العناصر على استشهداتهم. لأنهم كافحوا على الأرض وصبروا على انفعالات الهواء ودفعوا إلى النار وتقبّلت المياه بقاياهم. فيحق لهم أن يهتفوا: «جزنا في النار والماء ثم أخرجتنا إلى الراحة». (مز ١٢/٦٥).

٩ - حمايتهم وشفاعتهم القديرة

هؤلاء هم الذين نزلوا بجوارنا فعدّوا كأبراج وحصون راسخة يحمون بلدتنا من هموم الأعداء. غير أنهم لم يحصروا ذواتهم في مكان واحد بل حلّوا ضيوفاً في بلاد جمّة فشرّفوا أوطاناً كثيرة العدد. ومن الغريب أنهم لا يأتون إلى من يقبلهم كل واحد بمفرده وبمعزل عن البقية، بل يسيرون كلهم معاً. فيا للعجب كيف لا يقلّون عدداً ولا يكثرّون. انك ولو وزعتهم على مئة لما تجاوزوا عددهم، ولو جمعتهم في واحد لبقوا أربعين كما هم. كالنار التي تسري بحرارتها إلى الذي يضرّمها وتبقى كلها في وقودها. كذلك الشهداء الأربعون. فكلهم معاً وكلهم مع كل واحد. انه لإحسان فائض، انها لنعمة لا تنفد. ان للمسيحيين نجدة حاضرة في جماعة الشهداء، جيش المظفرين وجوق ممجدي الله.

كم تبذل من المساعي لكي تجد شفيعاً واحداً يتشفّع فيك لدى الرب. وها هنا أربعون شفيعاً يتضرّعون بصوت واحد. قال السيد له المجد: «حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون هناك فيما بينهم» (متى ١٨/٢٠) فاذا كانوا أربعين فهل يشكّ بحضور الله فيما بينهم؟ فليلجأ المغموم إلى الأربعين والمسرور فليبادر إليهم. أما الأول فلينفّس كربه أما الآخر فلنحفظ له مسرته. والامراة التقيّة فلتستغثّ بهم مصلية من أجل أبنائها أو من أجل رجوع رجلها إن كان غائباً أو سلامته إن كان مريضاً. ولتقرن صلواتكم بصلوات

القديسين. الشبان فليقتدوا بهم ، والآباء فليتمنوا أن يحصلوا على أبناء يحاكونهم . أما الأمهات فليتعلمن من مثال تلك الأم الصالحة التي رأت أن ابنها لم يزل فيه بقية حياة ، خلافاً لأصحابه ، وذلك لقوة بنيته وقدرته على الاحتمال ثم رأت الشرط قد تركوه جانباً فلعلّه يعدل عن رأيه ، حملته هي على ذراعيها ووضعت على العجلة حيث طُرح الآخرون ليؤخذوا إلى الحريق .

حقاً انها لأم شهيد . فانها لم تذرف دمعة في غير وقتها ، ولم تتلفظ بكلمة لا تطابق الحال بل قالت : « سر يا بني سيرك الحسن مع أترابك وقرنائك ولا تتخلف عنهم ولا تظهر أمام السيد بعدهم . » فيا له من فرع كريم لأصل كريم . فقد أظهرت تلك الأم الشجاعة أنها قد غذته بتعاليم التقوى أكثر مما بالدين . كذا ربته وكذا ودعته تلك الأم التقية . أما الشيطان فارتد خجلاً لأنه أثار عليهم كل الطبيعة فرأى أن شجاعة هؤلاء الأبطال قد استظهرت عليها وتغلبت على الليل الرائع والبرد القارس وفصل السنة وتعري الأجسام .

خاتمة الخطاب

فيا أيها الجوق المقدس والطعمة الطاهرة والجيش الذي لا يُخترق . أيها الحراس العامون الساهرون على جنس البشر والمعاونون ، الجميع في مهامهم ، والمشاركون لهم في الصلاة . أيها الشفعاء المقتدرون ، نجوم المسكونة وأزهار الكنائس . ان الأرض لم تخفكم ولكن السماء تقبلتكم ففتحت لكم أبواب الفردوس . أجل لقد كان مشهداً جميلاً لجنود الملائكة لائقاً بالآباء والأنبياء والصديقين . ان رجالاً في مقتبل العمر يحرقون الحياة ويحبون الله فوق والديهم وأبنائهم ، وفي هذا العمر الذي كله آمال في الحياة يزدرون ويستهنون بالحياة الحاضرة لكي يمجّدوا الله في أعضائهم . ولما صاروا مشهداً للملائكة والبشر (١ كور ٩/٤) أقاموا الساقطين وثبتوا المضعفين وضاعفوا عناية وهمّة الأتقياء . وإذا أقاموا جميعاً للدين نُصِبَ انتصار كللوا باكليل العدل الواحد يسوع المسيح ربنا الذي له المجد والعزة إلى دهر الدهور آمين...

الأب كيرلس حداد المخلصي

(المخطوطات المخلصية)

تحريض على العماد المقدس

للقديس باسيليوس الكبير

١ - ان سليمان الحكيم ، في تمييزه لحقبات الحياة ، كان يحدّد منفعة كل حدث قائلاً : لكل أمر أوان ولكل غرض تحت السماء وقت . للولادة وقت وللموت وقت (جا ١٣/١-٢) . أجل ، ولكنني سأعدّل قليلاً حكمة الحكيم إذ أقول ، معلناً لكم بشرى الخلاص : للموت وقت ولبدء الولادة وقت ... لماذا هذا التغير؟ كان سليمان يتكلم عما يخص الولادة والموت ، وطبقاً للطبيعة الجسدية جعل الولادة قبل الموت ، إذ يستحيل على من لم يبدأ الحياة أن يدرك اختبار الموت ؛ أما أنا سوف أحدثكم عن الولادة الجديدة ، الولادة بالروح ، جاعلاً الموت قبل الحياة .

١ - زمن العماد

في الواقع ، إذا متنا للجسد نجياً للروح ، كما يقول الرب : أنا أميت وأنا أحيي (ث ٣٢/٣٩) ، لَمُتْ إذن كي نحيي . لنقتل فكرة الشهوة التي لا تستطيع الخضوع لناмос الله ، حتى تولد فينا وبقوة ، فكرة الروح التي ينتج عنها طبيعياً الحياة والسلام . لنُدفن مع المسيح الذي مات لأجلنا فنقوم معه . انه رسول قيامتنا .

لكل غرض وقت يلائمه : للنوم وقت وللشهر وقت ، للحرب وقت وللسلام وقت ؛ أما وقت العماد فيستنفد حياة الإنسان كلها . وكما ان الجسد لا يحيا بدون تنفس ، كذلك النفس لن تستمر بدون معرفة خالقها . فجهل الله هو موت لها . والذي لم يعتمد لم يستز . فبدون النور لا تستطيع العين أن تتفحص ما يهيمها ، ولا النفس أن تتأمل في الله . لهذا ، كل وقت يناسب الخلاص بالعماد ، ليلاً كان أو نهاراً أو ساعة أو قدراً أقلّ من الزمن مهما قصّر . يبدو من المؤكّد أن الموعد الأكثر قرباً هو الموعد الذي لا يوافق أبداً . هل هناك أنسب للعماد من يوم الفصح ؟ لأن هذا اليوم يحيا القيامة ، والعماد هو طاقة تهدف إلى القيامة . لذا لتقبّل في هذا اليوم نعمة القيامة .

٢ - رتبة العمداد

لهذا السبب تدعو الكنيسة منذ زمن طويل «صغارها» عبر تحريض سام حتى ان الذين ولدتهم سابقاً في الألم تضعهم في العالم، وبعد أن تكون قد غدتهم بلبن تعاليمها المسيحية تذيبهم غذاء عقائدها القوي.

لقد كرّز يوحنا المعمودية التوبة فأقبلت إليه كل اليهودية. ويعلن الرب عماد التنبّي. فن لا يطيع كلمته ممن وضعوا رجاءهم فيه. المعمودية يوحنا كانت المدخل، ومعمودية المسيح هي النّمام. تلك كانت فصلاً عن الخطيئة وهذه إلفة مع الله. إعلان يوحنا كان إعلان إنسان فرد وقد دفع الناس إلى التوبة، أما أنت فلقد تعلمت من الأنبياء: «اغسلوا وتطهروا» (أش ١: ١٦) وأخطرتك المزامير: «تقدّموا إليه واستنبروا» (مز ٣٣: ٦). انك تسمع البشارة الحسنة من فم الرسل: «توبوا وليعتمد كل أحد منكم باسم يسوع لمغفرة الخطايا، فتنالوا موهبة الروح القدس» (أعمال ٢: ٣٨). والسيد نفسه يساعدك بقوله: «تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وأنا أريحكم». (متى ١١/ ٢٨). (وقد وردت هذه الآيات في القراءة)، أتتردّد وتشاور وتتحير بعد؟ ألا توافق الحقيقة أنت الذي تعلمت منذ الصغر؟ ألم تبلغ بعد الى المعرفة يا من لم تزل تدرس؟ ويا من تختبر الحياة وتستقصيها حتى الشيخوخة، هلا أصبحت مسيحياً؟ هلاًّ عددناك واحداً منا؟ لقد رضيت في العام المنصرم أن تعتمد في مثل هذا اليوم، والآن من جديد تنتظر العام المقبل. اسهر لئلاً تفاجأ فيما تعطي مواعيد أطول من حياتك. انك لا تعلم بما يؤتيك الغد، فلا تعدّ بما ليس لك.

إننا ندعوك يا رجل إلى الحياة، لماذا تهرب من النداء؟ ألتأخذ قسطك من السعادة؟ لماذا تهمل هذه العطية؟ ملكوت السماوات مفتوح، والذي يدعوك لا يكذب؛ الطريق سهل فلا حاجة لوقت أو لنفقة أو لعمل. لماذا تتأخر؟ لماذا تتراجع؟ أنتخاف النير كعجلة لا تعرفه؟ «انه لئّن وضعيف» (متى ١١/ ٣٠)، لا يرهق الكتفين بل يمجدهما؛ انه لا يوثق العنف بل يطلب من يحمله برضاه. هل تعلم ان افرائيم اتهمت، كعجلة جموح، شردت دون نظام، محتقرة نير الشريعة؟ أخضع عنقك غير المروّض. تعال وضع نير المسيح على عنقك خوفاً من انك إذا أطحت به ولم تعش بحرية، تقع فريسة سهلة للحيوانات المفترسة.

٣ - رسوم العماد

٢ - «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» (مز ٣٣/٩) كيف تعرف حلاوة العسل لمن يجهلها في ذوقوا وانظروا: ان معنى كل كلام يتضح بالاختبار. اليهودي لا يؤجل الختانة بسبب التهديد هذا: «وأى أقلق من الذكور لم تختن القلفة في بدنه في اليوم الثامن تقطع تلك النفس من شعبها.» (تك ١٧/١٤). وأنت ترجئ هذه الختانة، حيث لا تتزعزع اللحم، بل التي تتم بالعماد، وقد سمعت كلام الرب: الحق الحق أقول لك، ان لم تولد من الماء والروح فلن تدخل ملكوت الله (يو ٣/٥) فمن جهة ألم وجرح، ومن أخرى ندى للنفس ودواء للقلب المنتم. أتعبد الذي مات لأجلك؟ إذن ارتض أن تدفن معه بالمعمودية. إذا لم تتأمل وإياه في التشبه بموته، فكيف تشترك معه بقيامته؟ لقد اعتمد اسراييل بموسى في الغمام، وهو ينقل إليك أنموذج وصورة الحقيقة التي سنكشف في الأزمنة الأخيرة. انك تهرب من العماد، لا الذي رُمز إليه في البحر، بل الذي يتم حقيقة، ليس في الغمام، ولكن بالروح القدس، ليس بموسى رفيق العبودية بل للمسيح خالقك. لو لم يجز اسراييل البحر لما نجا من فرعون، وأنت إن لم تجز في الماء لن تنجو من استبداد الشيطان الخيف. ما كان اسراييل ليشرب من الصخرة الروحية لو لم يعتمد رمزياً، وأنت لا تُعطى الشراب الحقيقي إذا ما اعتمدت حقيقة. اسراييل أكل خبز الملائكة بعد عماده، وأنت كيف تأكل الخبز الحي إذا لم تقبل العماد قبلاً؟ اسراييل بلغ أرض الميعاد بفضل العماد، وأنت كيف تعود إلى النعيم ما لم تُوسم بالعماد. ألا تعلم أن سيفاً ملتهباً نصب ليحرس طريق شجرة الحياة، انه مخيف ومحرق للجاحدين، ومدخل هين ومتألق للمؤمنين، جعله الرب ينقلب عندما يرى مؤمناً ويُظهر حده لغير الموسوم.

٣ - لم يضطرب إيليا من المركبة النارية والخليل المتقدمة التي كانت آتية إليه، ولكنه، لرغبته في الارتفاع تجرأ رغم خوفه، لقد صعد بفرح إلى المركبة المتقدمة، هو الذي كان يحيا في الجسد؛ وأنت، ما عليك أن تصعد في مركبة نارية، بل أن ترتفع نحو السماء بالماء والروح، فلماذا لا تبادر إلى تلبية النداء؟ لقد أظهر إيليا قوة العماد على مذبح التقادم حين أحرق الضحية بالماء لا بالنار. والحال أن النار، من جهة، بطبيعتها، تحارب الماء؛ ومن جهة أخرى، عندما سكب الماء رمزياً على الهيكل ثلاث مرات تحوّل إلى ينبوع نار وأعطى لهيباً كلهيب الزيت. «قال املاؤا أربع جرار ماء وصبوا على الحرقعة وعلى الحطب، ثم قال ثنوا فثنوا ثم قال ثلثوا فثلثوا» (٣ ملوك ١٨/٣٤). يُظهر هذا الكلام أن المرشح

يوافق الله بالعماد وأن نوراً سماوياً يتألق في نفوس الذين التزموا، لإيمانهم بالثالوث.

٤ - الذين يرجئون اقتبال العماد

لو كنت أوزع ذهباً على الجماعة ، لا تقول لي : « سآتي غداً وسوف تعطيني » ؛ بل تطلب حصتك من التوزيع محتملاً بصعوبة أن يسبقك أحد. وعندما يعرض عليك الموزع الأكبر ليس مادة بَرّاقة بل طهارة النفس ، تختلق الأعذار وتحصي الأسباب وكان حريّ بك أن تأتي إلى التوزيع . انه لشيء مدهش ، تريد أن تتجدّد دون أن تذوّب ، أن تأخذ صورة جديدة دون أن تُكسر ، أن يُعتنى بك دون أن تعاني شيئاً ، ولا تأبه بالنعمة . لو كنت عبداً للناس وتقرّر موعداً للعتق ، ألا كنت تجيب في اليوم المقرر وتدفع للمحامين مستصرخاً من القضاة حتى تُختار لتتحرر ؟ إني أفترض أنك تقبل صفقة وهي آخر ضربة تُعطى للعبيد ، على أمل أن تُعتق بعدئذٍ من كل عتق . الآن وأنت عبد لا للناس بل للخطيئة ، المنادي يدعوك إلى الحرية ، ليعتقك من أسرك ويجعلك معادلاً للملائكة في الحقوق ، وبقيمك ابناً لله بالتبني ، بواسطة النعمة ، وارثاً لخيرات المسيح ، وتقول بأن الوقت لم يحن بعدُ لك لنيل هذه المواهب .

انها لعوائق يُرى لها ! وموانع مخجلة ولا حدّ لها ! إلى متى الشهوات الحسية ؟ لقد عشنا مدة طويلة من الوقت للعالم ، لنحيا إذن لذواتنا ما تبقى ! ماذا يعادل النفس ؟ وماذا يضاهي ملكوت السماوات ؟ أي رجل مشورة أجدر بالثقة من الله ؟ مَنْ أعقل من الرجل الحكيم وأكثر فائدة من الرجل الطيّب ؟ مَنْ أكثر إلفة مع الله ؟ لم يفد حواء السماع لإرشاد الحية أكثر من سماع مشورة الرب . انه لكلام غريب : « ليس لديّ متسع للشفاء ، لذا لا ترني الضوء ولا تربطني بالملك » . ألا تقول هذا الكلام ؟ بل تقول أكثر منه حماقة .

لنفترض أنك ملتزم بدفع الضرائب وأنّ حسماً من الديون العامة قد أعلن للمدينين تجاه الدولة ، وهناك من يحاول إلحاق الضرر بك بجرمائك من هذا الحسم ، فانك سوف تغتاظ وتصرخ لأنهم يجرمونك ما يعود عليك بالمنفعة العامة . وعندما يُعلن الصفح ليس عن الماضي فقط بل عن التقادم في المستقبل ، فإنك تلحق الضرر بنفسك في مادة لا يستطيع أي خصم أن يلحق الضرر بك في حين أنك تعتقد بأنك اتخذت قراراً صحيحاً وانك تدبرت حلولاً مفيدة لك أنت الذي لا يقبل سداد الدين ، بل تموت في ديونك ، مع انك تعلم أن المدين بعشرة آلاف وزنة قد كان يقبل الصفح لو لم يجدّد طلبه غير المحقّ

بقسوة من رفيقه. فلنحترس ألاّ تثور فينا نفس العاطفة عندما ننال النعمة حتى تبقى العطية لنا.

٥ - فوائد العباد

٤ - أدخل إلى قرارة نفسك، وحرك ذكرى أفعالك، إذا كانت أخطائك عديدة، فلا تنه عزيمتك لكثرتها، لأنه حيث كثرت الخطيئة، طفحت النعمة (رو ٥/٢٠)، إذا كنت أقله نلت النعمة؛ فمن عليه كثير يُغفر له كثير، لكي يحب بأكثر وفرة. وإذا ما كانت، على العكس، خطاياك بسيطة وخفيفة ولا تقود إلى الموت، فلماذا تقلق للمستقبل، أنت الذي لم تعيش أكيداً زمانك الماضي في الجبانة، هذا قبل أن تتلقن الشريعة؟ الآن وكأن نفسك في ميزان، تتجاذبها الملائكة من جهة والشياطين من جهة، فلمن منهم تعطي اندفاع قلبك؟ من ينتصر عندك؟ لذة الجسد أم تقديس النفس، متعة الخيرات الحاضرة أم رغبة الخيرات الآتية؟ هل ستقبل الملائكة، أم بالأحرى الذين يسكونك الآن يواصلون تملكهم عليك؟

في ساحة الوغى، يعطي القواد كلمة السرّ لجنودهم حتى يتنادوا بسهولة إذا ما اختلطوا بالأعداء، وإذا ما اختلطوا في العراك يسهل فصلهم. لا أحد يعرف إذا كنت منا أم من الأخصام إذا ما أثبت انتماءك بسمات «روحية»، إذا لم يرسم في وجهك نور الرب. كيف يتصرّف الملاك تجاهك، كيف يقتلعك من الأعداء إذا لم يتعرّف إلى الختم؟ كيف يمكنك أن تقول «أنا من الله» إذا لم تُبرز علامات اعترافك به؟ أتجهل أن المهلك كان يحفظ البيوت المختومة ويذبح كل بكر من البيوت غير المختومة؟ ان السارقين ينهبون بسهولة كترًا غير مختوم؛ ولا من خطر في السطو على قطيع صغير غير مميز.

٥ - أنت فتى؟ احفظ شبابك بوازع العباد. هل شرح الشباب ولّى؟ فلا تبدّد ذخائرك ولا تنفق ثرواتك، لا تظن أن الساعة الحادية عشرة تشبه الأولى. يحسن في هذه المرحلة من الحياة أن تضع الموت نصب عينيك. لو ان طبيباً وعدك بأن يعيد إليك شبابك باقتلاع الشيخوخة منك بعلاجاته وحيله، ألا تودّ الذهاب إليه في اليوم عينه حتى يعيد إليك قوة العمر؟ العباد يدعوك بإنعاش نفسك التي خربتها وغصبتها ولطختها بأوزارك، إنك تزدري المحسن إليك ولا تبادر إلى وعده! ألا تودّ رؤية معجزة الوعد الكبرى؟ كيف يمكن للإنسان أن يولد من جديد بدون أم، كيف على الشيخ المنفسد بالارغائب الخداعة

أن تعود إليه الحيوية ، أن يعود فتياً وتعود إليه زهرة الشباب الأولى ؟ العباد هو فدية الأسرى وتسديد الديون وموت الخطيئة وتجديد ولادة النفس والرداء المتألق والمركبة إلى السماء وضمانه الملكوت ونعمة التبني .

أدرك جيداً إرجاءك العباد إلى ما بعد ، ولو احتميت وراء الأعذار ؛ ان الأشياء نفسها تصرخ إن أنت لزمت الصمت ، « اتركني وشأني ، سأستغل الجسد لمتع دنيئة ، أريد أن أتمرغ في وحل اللذات ؛ وأخضّب يدي ، أود أن أسرق مال غيري ، أن ألجأ إلى الخداع ، أن أحلف زوراً ، أن أكذب ؛ وعندما أنتهي يوماً من أفعالي القبيحة آنثذ اقتبل العباد . » إذا كانت الخطيئة حقاً خيراً فاحتفظ بها حتى النهاية ؛ أما إذا كانت تسيء إلى الذي يقترفها ، فلماذا تتابع المجازفة في إهلاك ذاتك ؟ لو أراد أحد أن يتقياً مرارة ، لا يعمل على زيادة إثارته بما هو فاسد ومفرط ، بل يحسن أن ينظف جسده من كل ما هو ضارّ بدل أن يعمل على تفاقم المرض . من الواضح أن السفينة تتحمل وزناً معيناً من الحمولة ، فإذا ما زاد غرق ؛ احترس أن تصيبك نفس المغامرة وانك بعد أن ترتكب خطايا أكثر مما يُغفر لك ، تُصاب بالغرق قبل أن تصل إلى الميناء المرجو . ألا يرى الله ما يجري أو أنه لا يدري بأفكارك ؟ أو إنه يساعدك على خطاياك ؟ انه يقول : « صنعت هذا فصمتُ فظننتُ أني مثلك » (مز ٤٩/٢١) .

٦ - خطر إرجاء قبول السرّ

عندما تبحث عن صداقة إنسان ، تجتذبه إليك لإحسانه ، تقول وتفعل ما يستبين لك مستحجاً لديه ؛ عندما تسعى لتصبح أليف الله الذي ترجو أن تكون بمثابة ابن له ، إذا اقترفت أعمالاً منوثة له ، وإذا أهنته بتعديك لشريعته الذي به تجرحه ، تأمل أن تحصل على صداقته ؟ على أمل تحرّرك تيقظ حتى لا تتراكم عليك كثيرة الزلات وأن تحشد الخطيئة وأن تحرم نفسك من الغفران . فان الله لا يُستزأ به (غلا ٦/٧) . لا تستغلّ النعمة بحيث تقول : « الشريعة جيدة ولكن الخطيئة مستحبة أكثر » . اللذة هي شصّ الشيطان ، تقود إلى الهلاك . اللذة هي أم الخطيئة والخطيئة هي شوكة الموت . اللذة هي بؤرة حشرة الأبدية . الآن تفتن من يتمتع بها ، ولكن بعدئذٍ ، تجعله يتقياً مرارة . الماطلة في التأجيل إن هي إلا صراخ : لئلك الخطيئة أولاً عليّ وسيملك الرب يوماً عليّ . أسلح أعضاءي بسلاح الظلم للكفر ؛ ثم أسلحها بنفس أسلحة البرّ لله . قاين كان يقرب أيضاً محرقاته :

النخبة الأولى لنعيمه الخاص ، والثانية لله الخالق والموزع . وأنت ، على قدر استطاعتك ، بدّد شبابك في الخطايا إلى أن يضعف فيك الجسد فحينئذٍ تقدّمه لله حينما يصبح غير صالح لشيء إلا لأن يهمل نتيجة انهالك إياه وعدم منفعة . عفاف الشيخوخة ليس بعفاف إنما هو عجز . لا يتوّج المائت ولا يتبرّر إنسان لعجزه عن عمل الشرّ . على قدر استطاعتك تغلب على الخطيئة بالعقل . ان الفضيلة تتركز على هذا : اجتنب الشرّ واعمل الخير (١ بط ١/٣) . عدم الشرّ ، بحدّ ذاته ، لا يستحقّ المكافأة ولا العقاب . إذا امتنعت عن الخطيئة بسبب سنّك ، فهذه ثمرة ضعفك . اننا نشي على أهل الفضيلة لاختيارهم الحر ولا نشي على من دُفعوا إليها بحكم الضرورة .

من عيّن إذن حدود حياتك ؟ من حدّد حلول شيخوختك ؟ من تراه أهلاً بثقتك ممن حولك ، ليكون كفيلاً لما سيحدث لك ؟ ألا ترى أطفالاً خُطفوا وهم في المهد ، وآخرين في قوة العمر ؟ انك لا تستطيع أن تضمن حياتك ولا يوماً واحداً ، فلماذا تنتظر أن تكون معموديتك هدية الحمى إليك ؟ ففي هذه الآونة لا تقدر أن تلتفظ بكلمات الخلاص ، ولربما لا يكون باستطاعتك أن تسمع جيداً ؛ المرض يصيب رأسك ، فأنت عاجز عن أن ترفع يديك إلى السماء ، وأن تنتصب على رجليك ، وأن تجثو على ركبتيك لتعبد ، وأن تستفيد من تعليم ، وأن تعترف بوضوح ، وأن تتجدّد بالله ، وأن تكفر بالعدو ، وأن تتابع بوضوح طقس عمادك ، بحيث أن الحضور لا يعرفون إذا ما كنت متنبهاً للنعمة أو فاقد الحس مما يجري . وإذا ما قبلت النعمة بملء معرفتك ، فأنت تملك الموهبة ولكن دون أن تفيدك شيئاً .

٧ - أمثلة الكتاب المقدس

٦ - إقنيدٍ بخصي سفر الأعمال . إذ وجد الكارز لم يحقر تعليمه ؛ لقد أصدع الغنيّ الفقير إلى مركبته ، والرجلُ القدير والمشيّع أصدعَ البسيطَ المزدري ؛ عندما تلقى إنجيل الملوكوت ، اقتبل الإيمان في قلبه ولم يُرجى ختم الروح . في الواقع ، لما وجدوا ماء ، قال : هوذا ماء ، كلامه صدر عن فرح عامر : هذا ما نبحث عنه ، فما المانع من أن أعتمد (أعمال ٣٦/٧) . عندما توفّر له ما أراد لم يعد من حائل دونه ، لأن الذي يدعو يجب الإنسان ، الشماس مستعدّ ، النعمة فائضة ، وهو كله رغبة ؛ فلا مانع .

إذا وُجد عائق ليقوفنا وليسدّ طريق الخلاص ، فلنتغلب عليه بالمعرفة . إذا ما جعلنا

نتردّد ، لننتصب ونعمل ، انه يضلّ قلوبنا بوعود جوفاء ، فلا نجهلن مقاصده . ألا يوحى إليك بأن ترتكب الخطيئة اليوم ويقنعك بأن تحتفظ بالبر للغد؟ لهذا فإن الرب يسحق مشوراته السيئة فينا إذ يقول : «اليوم ، إذا سمعتم صوتي» (مز ٨٩/٩) وهو نفسه يجب : اليوم ، اسمعوا صوتي . إفهم عدوك : انه لا يجرؤ أن ينصحك على أن تنفصل نهائياً عن الله (إذ يعرف أن المسيحيين يكرهون سماع مثل هذه الأقوال) ، ولكنه يتابع مخططة بوسائل خداعة . انه ماهر في الاساءة ويفهم جيداً أن البشر يعيشون حاضريهم وان كل عمل يتم في الحاضر . فإذا ما سلبنا يومنا بمكر ، يترك لنا الرجاء للغد ، وإذ يأتي الغد ، يصل إلينا من جديد شريكنا الشرير ؛ يطلب اليوم له والغد للرب ؛ وهلمّ جرّاً دون نهاية . يسلب الحاضر على حساب اللذة ، ويترك الغد لآلامنا ، وهكذا عن جهل منا يحولنا عن سبيل الحياة .

٨ - اختبار الحياة

٧ - أخذت أراقب يوماً قساوة أحد الكواسر . كان يأخذ صغار العصافير لطراوة لحمها ؛ كان يتظاهر طريفة هيّنة للصيادين ثم يهرب منهم ، بعيداً عن مناهم ؛ لم يكن من السهل القبض عليه ، إلا أن الصيادين لم يتخلّوا عن غنيمتهم ؛ كان يحبّ أملهم ورغبتهم في القبض عليه ، حتى يتمكن بهذه الوسيلة أن يطير بصغار العصافير التي لم تكن لتهرب منه . أنت أيضاً ، حذار عن أن تحصل لك مثل هذه المغامرة المزعجة عندما تتخلى عن خيارات ثابتة لأجل أمل غير أكيد .

لذا اتبعني إلى هنا ، ضع اتكالك كله على الرب ، اعطِ اسمك وسجّله في الكنيسة . الجندي يحصى على اللوائح ، ويبدأ المصارع مصارعته عندما يلتزم ، ويتسجل المواطن ويحصى بين أعضاء القبيلة . انك ستؤدي حساباً عن كل هذا كجندي للمسيح ، كمصارع في التقوى ، كمواطن للسموات . قيّد اسمك في السجل حتى تشترك في التسجيل في كتاب السماء . تثقّف وادرس الدستور الإنجيلي ؛ عفاً النظر ، ضبط اللسان ، ضبط الأهواء ، قهر الجسد ، السيطرة على الكبرياء ، صفاء الذهن ، تلاشي الغضب . إذا كرهوك فاعمل أكثر ؛ إذا هُضمّت حقوقك ، لا تقم دعوى ؛ أحبّ إذا أبغضوك ؛ إذا اضطهدوك لا تقاوم ؛ إذا افترؤا عليك صلّ . أمت الخطيئة ؛ اصلب ذاتك مع المسيح ؛ حوّل كل محبتك للسيد .

كل هذا شائك؟ وأية سعادة سهلة؟ من رفع نُصباً تذكارياً وهو نائم؟ من في الرخاوة وعلى سحر الناي كُلُّ لنشاطه؟ لا أحد يحرز نصراً إن لم يجاهد، الجهود تولّد المجد، والمحن تعدّ الاكاليل. «انه بمضايق كثيرة ينبغي لنا أن ندخل ملكوت السماوات» (أعمال ٢١/١٤). اني أخذ نفسي هذا القول، على أن غبطة الملكوت تعزي في المحن؛ وأما عذاب وحزن الجحيم فهما عقاب الخطيئة.

كل من ينظر موضوعياً يتبيّن له أن أعمال الشيطان تتطلب أيضاً جهداً من قِبَل عمال السوء. أية أعراق مجهدة تفرضها العقّة، بينا الماخن يتصبّب عرقاً، مجونه يذيه. هل انضباط الجسد يتطلّب أكثر مما يهده فجور الفسق؟ كيف تتمثّل ليالي أولئك الذين يقضونها مجتهدين في الصلاة، بينا ليالي أولئك الذين يقضونها في الخطايا... إن خوفهم من أن يؤخذوا في الجرم المشهود وهيجان اللذة يُطردان عنهم كل راحة. إذا كنت إذاً تهرب من الطريق الضيق الذي يقود إلى الخلاص وتبحث عن طريق الخطيئة الواسع، أخاف عليك، بعد أن تكون قد اجتزته حتى نهايته وفي رحابته، أن لا تجد مسكناً لك في نهاية الطريق.

ليس من السهل الحفاظ على الكنز. لديك معاونون إن شئت: الصلاة التي تسهر خلال الليل، الصوم الذي يحفظ البيت، وترنيم المزامير الذي يقود النفس. إجعل منها رفقاءك، لتسهر معك الليل تصون خيراتك الثمينة. قل لي أيها أفضل، أن نكون أغنياء وأن نُشغف في حفظ خيراتنا الثمينة، أو أن لا تملك أيدينا رهناً لما نحفظ به؟ لا أحد يتخلّى عن خيراته خوفاً من أن يحرم منها، كما انه لا شيء يعوّض الأشياء الإنسانية إذا فكّرنا بامكانية خسارة ما نعمل في سبيله. في الواقع، القحط يهدّد الزراعة، والغرق التجارة، والتملّ الزواج، والفشل التربية، ومع هذا نضع أيدينا في العجين، منتشطين بأحلى الآمال، نودع نهاية آمالنا الله الذي يرعى أمورنا. أنت تعطي في كلامك أهمية كبرى للقداسة، وفي الواقع تقضي أيامك في ما يؤوّل إلى الحكم عليك. حذار أن يأتي يوم تندم فيه على أعمالك الهدامة حيث لا يعود ينفع الندم.

٩ - مثَل العذارى

تأمّل مثَل العذارى. لم يكن معهن زيت في قناديلهن؛ فعندما كان عليهن أن يلجن مع العريس، تبّهن لما كان يفوتهن من الضروري، لذا فالإنجيل يدعوهن جاهلات،

لأنهن ، بينما ذهبن ليتمون ، أضعن الوقت ، الذي كان فيه زيتهن يحترق ، وهكذا أقصين عن أفراح العرس . أنت أيضاً ، انتبه ، سنة عن سنة ، وشهراً عن شهر ، ويوماً عن يوم ، من أن تصل دون أن تأخذ الزيت الذي ينير في يوم لا تنتظره ، حيث تحرم من وسائل الحياة ؛ العوز يصبح كلياً والعقاب لا يُشفق ، الأطباء يتركونك وأخصاؤك يبتعدون عنك ؛ بينما أنت يضيق نَفْسُك ويصعب تنهدك وتحترق وتذوب رويداً تحت حرارة حمى ملتهبة ، فتشنّ من أعماق قلبك دون أن تجد سنداً ؛ تحاول أن تهمس بشيء فلا أحد يسمعك ؛ كلماتك تُحسب هدياناً . من يمنحك حينئذٍ العمد ؟ من ينقلك من لا وعيك الذي أغرقك فيه مرضك ؟ أقرباؤك تثبط همهم ، الغرباء لا يهتمون للمرض ؛ الصديق يخشى ذكر الماضي كمصدر اضطراب ؛ الطبيب نفسه يخذلك ، وأنت نفسك لا تيأس لأنك متمسك بالحياة . هوذا الليل ، ما من معين ، وما من معمد . الموت ينتصب فوق سريرك والحفّارون . يتنافسون . من سينقذك ؟ الله ! فقد ازدريته . ربما سمع لك إن أنت استمعت إليه ؛ ربما يعطيك مهلة إذا ما استخدمت باستقامة اليوم الذي وهبك إياه .

خاتمة

٨ - لا يغركم أحد بالكلام الباطل (أفسس ٦/٥) . ان الموت سيطبق عليك فجأة ، والكارثة ستهاجمك كعاصفة هوجاء . سيأتي الملك مغمض العينين ، ليأخذك عنوة ويقود نفسك وقد استسلمت إلى الخطيئة وتقيدت بالأرض وناحت في صمت عميق . ستمزق نفسك ! سوف تتنّ وتتحسّر على أعمالك دون نتيجة ، عندما ترى فرح الصديقين في نور توزيع المكافآت ، وحزن الخطاة في أعماق الظلمات . ماذا تقول حينئذٍ والألم يحزّ في قلبك ؟ « يا لتعاستي لأنني لم ألقِ عني هذا الوزر الثقيل للخطيئة بينما كان متيسراً لي ذلك ، بل حملت هذا الثقل على كتفي . ويل لي لأنني لم أغسل أوساخي ، وعليّ الآن وسم خطاياي الأحمر ، لقد كان باستطاعتي الآن أن أكون مع الملائكة ، أنعم بالخيرات السماوية . يا لشقاوي ، بسبب لذة الخطيئة العابرة ، أتعذب إلى ما لا نهاية . لقد أُسلمت إلى النار بسبب لذة الجسد . قضاء الله عادل . لقد دُعيت فما أطعت ؛ كنت أعرف تعاليمه وما حفظتها ؛ كانوا يلحّون عليّ فأستزأ بهم » .

قد تقول هذه الكلمات وغيرها أيضاً منتحجاً على ذاتك ، إذا قضيت نحبك قبل العمد .

أيها الرجب ، اخشَ جهنمَ أو أَسعَ في كسب الملكوت . لا تحتقر النداء . لا تقل ، أرجو أن تعذرني بسبب هذا أو ذاك . أية ذريعة لا تفيدك للاعتذار . قد أتأثر حتى البكاء عندما أفكر بأنك تفضل الأعمال الشائنة على مجد الله الكبير ؛ غواية الفجور ترمي بك في أحضان الخطيئة وتقصيك عن السعادة المنشودة فلا تعود ترى جمال أورشليم السماوية ، حيث ألوف الملائكة ، وجماعات الأبرار ، وعروش الرسل ، وكراسي الأنبياء ، وصوالجة الآباء ، وأكاليل الشهداء ، ومدائح الأبرار . تشوق أن تُحصى بينهم ، مغسولاً ومقدساً بموهبة المسيح الذي له العزة والمجد إلى دهر الداهرين . آمين .

ترجمة الأب سليمان أبو زيد

مجلة (الوحدة في الإيمان)

١٩٧٩ ، عدد ٣ ، ٤

٧

محبة القرب: « لك خيرات كثيرة »

(لوقا ١٢ : ١٦ - ٢١)

للقديس باسيليوس الكبير

كان رجل غني أغلّت له أرضه ، ففكر في نفسه قائلاً : « ماذا أصنع فإنّ ليس لي موضع أخزن فيه غلاتي . ثم قال أصنع هذا ، أهدم أهرائي وأبني أكبر منها .. » (لوقا ١٢ / ١٦) . لماذا يا ترى أرض هذا الغني أغلّت كثيراً وفي قلبه رفضٌ لخدمة الآخرين رغم وفرتها عنده . هذا ، دون شكّ ليظهر بجلاء صبر الله الذي تشمل رحمته بشراً يشبهون مثل هذا الإنسان . « انه الرب الذي يطلع شمسهُ على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الأبرار والظالمين . » (متى ٥ / ٤٥) تأملوا ماذا يصنع الرب مع الإنسان . سكب الأمطار غزيرة على أرض تزرعها أيدٍ بخيلة ؛ وأطلع شمسهُ لكي ينمو الزرع ولكي تكثر الأثمار في الأشجار ؛ وزاد خصباً تلك الأرض . كل هذه الخيرات هي مئة من الله : خصب الأرض وطيب المناخ ، وفرة الزرع ، قوة البقر في الفلاحة ، بالاختصار كل الخيرات التي تساعد على خصب الأرض .

هذا كله كان من الله . وكيف قابل الإنسان الذي حكى عنه الإنجيل عطايا الرب . قابله بطبع رديٍّ وبجد على الآخرين ، وبأنانية تحب الاستثثار وترفض المشاركة . نسيَ هذا الإنسان الصلة الطبيعية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان ؛ ونسيَ الواجب المحتم عليه بأن يوزع على الفقراء ما يفضل عنه ، كما قال الكتاب : « لا تمنع الإحسان عن أهله إذا كان في يدك طاقة أن تصنعه . » (أمثال ٣/ ٢٧) « لا تفارقك الرحمة والحق بل أشددهما في عنقك واكتبها على لوح قلبك . » (أمثال ٣/ ٣) « اكسر للجائع خبزك... » . (اشعيا ٥٨/ ٧) .

... امتلأت اهراء هذا الإنسان حتى ضاقت بالقمح ، لكن قلبه ظل فارغاً من المحبة . عدا ذلك أوقعته وفرة الخيرات بالحيرة فصرخ ماذا أصنع ...

... أيها الغني اسمع أقوال السيد الذي رزقك كل هذه الخيرات . تأمل في نفسك ، واذكر من أنت ، وافحص جيداً مستفسراً عن الذي أعطاك كل هذه العطايا . إسأل نفسك . أعطيت أنت الشيء الكثير ، بينما آخرون قد حرموا منها ...

عندما تقرر أن تعمل شيئاً ما بهذه الخيرات التي بين يديك أذكر أنها كلها ليست لك . نعم إنها توفر لك السعادة برهة من الزمن ، لكن سرعان ما تتبخّر ؛ ورغم ذلك انك ستؤدي حساباً عنها . انك تكدّس المال وتخزنه في مكان أمين بحراسة أبواب محكمة الإقفال . لكنك لا تغمض لك عين بسبب همومك ، إذ أنت دائم التفكير بالخيرات . تقول ماذا أعمل . انه لأسهل عليك أن تقول : « سأغمر البائسين بالخير ؛ سأفتح أبواب أهرائي ؛ سأدعو الفقراء والمساكين ، سأشبه بيوسف فأكون مثله بطل الصلاح والرحمة وأقول : « تعالوا إليّ أيها الجائعون إلى الخبز ؛ ستكون لكم حصّة في كل ما أسبغه الرب عليّ من خيرات ؛ ستناولون ، كمن ينبوع خير لا ينضب جميع ما تحتاجون إليه . »

كان الغني يفكر بالخيرات ، كيف يكدّسها ويخزنها في الاهراء بينما طالبو نفسه كانوا يترصدونه ؛ كان يفكر بالمأكل والمشرب وبالتنعم بها بينما كانت ساعة رحيله عن هذه الأرض وتركه لكل الخيرات التي جمعها تدقّ منذرة بالموت العاجل . انتبه لثلا يصيبك المصير نفسه . فهذا المثل إنما أعطي للموعظة وللعبرى . تأمل الأرض ، فهي تحمل الثمر الكثير ، إنما لا تستفيد هي منه ، بل تبسطه لخدمة الناس أجمعين ...

لماذا أيها الغني تغتم وتجهّد لتضع غنائك كله في حِرز أمين وراء جدران محصّنة . « إنّ الصيت الحسن هو أفضل من الغنى الكثير . » (أمثال ١٠/ ٢٢) من الأكيد أنك تحب المال لأنه يجلب لك التقدير . ففكر بأن شهرتك ستكون على لسان كل فم إذا دُعيت أباً ومعيلاً

للأولاد. إنَّ هذا الصيت يفوق كثيراً صيت جمعةك لأطنان من الذهب في أكياسك. شئت أم أبيت ، ستترك يوماً ما على الأرض كل أموالك ، لكن صيتك وشهرتك كعامل خير سيرافقك بعد الموت حتى تقف أمام السيّد ؛ إذ يقف معك أمامه شعب يزدحم للدفاع عنك لدى القاضي العام داعياً إياك بأسماء تجبر بأنك أطعمته ، وساعدته وأشفتت عليه ...

تأمل أيها الغني في المال وأنت ترى بعينك كيف يرميه الناس عند أقدام المصارعين والممثلين لكسب الشهرة. أفتحرص أنت على المال بينما يمكنك الوصول إلى مجد عظيم. ان الله سينظر إليك برضى ، والملائكة سيتهجون بقدموك ، والبشر أجمعين سيحتفلون فرحين بك ، فالمكافأة التي استحققتها لأجل المحبة التي بذلت هي مجد لا يزول ، واكليل عدلّ وملكوت السماء. هذه جائزة إدارتك الحسنة للخيرات الزائلة ...

لذلك أنصحك أيها الغني أن توزع أموالك وغناك كله. وعندك طرق كثيرة ومختلفة للتوزيع. وضع نصب عينيك الفقراء فهم أول المحتاجين. فيقال عنك آنثذ: «بَدَدَ وأعطى المساكين فيره يدوم إلى الأبد...» (مز ١١١/٩) «لا تحسب حساباً لضيق عام سيطرأ على المواطنين لتبيع بضمن باهظ ؛ لا تنتظر قحطاً لتخزن في أهرائك ، لأن الذي يحتكر الحنطة يلعنه الشعب...» (أمثال ١١/٢٦) ، ولا ترقب زمن المجاعة لتجمع الفضة والذهب ؛ ولا ترقب أيضاً الشدة التي تحلُّ بالكثيرين لتستغني ؛ لا تتاجر بشدائد الناس ومضايقتهم ، ولا تتطلع إلى زمن الغضب الإلهي فتطمع إلى المزيد في الثروة والغنى. اني أطلب منك أن لا تريد عمقاً وألماً الجروح التي سببتها للناس ضيقات كالتي ذكرت ...

... تقول لنفسك أيها الغني : «إنَّ لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة ، فكلّي وأشربي وتنعمي...» (لوقا ١٢/١٩) يا للجنون ويا للبلاهة. إذا كانت لك نفس خنزير فهل ستعدها بشيء أحسن مما وعدت به نفسك المخلوقة على صورة الله. لأن أفكارك هي من الأرض ، ولأن إهلك هو بطنك ، ولأنك عبد لشهواتك الجسدية. إسمع الصفة التي يضيفها عليك الرب لا الإنسان : «يا جاهل. في هذه الليلة تُطلب نفسك منك فهذا الذي أعدته لمن يكون...» (لوقا ١٢/٢٠).

... إعلم هذا أن الإنسان إذا أخذ فقط ما يكفي حاجاته وترك الفائض وغير الضروري له للفقراء لآتمحي من الوجود الغني والفقير والبائس والمسكين. ويا ترى مَنْ هو البخيل؟ أليس هو الذي لا يكتفي بالضروري من الأشياء ؛ ومَنْ هو السارق؟ أليس

الذي يحرم الآخرين من الخيرات التي هي لهم؟ وأنت ألسنت بخيلاً وسارقاً عندما تختص لنفسك ما أوتمنت أنت عليه كوكيل. إن أخذ ثياب الغير هو سرقة. هذا هو اللقب الذي يستحقه الذي يقدر أن يكسو العراة ويمتنع عن ذلك. ان الخبز الذي تحتفظ به هو يخص الفقراء، والرداء التي أودعتها الخزانة هو لكسوة العاريين؛ والأحذية التي تهترئ وتُتلف بسبب العفونة هي للحفاة؛ والمال الذي تحبّه هو للمحتاج. لا تسيء إلى الأشخاص الذين كان بإمكانك مساعدتهم...

ستفرح في يوم الدينونة عندما تسمع كلمات المسيح الديان العادل: «تعالوا يا مباركي أبي رؤوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم لأنني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني وكنت غريباً فأوتموني وعرياناً فكسوتوني ومريضاً فعدتموني ومحبوساً فأتيتم إلي...» (متى ٢٥/٣٤).

ترجمة الأب الياس كوير الخلصي

Homélaire Patristique. Cerf. عن

٨

حِفْظُ الْوَصَايَا وَالتَّعْلِيمُ^(١)

للقديس باسيليوس الكبير

١ - بما أننا بنعمة الله قد اجتمعنا معاً باسم ربنا يسوع المسيح، نحن الذين قصدنا غاية واحدة بعينها وهي ان نعيش بموجب التقوى، وبما أنكم أنتم قد أبدتم حسناً رغبتكم في أن يلقى عليكم شيء مما يتعلق بالخلاص، وأني أنا أيضاً ملتزم بالضرورة أن أكرز ببر الله منذ كراً ليلَ نهار كلام الرسول القائل: «انني مدة ثلاث سنين لم اكفف ليلاً ونهاراً عن ان أنصح كل واحد منكم بالدموع» (اعمال ٢٠: ٣١)، فأرى ان الوقت الحاضر موافق جداً لهذا الغرض، والمكان الذي نحن فيه مسهل لنا ذلك بهدوئه وشدة

(١) في طبعة البرويغندا (سنة ١٧٤٥).

بعده عن كل ضوضاء وتشويش خارجي^(٢). فلنُصَلِّ بعضنا لأجل بعض لكي نتمكن نحن من «توزيع مكيال القمح في حينه» (لو ١٢: ٤٢) على شركائنا في العبودية [لله]، ولكي تأتوا انتم بعد سماعكم كلامنا بثار برّ كاملة، غزيرة كالأرض الجيدة المذكورة في الإنجيل (متى ١٣: ٢٣). فأسألكم اذن بمحبة ربنا يسوع المسيح الذي بذل نفسه «من أجل خطايانا»^(٣) (١ كو ١٥: ٣) ان نبتدئ الاهتمام بنفوسنا ولنتنحب على أباطيل سالف حياتنا ولنجاهد فيما بقي لنا من الزمان لمجد الله ومسيحه والروح القدس المسجود له.

لا نستمرّ على هذا التهاون وهذا التراخي، ولا نُضِع الزمان الحاضر بالتواني الدائم، ولا نؤجل الى الغد وما بعده الشروع في الأعمال لثلا يقصينا من فرح الخدر ذاك الذي سيطلب نفوسنا إذ يأخذنا على غفلة ويجدنا عراة من حلية الأعمال الصالحة، فننوح في وقت لا يغني عنا النواح شيئاً، ونأسف على زمان الحياة الذي أسأنا استعماله في حين لا يجدينا تأسفنا نفعاً. «فهوذا الآن وقت مقبول وهوذا الآن يوم خلاص» كما يقول الرسول (٢ كو ٦: ٢). هذا هو زمان التوبة أما الآتي فهو زمان المكافأة. هذا أو ان الصبر أما ذاك فأوان التعزية. الآن يعين الله الذين يرتدّون عن طريق سوء، وأما حينئذ فيكون تعالى الفاحص الرهيب، الذي لا يُغشّ، عن جميع أعمال وأقوال وأفكار البشر. الآن نشعر بمفاعيل طول أناته، وأما في ذلك اليوم فسنعرف دينوته العادلة حين نقوم بعضنا للعذاب الأبدي وبعضنا للحياة الأبدية (دانيال ١٢: ٢)، «وينال كل واحد منا على حسب ما صنع» (٢ كو ٥: ١٠) فحتّام نتقاعد عن طاعة المسيح الذي دعانا إلى ملكه السماوي؟ أفلا نستفيق؟ أولاً نرتدّ عن عاداتنا القديمة إلى الكمال الإنجيلي؟ لِمَ لا نضع نصب عيوننا ذلك اليوم العظيم الرهيب الذي فيه يقام الذين عملوا الصالحات عن يمين الرب وينالون ملكوت السماء، ويُحشرون الذين عملوا السيئات عن اليسار فتقبلهم جهنم النار ويغشاهم ليل الظلمات الأبدية، «وهناك يكون البكاء وصريف الأسنان» كما كتب (متى ٢٥: ٣٠).

٢ - لا جرم اننا نقول إنّنا راغبون في ملكوت السماوات، ولكننا لا نهتمّ بما يوصلنا إليه. إنّنا لا نريد أن نكابد أقلّ تعب لاجل حفظ وصايا الرب، ولكننا مع ذلك نتوهمّ بزيف أفكارنا أنّنا سننال كرامةً ومجداً يوازيان مجد وكرامة الذين «قاوموا الخطيئة حتى

(٢) هذا دليل على ان القديس صنف القوانين المطوّلة وهو معتزل عن مدينة قيصرية اي في دير الذي كان موقعه على

شاطئ نهر ايريس في اقليم البنطوس.

(٣) تيطس ١٤: ٢.

الموت» (عب ١٢: ٤). لكن من ذا الذي يبقى في بيته قاعداً أو راقداً في أوان الزرع فيملاً حصنه اغماراً في ساعة الحصاد؟ من ذا الذي يحق [له] أن يقطف عنب كرمه لم يغرسها ولم يتعب فيها؟ ان الثمار لا يجنيها الا الذين تعبوا فيها كما أن الكرامات والتيجان لا ينالها الا الظافرون. فمن تراه يكلل الذي لم يبرز لجهاد العدو؟ على أنه لا يكفيه أن يبرز للجهاد بل لا بد له «ان يجاهد جهاداً شرعياً» (٢ تيمو ٢: ٥) كما أوصى الرسول. أي انه ينبغي لنا أن لا نهمل شيئاً ولو يسيراً من الأشياء التي فرضت علينا بل يجب أن نتم كل شيء بحسب ما أمرنا به. فانه قيل: «طوبى لذلك العبد الذي اذ يأتي سيده يجده يعمل - لا على الاطلاق - بل هكذا» (لوقا ١٢: ٤٣). وقيل أيضاً «ان انت احسنت التقدمة ولم تحسن القسمة تخطأ» (تك ٤: ٧ بحسب السبعينية)^(٤). أمّا نحن فإذا ظننا أننا أتممنا وصية واحدة (لم أقل اتممنا بل ظننا أننا أتممنا: لأن كل الوصايا مرتبطة بعضها ببعض بحسب تعليم الكتب المقدسة الصحيح بحيث ان من يحل واحدة منها يحل ضرورة معها سائر الوصايا) فمع ذلك لا نخشى الانتقام لأجل الوصايا التي تجاوزناها بل نرجو المكافأة لأجل الوصية الواحدة التي عملنا بها.

ألا تعلمون ان الذي يؤتمن على عشر وزنات فيمسك عنده واحدة او اثنتين منها ويرد الباقي لا يعد اميناً لكونه رد القسم الاكبر، بل يحكم عليه انه قليل الأمانة وطماع لكونه اختلس الجزء الأصغر؟ ولكن ما لي والاختلاس على حين نرى ان الذي أودع وزنة واحدة ثم ارجع الوديعة من غير ان ينتقص منها شيئاً قد عوقب لانه لم يزد على ما أعطيه ولم يربح به (متى ٢٥: ٢٥ و ٣٠). هكذا من قدّم لأبيه الكرامة الواجبة مدّة عشر سنوات ثم ضربه بعد ذلك ضربة واحدة لا يمدح كمن أكرم والده بل يحكم عليه كضارب أبيه. قال الرب: «اذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعلموهم - لا أن يحفظوا هذا ويهملوا ذاك - بل أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به» (متى ٢٨: ١٩ و ٢٠). وقال الرسول في هذا المعنى: «ولسنا نأتي بمعثرة في شيء لئلا يلحق خدمتنا عيب بل نظهر في كل شيء أنفسنا كخدام الله» (٢ كو ٣: ٦ و ٤). ولو لم تكن كل الوصايا ضرورية للخلاص لما كتبت كلها، ولما أمرنا بحفظها كلها حتماً. ثم أية فائدة اجنيها من جميع أعمال الصالحة إذا حكم علي بالهلاك في جهنم لكوني «دعوت الأخ أحمق؟» (متى ٥: ٢٢). كذلك ماذا يفيد الإنسان أن يكون

(٤) يريد القديس بهذه الآية ان الإنسان اذا عمل شيئاً لأجل الله فأحسن فيه من جهة واسباء من جهة اخرى يخطأ ولا يقبل الله عمله.

حرّاً من عبودية كثيرين إذا كان عبداً لواحد فقط؟ وقد كُتب: «كل من يعمل الخطيئة هو عبد للخطيئة» (يوحنا ٨: ٣٤). أخيراً ماذا يستفيد الخالي من أسقام كثيرة وجسمه مبتلى بسقم واحد؟

٣ - ورب قائل يقول: ان كثيراً من المسيحيين لا يحفظون جميع الوصايا، أفلا ينفعهم شيئاً حفظهم لبعضها؟ - فنجيب: يحسن بنا لفهم ذلك ان نتذكّر ما جرى لبطرس الرسول الذي بعد كل ما أتى من الأعمال العظيمة وكل ما سمع من الثناء والتطويب لأجلها، قد قيل له لأجل غلطة واحدة أتاها: «ان لم أغسلك فليس لك نصيب معي» (يوحنا ١٣: ٨). ولا لزوم أن نقول هنا ان بطرس لم يُظهر بذلك كسلاً او احتقاراً بل اجلالاً واحتراماً للسيد. ورب قائل يقول أيضاً: قد كتب «ان كل من يدعو باسم الرب يخلص» (يوئيل ٢: ٣٢-رو ١٠: ١٣)، اذن الاستغاثة باسم الرب تكفي لنيل الخلاص - ولكن فليسمع مثل هذا ما قال الرسول «وكيف يدعون الى من لم يؤمنوا به» (رو ١٠: ١٤). فان كنت مؤمناً فاسمع ما قاله السيد «ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السموات» (متى ٧: ٢١).

هذا ثم ان من يعمل مشيئة الله، لكن لا كما يشاء الله ولا عن دافع محبة الله، فاجتهاده في إتمام عمله هذا لا يعود عليه بفائدة، بشهادة ربنا يسوع المسيح القائل: «يفعلون ليظهروا للناس. الحق أقول لكم انهم قد أخذوا أجرهم» (متى ٦: ٥). شهادة منها تعلم الرسول ان يقول: «اني ولو بذلت جميع أموالى لإطعام المساكين وأسلمت جسدي لأحرق ولم تكن في المحبة فلا انتفع شيئاً» (١ كو ١٣: ٣).

على أنى أرى أن اختلاف أحوالنا من حيث الالتزام الشديد بالطاعة يكون على ثلاثة أنواع: فإما أن نفلح عن الشر خوفاً من العقاب، وحينئذ ننقاد انقياد العبيد. وإما أن نحفظ الوصايا لأجل فائدتنا وابتغاء للأجرة، وحينئذ نضاهي الأجراء. وإما أن نُقبل على الطاعة لأجل الصلاح نفسه وجباً لمن أعطانا الشريعة فرحين بأن حُسبنا مستأهلين أن نخدم الهاً هكذا مجيداً وصالحاً، وحينئذ نكون في عداد البنين. فالذي يحفظ الوصايا عن خوف ويخشى دائماً عقاب التهون، يتمم كل الأوامر ولا يهمل شيئاً منها، لأنه يتوقع أن يحلّ به هو أيضاً العقاب الهائل المترتب على كل مخالفة. ومن ثم قيل: «طوبى للإنسان الذي يخشى في كل حين» (أم ٢٨: ١٤)، انه يستمر ثابتاً على الحق فيستطيع أن يقول: «جعلت الرب أمامي في كل حين فإنه عن يميني لكي لا أترزع» (مز ١٥: ٨). وبما أنه لا يريد أن يهمل

شيئاً مما يجب عليه فيستحق أن يطوبه النبي القائل: «طوبى للرجل الذي يتقي الرب» (مز ١١١: ١) ولم ذلك؟ «لانه يهوى وصاياه جداً». ومن ثم ينتج انه ليس من خصائص المتقين للرب ان يهملوا شيئاً من الوصايا المأمور بها أو ان يتهموه بالتهاون. بل الأجبر أيضاً لا يسعه أن يهمل شيئاً مما أمر به. وكيف يأخذ اجرة عمله في فلاحه الكرم مثلاً إذا لم يتم كل الشروط المتفق عليها؟ فإنه إن أخل بشيء واحد من الأشياء الضرورية يجعل الكرم غير نافع لصاحبه. ومن ذا يعطي فاعل الضرر أجرته؟ - هذا وقد رأينا أن الأعمال من ثالث نوع هي التي تؤتى عن محبة. وهنا أسأل: أي ابن يتبغي رضى أبيه فيحزنه في الأمور الصغيرة اكتفاء بما يسره به في الأمور الكبيرة؟ ان مثل هذا لو تذكر ما قاله الرسول: «لا تحزنوا روح الله القدوس الذي خُتِمَ به» (أفسس ٤: ٣٠) لفعل أحسن مما فعل بكثير.

٤ - فالذين يتعدون أغلب الوصايا، في أية فئة [من الفئات المذكورة] يرغبون أن يُحصوا؟ انهم لا يكرمون الله كأب ولا يؤمنون به كمن وعد بأشياء عظيمة ولا يخدمونه كسيد. وقد قال، عز من قائل: «ان كنت أنا أباً فأين كرامتي، وان كنت سيداً فأين مهابتي» (ملا ١: ٦). فإن «الذي يتقي الرب يهوى وصاياه جداً» (مز ١١١: ١). وانك «بتعديك الناموس تهين الله». كما قال الرسول (رو ٢: ٢٣). ثم بعد أن نكون قد فضلنا العيشة الشهوانية على السلوك في وصايا الله، بأي عدل نعد أنفسنا بالحياة السعيدة والمساواة في الحقوق مع القديسين والتمتع بالأفراح مع الملائكة في حضرة المسيح؟ لعمرى ان هذه التصورات لمن خصائص الحمقى. فكيف أكون مع أيوب أنا الذي لم أحتمل أدنى شدة بشكر؟ وكيف اشترك مع داود أنا الذي لم أتمس الله بالصوم المتصل وبالمثابرة على الصلاة؟ أو كيف أكون مع كل واحد من القديسين أنا الذي لم أترسم آثارهم؟ أتبلغ قلة التمييز بواضع الجهاد أن يحكم بأن الغالب المنتصر والذي لم ينزل إلى ميدان الجهاد يستحقان إكليلاً متساوياً؟ وأي قائد يقسم الغنائم بالسوية بين الظافرين والذين لم يبرزوا للقتال قط؟

أجل إن الرب صالح، ولكنه عادل أيضاً. ومن خصائص العادل ان يجازي بحسب الاستحقاق، كما كتب: «جد يارب على ذوي الجودة والمستقيمي القلوب، أما الذين يعدلون إلى سبلهم ذات العوج فيسوقهم الرب مع فاعلي الإثم» (مز ١٢٤: ٤ و٥). ان الرب رحيم ولكنه ذو إنصاف أيضاً فقد قيل: «الرب يحب الرحمة والعدل» (مز ٣٢: ٥) عن السبعينية)، ولذلك يقول: «أشيد برحمتك وأحكامك يا رب» (مز ١٠٠: ١). وقد علمنا

مَنْ الَّذِينَ يَعَامِلُهُم بِالرَّحْمَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى «طُوبَى لِلرَّحَمَاءِ فَإِنَّهُمْ يَرْحَمُونَ» (متى ٥: ٧).
 أَفَنظَرْتُ كَيْفَ يَسْتَعْمَلُ الرَّحْمَةُ بِحِكْمَةٍ؟ فَلَيْسَ هُوَ رَحِيمًا بَلَا عَدْلٍ وَلَا عَادِلًا بَلَا رَحْمَةٍ.
 إِنَّ الرَّبَّ رَحِيمٌ وَعَادِلٌ. فَلَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ إِذْنٍ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ وَلَا نَتَّخِذُ لَطْفَهُ سَبِيلًا إِلَى
 التَّهَانِ. فَإِنَّ الرِّعْدَ يَقْصِفُ وَالصَّوَاعِقُ تَنْقُضُ لَثْلًا يَهَانُ صِلَاحُهُ تَعَالَى. وَالَّذِي «يَطْلُعُ
 الشَّمْسُ» (متى ٥: ٤٥) هُوَ نَفْسُهُ يَضْرِبُ بِالْعَمَى (٤ ملو ٦: ١٨)، وَالَّذِي يَرْسِلُ الْغَيْثَ
 وَالْمَطَرَ (زخريا ١٠: ١) هُوَ نَفْسُهُ يَمُطِرُ نَارًا (تك ١٩: ٢٤). تِلْكَ تَدَلُّ عَلَى رَحْمَتِهِ وَهَذِهِ
 عَلَى شِدَّتِهِ. إِذْنٌ فَلْنَحِبْهُ لِأَجْلِ تِلْكَ أَوْ فَلْنَخْشَهُ لِأَجْلِ هَذِهِ لِثَلَا يُقَالَ لَنَا أَيْضًا: «أَتَحْتَقِرُ غَنَى
 لَطْفِهِ وَاحْتِمَالَهُ وَأَنَاتِهِ وَلَا تَعْلَمُ أَنَّ لَطْفَ اللَّهِ إِنَّمَا يَقْتَادِكُ إِلَى التَّوْبَةِ، وَلَكِنَّكَ بِقَسَاوَتِكَ وَقَلْبِكَ الْغَيْرِ
 النَّائِبِ تَدْخِرُ لِنَفْسِكَ غَضَبًا لِيَوْمِ الْغَضَبِ» (رو ٢: ٤ و ٥).

وَبِمَا أَنَّ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ الْأَعْمَالَ الْوَاجِبَ تَتِمِّمُهَا مِنْ قَبْلِ وَصِيَّةِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 أَنْ يَخْلُصُوا، وَالَّذِينَ يَهْمَلُونَ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ الْمَأْمُورِ بِهَا يَوْجِدُونَ فِي الْخَطَرِ نَفْسَهُ - إِذْ أَنَّهُ
 ضَرَبَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ الْفُظْيَةِ أَنْ نَجْعَلَ أَنْفُسَنَا قِضَاةً عَلَى الْمَشْتَرَعِ فَتَقْبِلُ بَعْضُ شَرَائِعِهِ وَنَنْبِذُ
 بَعْضَهَا - فَهَلُمَّ بَنَّا إِذْنُ نَحْنُ الَّذِينَ نَزَلْنَا إِلَى مِيدَانِ التَّقْوَى وَاخْتَارُوا الْحَيَاةَ الْمُطْمَئِنَّةَ الْخَالِيَةَ
 مِنَ الْمَهَامِ الدُّنْيَوِيَّةِ لِمُسَاعَدَتِهَا عَلَى حِفْظِ الْوَصَايَا الْإِنْجِيلِيَّةِ، لِنَعْمَزَ عَزْمًا وَاحِدًا وَلِنَأْتَمِرَنَّ
 اتِّمَارًا وَاحِدًا أَنْ لَا نَتَجَاوِزَ وَصِيَّةَ مِنَ الْوَصَايَا: لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ «يَكُونَ رَجُلٌ
 اللَّهُ كَامِلًا» (٢ تيمو ٣: ١٧) (كَمَا كَتَبَ وَكَمَا اتَّضَحَ مِمَّا قُلْنَا سَابِقًا) يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ يَتَكَمَّلَ
 فِي تَتِمِّمِ جَمِيعِ الْوَصَايَا لِكَيْ يَصِلَ إِلَى «مَقْدَارِ قَامَةِ مَلَأِ الْمَسِيحِ» (أفسس ٤: ١٣).
 وَلَا سَيِّمًا وَإِنَّ اللَّهَ بِحَسَبِ شَرِيعَتِهِ الْإِلَهِيَّةِ لَمْ يَقْبَلْ أَنْ يُقَرَّبَ لَهُ حَيَوَانٌ فِيهِ عَيْبٌ وَإِنْ كَانَ
 طَاهِرًا. لِأَجْلِ ذَلِكَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ فِيهِ نَقْصًا فَلْيَعْرِضْهُ عَلَى الْجُمْهُورِ لِلْفَحْصِ، لِأَنَّ الشَّيْءَ
 الْخَفِيَّ يَظْهَرُ بِأَكْثَرِ سَهُولَةٍ إِذَا مَا بَحَثَ فِيهِ الْكَثِيرُونَ بِاجْتِهَادٍ، إِذْ إِنَّ اللَّهَ يَهِينُنَا بِحَسَبِ وَعْدِ
 رَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ أَنْ نَجِدَ مَا نَطْلُبُ بِتَعْلِيمٍ وَتَذْكَيرِ الرُّوحِ الْقُدُسِ (يوحنا ١٤: ٢٦).

[وَأَعْلَمُوا] أَنَّهُ كَمَا أَنَّ التَّبَشِيرَ ضَرُورَةٌ مَوْضُوعَةٌ عَلَيَّ «وَالْوَيْلَ لِي إِنْ لَمْ أُبَشِّرْ»
 (١ كو ٩: ١٦)، هَكَذَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ تَحْتَ طَائِلَةِ هَذَا الْوَيْلِ إِنْ تَهَانْتُمْ فِي الْبَحْثِ أَوْ
 تَرَخَيْتُمْ وَتَوَانَيْتُمْ فِي حِفْظِ مَا يَلْقَى عَلَيْكُمْ مِنَ التَّعَالِيمِ وَفِي السُّلُوكِ بِمُوجِبِهَا. لِذَلِكَ قَالَ
 الرَّبُّ: «الْكَلِمَةُ الَّتِي نَطَقْتُ بِهَا هِيَ تَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ» (يوحنا ١٢: ٤٨) وَأَيْضًا: «الْعَبْدُ
 الَّذِي لَمْ يَعْلَمْ إِرَادَةَ سَيِّدِهِ وَعَمِلَ مَا يَسْتَوْجِبُ بِهِ الضَّرْبَ يَضْرَبُ بِسَيْرًا، وَالَّذِي عِلْمٌ وَلَمْ يَعْدُدْ وَلَمْ يَفْعَلْ
 بِحَسَبِ إِرَادَتِهِ يَضْرَبُ كَثِيرًا» (لو ١٢: ٤٨ و ٤٧). فَلْنُصَلِّ إِذْنُ لِكَيْ أَكُونَ بَلَا لَوْمٍ فِي تَوْزِيعِ

الكلام عليكم ، ولكي يكون كلامي فيكم ذا ثمر. وبما أننا نعلم أن الوصايا المسطرة في الكتاب الإلهي ستقف تجاهنا أمام منبر المسيح كما قيل : «لاوبنحك وانصبن خطاياك أمام وجهك» (مز٤٩: ٢١) ، فلنصغ بحرص إلى ما يقال لنا ، ولنبادر إلى إتمام الوصايا الإلهية باجتهاد : «لأننا لا نعلم في أي يوم ولا في أية ساعة يأتي سيدنا» (متى ٢٤: ٤٢) .

ترجمة

الأب يوسف شناس الخلصي
(القوانين المطوّلة)

٩

الصَّوْمُ

للقديس باسيليوس الكبير

بدأ الصوم في الفردوس عندما قال الرب لآدم : «لا تأكل من شجرة الخبز والشر». وقد طُرد أبوانا الأولان من الفردوس بسبب عدم الصوم. فالصوم إذن هو الذي به ندخل إلى الملكوت.

لا ترتجف ولا تخف من الصوم. ألا يحتاج جسدك إلى دواء؟ كذلك نفسك هي بحاجة أحياناً كثيرة إلى دواء. فالصوم هو دواء النفس للتخلص من الخطيئة. إن الخطيئة هي الجرح الذي أصاب الطبيعة البشرية حين خالف آدم أمر الرب في مبادئ الخليقة. ولا دواء يشفي الإنسان من الخطيئة إلا التوبة والإرتداد إلى الله. لكن يا ترى ما معنى التوبة دون صوم؟

تعترض على الصوم فتقول إنّ صحي لا تقوى على القيام به ، وأنا لا أستطيع الانقطاع تماماً عن الأكل والشرب. لكن أسألك ، قل لي بحقك ، ما هو الدواء الذي يصفه بعض الأطباء للمرضى؟ أليس الإنقطاع عن الأكل والشرب أو تناول الطعام البسيط والخفيف؟

إن الصوم هو بالحقيقة دواء للنفس ودواء للجسد أيضاً. فقد يسبب تناول الأطعمة الفاخرة تعباً للمعدة وبعض الأمراض الصعبة للجسم. بينما الصوم فهو مفيد للصحة إذ يجعل الإنسان الصائم ذا لون وردي، وعيون هادئة، ومشية متزنة، وحركات رصينة. إن هذا الإنسان تراه لا يقهقه بل يبتسم، ولا يصيح بل يتكلم بهدوء واثزان وترى كلامه يفيض من قلب نقي وطاهر.

الإمتناع عن الأكل فقط هو حطّ لكرامة الصوم. المطلوب في الصوم ليس الإمتناع بواسطة الفم بل بواسطة العيون والآذان والأيدي وكل الجسم. نصوم بالأيدي بالطهارة والإبتعاد عن السرقة، والأرجل بالإبتعاد عن المشاهد المحرمة، والعيون بالإمتناع عن النظر إلى أي شيء يغري...

يا ترى، ما معنى أن ننقطع عن أكل اللحم ونحن لا ننقطع عن أكل لحم قربينا بالقيمة والغنية؟ وما معنى أن نصوم عن الأكل ونحن لا ننقطع عن الأفكار الرديئة والزنى والحقد والبغض؟

الصوم بالحقيقة هو الذي يلد الأنبياء، ويشدّ الرجال بالعزم؛ هو الذي يفقه المشترعين ويحرس النفوس، هو أوفى صديق وأشدّ سلاح للشجعان الأبطال، هو رياضة المصارعين من أجل نيل الظفر بالغلبة في الجهاد ضدّ الشهوة واللذات، هو زينة الكهنة وسلاحهم ضدّ اعداء الخير.

إحذر أن تصوم فقط عن اللحم وتفكر أن هذا هو ما يطلب منك. إن الصوم الحقيقي هو الإمتناع عن كلّ رذيلة: «أبعدوا عن كل إثم» (أشعيا ٨: ٥)، وهو مغفرة كل إساءة للقريب؛ هو ترك الديون للمحتاجين: لا تصوموا لكي تخاصموا، وترافعوا لدى المحاكم...

إنك ربّما لا تأكل لحماً لكنك تنهش أخاك؛ إنك تمتنع عن شرب الخمر ولكنك لا تلجم الشهوات الحمراء التي تلهب في نفسك؛ إنك تنتظر حتى المساء لتأكل بعد الصيام، ولكنك تلبث كل النهار في المحاكم لأجل الخصامة؛ «الويل للذين تسكرهم الشهوة وليس الخمر...» (أشعيا ٥١/٢١). إن الغضب هو سكر حقيقي في النفس لأنه يبلبلها؛ إن الكآبة هي سكر لأنها تطفئ نور العقل وتطمس النور فيه؛ والخوف هو سكر لأنه يجعلنا نرتجف دون مبرر: «أنقذني يا رب من غضب أعدائي». (مز ٦٣: ٢) بالعموم كل شهوة تزعج في النفس الاضطراب والبلبال هي سكر.

تأمل في لعازر وهو في حضن إبراهيم ، أليس أنّ الصوم جعله ينعم في السماء بالفرح الإلهي ... تأمل يوحنا المعمدان ، ما الذي جعله أعظم الأنبياء .. تأمل في بولس الرسول المصطفى ما الذي نقله إلى السماء الثالثة الآ الصوم ... تأمل أخيراً في المسيح سيّدك وربّك ، إنّه صام لكي يعلمنا أنّ الصوم هو طريق الملكوت .

إنّ الصوم هو الذي يقود القديسين إلى الحياة مع الله ...

إنّ الصوم هو جناح الصلاة لترتفع إلى السماء وتخرق إلى عرش الله ... هو عماد البيوت ، حاضن الصحة ، معلّم الشباب ، زينة الشيوخ ، صديق الأرواح .

إنّ الفضيلة لا تستقيم إلا بالنسك لأنّ النسك يلجم الشهوات . والطعام لا ينفع الجاهل هكذا قال سليمان الحكيم : « لا تهتمّوا لأجسادكم بما تأكلون » هكذا قال السيّد أيضاً .

والفضيلة دوماً قرنت النسك بالصوم . فوسى صام أربعين يوماً ثمّ صعد إلى السماء وتكلّم مع الرب ... ودانيال صام واحداً وعشرين يوماً ثمّ صار في الرؤيا ... والفتية الثلاثة لم تؤذهم نار الأتون المحمي بسبب صومهم وصلاتهم ... ويوحنا المعمدان قضى حياته كلّها في تقشّف وزهد وأعلن الرب للعالم نوع غذائه ولباسه . وهذا كان يخفيه للناس ، ليكون لنا منه عظة .

ولست أعني بالصوم ترك الطعام الضروري لأن هذا يؤدّي إلى الموت . ولكن أعني ترك المأكّل الذي يجلب لنا اللذة ويسبّب تمرّد الجسد .

قد تكون هناك أشياء كثيرة ليس فيها خطيئة ومع ذلك يجب أن تتنسك عنها إذا كان في ذلك ربح لنا وللآخرين . « إذا كان الطعام يشكك أخى فلن آكل اللحم إلى الأبد » (١كو٨: ١٣) « حسن أن لا تأكل لحمًا ولا تشرب خمرًا أو شيئًا يشكك أخاك أو يعثر أو يضعف ... » (رو١٤: ٢١) .

الصائم الحقيقي هو الذي يتغرّب عن كل الآلام الجسدية حتى الطبيعية .

ترجمة

الأب الياس كويتر المخلصي

عظة ١

عن Sources Chrétiennes

الصلاة

للقديس باسيليوس الكبير

إن الصلاة تحدّد بأنّها فعل تقوم به نفس تقيّة تطلب به من الله عزّ وجلّ الخير المفيد لها. فهي إذن ليست ترداد كلمات منظّمة لهذه الغاية ، لأن الله لا يحتاج إلى خطب رنانة ولا إلى كلمات فصيحة إذ أنّه يعرف ما هو مفيد لنا. وهكذا يمكننا أن نحدّد الصلاة بأنّها عمل يتمّ في ضمير الإنسان وفي داخله ، وهي عمل يمتدّ إلى كلّ الأعمال التي تنسج حياة الإنسان. فإذا أكل الإنسان خبزاً ، أو شرب خمراً أو لبس ثوباً يصليّ شاكرًا الله على إحسانه ومحبته. وعندما يأتي المساء وتميل الشمس إلى المغيب يصليّ يشكر الله على النور الذي يهبه الله للعالم ، ثم يتأمّل في السماء ونجومها فيعظّم الله على صنيعه ويشكره على الراحة التي يهبها الله في النوم في الليل. وهكذا تصبح حياة الإنسان صلاةً دائمة.

عظة ٥

فوق كل شيء يجب أن نهتمّ لنضبط فكرنا في الله بكلّ وسيلة ممكنة ، فنجعل العقل رقيباً صاحباً على الأفكار التي يجذبها الجسد للإهتمام فيما يختصّ به... فلا يدع النفس تخضع لهذا الجذب ولا تتنازل للاشتراك في هذه الإهتمامات الباطلة. وكما أنّ الجسد مركز الرؤيا فيه هو العين ، كذلك النفس فإنّ مركز الرؤيا فيها هو العقل.

انه واجب علينا أن نصليّ دوماً وبدون انقطاع. «صلّوا بلا انقطاع». (١ تس ٥: ٧) وهل ذلك بالإمكان؟ إنّ الوصول إلى قوة الصلاة ودوامها هي في استطاعتنا لو شئنا. وهي ليست شيئاً نستحدثه أو نخلقه خلقاً وإنما يمكن ممارستها في كلّ عمل نقوم به مدى الحياة وفي كلّ لحظة من لحظاتها.

الصلاة هي التصاق بالله في جميع لحظات الحياة ومواقفها فتصبح الحياة صلاة واحدة بلا انقطاع ولا اضطراب.

عظة ٢٩٢

الصلاة يجب أن تفضّل على كل شيء ، مرتاً مهتمةً بالضيافة والمقابلة ، ولكن مريم

تجلس عند قدمي يسوع. في الأختين نرى غيرة سامية. ولكن هل لك أن تميز بين العاملين. الرب استحسّن غيرة الأختين ولكن فضّل مريم على مرتا. مرتا رمز الخدمة العاملة ومريم رمز وقفة التأمل الهادئة أمام الله في الصلاة، لك أن تقتدي بمن تُحب لأن بكليتهما سواء بهذه أو بالأخرى سوف تنال ثمرة الخلاص. غير أنّ الأخيرة أفضل من الأولى.. مريم اختارت النصيب الصالح. (لو ١٠: ٤٢).

عظة ٥

إن الصلاة يجب أن تراعي كلّ شيء وكلّ حاجة، فلإشادة بالمزامير وقت، وللقراءة أو الصلاة وقت، وللقيام بحاجات الجسد وقت أيضاً، ذلك إذا أردنا أن يكون كلّ شيء على وجه لائق ومنظم. (١ كو ١٤: ٤٠).

سؤال ٢٣٨

للصلاة شروط حتى تستجاب. منها أن يكون طلبنا موافقاً لإرادة الله. (متى ٢٦: ٣٩) ومنها الثبات واللجاجة (لو ١١: ٨) ومنها إرادة الله أن نصلح سيرتنا قبل الإستجابة (أشعيا ١: ١٥)، ومنها عدم استحقاقنا لما نطلب (١ أيام ١٧: ٤) أو عدم استحقاق من نطلب له (إرميا ١٤: ١١) ومنها كون عدم الإستجابة أفضل من الإستجابة (٢ كو ١٢: ٧).. أما إذا تحققت كلّ الشروط فلا شكّ أنّه تعالى يستجيب صلاتنا.

قوانين مختصرة ٢٦١

إن المزامير تهب النفس الطمأنينة وتعطيها السلام وتهدئ فيها بلبلة الأفكار وتراكم الشهوات. هذا الكتاب هو كتاب المحبة... هو سلاح ضد الشيطان.. هو سبب راحة بعد تعب النهار.. هو تعزية الشيوخ هو باعث أفراحنا وأحزاننا المقدسة.. هو نشيد رائع، هو صوت الكنيسة، هو بخور زكي الرائحة. المزامير هو الصلاة المفضّلة للمؤمنين

عظة على المزامير

وينبغي للذين قصدوا أن يعيشوا طبقاً لما يقتضيه مجد الله ومسيحه أن لا يهملوا وقتاً من هذه الأوقات على أني أرى أن التفنّن، وتغيّر الألحان في الصلوات وترنيم المزامير في أوقاتها المفروضة ممّا يفيدنا: لكون النفس كثيراً ما تلبث جامدة ساهية في الجري على نغم

واحد بخلاف الإفتنان وتنويع الألحان في ترنيم المزامير وتلاوة كل ساعة ، فإنّها ينعشان شوقها ويحدّدان انتباهها .

سؤال ٣٨ من القوانين المطوّلة

الأب الياس كويتر المختلصي

١١

الغنيّ والفقير

للقديس باسيليوس الكبير

١ - وصف فقير محتاج

كيف يمكنك أيّها الغنيّ النظر إلى شقاء وعذاب الفقير وتمسك قلبك عن الشفقة ويدك عن المساعدة؟

يتطلّع الفقير إلى الذخائر التي يحويها بيته الحقيق فلا يجد فضة ، ولا أملاً بحوزتها في يوم من الأيام . إنّ أثاث بيته والثياب التي يلبسها لا تساوي إلاّ بضعة دراهم ، هذا كل ما يملك . فإذا ينبغي عمله ليسدّ رمق جوعه وجوع عائلته . لا سبيل أمامه إلاّ بيع أولاده . فهم أمله الوحيد ، فإذا باع واحداً منهم كعبد أمكنه أن يُبعد عنه شبح الموت جوعاً . تصوّر أيّها الغنيّ الصراع الذي يتجاذب نفس ذلك المسكين . فهو متردّد بين الحب الطبيعي الوالدي وبين عذاب الجوع القاتل . إنّ الحبّ يهدّده بموت بطيء وأليم ، والجوع أيضاً يهدّده بالموت مع أولاده . وتبدأ المأساة فيفكر ثمّ يترنّث ، يذهب ويحيي في البيت يتلمّس طريقاً للخلاص . لكن في نهاية المطاف تضطرّه الحاجة إلى الذهاب إلى السوق حيث الباعة يشترّون العبيد .

لكنّه يبقى في صراع وحيرة. فمن من أولاده سيعرضه للبيع؟ ومن من أولاده سيُعجب تاجر القمح؟ هل الإبن البكر؟ لكنّه هو الأول بين الأولاد فكيف أنخلّي عنه؟ هل الإبن الأصغر؟ لكنّه هو طريء العود، وفي بدء حياته ولم يذق بعد طعم العذاب والتعاسة؟ هذا الولد، يقول الأب المسكين، يشبه أمه، وذاك الولد الآخر هو موهوب للدرس. وهكذا يبقى الفقير في صراع وحيرة شديدة.

أخيراً يصرخ متنهداً: كيف أتصدّى لعاطفتي. ويتساءل ما العمل؟ إني إذا احتفظت بكلّ أولادي ولم أبع أحداً منهم فسنموت كلّنا جوعاً؟ وإذا بعت واحداً منهم فإذا سيكون تفكير إخوته الباقين؟ وكيف يكون موقعي منهم؟ وكيف أدخل إلى بيت أنا فرغته من الأولاد؟ وكيف آكل الخبز الذي اشتريته بمال حصلت عليه ببيع أحد أولادي. بعد أخذ وردّ قرّر بيع الولد الذي يحبه بالأكثر.

كيف تنظر أيّها الغني إلى هذا المشهد ولا يتفطر قلبك ولا تتحرّك فيك كوامن الطبيعة الإنسانية؟ إنّ الجوع يضغط على هذا الفقير وأنت تساوم في البيع، وأنت تلعب بقدره لتطيل عذابه. إنه يقدّم لك حياة إنسان ليشتري قوتاً له ولأولاده، فكيف لا ترتجف يدك وأنت تقبض المال من يده؟ وكيف تساوم على كمية المال فترغب بالكثير لتعطي القليل والبسيط؟ وكيف لا تتأثر بالدموع المنهمرة من المآقي، وكيف، إزاء التوسّلات تبقى جامد العاطفة وقاسي القلب؟

عظة على إنجيل لوقا - ٤

٢ - انك تنظر الذهب في كل شيء

انك لا تتصوّر إلاّ الذهب فقط، فهو الذي يسيطر على مشاعرك فتحلم به ليل نهار. إنّ نفسك وقد تغلب عليها حب الغنى أترى إلاّ الذهب والفضة في كل شيء، وفي أيّ مكان. لذلك أنت تفضّل أن ترى قطعاً ذهبية على أن ترى الشمس المشرقة، وترغب في تحويل كل شيء إلى الذهب وتسعى إلى ذلك بكلّ قواك، فيصبح القمح والخمر والصوف، وحتى التجارة والصناعة ذهباً لك. لأنك لا تسعى إلاّ إلى الربح من وراء كل شيء، حتى يلد الذهب ذهباً لتكده في خزانتك.

إذا كثّر مالك أيّها الغني فلا تعلق قلبك فيه، ولا تخزنه، كما فعل غني الإنجيل الذي

كدّس غلاته في الاهراء لتبقى لسنين كثيرة. فأنت لا تعلم الساعة التي يأتي فيها السارق ، فالذي خزنته لن يكون بالأكد لك . اسمع لنصيحتي ، وافتح أبواب خزانك واسعة ، لأنه كما أن النهر الذي له قنوات كثيرة يجري فيها الماء إلى أماكن كثيرة فيحييها ، هكذا المال الذي يفيض من خزانك يصل الى بيوت فقراء كثيرين فيسعدهم . واعلم هذا ، ان الماء الذي يبقى في الآبار مدّة طويلة دون حركة يصبح آسناً ، أما الذي يتحرّك فيسقي العطاش والأرض وهو كثير الفائدة ؛ هكذا المال فإذا تكدّس وجُمّد يصيبه العفن ؛ أما إذا تحرّك ووُزِعَ فينتج عنه خيرٌ عظيم لكثيرين .

عظة ٣/٦ - ٥

٣ - دفن الأموال والغنى هو دفن للقلب

أين محبة القريب التي تتغنّى بها أيها الغني؟ فلو كنت حقيقة منذ صغرك ملتزماً بشريعة محبة القريب لما كنت تنعم الآن بالخيرات الوفرة والأملak الواسعة . ولو كنت أيضاً تعطي للقريب ما تعطيه لنفسك لما كنت حصلت على هذا الغنى الوفير . انّ الإهتمام بالقريب يستلزم عطاء سخياً ، لأن الإنسان المحبّ حقيقة يرغب بإخلاص أن لا يجرم أحداً من الشيء الضروري ، ويرغب أن ينعم كل الناس بخيرات الأرض كما ينعم هو . الذي يحبّ أخاه ، لا يتمتّع بخيرات أكثر من أخيه ، فبقدر ما أنت غني بقدر ذلك أنت مخالف لناموس محبة القريب وغير ملتزم بالتزاماتها .

انك تدخّر للمستقبل قائلاً ان مصيري لا أعرفه ، ومستقبلي غامض . وبهذا تدفن غناك ومالك في الخزائن للمستقبل ، فأنت إذن تدفن معها قلبك ، لأنه كما قال السيّد له المجد حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضاً .

عظة ٧

٤ - تمثّل بالأرض

تمثّل بالأرض أيها الإنسان ، فأنت أعظم منها بكثير ، أنظر إليها ، فهي لا تحمل ثمرًا لمنفعتها الخاصة بل لمنفعة الآخرين . وأنت إزرع خيراً لتحصد المكافأة العادلة . واعلم هذا انه من الأفضل لك أن تنعم باحترام الناس وتقديرهم ، من أن تنعم بخيرات تزول . وإذا

تأملت بالشرف الذي تناله بسبب الغنى فترى أن صنع الإحسان يوليك شرفاً أعظم ، إذ الأفضل لك أن تلقب بأبي الفقراء من أن تلقب بغني حائر على سبائك الذهب في خزائنه . انك رضية أم أبيت ، فرغماً عنك ستترك ثروتك على الأرض ؛ لكن شرف ومجد عملك الصالح سيرافقك إلى دار الخلود .

عظة ٣/٦

٥ - مَنْ سَأَلَكَ فَأَعْطِهِ

يشاهد الغني الفقير ذليلاً عند قدميه ، يستعطفه ملتمساً العون منه ، ورغم ذلك يبقى قاسي القلب متحجراً عاطفة . إنَّ منظرًا كهذا الذي يحرك المشاعر الطبيعية في قلب كل إنسان لا يحرك ساكنًا في قلب الغني البخيل . فيبقى لا يعطف لتوسل ، ولا يلين أمام دموع منسكبة ، رافضاً كل التماس وسؤال . ويزيد شراً على شرّ عندما يأخذ يقسم اليمين بأنه لا يملك مالاً للمساعدة ، وبأنه هو المحتاج والفقير ، وهو نفسه يطلب العون من الغير . وهكذا يزيد على خطيئة الكذب خطيئة الحلف الباطل فيزداد شراً إثمًا أمام الرب ..

مسكين هذا الفقير . ذهب يطلب العون من الغني فوجد عداءً ، ذهب يطلب دواء فوجد سُماً . كان الواجب يحتم عليك أيها الغني أن تخفف البؤس وليس أن تزيد الشقاء مستغلاً العوز والبؤس . فأنت تستغل فقر الإنسان لفائدتك الخاصة . وبهذا تشبه الفقير الذي يلتمس المطر لحصاد أوفر ، فثله أنت تستغل فقر وعوز الفقير لكي يكثر غناك .

قال السيد : « أقرضوا غير مؤمنين شيئاً » (متى ٥/٤٢) ، وأنت تقول كيف أقرض دون أمل باسترجاع المال لأن المستقرض هو فقير ومحتاج . أنك غارق في الجهالة والعباوة . ولا تعلم أنك عندما تقرض الفقير باسم السيد تقرض الله نفسه ، لأن السيد كريم ، وهو كفيل الفقير وهو الذي يسد ديون الفقير بعطاياه السخية .

عظة على المزمور ١٤

٦ - لا شيء يمكن أن يشبع رغبات المرأة

يتفاهم أثمك أيها الغني اذا كانت امرأتك تحب المال وترغب بالغنى . لأنها ستعمل بالأكيد على استغلال الغنى لكي تلهب الشهوة الرديئة فيك وتثير الاندفاع عندك إلى

اللذات الفاسدة. وتغريك لكي تلبس الحلى الثمينة واللباس الفاخر؛ ولكي يزين الذهب كل شيء تلبسه أو تترين به. انظروا تأمل. كم من الرجال كرسوا نفوسهم ومواهبهم لتلبية كل رغبات المرأة: كالصاغة، والعطارين والخياطين، والمزينين وغيرهم... ان تطلبات المرأة كثيرة ومرهقة للرجل، ولا تقف عند حد. وفي اعتقادي ان الغنى، مهما كان عظيماً لا يكفي لإشباع شهوات المرأة. انها تتطلب الروائح العطرة الثمينة جداً؛ وتريد أن تسيل على جسمها كالزيت؛ وهي تحبّ الجواهر النادرة والثمينة جداً راغبة أن تزين كل جسمها، من قمة الرأس حتى القدمين...

عظة ٧

٧ - القلب القاسي

الإنسان الذي لا يتأثر لمنظر البؤس يستحقّ القصاص الشديد. وهو بالحقيقة إنسان غرق في الوحشية. ويا ترى لماذا لا نعدّه وحشاً مفترساً؟ ولماذا لا يُحسب مع القتلة والمجرمين؟ لأن الإنسان الذي يستطيع معالجة الشر، ويستنكف عن المساعدة بسبب البخل يستحقّ أن يُحصى مع القتلة المجرمين. انّ السيّد، عند محاسبته للصديقين، جعل الذين يقومون بأعمال المحبة في مقدّمة المختارين. وبالعكس جعل الذين ابتعدوا عن المحبة في عداد الخطاة المنبوذين.

عظة ٨

٨ - لا تكن أشدّ شراسة من الوحوش

نقول عن أنفسنا إنّنا نتميّز عن الحيوانات بالعقل والتمييز. لكن، قد نبذو أحياناً كثيرة أشدّ قسوة من الحيوانات التي لا تعقل. فإنّ كل شيء مشترك بينها. الأرض، الينابيع والمراعي، والجبال والغابات. لا أحد منها يملك أكثر من غيره. لكن أنت أيها الغني فإنّك على نقیض ذلك، تحجز الخيرات التي أعطاك الله إيّاها لك وحدك وتخصّ بها نفسك، وتريد أن تستفيد منها لمصلحتك الذاتية.

عظة ٨

٩ - لا تخف أيها الفقير فإنك غني

لا تخف أيها الفقير ولا تيأس أبداً. نعم أنت فقير وسليل بيت فقير؛ نعم أنت لا تملك بيتاً ولا عائلة؛ نعم أنت ضعيف ومحروم حتى من خبزك اليومي؛ نعم أنت ترتجف أمام العظماء وتخاف من أقوياء هذا الدهر بسبب فقرك والذل الذي أنت فيه بسببه. لكن تأكد أنك غني أكثر من الأغنياء أنفسهم. ارفع نظرك إلى الله واشكره على نعمه لك، وتأمل في الخيرات التي أعطاك إياها والتي أعدّها لك ولحبّيه. ألسنتاً ابناً لله؟ فأفرح وأبتهج. فهذا يكفيك وهذا هو الغنى الحقيقي. وبما أنك على صورة الله يمكنك أن تبلغ إلى رتبة الملائكة وكرامتهم ضمن حياة اجتماعية منظّمة. أليست كلّ الحيوانات على الأرض، الأليفة والبرية، وكل ما يحوي البحر وما يطير في الهواء تخضع لك في الأرض والبحر وفي كلّ شيء. أليس هو في خدمتك؟ تأمل وأدرك أن هذه انعامات خصّ الله بها الطبيعة الإنسانيّة. أضف إلى ذلك ما هو أعظم وأسمى بكثير. الله ذاته بيننا، والروح القدس يوزّع مواهبه على كل أحد. فالموت أبيد، وانتعش أمل القيامة، وفتحت لك أبواب السماء فأصبح بإمكانك بلوغ المراتب الإلهية ودخول الملكوت. ها الأكاليل والجوائز السماوية معدّة لمن يكثر الفضيلة ويعمل بوصايا الله.

اديّات/٧٦

لا تخف أيها الفقير ولا تتباك أمام الأغنياء. اعتمد على نفسك واستثمر الوزنات التي وهبك إياها الله لكي تعيش. بع كلّ شيء عندك: الأواني، ثيابك، حصانك وأثاث بيتك، واشترِ حرّيتك وكرامتك. لا تفرع أبواب الأغنياء الآخرين، «فبئس جارك هي فارغة دوماً» (امثال ٢٣/٢٧)، الأفضل لك أن تعيش فقيراً من أن تستغني فجأة بسبب إحسان غيرك...

إنّ الفقر ليس عيباً. فلماذا تذهب لتستدين من الغير. انك لا تداوي الجرح بجرح آخر؛ فالدين ليس دواء الفقر. لك يدان، عندك مهنة، فاستفد منها لمعاش قليل. فهناك أسباب كثيرة لكسب القوت.

علاوة على ذلك إنّ الفقر يعفيك من الهموم وعذابها. فأنت لا تقلق طول الليالي بسبب همّ المال، فأنت بالعكس تنام ملء جفونك. إنّ الغني يعدّ بيوته، والدين الذي أعطاه للآخرين، فهو في قلق دائم.

عظة ٧

١٠ - إدعاءات باطلة

أنت تدّعي أيّها الغني بأنك تحفظ أموالك لمستقبلك ومستقبل بنيك. هذا عذر واهٍ ، تدافع به عن بخلك. تتعلّل بأولادك ، لكن لا تنسَ بأن المال هو لكثيرين سبب خطيئة. فاحذر من أن يؤول بك ذلك إلى فقدان أولادك إذ تغويهم الخطيئة. ومن ناحية أخرى ، أليست نفسك أقرب اليك من أولادك. فأعطيها إذن الحصة الفضلى من ميراثك ، فهي بذلك أولى. ثم قسّم بين أولادك ثروتك. واعلم هذا ان أولاداً كثيرين بنوا بيوتاً ، وعملوا مستقبلاً زاهراً لهم ، وعرفوا أن يحصلوا على كرامة واحترام الناس ، دون أن يرثوا شيئاً من آبائهم. ولكن نفسك إذا لم ترأف بها أنت فمَن يرثي لحالها.

عظة ٦/٧

قد تقول أيّ إجحاف ارتكبت إذا احتفظت بما هو ملك لي. بحقّ قل لي ، ماذا لك ، وممّن أخذته حتى تملكه طول حياتك.

فلو كان كلّ إنسان يأخذ من أمواله ما يكفي لسدّ حاجاته ويترك الفائض عنه لمن ينقصه الضروري لما بقي غني او فقير... أتظنّ أنّك لا ترتكب إجحافاً بحق أحد ، عندما تحرم الضروري هذا العدد الكبير من المحتاجين؟ من هو الإنسان الذي يدعي سارقاً للجماعة؟ أليس من يختصّ نفسه بما هو للجميع. إنّ الخبز الذي تحفظه في الأقبية هو ملك الجائعين ، والثوب الذي تقفل عليه الخزانة هو ملك للعراة ، والحذاء الذي يتلف عندك هو ملك للحفاة...

العظة ٦

تقول أيضاً أيّها الغني ، إنني بعد أن اتمتّ بكلّ الغنى الذي أحوزه ، وأنهي حياتي متمتعاً بكلّ لذات الحياة ، أجعل الفقراء ورثائي الشرعيين ، وأجعلهم أسياداً على كل أملاكي وأرزاق. أيّها الغني ، انك ستعود لتصبح إنساناً عندما تغيب في غياهب القبر ، وستصبح محبباً للفقراء فقط عندما تموت. يا لك من كريم معطاء وأنت في القبر تراب ورماد. استحلفك بالله هل في حياتك عملت شيئاً لطلب المكافأة والثواب. أنّك لم تعمل شيئاً لنيل هذه المكافأة ، فقد عشت في اللذات ، ولم تحسن إلى الفقراء ، ولم تطعم الجياع ولم تشفق على البائسين. فلماذا المكافأة عند الوفاة. فأنت لا تستحق شيئاً.

عظة ٨/٢١

١١ - اذكر أيها الغني عواقبك فلا تخطأ أبداً

أيها الغني لماذا تتباهى بغناك وتفتخر بأجدادك. لماذا تتغنى بوطنك ، وتسرّ بجبال جسدك ، وتفرح لشرف محمد أثيل وأصل شريف. انتبه وتأمل عواقبك. اذكر أنك إنسان مائت ، وأنت تراب وإلى التراب ستعود (تك ١٩/٣) ، أنظر إلى القبور ، فهل تميز بين عظام الفقراء وعظام الأغنياء ، بين عظام العبيد وعظام الأسياد. أظن لذاتك وتخلّ عن التكبر والبخل وقساوة القلب.

لا تظلم أيها الغني ولا تتجبر. فكر قليلاً وافطن إلى ما يؤول إليك طمعك وتكديس الثروة. لك حقول كثيرة ، وأشجار وغيابات ، لك سهول وتلال ، أنهار وينايع. ولكن ما هي في نهاية الأمر. ثلاثة أذرع من الأرض هي نصيبك من كل ما جنت يدك ؛ قبر من عدّة حجارة هو بيتك الأخير وهو الذي يستوعب جسدك. فلماذا إذن تجهد نفسك ، لماذا تقترف هذه الموبقات. ولماذا تحني أثماراً لا فائدة منها بل هي بالأحرى غذاء لعذابك الأبدى.

أيها الغني أي جواب ستجيب به الديان العادل عندما يسألك في اليوم الأخير عن حياتك. أنك ترين الجدران بأجمل الألوان وأخوك بقربك لا كساء له ؛ تلبس أحصنتك أبهى الحلل ولا تنظر إلى أخيك العريان المغطى بأسمال بالية ؛ تترك القمح في أهرائك يفسد ولا تطعم الفقراء الجائعين إلى لقمة خبز والذين يموتون بسبب الجوع ؛ تطمر ذهبك في الأرض وتهزأ بمسكين يستجديك طالباً فلساً واحداً.

أيها الغني الا تخاف غضب الله العادل ولا القصاص الذي سوف تناله جزاء قسوتك وجفاء قلبك. إنّ الله لن يرحمك لأنك لم ترحم الآخرين. وسوف يغلق في وجهك أبواب السماء لأنك أغلقت أبواب قلبك أمام المحتاجين. رفضت الخير على الفقراء فلن تحصل على الخير العظيم الذي هو الحياة الأبدية.

إنّ الخبز الذي تحفظه في بيتك هو ملك الجائعين ؛ والثوب الذي تحتفظ به في الخزانة هو ملك للعراة ؛ والحذاء الذي يتلف عندك هو ملك للحفاة ؛ والذهب الذي تدفنه هو ملك المحتاجين. فأنت ترتكب أعمال ظلم كثيرة بحقّ الذين تستطيع أن تساعدتهم وتسدّ بعض احتياجاتهم ولا تفعل ذلك.

١٢ - مَنْ يَجِبُ يَضْحِي بِحَيَاتِهِ فِي سَبِيلِ الْآخَرِينَ

تأمل أيها الغني في مثل موسى كلم الله. فقد كان يحب إخوته، فطلب من الله أن يمحو اسمه من سفر الحياة إن كان الله لا يصفح عن شعبه. وبولس الرسول الأعظم، تجرأ مثل موسى فطلب من المسيح أن يسله لأجل خلاص إخوته، وكان يريد على مثال المسيح أن يكون فداء عن الجميع، مع علمه، في الوقت نفسه أنه لا يمكنه الانفصال عن الله، ما دام يحبه.

عظة ٨

قام بترجمة المقتطفات من هذه العظة

الأب الياس كويتر المخلصي

١٢

العكـل

للقدّيس باسيليوس الكبير

١ - هل يلزم العمل ؟

بما أن ربنا يسوع المسيح قال : « مستحق أجرته - ليس كل واحد على الإطلاق وكيفما اتفق بل الفاعل فقط » (متى ١٠/١٠) والرسول بولس أمر أن « نعب ونعمل بأبدينا ما هو صالح لكي يكون لنا ما نشرك به المحتاج فيه » (أفسس ٢٨/٤) فيتضح من ثم أنه يجب علينا أن نعمل باجتهاد، لأنه لا يسوغ لنا أن نتخذ العبادة حجة للبطالة والهرب من النصب. بل علينا أن نجعلها موضوعاً للجهد والأتعاب الجمة والصبر على المضايق لكي يتهياً لنا نحن أيضاً أن نقول : « كنا في التعب والكد والإسهار الكثيرة والجوع والعطش ». (٢ كو ١١/٢٧) ومثل هذا المنهج ينفع لا لإماتة الجسد فقط بل للممارسة محبة القريب أيضاً : لكي يسعف الله

الأخوة المحتاجين ويقدم لهم الكفاف على أيدينا بموجب ما علمه الرسول في سفر الأعمال بقوله: «في كل شيء بينت لكم كيف ينبغي ان نتعب بأيدينا لنساعد الضعفاء» (أعمال ٢٠/٣٥)، وأيضاً: «لكي يكون لكم ما تشاركون المحتاج فيه» (أفسس ٤/٢٨). وهكذا تستحق أن تسمع قوله عز وجل «تعالوا يا مباركي أبي رثوا الملك المعد لكم منذ إنشاء العالم، لأنني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني...» (متى ٢٥/٣٤).

وما بي حاجة أن أصف لكم جسامه شر البطالة في حين أن الرسول وصي صريحاً بأنه: «ان كان أحد لا يشتغل فلا يأكل». «٢ تس ٣/١٠»، فكما أن القوات اليومية ضروري لكل إنسان كذلك ضروري له الكد بحسب طاقته. إن سليمان لم يكتب عبثاً في مديح المرأة النشيطة: «انها لم تأكل خبز الكسل» (امثال ٣١/٢٧)، والرسول قال أيضاً عن نفسه «اننا لم نأكل خبز أحد مجاناً بل اشتغلنا بالتعب والكد ليلاً ونهاراً» (٢ تس ٣/٨) مع انه كان له «السلطان كمبشر بالإنجيل أن يعيش من الإنجيل» (١ كور ٩/٤ و ١٤)، بل ان الرب قد جمع بين الكسل والشر إذ قال: «أيها العبد الشرير الكسلان (متى ٢٥/٢٦) على أن سليمان الحكيم لم يثن فقط على العامل فقط بما ذكرنا (امثال ٢٧/٣١) بل وبخ الكسلان إذ شبهه بأدنى الحيوانات قائلاً: «إذهب إلى النملة أيها الكسلان (امثال ٦/٦) ولذا يجب أن نخشى من ان نوبخ نحن كذلك في يوم الدينونة لأن الذي حولنا القدرة على العمل يطلب منا أعمالاً تناسب قدرتنا هذه. فإنه قال «من اودع كثيراً يطالب باكثر» (لوقا ١٢/٤٨).

وبما أن البعض يستنكف من العمل بحجة الصلوات وترنيم المزامير، فعلى مثل هؤلاء أن يعلموا أن لكل شيء وقتاً خاصاً به كما قال الجامعة: «لكل أمر أوان» (جا ١/٣).

قوانين مطولة سؤال ٣٧

يجب إذن علينا العمل قدر الإمكان لتتقاسم الموارد مع الذين يفتقرون إليها... لا عذر للمتكاسل الذي يعيش في البطالة بينما هو قادر على العمل. ليتشبه بتلك الأسماك التي تقطع البحار بطريقة عجيبة طلباً للطعام...

عظات على أيام الخليقة - ٧

٢ - لا تخف من الاهتمام بحاجات الجسد

أن النهي عن الاهتمام الزائد بحاجات جسدنا لا ينيي الاهتمام والعمل مطلقاً. فقد بقي

علينا « ان نعمل لنفسنا لا للطعام الفاني بل للطعام الباقي للحياة الأبدية ». (يو ٦/٢٧) وسيقول لنا الرب في يوم الدين : « جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني » (متى ٣٥/٢٥) ويعدّ ما نفعله مع القريب كأنّه مفعول معه تعالى ويعطي عن ذلك الملكوت السماوي. ويعكس ذلك سيعاقب الذين لم يعملوا ولم يتعبوا ليساعدوا الضعفاء وليخدموا القريب، (أعمال ٤/٢٠) ويرسلهم إلى العذاب الأبدي. (متى ٤١/٢٥) فالعمل إذن إنطلاقاً من هذا المفهوم ينظّم باحسن طريقة العلاقات الاجتماعية ويضفي عليها جواً من التعاضد والإنسجام.

قوانين مختصرة. ٢٠٧

٣ - إنبه لعملك

على أن كلّ أحد يلتزم أن يتنبه لعمله الخصوصي ويهتم له برغبة ويتممه من دون ملامة بغيرة ونشاط وعناية وسهر لئلاّ يستحقّ اللعنة إذ قيل ملعون من عمل عمل الرب باسترخاء. (ارميا ٤٨/١٠)، كما عليه أن يعمل على مرأى من الله، وذلك لكي يتبيأ له أن يقول بدالة كل حين: « كما أن عيون العبيد إلى أيدي موالهم، كذلك عيوننا إلى الرب إلهنا ». (مز ١٢٢/٢) ويلتزم أيضاً أن لا يتنقل من شيء إلى آخر لأن طبيعتنا لا تقدر أن تقوم بأشغال كثيرة معاً. ولذا خير لنا أن نباشر عملاً واحداً بضبط وإحكام من أن نقوم بأعمال كثيرة من دون اتقان: لأن الإنقسام بين أشغال كثيرة والتنقل في الأمور بحيث لا يقضى منها شيء دليل على خفة متأصلة في الطبع أو مدعاة لتولّد تلك الخفة.

القوانين المطوّلة - سؤال ٤١

ترجمة

الأب جوزف صغيني المخلصي

شَذَرَاتُ عَنِ الْعَائِلَةِ

للقديس باسيليوس الكبير

« بالنسبة إليّ ، فإن من يطلب مني نصيحة ما على الزواج ، أفيده بأن وجه هذا العالم في تغيُّر والزمان قصير ، حتى ان الذين لهم نساء يكونون كأن لا نساء لهم . وإذا ذكرني أحدهم بقول الكتاب : انموا واكثروا أسخر منه لأنه يعرف أن يميّز الظروف التي أوجبت مثل هذه الأقوال . »

رسالة إلى ديودورس ، عدد ١٦٠

« أيها الرجال « أحبّو نساءكم » (أفسس ٢٥/٥) قد كنتم غرباء عن بعضكم البعض ، ولكنكم جُمعتم بشركة الزواج . لتكن هذه الرابطة الطبيعية ، هذا النير الذي وُضع عليكم بفعل البركة الزوجية صلّة وصل تجمع فيما بينكم رغم المسافات . »

عِظَات على أيام الخليقة ٥/٧٠

« ينبغي لمن يريد أن يتبع الله حقاً أن يتخلّص من ربط هذه الحياة وذلك بالعزلة التامة ونسيان العادات القديمة . إن غير المتزوج يهتم فيما للرب ، أما المتزوج فيهتم للعالم كيف يرضي امرأته » (١ كور ٧/٣٢) .

القوانين المختصرة ٢/٥

« ينبغي على الرجل أن لا ينفصل عن امرأته وكذلك المرأة عن رجلها إلا إذا تعرّض أحدهما لفعل الزنى . وكان للآخر عائقاً في طريق التقوى ، كما انه لا يجوز لمن أبعد زوجته أن يتزوج أخرى ولا للزوجة المنفصلة أن تعقد زواجاً آخر . »

أدبيات ٧٣

« إننا من نفس طينة الرجال ، تقول الشهيدة محرّضة رفيقاتها الذهابات معها إلى العذاب ، ومثلهم خلّقنا على صورة الله . نعم إن المرأة قادرة على العمل بالفضيلة كالرجال ، هكذا أراد الله الخالق . وما نحن في كل شيء سوى شريكات لهم . ان الله لم

يأخذ فقط من لحم آدم ليصنع حواء ، وإنما هي «عظمٌ من عظامه» (تك ٢/٢٣) . لذا نحن مديونات لله الأزلي بالاكرام في صمودنا وفي قوتنا وفي صبرنا بنفس المقدار مع الرجال .

عظة في مديح القديسة يوليطة ٥ - ٢

«ان المرأة التي تلد في الطريق ثم تهجر طفلها تُتَّهم باقتراف جريمة القتل . فإذا كانت قد أهملته بينما هي قادرة على تخليصه أو لأنها تأمل بأن تستر خطأها أو أيضاً بسبب تفكيرها اللاإنساني فلتعتبر قاتلة ولتحاكم على هذا الأساس» .

رسائل : ١٩٩ ، ٢١٧

«ان النسرة يتظلم كثيراً ضد ذريته ، قن فرخين يولدان إلى النور يُلقى أحدهما إلى الأرض دافعاً إياه بجانبه ويحتفظ بالآخر . هكذا ينبذ بعض الآباء أولادهم مدَّعين أنهم غير قادرين على إعالتهم أو يعرضونهم للبيع تحت حجة عوزهم وفقرهم» .

عظة على أيام الخليقة ٨/

«يجب على الأهل أن يهذبوا أولادهم بتصحيح خطأهم وإرشادهم بلطف ووداعة كما يريد السيد المسيح مع العمل قدر المستطاع على عدم تبرير سوء أفعالهم» .

أدبيات - ٧٦

«لا يمكننا أن ندرك مدى الحب المتبادل بين صغار الحيوانات وكبارها ضمن العائلة الواحدة إذ ان الله الذي خلقها شاء أن يعوّض لها عن فقدان عقلها بحرارة عاطفتها . فكيف تفسّر معرفة الحمل الصغير لأمه بلونها وصوتها من بين آلاف الخراف؟ وكيف يسرع إليها للرضاع رغم شحّ أنثائها . ومع أنه يمرّ في طريقه أمام كثير من النعاج ذوات الحليب الوافر؟ ثم كيف تعرف الأم صغيرها من بين آلاف الحملان مع أن للجميع صوت واحد ولون واحد ورائحة واحدة بحكم حاسة شمّنا نحن . بالحقيقة ان لها من ذلك ما هو أخف بكثير وأشدّ حيوية من ذكائنا ولا نستطيع له تفسيراً...»

عظة على أيام الخليقة ٩ ، ٤

«أيها الأولاد ، أحبوا آباءكم ، وأنتم أيها الآباء لا تبغضوا أولادكم» (أفسس ٤/٦) أليس هذا ما تقوله الطبيعة . إذا كانت اللبوة تحبّ صغارها والذئب يدافع عن جراميده ، فإذا

نقول عن الإنسان الذي لا يعمل بهذه الوصية ويحرق نظام الطبيعة بعينه . كالولد الذي يحتقر شيخوخة أبيه ، أو كالأب الذي يُنسيه زواجه الثاني بنيه الأوائل .»

عِظَةٌ عَلَى أَيَّامِ الْخَلِيقَةِ ٤٠٩

هذه النصوص عن العائلة

ترجمها الأب جوزف صغيبي ب. م.

١٤

نَصَاحٌ مُفِيدَةٌ لِكُلِّ إِنْسَانٍ

للقديس باسيليوس الكبير

١ - الحياة تمضي كالحلم

الحياة هي طريق يسلكه الإنسان للوصول إلى الغاية التي رتبها الله له . فكلنا مسافرون نمخر عباب بحر هذا العالم تاركين الرياح تجري بنا كما تشاء ، حتى نصل بهدوء وسلام إلى الميناء الهادئ . فالحياة تمضي بنا بخطى ثابتة ، دون أن نشعر بها أحياناً ، نحو الغاية التي يريدنا الله من كل إنسان .

لا بدّ لك أيها الإنسان أن تقتنع من هذه الحقيقة ، بأنك في هذه الحياة مسافر يبغي عالم الأبد ، وبأن كل شيء ستتركه وراءك . أنك أثناء سفرك في هذه الحياة تشاهد أشجاراً وأغراساً ، جداول وأنهاراً ، وأحجاراً وصخوراً ، وحيوانات مفترسة وحيوانات أليفة ، وحيات وزحافات ، وأشواكاً ونبوءات . وكلها تستوقفك قليلاً ثم تتركها وتستأنف لتتابع مسيرة سفرك . هكذا الحياة فكل شيء فيها يمضي : السعادة والشقاء ، فالسعادة هي لساعات قليلة والعذاب لن يدوم طويلاً .

فالحياة هي طريق يسلكه هذا الإنسان وذاك ، وأيضاً تسلكه قوافل البشر بتتابع واستمرار ، ودون توقّف البتّة .

٢ - انتبه للحسد فهو قاتل

إنتبه للحسد، فما من شهوة أشدّ سوءاً وضرراً من الحسد. فهو لا يؤذي القريب بقدر ما يؤذي الإنسان الحسود نفسه. فالحسد سوسة تنخر قلب الإنسان في الأعماق، وتعمل فيه كما يعمل الصدأ بالحديد. هو كآبة نفس وحزن يصيب الإنسان لدى مشاهدة السعادة التي يتمتع به الغير. وكم في الحياة من أسباب ودواعي يتعرض لها الحسود فتثير حفيظته. فإن أخصبت أرض قريبه او ارتفع له بيت وترين؛ إذا كان سعيداً في عمله ومع عائلته؛ كل هذه أمور توغر قلب الحسود وتزيد عذابه. الحسود يشبه رجلاً عارياً يتعرض جسده كل ساعة للسهم. فإذا رأى شخصاً قوياً معافى إغتم؛ وإذا قابل إنساناً جميلاً، أو آخر ذكي الفؤاد، جرح في الأعماق؛ وإذا علم أن إنساناً نجح في الحياة نجاحاً باهراً أحسّ بألم يدمي فؤاده.

وأشدّ ما في الحسد أنه داء يطوى في الكتمان. ترى الحسود خافض البصر، كالح الوجه، يتشكى باستمرار من عذابٍ داخليٍّ ممّا يذبل وجهه ويضني جسده فيهزل ويضعف. فهو يستحي أن يقول «إني حسود»، أشعر بالمرارة والحزن للخير الذي حصل عليه إنسان غيري، وأنّي أتعذب لسعادة أصدقائي، ولا أطيق نجاح أترابي، إني أرى أن سعادة الآخرين هي سيف يمزق أحشائي ويطعني في الصميم. هذا ما كان يجب أن يوح به الحسود. لكنه يفضل أن يحفظه في قلبه ويصمت، وهكذا يبقى الداء في ذاته فيضنيه العذاب ويفني جسمه قليلاً فقليلاً.

لا أجد طباً لمعالجة الحسود، ولا دواء لشقاء هذا المرض الخبيث، فالعزاء الذي يرطب قلبه، لا يحصل عليه إلا عندما يرى الذين يحسدوهم قد حرموا من السعادة. كما أن بغضه لا يحده ولا يوقفه شيء إلا زوال نعمة قريبه وانهار نجاحه.

وعندئذ فقط يُظهر المودة للغير إذ يراه حزيناً باكياً، رغم أنه لا يعرف الفرح مع الفرحين بل يعرف فقط البكاء مع الباكين. فهو يتأسف لوقوع النكبة، لا عطفاً على المنكوب، بل لكي يزيد ألمه بذكر ما فقدته أمامه.

الحسود، علاوة على ما ذكرنا يفقد الإحساس والشعور الصحيح بالقيم. فلا تتكلم أمامه عن فضيلة، أو عن جمال أو عن قوة أو عن روعة وفتنة منظر ما. فلا شيء من كل هذه يعجبه. وبذلك هو يشبه بعض الطيور التي ترى المراعي الخصبة، والأشجار الجميلة

الباسقة ، ومناظر الطبيعة المدهشة ، لكنها لا تتوقّف ولا تحطّ بأقدامها إلا في المستنقعات والمزابيل . وعلاوة على كل ذلك ، عند الحسود تصبح الفضيلة رذيلة ، والخير شرّاً . وهكذا الرجل الشجاع يعتبره الحسود متهوراً ، والعاقل بليداً ، والبار مجرمًا ، والحكيم مرأياً والكريم مسرفاً ومبذراً ، والحريص بخيلاً . إنّ كلّ الفضائل تصبح عند الحسود رذائل .

عظة ١١

٣ - الشرّ الذي فيك

لا يمكننا أن نقول ، دون أن نخطئ ضدّ الإيمان ، ان الشرّ يأتي من الله ، فلا الحياة تلد الموت ، ولا الليل يخلق النور ، ولا المرض يمنح الصحة . لأن الله ، الذي هو الخير والصالح بالذات ، لا يمكنه أن يخلق ما هو ضده ، أي الشرّ .

فإذا لم يكن الشرّ أبدياً ولا آتياً من الله ، فمن الذي أوجده يا ترى ؟ فالشرّ موجود ، ونحن نراه كل يوم .

الجواب الصحيح هو أنّ الشرّ ليس حقيقة حيّة ، بل هو ارتياح النفس لأمر يخالف الفضيلة ، وهو نتيجة رفضنا للخير وتساهلاً وتهاوناً منا . فلا نبحث عن الشرّ خارجاً عنا ، ففي أعماقنا تكمن طبيعة أولى فاسدة ، فعلى كل ان يُقرّ أنه هو أصل الرداءة التي فيه . ثم إنّ ما يحدث لنا من أمور سيئة ، منها ما هو نتيجة طبيعية محتمة كالشيخوخة والأمراض ، ومنها ما يحدث صدفة كالأحداث غير المتوقعة . إنّ بعضها يحزننا والبعض الآخر يفرّحنا ، كالكشف كنز أو عضّة كلب . وثمة أمور أخرى تتعلق بنا كالتسلّط على أهوائنا ، وقع دواعي اللذة فينا ، وكبح الغضب ، وتهديد من شتمنا ، وقول الصدق أو الكذب ، وحسن الخلق وهذوء الطبع ، أو الكبر والإعجاب بالنفس . فلا تبحث طويلاً ، فعلى قدر ما تتسلّط على نفسك يكون الشرّ خارجاً عنك . واعلم هذا ، إنّ أصل الخبائث الحقيقي هو استسلامك لضعفك بجريتك . ولو لم يكن الأمر كذلك ، لما أمكن سنّ شرائع ، ولا جاز إقامة محاكم ، ومعاقبة مجرمين .

ولا حاجة لنا أن نقول أكثر من هذا عن الشرّ نفسه . إنّ المرض ، والفقر ، وضعة المقام ، وكلّ ما يمكن أن يحلّ بنا من الشرور المزعجة ، فليس من الصواب أن نعدّه شرّاً جوهرياً . لأنّ الخير الكامل لا يقوم في ضده ، ثم إنّ بعض المحن متعلّق بمزاج طبعنا

المتغير، والبعض الآخر فيه مصلحة حقيقية.

عظة ، على أيام الخليقة ٢ : ٥

٤ - الكبرياء أصل الشرور

إنّ الشيطان جرب أن يوقع الإنسان الأوّل في تجربة الأمل بالوصول إلى المجد والعظمة فأسقطه. ولم يبرح يغريه بذلك الأمل عينه. وللوصول إلى غايته واصطياده ينصب له فخاخاً كثيرة. فيلوح له بالمال الوفير كوسيلة حتى يتفاخر ويتعظم بها على الآخرين ، وحتى يسعى في طلب المال رغم انه لن ينال منه إلا مجداً باطلاً مقروناً بكثير من المخاطر. ذلك ان اكتساب المال هو مصدر طمع ، وامتلاكه يعرض الإنسان ليُطعن في شرفه ولتُلوث سمعته. عدا ذلك المال يعمي بصيرة الإنسان ، ويبعث في روحه شهوة تشبه دُملاً ليس ورمه صحةً ولا ضرورةً ، بل هو مرض ومضرة. والدمل يمنع خطر وعلة موت. هذا ما تفعله الكبرياء في النفس.

وتنبع الكبرياء عن حبّ المال وعن ما ينشأ عنه من تصرفات. فالأغنياء ينفقون أكثر من الضروري على المآدب والولائم ، وعلى الملابس الفاخرة ، وعلى قصور واسعة وفخمة تستلزم خدماً وحشماً. علاوة على ذلك يبذلون مالاً وفيراً لتأمين المحازين والمعجبين. ناهيك عما تجرّه الإنتخابات من ترفع وكبرياء. فقد يحدث أنّ الشعب يولي إنساناً كرامة او يكل إليه مهمة عظيمة ، فيظنّ نفسه ، بسبب الكبرياء انه فاق الورى ، وانه صار فوق النجوم ، وأنّ الناس باتوا كلهم مطية لعظمته ولوظيفته. وأحياناً كثيرة مثل هذا الإنسان المتكبر يثور على متخيه ، وينكر جميل أولئك الذين رفعوه إلى أسمى المراتب. يا للجنون؟ ألا يدري هذا الإنسان المتكبر ان مجده يزول ويتبخّر كالحلم ، وان العظمة والسلطان ليست هي إلا سراب خداع.

عظة ٢٠

٥ - بماذا تريد ان تفتخر

بهذا تقوم عظمة الإنسان وفخره وقيمه : أن يعرف ما هو عظيم حقاً أي الله ، ويجعله هدفاً له ، وان يطلب مجد الله فقط كما قال القديس بولس الرسول : « من يفتخر فليفتخر

بالرب». وكما قال أيضاً، في موضع آخر: «ان الله جعل يسوع المسيح لأجلنا حكمة وبراً وقداًسة وخلاصاً». فمن رام أن ينال المجد فليطلبه في المسيح يسوع. لأن مجدنا الكامل هو في الله. فبدلاً من أن نركن إلى مزايانا فلنقرّ بضآلة قيمنا وبعجزنا عن أن نتبرر بالإيمان بالمسيح. لقد جعل القديس بولس افتخاره في احتقاره لمزاياه الخاصة ليطلب البر الذي بالمسيح يسوع، وبالإيمان به، وبقوة قيامته وبالاتحاد بآلامه والتشبه بموته ليكون شريك قيامته. فأمام هذه الحقيقة يزول كلّ داع الى الكبرياء، ولا يبقى لديك ما تستطيع أن تفتخر به لأن فخرك ورجاءك هما في أن تضحّي بأنانيتك، وتطلب الحياة الأخرى مع المسيح الذي قد قبلنا منه سلفاً بعض المزايا، اذ اننا نحيا في نعمة الله وصداقته.

موعظة ٣١٣

٦ - كن صادقاً ولا تكذب

لا شيء يشرف الإنسان ويرفع قدره بين الناس كالصدق، كما أنه لا شيء يشوه سمعته كالكذب ولو تسترّ بغطاء كثيف، فسرعان ما يعرف ويدحض. أمّا الصدق فإنه يبين وظاهر لكلّ من يرغب في رؤية جماله. الصدق لا يحبّ التسترّ، ولا يخشى الخطر ولا يخاف النيمة ولا يسعى وراء المجد البشري ولا يتعرّض للأشياء العالمية فإنه أسمى من كلّ هذا. هو معرّض إلى الثأّم الكثيرة ولكنه يبقى ثابتاً كالسور الحصين حافظاً للمتجنّين اليه بقوّته العظيمة، وكارهاً المأوى المتسترّ، ومقدّماً ما لديه جهاراً.

٧ - وصف الشاب الطائش

انظروا إلى هذا الشاب الذي نشأ منذ صغره على الأخلاق الشريفة وعلى الطهارة. فقد كان يتردّد على بيوت الصلاة باستمرار وفرح، وكان يُحسن إلى الآخرين قدر استطاعته؛ كان يذكر دوماً الدينونة الأخيرة، ويتقبل التعليم الصحيح الذي كان يسمعه من المرشدين، لكن الآن فقد تغيّر سلوكه تماماً، بعد أن سقط في خطأ مخجل وأضاع طهارته. ان الخراب اجتاحت نفسه، فلم يعد ضميره يطاوعه للعكوف على الصلاة في الكنيسة، ولم يعد يختلط بالمؤمنين لأنه ترك صفوفهم بسبب خجله، ولم يعد يتوقّف عن تلفيق الأعذار للدفاع عن سلوكه المشين. فيقول مثلاً انه مرتبط بشغل مع إنسان آخر ولا

يقدر أن يشترك في المناولة. وهكذا بهذه الحجج، وبغيا به عن الصلاة مع الجماعة، يسير خطوة بعد خطوة إلى الإلحاد ونكران الله، ويسير إلى الهلاك الأبدي.

٨ - أنظر إلى الأعالي

«لتنبت الأرض نفساً». إن البهائم أرضية تنجح إلى الأرض، أما الإنسان، هذه الغرسة الأرضية فإنه يختلف عنها بهيئة جسمه وسمو روحه، لذلك هو يفوقها عظمة ورفعة. كيف ترى هيئة ذوات الأربع؟ إن رأسها منحني صوب الأرض، وهي تنظر إلى بطنها مفتشة عن الأشياء التي تلذ له.

أما أنت أيها الإنسان فأرأسك مرتفع نحو السماء، وعيناك تنظران إلى العلى، فإذا كنت أنت تتلطف بشهوات الجسد، وتتعبد للذات الجوف، وللذات السفلى، فأنت بهذا «تقرب من الحيوانات التي لا تعقل وتشبه بها» (مز ٥٨/١٣) إني أعرض عليك الإهتمام بأمر آخر يليق بك: «أطلب الأشياء السامية، حيث المسيح» (كولسي ١/٣). وارتفع فوق أعراض الدنيا الفانية وتعلم من تكوينك الجسدي واجعله قانوناً لحياتك: فدينتك هي السماء؛ ووطنك الحقيقي هو أورشليم العليا، ومواطنوك هم الأبرار، الذين كتبت أسماؤهم في السماوات.

عظة ٣ : ٣

٩ - لا بد من جهاد

في الحياة لا بد لك ان تتحمل ضريبة العذاب، وأن تُصلب مع المسيح، وان تعيش في محبته الكاملة، التي تتطلب منك أحياناً كثيرة الكفر بالنفس والحرمان والعذاب. إن هذا الأمر يبين لك صعباً، لا تستطيع تحمل مشقته. ولكني أسألك، أي أمر هو سهل المنال في نظام الخير. تأكد أنك لن تصل إلى الانتصار في أي شيء كان وأنت نائم؛ ولن تنال مكافأة الأبطال والمجاهدين الشجعان وأنت لا تحرم نفسك من طيبات الحياة ولذات العمر الزائلة. فقط الذي يحاهد الجهاد الحسن يستحق المكافأة. فالتعب يعقبه الجهد، والجهاد يستحق المكافأة. أني أكرر على مسامعك قول الرسول بولس، «انه بمضايق كثيرة ينبغي أن تدخل ملكوت الله» (أعمال ١٤/٢١) ولكن بعد العذاب والجهاد والصعوبات

المختلفة ستنال بالأكد المكافأة الخالدة ؛ ففما أولئك الذفن قضاوا ففاهفم فف الخطفة سفنلون الالف والعذاب فف ففهم

عظة ١٣ : ٧

١٠ - أجمال ما فف الففة

حرص الفلاسفة والففكرون على الفف عن فافة الإنسان على هذه الأرض . لكنهم اختلفوا ففما ففهم فف هذا الشأن ، وفصارف آراؤهم وفعدف مذهبهم . فزعم البعض منهم أن فافة الإنسان أنما هي العلم ؛ ففما قال آفرون انها العمل ؛ قال البعض ان فافة الإنسان هي فف اافافر الفسد وإفضاعه لفسطرة العقل ، وففزفز الروح واعتبارها القوة العظمى فف الإنسان ، ففما قال آفرون أن فافة الإنسان فف هذه الففة أنما هي الففم بالذفاف وطففاف الففة .

أما نحن فالفافة الفف نسعى إلها والفف فصبو إلى الوصول إلها بكلّ حرص واجفهاد هي الففة السعفة مع الله فف السماء الفالدة . ولا شفء فف الدنيا فوازف هذا السعى الفمفد شرفاً وعظمة للخلقفة العاقلة .

عظة على مزمر ٤٨ : ١

١١ - إن أفاام الله فامضة

أنك فلف فف السؤال ، لماذا كُفب لهذا الإنسان الشرّف العمر المفد ، وللإنسان المفف الرب العامل بوصافاه الففة القصفة والموف المفاففء والسرف ؟ لماذا فففج الأشرار فف ففطهم وأعمالهم ، ففما مشارف الإنسان الصالاف ففعرّ ولا فففج ؟ لماذا فموف الففل الصفر وبعد لم فذق فعم الففة ؟ لماذا الفروب والمنازعات ؟ لماذا الزلازل والففاف والطوفان ؟ لماذا البعض فعفشون أفراراً والبعض الآخر عبفداً ؟ لماذا البعض هم أغففاء والبعض الآخر فقراء وبؤساء ؟ لماذا ففد عند البعض اسفعداداً عبفداً وطففاً لعمل الففر أو الشرّ ؟ ولا ففد مثل هذا الشفء عند كففرفن ؟ كفف ففال كلّ واحد الفزاء الذي فسفحقه من الففان العادل ؟

عندما ففراكم هذه الأسئلة وففرها فف ذهنك وفرففك فذكر أن أفاام الله هي

نصائح مفيدة لكل إنسان ————— ٣١٣

غامضة وصعبة الإدراك. إنما أذكر جيداً وعد الرب لكل مؤمن حقيقي انه سيفيض في قلبه كنوزاً خفية لا تُعد ولا تحصى.

عظة على المزمور ٣٢

١٢ - ما هي الخطيئة وما هي الفضيلة

إن الله وهب الإنسان القوى الضرورية التي تساعد على إتمام أوامره ونواهيه. فلا أحد يستطيع رفض هذه الوسائل كأنها قوى تفوق قدرة البشر؛ ولا أحد يستطيع أيضاً الافتخار بها وبإنجازاتها كأنها شيء غير طبيعي واستثنائي خصه الله بها وحده. ان البعد عن العمل بوصايا الله هو بعد عن الله؛ وهذا هو جوهر الخطيئة التي هي انفصال عن الله وبعد عن الوحدة معه.

واعلم هذا ان البشر حين يستعملون هذه القوى التي وضعها الله في طبيعة الإنسان وفقاً للنواميس الطبيعية والشرائع الإلهية التي سنّها الله يكونون سالكين طريق الإيمان والفضيلة الصحيح؛ لكن حين يستعملون هذه القوى، في طرق مخالفة لما رتبّه الله يقعون في الشطط والخطيئة. وهكذا يمكننا تحديد الخطيئة بأنها استعمال القوى التي فينا استعمالاً مخالفاً للغاية التي سنّها الله لها؛ وتحدّد الفضيلة من جهة أخرى بأنها استعمال حسن للقوى الإنسانية، بنية مستقيمة وفقاً لشرائع الله وأوامره.

اننا كبشر نتعرض كثيراً للسقوط بسهولة في خطايا الفكر، ولذلك حرّض الكتاب المقدس قائلاً «انتبه لقلبك فإنّ منه مخارج الموت». وبالعكس فإننا نسقط مراراً قليلة في خطايا الجسد قلّ بسبب أنها تتطلب وقتاً طويلاً، وظروفاً مؤاتية وجهداً وتعباً. وأحياناً تتطلب مشاركة الآخرين.

عظة ١:٣

١٣ - من الضروري تجديد الحياة

قصد الله منذ خطيئة آدم نحو جريرة السقطة الأولى، وعودة حياة الصداقة وثبيت العلاقة الحميمة بين الله والإنسان. وهذا القصد أتمّه يسوع المسيح بمجيئه إلى الأرض، وتجسده وحياته في الناصرة وبآلامه الخلاصية وبموته على الصليب ودفنه وقيامته بعد ثلاثة

أيام. وهكذا وضع جليلاً أن الإنسان قد خلص ، وانه يستطيع بواسطة نعمة المسيح والإقْتداء به أن يصبح من جديد إبناً لله الآب .

لكن هذا التجديد يستلزم من الإنسان ترك الماضي ، وولادةً جديدةً كما قال السيّد له المجد لنيقودمس . إذن لبدء حياة جديدة مع المسيح لا بدّ من انتهاء حياة قديمة ونسيان الماضي كلّهُ ، ولا بدّ من موت ينهي حياة قديمة وينظّم حياة جديدة .

والحياة الجديدة هي الحياة التي وصفها الإنجيل والتي عاشها المسيح على الأرض . وهذه تستلزم من الإنسان وداعة وصبراً واحتمالاً وطهارة قلب وجسد وتجرداً عن الغنى . وهكذا تتحقق على الأرض حياة الطوباويين في السماء .

ولا بدّ من التذكير بأنّ الروح القدس هو العامل والمحرّك الأساسي في هذا التجديد للحياة وفي تغييرها إلى حياة مع المسيح . فهو الذي يحملنا إلى أن ندعو الله أباً حقيقياً لنا ؛ وهو الذي يشركنا بنعم الفداء العظيمة ؛ وهو الذي يجعلنا ، كما يقول القديس يوحنا أبناء للنور ، مشتركين هكذا بالمجد الأبدي المزمع أن يتجلّى فينا . وبكلمة مختصرة الروح القدس هو الذي يجعلنا نملك كلّ ما يريد الله أن نملكه ، وأن نفهم بالإيمان المواعيد بما سنملكه في الحياة الأخرى .

عن الروح القدس . فصل ١٥/ ٣٥ ، ٣٦

١٤ - ارفع نظرك الى السماء

تطلّع إلى السماء وتأمل في الخيرات المعدة فيها للأبرار والصالحين . أنّها عظيمة وتفوق الوصف ، وهي تفوق بكثير خيرات الأرض التي هي كلّها زائلة وباطلة . ثم وجه سعيك شطر السماء واستفد من كلّ شيء تصادفه في مسيرة حياتك على الأرض .

والكتاب المقدّس الموحى به من الله يبسط من خلال حوادث تاريخية ومن خلال كلام الانبياء والمرسلين الوسائل التي تبلغ بك إلى السماء . لكن لا تحتقر كتب الحكماء والفقهاء ، فهي مصادر نور تضيء الطريق أمامك لفهم حقائق الكتاب المقدّس . لهذا أنصحك بمطالعة كتب الشعراء والمؤرّخين والخطباء والفلاسفة ، لأنك تستطيع بواسطتها تهذيب قلبك وتقويم حياتك . وهي تكون مثل مدخل لفهم تعليم الله في الكتاب المقدّس .

وهكذا إذا كان هناك توافق وتكامل بين العلوم الإنسانية والعلوم الإلهية ازدادت أنت فهمًا لتعليم الوحي المقدس الصعب ؛ وإذا وجدت اختلافًا بينها ثبت لك صحة تعليم الوحي.

عظة ١٢ عن العلوم الإنسانية

١٥ - أخيرًا إنته لذاتك

«إنته لنفسك» (تثنية ١٥/٩)، فهي الكثر الثمين والخير الأعظم، وهي تستحق أن توليها أشد الإهتمام. فاحرص عليها أكثر من حرصك على الأمور التي تحيط بك والتي تخصك. فالفرق عظيم بين ما أنت عليه وبين ما يحيط بك وما هو لك. لا تنس أنك إنسان مركب من نفس وجسد، وإنك خلقت على صورة الله ومثاله. والله إنما هو روح. فما يخصنا هو الجسد وحواسه، وما يحيط بنا هو المال والمهنة وسائر أحوال العالم. إن الكتب المقدسة تنبهك إلى الإهتمام كثيرًا بنفسك، فلا تهتم بالجسد ولا بما هو مرتبط بالجسد، كالصحة والجمال، واللذة والعمر المديد. وكذلك لا تُعبر كبير اهتمام للغنى والمجد والسلطان، وكل ما هو مرتبط بالحياة الأرضية. لكن اهتم بنفسك فوق كل شيء. فهذه هي الكثر الثمين لك. زينها بالفضائل، نقها من الخطيئة، وجملها بزيينة الفضيلة التي هي أجمل زينة. تأمل جيدًا بهذه الفكرة: إن الجسد يزول ويفنى أما النفس فهي خالدة.

عظة ٣ : ٣

هذه المقتطفات ترجمها

الأب الياس كويتر المخلصي

عن Jean-Marie Ronnat, St. Basile le Grand.

سِتَّةَ أَيَّامٍ الْخَلِيقَةَ

(مقتطفات)

للقدّيس باسيليوس الكبير

١ - الله هو الذي صنع السماء والأرض

الله هو الذي خلق السماء والأرض.

فكّر البعض ان السماء والأرض وُجدت بفعل الصدفة ، وبقوّة ذاتية متحرّكة . لكن نحن أبناء الإيمان ، فلا مجال للشكّ عندنا بأنّ سبب وجود هذا العالم هو الله وحده . وفي الحقيقة كثرت آراء العلماء ، وتضاربت تعاليم الفلاسفة ، ولم يُجمعوا في وقت من الأوقات على رأي واحد ، إذ كان كل رأي ينقضه رأي آخر ويخالفه تماماً . وهكذا سقطت كل الآراء بتفاعل ذاتي وتضارب غريب .

نشير هنا إلى أنّ الذين ينكرون وجود الله هم أنفسهم ينكرون وجود علّة لوجود الخليقة . وقد بنوا نظريّتهم هذه على استنتاجات خاطئة . فقال البعض منهم إنّ علّة وجود هذا العالم هي المادّة فقط . وقال آخرون أنّ الخليقة وجدت بسبب تواجد وتفاعل أجسام وذرات صغيرة ومختلفة . وقد قاد الإلحاد البعض الى أبعد من هذه الحدود .

هذه التعاليم لا تشرح لنا شرحاً وافياً وصحيحاً وجود هذا العالم لأنها ترفض قول الرب : «في البدء خلق الله السماء والأرض» ، وبالتالي فهي ترفض وجود الله الخالق . وقد تصوّر البعض أنّ هذا العالم الحافل بالخلائق الكثيرة وُجد دون ربّان يقوده ويوجّهه ، ووُجد دون تدخّل كائن أعظم منه . وقالوا أيضاً انه وجد صدفة . وقد قادهم إلحادهم إلى غير ذلك من الآراء التي لا مجال للردّ عليها .

أمّا نحن ، فنؤمن بالله ونؤمن بأنّه خلق السماء والأرض . فلنمجّد حكمة الخالق وعظمة الخليقة ؛ أنّ جمال الخلائق المنظورة تكشف لنا كم هو جميل الذي أوجدها ؛ كما أنّ عظمة الأشياء المخلوقة تبين لنا طبيعة خالقها هي غير متناهية .

عظة على أيّام الخليقة ١ : ٢

٢ - كم هي جميلة هذه الأرض

سَمَرَ نظرك إلى السماء الصافية وأنت في سكون الليل ، وتأمل النجوم المتناثرة في الفلك فتأكد حينئذٍ أن الله هو الذي أبدع هذا العالم من الأفلاك ، ونثرها كالورود في السماء ، وجعل أن تأثيرها على الأرض والإنسان يفوق كثيراً جمال دورانها ونظامها الدقيق المدهش . واني أدعوك أيضاً إلى التأمل اثناء النهار في جمال هذا الكون وجمال ما فيه وللتفتيش عن الخالق فستصل دون شك الى نتيجة واحدة ، وهي أن الله هو الذي خلق السماء والأرض وكل ما فيها .

تعال معي لأكشف لك عظام وأسرار هذا العالم . وبادئ ذي بدء ، إنك لا تعلم أثناء رحلة الاستكشاف هذه أن تتعرف على ذاتك . فأنت بالطبيعة أرضي ، ولكن أنت تسمو على الأرض وكل ما فيها ، لأنك خلقت على صورة الله ومثاله . نعم أنت ضعيف ولست قوياً كالحوانات لكنك تفوقها كثيراً ، لأنك ملك غير منازع عليها كلها بقوة عقلك .. واذا كانت الطبيعة بخلت عليك بالقوة الجسدية ، إلا أن قوة عقلك ترفعك إلى أسمى الدرجات أي إلى السماء نفسها .

من خلال هذه الحقائق الواضحة تكتشف نفسك ، وبالوقت نفسه تكتشف الله ، فتقر بوجوده ، وتعرف بأنه الخالق ، فتعبده ، وتعتبره السيد المطلق للحياة والمصير ، وتعرف بأنه الأب الحنون المحسن الذي يهب لنا الغذاء ، وينعم علينا بالحياة الحاضرة والمستقبل ، ويغدق علينا الخيرات المفيدة لحياتنا على الأرض وحياتنا في السماء . واذا كانت تبين لك الخيرات الأرضية والمادية عظيمة الشأن والأهمية ، فكم بالأحرى ستكون الخيرات الأبدية . تأمل في الخلائق المنظورة كم هي جميلة ، وتأكد أنها جميلة أكثر الخلائق غير المنظورة .

انظر الى السماء فهي بلا حدود ولا يقدر العقل البشري فهم طبيعتها ووصفها ، فهل يستطيع يا ترى عقلنا فهم ما هو أبدي . أن الشمس التي تزول هي عظيمة الأثر في حياة الإنسان والأرض ، ومنظمة الدوران ، وبديعة الجمال ، وهي العين التي تنير العالم كله ، هكذا هو بديع الجمال ، وفائق الكمال السيد المسيح الذي دعت الكتب المقدسة شمس العدل .

عظة على أيام الخليقة ٦: ١

٣ - هذا البحر العظيم الواسع

«وقال الله لتجتمع المياه التي تحت الجلد إلى موضع واحد وليظهر اليبس وكان كذلك. وسمى الله اليبس أرضاً، وجمتمع المياه سمّاه بحاراً ورأى الله ذلك انه حسن». (تك ١/٩).

نعم انّ منظر البحر هو جميل عندما تظهر للعيان شواطئه بيضاء كالثلج، ومياهه هادئة ساكنة؛ وهو جميل عندما تهبُّ على أديمه، نسبات لطيفة فتحرّكه راسمة خطوطاً بيضاء ولازوردية على شواطئه؛ وهو جميل أخيراً عندما تهاجم شواطئه الأمواج اللطيفة الهادئة فتبين للنّاظر كأنها تريد أن تعانقها.

لكن ليس هذا هو جمال البحر الذي حسن في نظر الله. فالله هو روح وهو لا يُرى بالعين الحسّية بل بعين العقل. فالله هو سرّ إذن بتلك الرطوبة التي تنبعث من البحر فتغطّي الأرض كلّها متسرّبة من خلال قنوات خفيّة، وفجوات ونوءات، فتصبح الأرض مثل إسفنجة كثيرة المسارب، تمتصُّ المياه تسير بها عبر أقنية متعرّجة ومتشابكة ودقيقة. ثمّ تحطّم الحواجز، عندما تهبُّ الرياح على البحر، فتقذفها إلى أعماق الأرض، وهناك، تتطهر من ملوحتها فتعذب وتصبح صالحة للشرب. عدا ذلك، فهذه المياه اثناء مرورها في أعماق الأرض تصادف بالأكيد معادن مختلفة فتأخذ منها مواد كثيرة مفيدة لجسم الإنسان وحياته، وأحياناً أخرى تأخذ من هذه المعادن حرارتها فتضحي تغلي كأنها في مرجل.

انّ البحر حسن في نظر الله ليس فقط بسبب الرطوبة التي تنبعث منه وتسرّب إلى أعماق الأرض، بل أيضاً لأنّ البحر هو المجمع الذي تصب فيه، من كلّ جهة، مياه الأنهار الكثيرة. ورغم ذلك يبقى في الحدود التي رسمها الله له؛ وهو أيضاً قد حسن لأنّه هو السبب الأوّل والأخير للمياه التي يمتلئ بها الجو، والتي حين تدفئها حرارة الشمس تتحوّل إلى بخار خفيف، وترتفع إلى الأجواء العالية فوق الأرض، وهناك تلقى برودة فتحوّل من ثمة إلى أمطار تروي الأرض العطشى.

وكذلك البحر هو حسن في نظر الله لأنّه يحيط بالجزر كالأسوار بالمعصم، فيضحي لها زينة وحاجزاً؛ ويضحي طريقاً يربط بين القارات والجزر، فيعطي البحّارة الحرية التامة للتنقّل والسفر، فيستطيعون آنذٍ بواسطة البحر نقل الأخبار والحوادث التي كنا نجهلها، وحمل المؤن والبضائع التي يحتاج إليها الناس لمعيشتهم مع عائلتهم، وهكذا يؤمّنون

حاجات الناس ويتيحون الفرص للتجار لنقل الفائض إلى الخارج ولجلب ما يسدّون به حاجات المحتاجين والفقراء.

عظة على أيام الخليقة ٦:٤

٤ - تأمل في السمك

انظر إلى «البحر العظيم الواسع». هناك دبابات لا عدد لها، حيوانات صغار مع كبار». (مز ١٠٣/٢٥) ورغم هذا العدد الهائل من السمك، يسود بينها نظام ثابت ومحكم التوازن. ورغم أننا نجد أسباباً لانتقاد طبائع السمك، إلا أننا نجد أيضاً أمثلة جيّدة للتمثّل بها.

فهي تنقسم مناطق البحر التي تلبي حاجاتها وتؤمن غذائها، فلا تعود بعدئذ تتعدّى الحدود، وتعتدي على مراعي غيرها من أنواع السمك. وتقوم بهذا العمل رغم أنها تفتقر إلى مهندسين يرسمون الحدود ويضعون الخطط والرسوم. أنها تكتفي بالقسمة والنصيب الذي حدّد لها. فهناك خليج يوافق هذا النوع من السمك، بينما خليج آخر يوافق نوعاً آخر؛ هنا يكثر السمك، وهناك يقلّ عدده. فلا جبال تقف في وجه زحف السمك، ولا نهر يمنع وصولها؛ لكن هناك ناموس طبيعي يحدّد لكل نوعٍ من هذه الخلائق، بمساواة وعدل المكان الموافق لها.

أدعوك إلى التبصّر في أحوال السمك المهاجر. فهي تنظّم ميعاد الرحيل وتحدّد ساعة الهجرة وكأنها تخضع لقرار صادر من مجلس شورى الذي حدّد لها ساعة الذهاب إلى بلاد غريبة. فزاهها عندما يحين وقت تراوج السمك، يهاجر البعض منها من هذا الخليج، والبعض الآخر من خليج آخر، وكلّها تندفع بقوة تحت ضغط ناموس طبيعي إلى البحر الأسود. وتبين للنّاظر إليها حينئذٍ كأنها تيار جارف تتدافع مواكبه للوصول إلى المكان المشتى. فمن يا ترى يحرك مسيرتها؟ وأي قائد أو زعيم يُصدر لها الأمر بالرحيل؟ أين تُعلن ساعة هجرتها من مكان إلى آخر؟ ومن يوجّهها إلى بلاد غريبة؟

ألا ترى أنّ العناية الإلهية تقوم بكلّ هذه الأمور وهي تعتني بالخلوقات حتى الصغيرة. أنّي رأيت مشاهد كثيرة من هجرة السمك، فعظمت حكمة الخالق.

عظة على أيام الخليقة ٤:٧

٥ - أمثلة من الحيوانات

في الفصل الأول من سفر التكوين وردت هذه الآية : « لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وطيوراً تطير فوق الأرض » (تك ١/٢٠) ووردت آية أخرى : « لتخرج الأرض ذوات أنفس حية بحسب أصنافها بهائم ودبابات ووحوش أرض... » (تك ١/٢٣).

هناك اختلاف واضح بين الآيتين. ففي الآية الأولى أُعطي الأمر للمياه لتخرج زحافات حية ؛ بينما في الآية الثانية أُعطي أمر للأرض لتخرج نفساً حية. اننا نعتقد بعد درس هاتين الآيتين بتدقيق بأن الطبيعة أعطت الأسماك حياةً ناقصة ؛ فهي تعيش في طبقات كثيفة من المياه ، ولذلك فسمعها خفيف ، ونظرها شحيح ، اذ هي ترى كل شيء من خلال الماء ؛ أما ذاكرتها فهي شبه مفقودة وكذلك مخيلتها. وزدّ على ذلك انها لا تنسجم في العيش مع كائناتٍ أخرى. فنستخلص من آية الكتاب المقدس بأن الجسم عند الأسماك هو الذي يتحكم بمصيرها وحياتها. بينما عند الحيوانات الأرضية ، فالحياة عندها هي اكثر كمالاً اذ النفس هي التي تتحكم بكل شيء. ولذلك نجد حواس هذه الفئة من الحيوانات تميز وتشعر وتحس ؛ فالرؤية عندها هي اكثر تمييزاً ، وتذكر الحوادث والأمور هو اكثر دقة.

من الأكيد انّ الحيوانات الأرضية لا تعقل ولا تفهم. لكن الطبيعة تعوّض عن هذا النقصان... فالصوت يعبر عند هذه الحيوانات عن مشاعرها المختلفة ، عن الفرح والحزن ، وعن معرفتها للأشياء التي اعتادت عليها ، وعن حاجتها للغذاء ، وعن غياب الرفقة أو حضورها وغير ذلك ، من المشاعر التي تعبر عنها أحياناً بالصراخ. والأمريختلف تماماً عند الحيوانات المائية فهي دون صوت معبر ، وهي لا تقبل إلفه ولا تثقيفاً. وهي تأبى العيش مع الآخرين. ويقول الكتاب عن الحيوانات الأرضية : « ان الثور عرف قانيه. والحمار معلف صاحبه » (أشعيا ١/٣) اما السمك فهو لا يذكر من أطعمه ومن ربّه. ونجد ، في استعراض بعض الأمور عند بعض الحيوانات الأرضية ان الحمار يعرف الصوت الذي اعتاد سماعه ، ويعرف الطريق الذي درج على السلوك فيه. وقد يصدف أحياناً انّ الحمار يصبح هو الدليل لمن ضلّ الطريق. ولا نقدر أن نصف ما يمتاز به الحمار من قوّة السمع فهو يتفوق بذلك على سائر الحيوانات التي هي من فصيلته ، ونمرّ مروراً سريعاً في وصف حقد الحمل ورغبته للثأر. فإذا ضرب مرةً حفظ ذكراً لتلك الحادثة ، واذا وجد في يوم

من الأيام فرصة مؤاتية ردّ الصاع صاعين.

عظة على أيام الخليفة. ٨: ١

نفهم من الآية الكريمة من سفر التكوين التي تقول : « لئنض المياه زحافات ذات أنفس حية وطيوراً تطير فوق الأرض » ان طبيعة الطيور أيضاً تشبه كثيراً طبيعة الأسماك ، التي هي ناقصة كما فصلنا ذلك قبلاً .

ندرك الشبه الكبير بين الطيور والأسماك عندما نتأملها جيداً . فالفتتان تمارسان السباحة نوعاً ما ؛ فالطيور تمارسها في الجو بينما الأسماك فهي تمارسها في الماء . الأسماك تشقّ المياه بتحريك خياشمها ، وتغيّر مسارها بتحريك أذناها ، بينما الطيور ، فهي تسبح في الجو بتحريك أجنحتها .

هناك قاسم مشترك بين الطيور وهو انها تمتلك كلّها أرجلاً لتساعدها للتفتيش عن الغذاء عندما تحطّ على الأرض اليابسة للأكل أو لتعيش فيها .

ان أنواع الطيور كثيرة ، فالبعض منها يمتاز بمنقار حادّ يساعده على اقتناص فريسته ، والبعض الآخر لا يستعمل الا رجليه ؛ البعض يجد الغذاء على الأرض والبعض في الجو كالسنونو ؛ البعض منها قاتم اللون والبعض الآخر زاهي الألوان كالطاووس ؛ البعض منها يأكل اللحوم والآخر البقول والحبوب ؛ البعض منها يعيش جماعات جماعات ، والبعض الآخر لا يعيش الا مستقلاً حراً ؛ البعض منها يخضع لإرشاد قائد أو زعيم كالجمع ، والبعض الآخر لا يطبق الخضوع للغير ؛ البعض أليف وداجن ، والبعض الآخر يهاجر باستمرار إلى بلاد بعيدة ؛ البعض يغني غناء عذباً ، والبعض الآخر يصمت ويسكت . ان الديك هو متغطرس ، والطاووس فخور بجمال ريشه ، والثور رابط الجأش ، والحمار بطيء الحركة ومتمهّل في مشيته ، والحصان متحمّس في طلب اللذة ، والذئب متوحّش ، والثعلب محتال ، والأرنب حذر ، والنحلة مجتهد ، والكلب أمين وعارف الجميل ووفي ، والنحلة عاملة نشيطة . اننا لا نستطيع تعداد صفات وأنواع وألوان وطبائع الطيور والحيوانات فهي كثيرة ومختلفة ومتنوعة .

عظة على أيام الخليفة ٨: ٢ و ٣

يلتحف الإنسان بالخنجل والعار عندما يرى ان الكلب يحفظ جميل سيّده ، بينما

الإنسان فهو ينسى المعروف وينكر الجميل. تذكر بعض الحكايات أن كلاباً كثيرة ماتت حزناً على أصحابها الذين قتلوا في الصحراء. وفي حالات أخرى يذكر أن كلاباً كثيرة كانت دليلاً للتفتيش عن الجناة عندما تعذر ذلك على الباحثين، وهكذا هم قادوا المجرمين إلى القصاص.

عظة على أيام الخليقة ٩ : ٤

هذه المقتطفات ترجمها
الأب الياس كويتر المخلصي
عن

Homélies sur l'hexaéméron
Sources chrétiennes

١٦

الإنسان : الكائن والصورة

للقدّيس باسيليوس الكبير

١ - يا لعجائب جسم الإنسان

من يتأمل في جسم الإنسان ويفحص تركيبه العجيب يدرك حكمة الله الذي كوّنه من تراب وأبدعه من العدم. تأمل طريقة التنفّس وسريان الدم في الجسم من خلال عروق وأوردة ، وخفقان القلب ودفقه للدم بانتظام ، وغير ذلك ممّا تلاحظه إذا أمعنت النظر وفحصت بدقّة جسمك. لكننا نميل طبيعياً للأسف إلى معرفة أسرار الكون والفلك أكثر ممّا نميل إلى معرفة ذاتنا معرفة صحيحة ، لذلك أنصحك بفحص العجائب الكثيرة التي في جسمك. فصحيح أنّك كائن صغير لكنك عالم كبير. وفي هذا المعنى قال داود

النبي: «إن أعمالك معجزات ونفسي عالمة بذلك أي علم» (مز ١٣٨/١٤) أن معرفة دقيقة لجسم الإنسان تقود حتماً إلى معرفة الكائن العظيم الذي خلقه.

عظة على أصل الإنسان ١: ٢

٢ - لاهوت ثالثي

قال الله «لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا» (تك ١/٢٦).

لماذا هذا الاختلاف في أوامر الله في الخلق العجيب؟ فإننا نلاحظ جيداً، في سياق الفصل الأول من سفر التكوين أن الله قال: «ليكن نور... وليكن جلد... ولتجتمع... وثبت. ولتكن نيرات». لكنه لما وصل إلى خلق الإنسان قال «لنصنع الإنسان على صورتنا ومثالنا». يا للعجب. ففي خلق الكائنات كلها نجد أمراً حازماً لا تردّد فيه ولا مراجعة، بينما في خلق الإنسان نجد نوعاً من المشورة يجريها الله مع آخرين. وكأنه يريد معرفة كيف يُدخل في نظام وحياة هذا الكون الإنسان الجدير بكل اعتبار واحترام. وهذا يدل على أن الإنسان هو في نظر الله الخليفة الأكثر كمالاً بين الخلائق كلها.

أن الله قال لنصنع ولم يقل لأصنع. ويتضح من هذا أن الثالوث كله اشترك في خلق الإنسان. فهو عمل مشترك يضطر الإنسان إلى عبادة الله في ثلاثة أقانيم. وإذا أمعنت النظر في المعنى العميق والبعيد لكلمة لنصنع تجد أنها تحوي في طياتها تاريخاً ظاهراً، وبالوقت نفسه تحوي لاهوتاً ثالثياً واضحاً.

هناك أيضاً معنى لاهوتي أريد أن اكشفه لك. فعندما قال الكتاب «وخلق الله الإنسان» دلّ بذلك على وحدة الألوهية رغم وجود ثلاثة أشخاص. فهناك قوة فاعلة واحدة تجمع بينهم وتحملك إلى عبادة إله واحد، لكنه في ثلاثة أقانيم. إن الألوهية هي واحدة ويمكنك أن تراها في الآب وفي الإبن وفي الروح القدس. إن مبادئ الخليفة تبسط لنا علماً لاهوتياً كاملاً ومتكاملاً.

عظة على أصل الإنسان ١: ٣ و٤

٣ - الإنسان هو صورة الله

ماذا كان يعني الكتاب المقدس بالقول: «إننا خلقنا على صورة الله».

علينا الرجوع إلى الله لنفهم مراد الله وسره العظيم. وحينئذ لن يتبادر إلى ذهننا بأن الصورة التي عناها الله في الفصل الأول من سفر التكوين هي صورة جسدية. فالصورة الجسدية هي صورة إنسان يفني. وحاشا لله أن يصور ما هو غير فان بصورة كائن فان. ذلك أن الجسد ينمو، ويدوب ويشيخ وينقص. فهو يمر في مراحل فناء مختلفة، وفي حالات تغيير متعددة. والله ثابت إلى الأبد، وصورته أيضاً لا تتغير ولا تزول أبداً.

لننتبه إلى حكمة الرب: «لنصنع الإنسان على صورتنا... وليتسلط...». هناك ترابط محكم العروة بين صنع الإنسان على صورة الله وبين السلطان على سمك البحر وطير السماء والبهائم وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض. ومن الطبيعي أن هذا التسلط لا يكون إلا بواسطة العقل. فجسد الإنسان هو أضعف من جسد الحيوان، ولا يقدر الإنسان التسلط على الحيوان بواسطة الجسد، بل بواسطة العقل.

إذن ما هو جوهر السلطان يا ترى.

يمكن جوهر السلطان في سمو وقدرة العقل. وبهذا يكمل العقل ما نقص من ضعف الجسد. أليس بقوة العقل يحرك الإنسان أعظم الأثقال والاحجام؟ إن الإنسان هو صورة الله، والإنسان أنما هو في عقله وإدراكه. وهكذا نحدد الإنسان بأنه كائن حباه الله بالعقل فأصبح بذلك صورة لله خالقه.

عظة على أصل الإنسان ١: ٦ و ٧

٤ - «وخلق الله الإنسان، وخلق على صورته»

في نهاية الفصل الأول من سفر التكوين يعود الكتاب المقدس إلى الكلام عن الخلق فيقول: «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم» (١: ٢٧). نلاحظ جيداً أنه يوجد اختلاف واضح بين هذه الآية وبين الآية التي سبقتها: «لنصنع الإنسان على صورتنا كمثلنا وليتسلط على سمك البحر وطير السماء وجميع الأرض وكل الدبابات الدابة على الأرض» (١: ٢٦). فهل هناك تغيير أو رجوع إلى الوراء؟

لا بد لنا من نبذ كل الطروحات التي تسيء إلى الله عز وجل، وإلى صفاته الكاملة، والتمسك بأن الاختلاف هو ظاهر فقط لا يمس عقيدة الخلق كما وردت في التوراة بتاتاً. فنحن نحوز على صورة الله بقوة الخلق، ونحوز على مثال الله بقوة الإرادة. ويعني ذلك أن

الإنسان يوجد طبيعياً على صورة الله، أما التمثّل به والتشبه بصفاته فلا يتمّ إلا بقوة الإرادة. وهذا معروف فلسفياً أيضاً. فإننا نملك طبيعياً ومبدئياً الإرادة كمحرك أساسي للحياة، ولكن العمل بما توحى الإرادة لا يتمّ إلا بعمل ثابت ودائم.

وهكذا نفهم أنّ الله أعطانا القدرة على التشبه به، وأعطانا بالوقت نفسه القدرة لنقوم نحن بعمل شخصي للتمثّل به. وهكذا نصبح نحن العملة الحقيقيين لهذا التمثّل بالله، فنكسب بذلك الأجر والمكافأة.

نفهم ممّا سبق المعنى البعيد لقول السيّد في الإنجيل «كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ هو كامل» (متى ٥/٤٨). وكيف تشبه بكمال الله؟ نصل إلى ذلك عندما نجسّد قول السيّد الوارد في الإنجيل عن الآب السماوي «الذي يطلع شمس على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين» (متى ٥/٤٥) فإذا أبغضت الشرّ، ونسيت الإساءة، وإذا رحمت إخوانك، وإذا غفرت من كلّ قلبك لعدوك، فحينئذٍ أنت تشبه الله.

عظة عن أصل الإنسان ١: ١٧

٥ - والمرأة هي أيضاً صورة الله

تأمّل جيّداً في كلام الرب: «خلق الله على صورته، على صورة الله خلقه ذكر وأنثى خلقهم». فالمرأة حسب فكر الله هي أيضاً خلقت على صورة الله. فالرجل والمرأة يتشابهان بالطبيعة، وبالفضيلة وبالمكافأة وبالقصاص. فلا تقل المرأة اني ضعيفة، فالضعف هو ميزة الجسد، أما القوة فهي ميزة النفس.

الكتاب المقدّس يذكر دوماً الرجل ولا يذكر المرأة إلا قليلاً. فهل هذا، يا ترى هو نبذ للمرأة وحطّ لكرامتها؟ حاشا.

إنّ الطبيعة هي واحدة عند الرجل وعند المرأة، ولذلك أعمالهما هي واحدة أيضاً. والقصاص هو واحد. والكتاب المقدّس يذكر الرجل لأنه يريد تسمية الكلّ باسم الجزء المهمّ.

فالمرأة لم تأخذ من الرجل اللحم فقط بل أيضاً العظم. فهي أخذت إذن من الرجل القدرة والصبر وشدة المراس.

عظة على أصل الإنسان ١: ١٨

٦ - عظمة وبؤس الإنسان

يشيد الكتاب المقدس كثيراً بعظمة الإنسان. لكن مراراً كثيرة عندما كنت أتأمل في حياة الإنسان وأحواله أسأل نفسي كيف يكون الإنسان عظيماً وهو العدم، وهو الذي يخضع لمختلف التغيرات والتقلبات، وهو الذي يتحمل منذ ولادته حتى موته كابوس الشرّ الثقيل. ألم يقل بحقّ صاحب المزامير «ما البشر حتى تعترف له وابن الإنسان حتى تفكر فيه» (مز ١٤٣/٣) فأين هي عظمة الإنسان يا ترى؟

إن رواية أصل الإنسان كما وردت في الفصل الأول من سفر التكوين تشرح لنا هذا الإبهام. يقول الكتاب المقدس: «إنّ الرب الإله جبل الإنسان تراباً من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار الإنسان نفساً حيّة» (تك ٢/٧). فهذه الكلمات تكشف لك عظمة الإنسان وبؤسه. فهو لا شيء حسب طبيعته الترابية، لكنّه عظيم جداً بسبب الشرف الذي أحاطه به الله نفسه.

تأمل جيداً في رواية الخلق. فقد قال الرب: «ليكن نور فكان نور... وقال أيضاً ليكن جلد، فكانت النجوم والشمس والقمر... وغير ذلك من الأفلاك التي نراها تدور في السماء بانتظام عجيب. ولم يقل الله ليكن الإنسان. بل جبل تراباً، فهو نفسه صوّر جسد الإنسان بيديه من تراب. لم يكلف ملاكاً بهذه المهمة، ولم يقل للأرض أن تصنع الإنسان؛ لكنّه بيديه الإلهيتين كفنان ماهر أخذ تراباً ليجعل الإنسان. فإذا نظرت إلى التراب تجد ان الإنسان هو كائن حقير؛ ولكن إذا نظرت إلى من صوّر الإنسان بيديه تدرك حينئذٍ عظمة الإنسان.

يقول الكتاب المقدس أيضاً «أخذ تراباً ونفخ فيه نسمة»، ويقول في موضع آخر «وخلق الإنسان على صورته». إذن نستوحي من هذه الآيات أنّ الله جبل جسد الإنسان من تراب على صورته؛ أما نفسه فقد خلقها: إنّ الإنسان الداخلي خلقه الله، أمّا الإنسان الخارجي فقد صوّره على صورته كمثاله. إنّ الصورة تليق بالتراب، أمّا الخلق فهو يليق بالنفس فقط.

عظة على أصل الإنسان. ٢: ٣ و ٤

هذه المقتطفات ترجمها

الأب الياس كويتر المخلصي

عن Sur l'origine de l'homme.

Sources chrétiennes.

أَدَبِيَّات

للقديس باسيليوس الكبير

حاشية : جمع القديس باسيليوس الكبير في كتاب سمّاه « أدبيات » Moralia نصائح مختلفة مفيدة لكلّ إنسان . وهي تعدّ ثمانين نصيحة نورد بعضاً منها :

١ - يلتزم كلّ من آمن بالسيّد المسيح أن يتوب أي أن يرتدّ إلى الله كلّ مرّة تفرّأ أو توتر أو تنقطع الصلة بينه وبين الله . والطريقة الفضلى للتوبة هي التي علّمها القديس يوحنا المعمدان والتي أوحى بها الإنجيل . وأشار إلى أنّ الذين يرفضون التوبة بعد مجيء المسيح إلى الأرض فادياً ومخلصاً سيدانون بدينونة أشدّ قسوة من الذين سبقوا مجيء المسيح .

٢ - يصعب جدّاً التوفيق بين خدمة الله وبين الإهتمام المفرط بأمور تنافى ومتطلّبات التقوى . وهذا لا يعني الإعراض عن خيرات العالم ، لكن السيّد يلزم تبّاعه بنبذ الإهتمام الزائد بها ، وطرح تفضيلها عليه إذ هو الخير الأسمى للإنسان . إنّ الله هو غيور ويريد أن تسمو محبته على كلّ شيء وعلى كل محبة .

٦ - لا بدّ من شجاعة وبأس ونبذ الخجل والخوف عندما نضطر إلى الاعتراف بالمسيح وإعلان الإيمان به وبإنجيله .

٨ - يلتزم المؤمن أن يُبعد الشكّ عنه وينبذ التردّد عندما يدور البحث عن تعاليم المسيح في الإنجيل ، لأنّ هذه التعاليم هي مطابقة تماماً مع الحقيقة ولا تقبل الغلط . وإن الإنسان يستطيع القيام بها رغم أن الطبيعة البشريّة تستصعبها في أمور كثيرة .

٩ - لا بدّ من السعي إلى معرفة الواجبات التي يلتزم بها الإنسان في حياته على الأرض .

١٠ - عاقبة الخطيئة هي الموت .

- ١٢ - إن الإرتياب والشك يبعد عن الله رغم انه يصدر احياناً عن دافع تقوى . لا بدّ من الإستسلام لكلام الله دون شكّ البتة ودون تردّد .
- ١٤ - لا يجوز خلط الأمور المتعاكسة ؛ فلكلّ أمر وقت ، ولكلّ حديث وقت .
- ١٥ - لا يجوز إهمال الواجب بسبب الاتكال والاعتماد على أعمال الآخرين الصالحة .
- ١٦ - لا يفيد الإنسان شيئاً العيش مع الأشخاص الأتقياء والصالحين ، والظهور بمظهر الصلاح ، إذا كان الإنسان لا يعكف على إصلاح نفسه وتجميلها بالفضائل .
- ١٨ - لا بدّ من إتمام وصايا الله كما يريد الله . واننا نغيظ الله إذا خالفنا الطريقة المرسومة لنا لإتمام الوصايا .
- ١٩ - يحظر على الإنسان منع إنسان آخر عن إتمام مشيئة الله . وعلى الإنسان الحذر من الخضوع لضغط الآخرين بمخالفة إرادة الله ، حتى ولو كانوا من الأقارب والأصدقاء .
- ٢١ - لنيل الحياة الأبدية لا بدّ من تناول جسد ودمّ المسيح . هذا أمر سيدي وليس نصيحة .
- ٢٢ - انّ الخطيئة تُبعد الإنسان عن الله وتربطه بالشيطان .
- ٢٦ - إنّ كلّ كلمة وكلّ عمل يجب ان تستند على كلام الله في الكتاب المقدّس .
- ٣٠ - لا يجوز استعمال الأشياء المقدّسة لضرورات عامّة شائعة .
- ٣١ - انّ الأشياء التي يستعملها الأشخاص المكرّسون لله لا يجوز ان تعطى الى العامة من الناس .
- ٣٢ - ان العدل والمساواة تلزمنا ان نعطي لكل ذي حقّ حقّه .
- ٣٣ - لنبتعد عن الشكوك .
- ٣٤ - نلتزم بإعطاء المثل الصالح للغير ، وكلّ إنسان يلتزم بذلك حسب مقدرته ووظيفته .
- ٣٦ - يستحقّ التكريم والتقدير من يحرص على تعليم الله ويدافع عنه ويعلمه للآخرين .

- ٣٧ - إنَّ الخضوع لأوامر الله حتى البسيطة وإتمامها هو مقبول عند الله حتى ولو قامت به النساء.
- ٤٠ - ابتعدوا عن الأنبياء الكذبة الذين يعلمون تعاليم تخالف الإنجيل.
- ٤١ - لا بدّ من قطع دابر كل أسباب الشكّ، رغم أنها قد تصدر لأسباب شخصية وضرورية.
- ٤٣ - إنَّ الإنجيل يمنع الأعمال الشريرة الظاهرة وبالوقت نفسه يحرم الأعمال الشريرة الخفية.

ترجمة الأب الياس كويتي

المخلصي

Saint Basile le Grand: Les Oeuvres.

١٨

الروح القدس

(مقتطفات)

للقدّيس باسيليوس الكبير

١ - إيضاحات عن الروح القدس

هلمّ معاً الآن لفحص المبادئ والثوابت العامّة الشائعة عن الروح القدس والتي جمعناها عنه من الكتب المقدّسة والتي تسلّمناها من تقليد الآباء غير المكتوب.

وبادئ ذي بدء، من ممّا، عند سماعه أسماء الروح لا يرتفع بنفسه، ولا يرتقي بفكره إلى الطبيعة العليا. ألم ترد هذه الأسماء: «روح الله» و«روح الحقّ الذي من الآب ينبثق» (يو ٢٥/٢٦) و«الروح المستقيم» و«الروح النشيط والمرشد» (مز ١٢/٥). لكن بين هذه الأسماء المختلفة يغلب اسم الروح القدس. وهذا هو الاسم المميّز له والخاصّ به، وهذا هو الاسم الذي ينطبق تماماً على الكائن المتّزه عن الجسد والمادة والبسيط جداً.

ولذلك ، لما أراد السيّد ان يعلم السامريّة التي كانت تعتقد ان العبادة لله تتمّ في مكان معيّن ، قال لها : « انّ الله هو روح » (يو ٤/٢٤) ولأنّه روح فهو لا يحصر في مكان . وعليه ، لا يستطيع أحد عند ذكر الروح ان يتصور طبيعة محدودة ، خاضعة للتغيّرات والتقلّبات ، وشبيهة في كلّ شيء بالخلقة . لكن عليه ، أن يرتقي بعقله إلى العلى ، فيفكر حتمًا بطبيعة عاقلة ، لا حدّ لقوّتها ولا قياس لعظمتها ، تتخطى حدود الزمن والمكان ، وهي تفيض خيراتها وحسناتها دون بخل أو نقصان .

نحو هذا الروح يتّجه الراغبون في نعمة تقديس نفوسهم والتائقون إلى العيشة في التقوى والبرّ ، لأنّ نسائم الروح القدس تهبّ عليهم ، فيتابعون السير نحو غايتهم الطبيعية . فهو مكمل الجميع ولا ينقصه شيء البتّة ؛ وهو حيّ ولا يحتاج إلى عون وسند لأنّه موزّع الحياة ؛ هو لا يزداد نموًا لأنّه كامل بذاته ، وثابت في جوهره ، وحاضر في كلّ مكان ؛ هو ينبوع التقديس ، ونور ينير كلّ عقل لاكتشاف الحقيقة ؛ هو لا يدنى منه بسبب طبيعته ، انما هو قريب إلى الفهم بسبب صلاحه ؛ هو مالى كلّ شيء بقوّته ، ولا يحظى بشركته إلّا المستحقّون وحدهم إذ توزيعه لا يكون بمقياس واحد ، بل على قدر الإيمان . الروح هو بسيط في جوهره ، انما يظهر قدرته بتنوّع المواهب ؛ هو حاضر كلّّه في كلّ إنسان ، وموجود كلّّه في كلّ مكان . هو يوزّع دون قسمة ، ويعطى كاملاً لكلّ إنسان . وهو ، كشعاع الشمس ، الذي يستطيع كلّ إنسان أن يتمتّع به كأنّه وحده ، وهو ينير الأرض والبحر ويمتزج بالهواء ، هكذا الروح يمنح النعمة للإنسان فيظنّ أنّه يتمتّع بها وحده . فهو يملأ الجميع نعمة ويبقى دون نقصان . والذين يتقبّلونه ينالونه حسب قدرة استيعابهم وطاقاتهم ، لا على قدر طاقته هو .

إنّ دخول الإنسان في وحدة مع الروح لا يتمّ بتقارب جسدي ومكاني ، لأنّه يستحيل الاتحاد جسديًا بالمنزّه عن الجسد ؛ بل يصير بإقصاء ونبذ الشهوات التي عندما تسيطر على الإنسان تخضعه للجسد فيفقد حينئذٍ الوحدة والصدّاقة مع الله . وهكذا ، إذا تنقت النفس من البشاعة التي التحفت بها بسبب الرذائل ، واستردّت جمال صورتها الملكية بالنقية . وهذا ، يجعلها تتقرب فقط إلى الروح المعزّي ، الذي يكشف لها في ذاته صورة الذي لا يرى ، وبهذه المشاهدة السعيدة ترى جمال المثال الأوّل المعجز البيان . بالروح القدس ترتفع القلوب إلى العلى ، ويتقوى الضعفاء ، ويغدو الناقصون كاملين . هو المنير لكلّ من تنقى من كلّ وصمة فيجعلهم روحانيّين بالشركة معه .

ويصبحون حينئذ كالاجرام الوضأة التي عندما تنعكس عليها الأشعة تضحي منيرة؛ باعثة من ذاتها أشعة منيرة، فهكذا النفوس التي تتسرب إليها الروح، والتي استضاءت بأشعة نعمه تصبح روحانية تفيض بدورها النعمة على الآخرين.

عن هذا تنبثق معرفة المستقبل، وفهم الأسرار، ومعرفة الأشياء الخفية، وتوزيع المواهب، والعشرة السماوية، والبهجة مع الملائكة، والسعادة التي لا تنتهي، والسكنى مع الله، والتشبه به، ثم التحول إليه، «فيصبح الإنسان إلهاً». وهذا هو غاية الأمانى. هذه هي أفكارنا عن الروح القدس، وهي صدى لأبواق الروح، التي علمتنا مكانة وعظمة وكرامة وعمل الروح القدس.

عظة عن الروح القدس، ٢٢/٩، ٢٣

٢ - إنكار الروح القدس هو كفر

الويل لمن؟ وعلى من نحزن يا ترى؟ ومن هو الإنسان الذي يعاني الضيق والبليلة والعذاب؟ ومن يستحق القصاص الأبدي؟ أليس الكفرة؟ أليس جاحدو الإيمان؟ ويا ترى ما هي حجة جحودهم للإيمان؟ ولماذا حنثوا باعترافهم بالإيمان؟ وبماذا اعترفوا ومتى كان ذلك؟ آمنوا بالآب والإبن والروح القدس، وجأهروا باعترافهم، بعد أن رفضوا الشيطان وملائكته. فأى لقب يمكن لأبناء الإيمان أن يلقبوه به. هو بالتأكيد اسم كفر وخونة وناكري عهد خلاصهم. وهذا هو الاسم الحقيقي لكل من أنكر الآب والإبن؛ وأيضاً لكل من أنكر الروح القدس.

إن اعتراف الإيمان بالروح القدس يستحق لنا تطوية التقوى؛ وأيضاً انكاره يورطنا في مغبة الإلحاد، لذلك يتتابنا الخوف الشديد، عندما نرى البعض ينخدعون ويقعون في الشطط، لا خوفاً من عذاب النار، أو السيف، أو الصليب، أو السوط، أو الدولا، أو آلات التعذيب الأخرى بل بسبب انخداعهم بسذاجة ومغالطات أعداء الروح القدس.

أنى أعلن وأؤكد لكل إنسان يعترف بالمسيح وهو ينكر الله، إن المسيح لا يفيد شيئاً؛ والإنسان أيضاً الذي يستجير بالله ويدعوه لمساعدته، ولكنه يرفض الإبن، إن إيمانه هو باطل؛ وكذلك الذي ينكر الروح القدس، إن إيمانه بالآب والإبن هو هراء؛

فلا يمكن أن نحصل على الإيمان بالآب والإبن بدون مساعدة الروح القدس . وفي الحقيقة من لا يؤمن بالإبن لا يؤمن بالروح القدس ؛ ولا يؤمن بالآب من لا يؤمن بالإبن . فحسب القديس بولس لا أحد « يستطيع أن يقول : يسوع هو ربّ الآ بالروح القدس » (١ كور ١٢/٣) ، وقال أيضاً ، « الله لم يره أحد قط . الإبن الوحيد الذي في حضرة الآب هو أخير » (يوحنا ١/١٨) .

مقالة عن الروح القدس ، ٢٧/١١

٣ - بالمعمودية ننال الروح القدس

ندرك الفرق بين النعمة التي ينالها الإنسان بمعمودية الروح ، والنعمة التي ينالها بمعمودية الماء . فقد ورد في الإنجيل ان يوحنا كان يعمّد بالماء لأجل التوبة ، وقد قال : « أنا أعمّدكم بالماء للتوبة ، وأما الذي يأتي بعدي ، فهو أقوى مني وأنا لا استحقّ أن أحمل حذاءه وهو يعمّدكم بالروح القدس والنار » (متى ١١/٣) ، والقول هذا : المعمودية بالنار ، يعني « امتحان الدينونة » ، حسب قول القديس بولس : « وهذه النار ستمتحن عمل كل واحد ما هو » (١ كور ٣/١٣) وأيضاً « يوم الرب سيعلته لأنّه في النار يكشف » (١ كور ٣/١٣) .

إذن ، بالروح القدس تتمّ استعادة السكنى من جديد في الفردوس ، والصعود إلى ملكوت السماء ، والعودة إلى البنوة الإلهية . ومنه تتولّد الدالة بأن ندعو الله « أبانا » ، والقدرة على الإشتراك في نعمة المسيح ، وعلى تسمية نفوسنا أبناء النور ، وعلى نيل النصيب في المجد الأبدي . وبكلمة مختصرة ، بالروح القدس نحصل على ملء البركة في هذا الدهر وفي الدهر الآتي .

إننا نرى الآن كما في مرآة الخيرات التي وعدنا بها الله ؛ والتي بالإيمان نتوقع ان ننالها ونتمتع بها . وإذا كان العربون هو هذا ، فما أعظم ما يكون الكمال ؛ وإذا كانت الباكورة هي جميلة للغاية ، فكيف يكون تمام كل شيء .

مقالة في الروح القدس ، ٣٤/١٥ ، ٣٥

٤ - الروح القدس هو والآب والإبن واحد في كلّ شيء

نقطة الإنطلاق في حديثنا عن الروح القدس كانت هذه : كيف أنّ الروح القدس

هو غير منفصل مطلقاً عن الآب والإبن ، وانه لا يوجد بينه وبين الآب والإبن بُعد او اختلاف في شيء .

نعود إلى نقطة الإنطلاق ذاكرين بادئ ذي بدء كلمة القديس بطرس لسفيرة زوجة حنانيا : «لماذا اتفقنا على تجربة الروح القدس . أننا لم نكذباً على الناس بل على الله» (أعمال ٥/٩ و ٤) فهذا دليل على أن الخطايا ضد الروح القدس هي أيضاً ضد الله نفسه . ومن ثمة يمكن التأكد من أن كل أعمال الروح القدس هي في وحدة كاملة وحقيقية مع أعمال الآب والإبن ، وانه غير منفصل أبداً عن الآب والإبن . وهكذا عندما يعمل الآب أعمالاً مختلفة ، والإبن يعمل في توزيع الخدمات ، يعمل الروح القدس معها في توزيع المواهب كما يريد وحسب استحقاق كل واحد . ويقول القديس بولس في هذا المعنى : «إن للمواهب أنواعاً لكن الروح واحد ، وللخدم أنواعاً لكن الرب واحد ؛ وللأعمال أنواعاً ، لكن الله ، الذي يعمل كل شيء في جميع الناس فواحد» (١ كور ١٢/٤) «وهذا كله يعملهُ الروح القدس الواحد نفسه موزعاً مواهبه على كل واحد كما يشاء» (١ كور ١٢/١١) وبالحقيقة ، ليس لأن الرسول بولس ذكر في هذه الفقرة الروح القدس أولاً والإبن ثانياً ، والآب ثالثاً ، يجب التفكير بأن ترتيب الثالث قد تغير واختلف . السبب في هذا التغير في الأسماء هو أن الرسول ابتداء بتسميتهم هكذا ، وفقاً لترتيب علاقات الناس بعضهم مع بعض . فإن الإنسان عندما يتقبل عطية من الغير يذكر المعطي أولاً ؛ ثم يذكر من أرسل المعطي ، ثم يبلغ أخيراً إلى ذكر ينبوع الخيرات وسببها .

بعد هذا الشرح يراودك التفكير بثلاثة أقانيم : الرب مصدر الأمر ، والكلمة الخالق ، والروح المثبت . ويا ترى ما هو التثبيت ، الا تكميل الإنسان بالتقديس ، إذ كلمة التثبيت تعني بالحقيقة الثبات والرسوخ والتمسك بالخير والصلاح دوماً وممّا لا شك فيه ان لا قداسة بدون الروح القدس .

مقالة عن الروح القدس ، ٣٧/١٦

٥ - هناك شركة حقيقية كاملة بين الروح والآب والإبن

إن طبيعة الروح القدس هي سامية وكاملة ، وشبيهة تماماً مع طبيعة الآب والإبن ليس لأن الروح يحمل الأسماء نفسها فقط ، وليس أيضاً لأنه شريك كامل معها في العمل ، بل لأنه مثلها غير مدرك بالمشاهدة .

وفعلاً ما قيل عن الآب بأنه يفوق التفكير البشري ، وما قيل عن الابن أيضاً ، قاله الرب عن الروح القدس . ورد في الإنجيل : « يا أبت العادل انّ العالم لم يعرفك . » (يو ١٧/٢٥) . والعالم هنا لا يعني مجموعة السماء والأرض بل الحياة الفانية المعرضة للتغيرات المختلفة والتي لا تحصى . وأمّا عن نفسه فقد أعلن : « عمّا قليل لا يراني العالم ، أمّا أنتم فترونني » (يو ١٤/١٩) . وبكلمة العالم يعني هنا كلّ أولئك الذين يستسلمون للحياة المادّية والجسدية ، وينظرون إلى الحقيقة بعيون جسدية فقط ، وهم برفضهم الايمان بالقيامة لا يرون الرب بعيون قلوبهم .

وهذا ما قاله الرب أيضاً عن الروح الذي هو «روح الحق الذي من الرب ينبثق ، والذي لا يستطيع العالم ان يقبله لأنه لم يعرفه ولم يره . أمّا أنتم فتعرفونه لأنه مقيم عندهم ويكون فيكم . » (يو ١٤/١٧) . ذلك انّ الإنسان الجسدي الذي لم يروّض على التأمل نفسه ، وهي الغارقة والمنغمسة كلياً ، كأنما في الأوحال ، في النزوات الجسدية ، لا يستطيع ان يرفع بصره نحو نور الحقيقة الروحي .

ان الكتاب المقدّس يشهد بأن الذين يدوسون الأشياء الأرضية ليرتفعوا فوقها يستحقون عطية الروح القدس .

مقالة عن الروح القدس ، ٢٢/٥٣

٦ - المسيح والروح القدس

لقد كان الروح القدس حاضراً لمّا «مُسخ» الابن به وغدا رفيقه الملازم ، وفقاً لما هو مكتوب : « ان الذي ترى الروح يتزل عليه ويستقرّ هو ابني الحبيب » (يو ١٣/٣٣ - لو ٣/٢٢) «يسوع الناصري الذي مسحه الله بالروح القدس» (أعمال ١٠/٣١) ثمّ انّ كامل نشاط المسيح قد جرى في حضرة الروح القدس . فلقد كان حاضراً ، حتى في الوقت الذي جرّبه فيه الشيطان ، لأنه كتب : «أخرج يسوع إلى البرية من الروح القدس ليجرب من إبليس» (متى ٤/١) . ولقد كان أيضاً ملازماً ليسوع لما كان يمدح معجزاته ، كما يتّضح ذلك من قوله : « وإن كنت انت بروح الله اخرج الشياطين... » (متى ١٢/٢٨) ولم يتركه بعد قيامته من بين الأموات ، لما أراد الرب أن يحدّد الإنسان ويعيد إليه النعمة التي نالها من روح الله ، لأنه كان قد فقدوها . ولما نفخ في وجه تلاميذه ماذا قال لهم : «خذوا الروح القدس ، من

غفرتم خطاياهم تغفر لهم ، ومن أمسكتهم خطاياهم تمسك لهم » (يو ٢٠/٢٢) وتنظيم الكنيسة؟ أليس حقاً ، وبدون شك ، عمل الروح القدس ؟ ذلك لأنه حسب قول القديس بولس ، هو الذي أعطى الكنيسة أولاً رسلاً ، ثانياً أنبياء ، ثالثاً معلمين ، ثم قوّات ، ثم مواهب شفاء ، فانعامات ، فتداير ، فأنواع السنة ، فترجمات السنة... » (١كور ١٢/٢٨) فإن الروح القدس هو يوزّع هذه المواهب على المؤمنين.

مقالة عن الروح القدس ، ١٢/٥

٧ - نمجّد الروح القدس بتعداد صفاته

يسود الاعتقاد بأنّ كلاً من الأرواح السماوية موجود في مكان محدّد. فالملك الذي ظهر لكرنيليوس لم يظهر في الوقت نفسه لفيلبس (أعمال ٨/٢٦) ؛ وكذلك الملك الذي خاطب زكريا في الهيكل لم يكن في الوقت نفسه في السماء في المكان المخصّص له (لو ١١/١) أمّا الروح القدس فليس الأمر كذلك. فهو كان يعمل مع حبقوق ومع دانيال في بابل (دانيال ١٤/٣٣) ؛ وكان مع إرميا في المقطرة وعلى شواطئ كبار مع حزقيال. (ارميا ٢٠/٣ - خر ١/١) «لأن روح الرب ملأ المسكونة» (الحكمة ١/٧) ، «وأيّن أذهب من روحك ، وأيّن أفر من وجهك؟» (مز ١٣٨/٧). وقال النبي : «انا معكم يقول الرب وروحي يقيم فيما بينكم» (حجاي ٢/٥). فالذي هو في كلّ مكان ، والذي هو مع الله ، يا ترى ما هي طبيعته؟ أهى يا ترى طبيعة تحيط الكل ، أم هي طبيعة محصورة في أمكنة محدّدة ، كما يظهر ذلك من كلام الكتاب عن الملائكة. من يستطيع أن يجيب على هذه الأسئلة. إنّنا نمجّد من هو إلهي بالطبيعة ، وغير محدود في العظمة ، والقدير في الأعمال ، والصالح في الخيرات والمواهب. هذا هو جوائي وهذا ما يجب ان نقوم به دوماً.

مقالة عن الروح القدس ، ٢٣/٥٤

٨ - عرض لحالة الكنائس في عهد القديس باسيليوس

بماذا نشبه حالة الكنائس في الوقت الحاضر. بالحقيقة انها تشبه ، نوعاً ما ، معركة بحرية قام بها ، لأجل خلافات وتراعات قديمة ، رجال مقاتلون وأشداء ، ومدربون على القتال في البحر ، ومتشوّقون إلى سفك الدماء والحرب ، وتستعر قلوبهم بالضغينة والغضب.

انظر بحقك إلى هذا المشهد ، فالأسطولان يتشابكان تشابكاً رهيباً ، ثم في سعي من الغضب ، يتنازل الرجال متصارعين ومتشابكين بالأيدي .

انتقل الآن معي من الصورة إلى الشر الذي أريد أن أمثله لك . ألا تظن ان البدعة الآريوسية قد قامت كفريق عدو للكنيسة ، سلخت عنها ابناء كثيرين ، ثم انتصبت كفريق مقاوم لها في كل شيء . وعلى أثر نزاع طويل وصعب ، أرادت هذه البدعة محاربتنا حرباً مكشوفة ، فاندلعت الحرب واستعر القتال بطرق شتى ، وتوزعت المعارك في أمكنة مختلفة ، حتى انه ؛ بسبب العداء العام ، والحساسيات المختلفة والخاصة ، عظم البغض وخيم الحقد على الجميع .

أليست هذه الحرب بين الكنائس أشدّ خطراً وشراسة من الزوبعة في البحر . فكلّ الحدود التي وضعها الآباء القديسون اهتزت ؛ وكلّ أسس وثوابت العقيدة ترعزعت ، وأيضاً ما كان قائماً على أساس فاسد سقط . واشتبكنا بالأيدي بعضنا مع بعض ، وتقاتلنا ، حتى صرع الواحد منا الآخر .

ان الاضطراب الذي يسببه أراكنة ورؤساء الصالم ، هو أشدّ خطراً وضراوة من العواصف والزوابع مهما اشتدت . ان ليلاً حالكاً وكثيباً يجيم على الكنائس كلّها ، لأن المناثر التي وضعها الله لتنير الشعوب انطفئ نورها . كما ان المنافسة الشديدة بين رؤساء الكنائس تزيل عنهم الشعور والإحساس رغم الإنذار بالإنحلال الكامل .

مقالة عن الروح القدس ، ٧٦/٣٠ ، ٧٧

ترجم هذه المقتطفات عن الروح القدس
الأب الياس كويتر المخلصي

عن

Benoît Pruche. O.P. Sur le Saint-Esprit
Sources Chrétiennes:

العِيشة المشتركة (مقتطفات)

للقدّيس باسيليوس الكبير

١ - إني أرى ان العيشة المشتركة هل أفضل لأسباب كثيرة : أولاً لأنه ليس أحد منّا يقدر أن يقوم وحده بكلّ حاجاته الجسدية بل نحتاج بعضنا إلى بعض لقضاء تلك الحاجات. فكما أنّ الرجل تقدر على بعض أشياء وينقصها أشياء وبدون مساعدة بقية الأعضاء لا تجد قدرتها فاعلة أو كافية للثبات على الفعل ولا تستغني عمّا ينقصها ، هكذا يكون في عيشة التوحّد فإنّ ما عندنا من المواهب يُصبح غير نافع وما ينقصنا لا نقدر أن نستغني عنه لأنّ البارئ تعالى ربّ أن يحتاج بعضنا إلى بعض كما كتب : « لكي يلازم أحدنا الآخر » (سيراخ ١٣ : ٢٠).

وفضلاً عن ذلك فان ناموس محبة المسيح لا يدع كلاً منّا يطلب ما هو له اذ قيل : « ان المحبة لا تلتبس ما هو لها » (١ كو ١٣ : ٥) وأمّا عيشة التوحّد فلها غاية واحدة هي ان يهتمّ المتوحّد بمصالحه الخصوصية. ومن الواضح ان ذلك يُضادّ ناموس المحبة الذي تمّمه الرسول « غير طالب ما يوافقه بل ما يوافق الكثيرين لكي يخلصوا » (١ كو ١٠ : ٣٣). ثم انه في الوحدة لا يستطيع كل أحد أن يطّلع على نقائصه بسهولة لعدم وجود من يؤنّبه ويصلحه بدعة وإشفاق. على أنّه اذا كان التوبيخ من العدو كثيراً ما ينشئ في الرجل الحكيم الرغبة في الإصلاح فالصديق أولى بأن يعالج النقائص على طريقة ناجعة. وقد قيل : « انّ الذي يُحب يتقف باهتمام » (امثال ١٣ : ٢٤) وهذا الصديق يعسر وجوده في طريقة التوحّد ما لم نسبق فنشترك في العيشة معه. والّا فيصح فينا قول الروح القدس : « الويل لمن هو وحده لانه اذا سقط فليس آخر ينهضه » (جامعة ٤ : ١٠).

على أنّ وصايا كثيرة يستطيع حفظها بسهولة المجتمعون معاً ولا يستطيع حفظها المتوحّد : لأنّه إذا تمّم واحدة منها أهمل الأخرى. مثال ذلك ضيافة الغرباء فإنّها تصدّه عن عيادة المرضى ، والإهتمام بأعماله الخصوصية فانه يعوقه عن إعطاء وتوزيع الأشياء الضرورية للمعاش (ولا سيّما إذا كانت هذه الخدم تقتضي زمناً طويلاً) بحيث يهمل لأجل ذلك أعظم الوصايا وأجزؤها فائدة للخلاص كأن يطعم الجياع ويكسو العراة.

فوالحالة هذه من تراه يؤثر عيشة بطالة وبلا ثمرة على عيشة مملوءة ثماراً وموافقة لوصية الرب؟

٢ - إذا كنا كلنا نحن المدعوين إلى رجاء دعوتنا الواحد نؤلف جسداً واحداً رأسه المسيح (أفسس ٤: ٤) وكان كل منا عضواً للآخرين (١ كو ١٢: ١٢) فكيف يتيسر لنا ونحن متفرقون مشتتون أن نحفظ للأعضاء نظامها وتعاونها أو كيف نمثل الطاعة لرأسنا الذي هو المسيح إذا لم نألف بالاتحاد لانتظام الجسد الواحد في الروح القدس بل فضل كل منا التوحد غير مباشر لأجل إرضاء الله الأعمال النافعة للجمهور بل عاملاً ما يهواه إرضاء لنفسه؟ كيف تفرح مع من يُكرّم وتألّم مع من يتألّم (١ كو ١٢: ٢٦) إذ من الواضح أنه لا يستطيع أحد أن يعرف أحوال القريب وهو بعيد عنه (غير معاش له). ثم لما كان يمتنع على الشخص الواحد أن ينال كل المواهب الروحية وكانت مواهب الروح تعطى على مقدار إيمان كل إنسان (رو ١٢: ٦) كان أن موهبة كل واحد تصبح في الحياة المشتركة شائعة بين الجميع: «فيعطى واحد كلام الحكمة وآخر كلام العلم وآخر الإيمان وآخر النبوة وآخر مواهب الشفاء الخ» (١ كو ١٢: ٨-١٠). وإن من ينال موهبة من هذه المواهب لا ينالها لأجل نفسه بل بالحرى لأجل الآخرين بحيث أن القوة الممنوحة لواحد بالروح القدس تنتقل ضرورة في العيشة المشتركة إلى الجميع معاً. وأما في عيشة التوحد فإن أصاب أحد موهبة جعلها بلا ثمرة بسبب عدم المتاجرة بها فكأنه دفنها في صدره. وانتم يا جميع الذين يقرأون الأناجيل تدركون ما في ذلك من الخطر. بخلاف العيشة الإجتماعية فإن صاحبها لا يتمتع فيها بموهبته الخصوصية فقط بل يضاعفها بإشراك الآخرين فيها ويحتني ثمراً من مواهبهم كما يحتني من موهبته.

٣ - وإن للعيشة المشتركة فوق ذلك فوائد كثيرة يصعب تعدادها كلها. منها أنها أحوط من طريقة التوحد لصيانة الخيرات التي منحناها الله وانها أمتع منها لوقيتنا من مكان العدو الخارجية بسبب سهر الرؤساء وذلك إذا اتفق لأحدنا أن ينام ذلك النوم الذي إلى الموت والذي علمنا داود النبي أن نستعين منه بقوله: «أز عيني لئلا أنام إلى الموت» (مز ١٢: ٤) فإن الإنسان إذا كان خاطئاً يتسنى له أن يقلع عن خطيئته بأوفر سهولة إذ يهاب إجماع الجمهور على مذمته فيصح فيه قول الرسول: «يكفي هذا الإنسان ذلك التوبيخ الذي من الأكثرين» (٢ كو ٦: ٢) وإذا كان ذا سيرة صالحة يزداد يقيناً وتأيداً من رضى الجمهور واستحسانهم لعمله. فإنه إذا كان «على فم شاهدين أو ثلاثة تقوم كل كلمة»

(متى ١٨: ١٦) فمن الواضح أنّ الذي تؤيّد عمله الصالح شهادة الكثيرين يكون أكثر رسوخاً وتوطيداً.

ثمّ أنّه يصحب العيشة المتوحّدة أخطار غير التي ذكرناها أولها وأكبرها الإعجاب بالنفس : فمن ليس له من يختبر عمله يُخيّل إليه أنّه بلغ إلى كمال الوصية . وثانيها انه إذا تبقى قواه غير ممرنة على العمل لا يعرف نقائصه ولا يدري هل هو ينمو في الفضائل أم لا وذلك لكونه قد حسم كل مادة لحفظ الوصايا .

٤ - فالذي ليس له من يجعل نفسه أشدّ تواضعاً منه لمن يُبدي تواضعه؟ ومن هو معتزل عن عشرة الجمهور على من يُشفق؟ ومن ليس له من يقاوم إرادته كيف يروّض نفسه على الصبر؟ فإن زعم أحد أن تعليم الكتب الإلهية يكفي لإصلاح العادات الفاسدة فيكون مثله مثل من تعلم حرفه البناء ولم يبنِ قط أو مثل من تعلّم الحدادة ولم يمارسها البتّة . وفي مثل هؤلاء يصحّ قول الرسول : «ليس السامعون للناموس هم أبرار عند الله بل العاملون بالناموس هم يررون» (رومية ٢: ١٣) . فها إن الرب لفرط محبته للبشر لم يكتفِ أن علمنا بالكلام فقط بل أعطانا القدوة البيّنة والفعّالة في التواضع وكمال المحبة اذ أثر هو نفسه بمنديل «وغسل أرجل تلاميذه» (يوحنا ١٣: ٤ و٥) فأنت أيّها المتوحّد [رجلي] من تغسل ومن تخدم وبعد من تكون وأنت قاطن وحدك؟ ثم كيف يتمّ في سكنى التوحّد قول النبي : «ما أطيب وما ألدّ سكنى الاخوة معاً!» (مز ١٣٢: ١ و٢) تلك السكنى التي يُشبّها الروح القدس بالدهن المتصوّع العرف من على رأس رئيس الكهنة؟

فبيان جهاد إذن وسبيل سهل إلى النجاح وتمرين دائم وتأمّل في وصايا الرب سكنى الاخوة معاً التي غايتها مجد الله بحسب وصية ربّنا يسوع المسيح القائل : «هكذا فليضيء نوركم أمام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجّدوا أباكم الذي في السماوات» (متى ٥: ١٦) . والتي تمثّل لنا صورة القديسين المذكورين في سفر الأعمال الذين كُتب عنهم : «وكان جميع المؤمنين معاً . وكان كلّ شيء مشتركاً بينهم» (أعمال ٢: ٤٤) وكُتب عنهم أيضاً : «وكان لجمهور المؤمنين قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول عن شيء يملكه أنه خاص به بل كان لهم كل شيء مشتركاً» (أعمال ٤: ٣٢) .

ترجمة الأب يوسف شماس الخلصي

القوانين المطوّلة ، السؤال السابع

التَّسَجُّدُ (مقتطفات)

للقديس باسيليوس الكبير

١ - إذ إن ربنا يسوع المسيح بعد أن أتى ببراهين جمة مؤيدة بأعمال كثيرة قال للجميع : «من أراد أن يأتي إليّ فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (متى ١٦ : ٢٤) وأيضاً «كذلك كلّ واحد منكم إن لم يرفض جميع أمواله فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤ : ٣٣) ، فنرى أن هذه الوصية تتناول أشياء كثيرة يجب أن نبتعد عنها . وقبل كل شيء علينا أن نرفض الشيطان وأهواء الجسد نحن الذين نتزهد عن المحازي الحفّة وانقطعنا عن القرابة الجسدية والصدقات البشرية وتجنبنا السيرة المناقضة لكمال انجيل الخلاص . ولكن أشد ضرورة من هذا كلّهُ «أنّ الذي خلع الإنسان العتيق مع أعماله» (كولسي ٩ : ٣) [ذلك الإنسان] «الفاقد بشهوات الغرور» (أفسس ٤ : ٢٢) وهو نفسه يرفض كلّ آميال العالم التي من شأنها أن تحول دون البلوغ إلى غاية التقوى . ومثل هذا عليه أن يحسب كوالدين له حقيقين أولئك الذين ولدوه في المسيح يسوع بالإنجيل (١ كو ٤ : ١٥) وكإخوة له كلّ الذين أخذوا روح التّبني نفسه (رو ٨ : ١٥) . وعليه أن يعدّ جميع المقتنيات كأنّها ليست له كما هي على الحقيقة .

وبالاختصار نقول كيف يسوغ لمن قد صُلب العالم كلّهُ له من أجل المسيح وصُلب هو للعالم (غلا ٦ : ١٤) ان يتشبّه بعد بالهموم الدنيوية فيما أنّ سيّدنا يسوع المسيح يقتضي منا بمنتهى الشدّة بغض النفس والكفر بالذات بقوله : «من أراد أن يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه» (متى ١٦ : ٢٤) ثم زاد : «ويتبعني» وأيضاً : «ان كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه وامراته وبنيه وإخوته وأخواته بل نفسه أيضاً فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤ : ٢٦) . فمن ثم يبين أنّ الرفض الكامل يقوم بأن نتجرّد عن الميل حتى إلى الحياة نفسها «وان شعر [في ضميرنا] بقضاء موت لثلا نتكل على أنفسنا» (١ كو ٩ : ٩) . وهو يبتدئ بالابتعاد عن الأشياء الخارجية كالأموال والمجد الباطل والعادات القديمة والميل الى الأباطيل ، كما علّمنا ذلك تلاميذ الرب القديسون : فإنّ يعقوب ويوحنا قد تركا أباهما زبدى وسفينتهما نفسها التي كانت الوسيلة الوحيدة لمعاشهما . ومتى قام عن مائدة الجبابة

نفسها وتبع الرب ولم يترك أرباح الجباية فقط بل احتقر أيضاً المخاطر التي كان ينتظر أن تحيق به وبذويه من قبل أهل السلطان بسبب إهماله أداء حساب الجباية لهم. أمّا بولس «فقد صُلب العالم كله له وهو صُلب للعالم» (غلا ٦: ١٤).

٢ - هكذا من ملكته لاجع الشوق إلى اتباع المسيح لا يستطيع أن يلتفت إلى عرض من أعراض هذه الدنيا ولا إلى حبّ الوالدين أو الأقرباء إذا ناقض ذلك أوامره تعالى (فإنه إذ ذاك يصحّ فيه قول الرب: «ان كان أحد يأتي إليّ ولا يبغض أباه وأمه الخ» (لو ١٤: ٢٦) ولا تستطيع مخافة بشرية أن تحمله على أن يهمل شيئاً ممّا يفيد خلاصاً. وذلك كما فعل القديسون الذين كانوا يقولون: «ان الله أحقّ من الناس بأن يطاع» (أعمال ٥: ٢٩). ولا يمكن سخرية أهل الدنيا بالأعمال الصالحة ولا استخفافهم بها أن يشيأه عن عزمه المقدّس.

ومن رام أن يعلم حقّ العلم ويعرف أجلى معرفة إلى أيّ حد من الشدة تبلغ رغبة التجرد بالذين يقتفون آثار الربّ فليذكر ما أخبر به الرسول عن نفسه لتعليمنا. قال: «انه إن ظنّ أحد أنّ له أن يعتمد على الجسد فإنّي أحقّ منه بذلك أنا الذي قد اختن في اليوم الثامن والذي هو من آل إسرائيل من سبط بنيامين الذي هو عبرانيّ من العبرانيين ومن جهة الناموس فريسيّ ومن جهة الغيرة مضطهد للكنيسة ومن جهة البرّ الذي بالناموس بغير لوم. الا أن ما كان لي ربّحاً قد عددته خسراناً من أجل المسيح بل أعدّ كل شيء خسراناً لأجل فضل معرفة المسيح يسوع ربّنا الذي لأجله خسرت الأشياء كلّها وأعدّها أقداراً لأربح المسيح» (فيلبي ٣: ٤-٨). فإذا كان الرسول (اجترئ) وأقول شيئاً غريباً ولكن حقيقياً) قد شبّه بأقدار الجسد التي نشمّث منها ونبادر إلى اطراحها عنّا حالاً الإنعامات الناموسية نفسها التي وهبها عزّ وجلّ لوقت محدود وذلك لكونها تحول دون معرفة المسيح والبرّ الذي به ودون مماثلتنا لموته تعالى فهاذا نقول عن الشرائع التي سنّها البشر؟

ولكن لا حاجة بنا إلى إثبات كلامنا ببراهيننا أو بنموذجات القديسين: إذ يكفي، لكي نؤثر في النفس التقيّة، أن نأتي بكلمات الرب نفسها التي أثبت بها ذلك إثباتاً جلياً لا مردّ عليه قال: «كذلك كلّ واحد منكم إن لم يرفض جميع أمواله فلا يستطيع أن يكون لي تلميذاً» (لوقا ١٤: ٣٣). وفي موضع آخر بعد أن قال: «إن كنت تريد أن تكون كاملاً فأذهب وبع كل شيء لك وأعطه للمساكين» (متى ١٩: ٢١) استتلى قائلاً: «وتعال اتبعني». ثمّ إنه يظهر جلياً لكلّ متفكّر أن مثل التاجر يرجع إلى هذا المعنى. قال الرب: «يشبه ملكوت السماوات

رجلاً تاجراً يطلب لآلئ حسنة فوجد لؤلؤة كثيرة الثمن فبى كل ما له واشتراها» (متى ١٣: ٤٥ و ٤٦). فمن الواضح أنَّ اللؤلؤة الكثيرة الثمن تشير إلى الملكوت السماوي الذي لا نستطيع أن نتملكه - بدليل قوله تعالى - ما لم نترك لأجل الحصول عليه كل ما لنا معاً أعني الغنى والمجد وشرف المجد وغير ذلك مما يتوق إليه ويحتشد في تحصيله الكثيرون.

٣ - ثم إنَّ الرب أثبت لنا أنه لا يمكن أن يتم لنا هذا الغرض ما دام عقلنا مقسماً تتجاذبه الهموم الدنيوية وذلك بقوله: «لا يستطيع أحد أن يعبد ربي» (متى ٦: ٢٤) وأيضاً: «لا تقدرون أن تعبدوا الله والمال» (متى ٦: ٢٤). فلذلك ينبغي لنا أن نختار كترًا واحدًا وهو الكثر السماوي لكي يكون فيه قلبنا لأنَّ الرب قال: «حيث يكون كترك هناك يكون قلبك» (متى ٦: ٢١). لأننا ان استبقينا لأنفسنا مقتنى ما أرضياً وثروة قابلة الفساد يصبح عقلنا غارقاً فيها كإناء في حمأة فتضطرَّ النفس ألا تتأمل في الله ولا يعود يستميلها شوق المحاسن السماوية ولا مواعيد الخيرات المنتظرة التي يمتنع علينا أن نحصلها ما لم يدفعنا إلى طلبها شوق شديد ومتصل يخفف علينا ما نعانيه في سبيلها من النَّصَب.

فيتضح ممَّا سبق أنَّ التجرد هو حلٌّ لربط هذه الحياة الأرضية الزمنية وتحرر من المهام البشرية وهذا يجعلنا أكثر استعداداً للشروع في سلوك السبيل الذي يقودنا إلى الله. وهو أيضاً فرصة غير مدافعة للفوز والتمتع بالأشياء النفيسة التي هي فوق الذهب والابريز الكثير (مز ١٨: ١١) وبالاختصار نقول انه هو انتقال القلب البشري إلى السيرة السماوية بحيث يمكننا القول [مع الرسول]: «أما نحن فسيرتنا في السموات» (فيلبي ٣: ٢٠) والأعظم انه هو بدء الماثلة بالمسيح «الذي افتقر من أجلنا وهو الغني» (٢ كو ٨: ٩). فإذا لم تنهت لنا هذه الماثلة يستحيل علينا ان نبتدئ السيرة التي بحسب انجيل المسيح. فإنه كيف يمكن الحصول على انسحاق القلب أو تواضع الروح أو التغلب على الغضب والحزن والهم، وبكلمة مختصرة كيف يمكن الانتصار على الأهواء المهلكة للنفس مع الغنى والهموم المعاشية والميل إلى سائر الأشياء والملازمة لها. ومجمل القول إنَّ من لا يسوغ ان يهتم بالضروريات نفسها كالمأكل والملبس أي سبب يحجز ان يتقلب في مهام الغنى تتركه في أشواك خبيثة تحرق الفرح الذي ألقاه فينا فلاح نفوسنا، وتمنعه ان يثمر كقوله تعالى: «الذين زرعوا في الشوك هم أولئك الذين يخنقون بالهموم وملذات الحياة فلا يأتون بثمر» (لوقا ٨: ١٤).

ترجمة الأب يوسف شماس المخلصي

القوانين المطوّلة، السؤال الثامن

مُلْحَق

عِظَاتٍ

لبعض الآباء الشرقيين العظام

خطبة في الفصح المقدس

للقدّيس غريغوريوس التريزي

عربها عن اليونانية

الأب غريغوريوس فرحات المخلصي (+)

«أني أقف على مرصدي» يقول العجيب حبقوق. وأنا اليوم، وقد خوّلي الروح السلطان والنظر، سأرقب معه فأعرف ماذا يتراءى وماذا يُقال لي. بل قد انتصبت ورقت وإذا برجل راكب على السحب، مرتفع جداً، منظره كمنظر ملاك، وحلته كوميض البرق الخاطف، قد رفع يده إلى المشارق وهتف بصوت عظيم، وكان صوته كصوت البوق وحواليه مثل جمهور من الجند السماويين، فقال: «اليوم للعالم خلاص، سواء المنظور وغير المنظور. المسيح قام من بين الأموات فانهضوا معه، المسيح رجع إلى حاله فارجعوا، المسيح خرج من القبر فانطلقوا من قيود الخطيئة. ان أبواب الجحيم تفتح ويقهر الموت ويتبدد آدم العتيق ويكمل الجديد. فتجددوا ان تك في المسيح خليفة جديدة». هذا ما قاله الرجل، وأما هم فكانوا ينشدون ما أنشدوه من قبل حين ظهر لنا المسيح بميلاده الأرضي أن «المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة». وهاءنذا معهم أنطق فيكم بهذه الأقوال، ومن لي بصوت نظير الملائكي يحوب كافة أقاصي الأرض.

إنّ الفصح فصح الرب، وأفوه أيضاً بالفصح إكراماً للثالوث. هوذا عندنا عيد الأعياد ومحفل المحافل الذي يفوقها جميعاً، ليس فقط البشرية وليدة الأرض بل التي للمسيح والمحفل بها لأجله، بقدر ما تفوق الشمس سائر النجوم. ألا ما أجمل في نظرنا

لبس الحلل بالأمس والطواف بالأضواء ، الذي أقنائه على انفراد وأمام الملاء ، كل جنس من البشر تقريباً وجميع أصحاب الرتب ، مضيئين الليل بنار متوهجة ، وما أشبهه بالنور العظيم ؛ أما الذي ترسله السماء من فوق منيراً العالم كله بجباله ، وأما الذي فوق السماء في الملائكة أول طبيعة نورانية بعد الأولى بما يقبسونه منها ، وأما الذي في الثالث ومنه ينبعث كل نور مقتبساً من النور غير المتجزئ ومشرفاً به . بيد أن ما أقنائه اليوم هو أجمل وأسطع بهاء . فإن ما بالأمس كان النور السابق للنور القائم العظيم ، وكشيء من الفرح يتعلل به قبل العيد . وأما اليوم فإنما نعيد للقيامة عينها لا المرجوة بل الواقعة والحاشدة إليها جميع الخلق . فليشمر إذن كل امرئ ثمره في الأوان ، وليهد هدية عيدية ، صغيرة أو كبيرة ، كل على قدر طاقته . من تلك الأمور الروحية المرضية عند الله . فإن الهدية الخليقة به إنما يصل إليها بالجهد أولئك الملائكة الأولون ، العقلاء ، الأطهار ، معانين وشهود المجد العلوي . هذا إن أتيح لهؤلاء ما لا يبلغ البتة من حمده . وأما نحن فنقرب الخطبة وهي أجمل وأنفس ما لدينا مشيدين فيها خاصة للكلمة على نعمة الطبيعة الناطقة . وإنما ابتدء بهذا لأنه يشق عليّ وأنا أضحي في أعظم الأيام خطباً على الضحية العظيمة ألا أرتفع إلى الله وأستهل كلامي به . فيا من يستلذون مثل هذه الأشياء اخلصوا لي الذهن والسمع والنية (لأن الكلام إلهي وعلى الله) حتى تذهبوا وقد تلذذتم بأشياء غير فارغة . وستكون الخطبة جد مشبعة وموجزة معاً فلا يسوء فيها النقص ولا تذهب بمتعتها الكظة .

كان الله منذ الأزل ويكون وسيكون . وبحري أبداً يكون . لأن «كان وسيكون» جزءان من وقتنا ومن الطبيعة الحائلة ، وهو أبداً الكائن كما سمى نفسه في مخاطبته لموسى على الجبل . فإن عنده كل الكيان مجتمعاً فيه ، غير مبتدئ ولا منته ، كبحر من الوجود لا غاية ولا حد له ، يفوق فهم كل عصر وكل طبيعة ، وإنما يتوهمه العقل توهمًا كثير الغموض والقصور ، لا بما فيه بل بما يتعلق به ، منتزعاً من متباين الأشياء صوراً متباينة ، ومؤلفاً منها شبهاً للحقيقة يهرب قبل أن يمسك ويفلت قبل أن يعقل وينير بصيرتنا بعد التجريد بقدر ما تنير البصر سرعة البرق غير المستمر . وذلك على ظني حتى يجتذب بما ينال منه (فإن ما لا ينال البتة مأبوس منه وغير متطاول إليه) ، ويعجب بما لا ينال . فإذا أعجب ازداد الشوق إليه ، وإذا شاق طهر ، وإذا طهر جعلنا مائلين لله ، ومتى صرنا كذلك خاطبنا كأخصائه (مع ما في هذا القول من غرور جريء) إلهاً متحدًا بألوهة ومعروفاً لديهم ربما على مقدار ما يعرف هو العارفين . فالألوهة إذن لا نهائية عسيرة التصور لا

يدرك منها حق الإدراك سوى لانهايتها، وان زعم البعض أن الكائن ذا الطبيعة البسيطة أما انه لا يدرك منه شيء واما انه يدرك بجمليته. فلنبحث في ما هو الكائن ذو الطبيعة البسيطة لأنها ليست البساطة طبيعة له إذا لم يكن طبيعة للمركبات مجرد كونها مركبة. ولما كانت اللانهاية تُعتبر من وجهين بحسب الأول والآخر (لأن ما وراء هذين لا ما بينهما هو اللانهاية) فإذا التفت العقل إلى لجة ما قبل ولم يكن له ما يقف عنده أو ما يستند إليه من الصور التي توهم بها الله سمي تلك اللانهاية التي لا منفذ لها: الأزل. وحينما التفت إلى لجة ما بعد وما يتبعها دعا ذلك الخلود والبقاء. ثم حينما جمع الإثنين كان له ما دعاه الأبد. فالأبد ليس بزمان ولا بعضاً من زمن لأنه لا قياس له بل ما هو الزمن عندنا مقيساً بحركة الشمس هو عند الآبدن أبد يلبس الموجودات مثل حركة زمنية أو مدة. وحسبي في الوقت الحاضر هذا الكلام الفلسفي عن الله، فليس الأوان أو ان التسيط فيه لكون موضوعنا ليس على الألوهة بل على التدبير. ومتى قلت الله فقد عنيت الآب والإبن والروح القدس، فلا نفيض الألوهة عن هؤلاء لثلاث ندخل جمهور آلهة، ولا نحصرها فيما بينهم لثلاث يعزى إلينا القول بفقر الثلاث، متهودين لأجل التوحيد أو ذاهبين مذهب الأمم في كثرة الآلهة. والشر في كلا الأمرين متماثل وإن صودف في متضادين. وهكذا فان أقداًس القديسين، المحتجة عن السرافين والممجدة بتقديسات ثلاثية، منضمة ربوبية وألوهة واحدة كما تكلم عن هذا أحد السلف أجمل وأسمى كلام.

ولما كان غير كافٍ للصالح أن يهتم فقط بمشاهدة ذاته بل وجب أن يفاض ما هو صالح ويجري في سبيله لتكثر صنائعه (فهذا شأن الصالح الأرفع) تصوّر أولاً القوات الملائكية والسماويين، وكان هذا التصوّر فعلاً مكتملاً بالكلمة ومتممًا بالروح. وهكذا نشأت البهات الثانية خادمة البهاء الأول التي يجب أن تتمثلها إما أرواحاً عقلية واما ناراً غير هيولية ولا جسمانية واما طبيعة أخرى قريبة جداً من الطبائع المذكورة. وأود أن أقول انها غير ميالة إلى الشر وليس فيها سوى نزعة الخير لكونها تحف الله وهي أول ما أشرق من الله (لأن ما على الأرض هو الشروق الثاني)، فيقنعني أن أحسبها وأقول عنها انها صعبة الميل لا غير ميالة إلى الشر ذلك الذي دعي لبهائه حامل النور فصار ولقب ظلاماً لكبريائه وتلك القوات الخاضعة له صانعة الشر بهربها من الخير وسفراؤه عندنا.

فهكذا إذن وبموجب هذه العلل قد أنشأ العالم العقلي كما تكلمت عن ذلك وازناً الأمور العظيمة في خطبة صغيرة. واذ استحسن الخلائق الأولى تصوّر عالماً ثانياً مادياً

منظوراً وهو المؤلف والمركَّب من السماء والأرض وما بينهما حميداً لإتقان كل جزء فيه وأخلق بالحمد لتألف وتناسق الجميع متأخياً الجزء مع الجزء والكل مع الكل لكمال العالم الواحد. حتى يبرهن أنه قدير ليس فقط على خلق طبيعة قريبة منه بل على خلق ما يباينه كل المباينة: فأما القريبة من الألوهة فهي الطبائع العقلية المدركة بالعقل وحده، وأما المباينة لها كل المباينة فهي جميع ما يقع تحت الحس، وأبعد من هذه أيضاً كل ما لا نفس فيه وسائر الجهاد.

فالعقل والحس إذن جُعِلَا ضمن حدودهما متميزاً الواحد منهما عن الآخر، وكانا يحملان فيها تعظيم الكلمة الخالق مشيدين في صمت لعظمته ومناديين بها علانية. ولم يكن بعد من اختلاط بينهما، ولا جاء تمازج هذين الضدين دليلاً على حكمة أعظم وعلى افتنان في الطبائع، ولا كان معروفاً جميع غنى الصلاح. فلما شاء الكلمة المبدع أن يُريَ ذلك صنع الإنسان حيواناً واحداً من طبيعتين غنيت غير المنظورة والمنظورة، متخذاً الجسد من المادة المخلوقة وناجحاً فيه نسمة من عنده (هي ما دعاه الكتاب نفساً ناطقة وصورة الله)، وأقامه على الأرض شبه عالم آخر كبير في العالم الصغير، ملاكاً ثانياً وعبداً مزدوجاً، يعاين الخليفة المنظورة ويكتنه المعقولة، ملك ما على الأرض ومملوك ما في العلاء، أرضياً وسماوياً، زائلاً وخالداً، مرثياً ومعقولاً، بين العظمة والضعفة وهو الواحد روحاً وجسداً: روحاً لأجل النعمة، وجسداً بسبب الكبرياء. أما الأولى فلكي تبقى وتمجد المحسن، وأما الثانية فلكي يتألم ويُنبه بالألم ويؤدَّب في طموحه إلى العظمة، حيواناً يُسَّاس في هذه الدنيا ثم ينتقل إلى الأخرى متألهاً - وهذا منتهى السر - بتزوجه إلى الله. على أن لألاء الحق الضئيل ههنا إنما يرمي إلى هذا الأمر وهو أن أبصر وأحسن بهاء الله خليفاً بمن جمع ويفرَّق وسيجمع أيضاً بشكل أسمى.

وحتى لا يكون سخاء من اختار أقل من سخاء واهب البزور قد أنعم عليه بالحرية وجعله في الجنة، مهما كانت تلك الجنة، حارثاً للغرسات الخالدة، وقد يُراد بها الأفكار الإلهية سواء البسيطة أو الكاملة، عرياناً لسلامته وعيشته الفطرية لا ستر ولا مأوى له البتة لأنه هكذا كان ينبغي أن يكون الإنسان الأول. ثم أعطاه مادة للحرية، وكانت هذه الشريعة وصية بما يجب أن يتناول منه وما يجب ألا يمسه من الغرسات. فأما هذا فشجرة المعرفة، لا لأنها غرست عن خبث منذ البدء أو حرمت عن جسد (لثلا يمد إليها ألسنتهم أعداء الله أو يقتدوا بالحياة)، بل كانت صالحة إذا أخذ منها الثمر في أوانه، فإن الشجرة

هي التأمل كتابي ولا يأمن الصعود إليها سوى من هم في أكمل حالة ، لكنها لم تكن صالحة للسذج ولنهمي الرغبة. كما ان الغذاء الكامل ليس بمفيد للأطفال ولمن هم في حاجة إلى اللبن. فلما نسي الوصية المُعطاة له وأذعن للمذاقة اليسيرة بجسد الشيطان وخديعة المرأة التي أغواها إبليس لكونها أضعف وأقدمها إلى بعلمها لكونها أحمل على التصديق (ويحي على ضعفي فهو ضعف الأب الأول) ، فبسبب الخطيئة أقصي في الوقت نفسه عن شجرة الحياة وعن الجنة وعن الله ، ولبس الأفضة الجلدية ، وربما عنت الجسد الأغلظ والمائت والتمرد. وأول ما درى به خزيه فاخبتاً من الله. بيد أنه ربح شيئاً حتى في هذا الأمر: ربح الموت وقطع الخطيئة لئلا يخلد الشر، فصار العقاب رحمة ، لأنني هكذا أعتقد عقاب الله.

وبعد أن أدبَ أولاً على المعاصي الكثيرة التي أنبتها أصل الخطيئة بطرق كثيرة على حسب العلل والأزمنة المتنوعة بالكلام والناموس والأنبياء والإحسان والوعيد والضربات والمياه والحريق والحروب والانتصارات والهزائم وآيات من السماء وآيات من الهواء ومن الأرض والبحر والبشر والملوك والشعوب وبانقلابات غير مألوفة كان من غايتها جميعاً أن تسحق الشر، قد احتاج أخيراً إلى دواء أنجع لما هو أرهب بين الأمراض كالقتل والزنى والحنث وعشق الذكران، والسجود للأصنام آخر وأول جميع الشرور، وصرف العبادة عن الخالق إلى الخلائق. فلحاجة هذه إلى معونة أكبر قد نالت معونة أكبر. وهي كلمة الله نفسه الأزلي غير المنظور ولا المدرك ولا الجسماني ، البدء من البدء والنور من النور، ينبوع الحياة والخلود ، رسم المثل الأول والختم الثابت والصورة طبق الأصل حد الآب ونطقه ، قديم إلى صورته وليس جسداً لأجل جسدي واقترن بنفس ناطقة لأجل نفسي ليظهر الشبه بشبهه ، وصار إنساناً في كل شيء ما خلا الخطيئة ، إذ حُبِلَ به من العذراء مطهرة نفساً وجسداً بالروح (لأنه وجب أن تشرف الولادة وتشرف قبلها البتولية) وبرز إلهاً بعد التأنس وواحدًا مؤلفاً من متضادين جسد وروح أحدهما آله والآخر تأله. فيا للاختلاط الجديد وبيا للتمازج الغريب ! ان الكائن يتكوّن وغير المخلوق يخلق والذي لا يسعه مكان يوسع ، لتوسّط النفس الناطقة بين الألوهة وكثافة الجسد. والمغني يفتقر: انه يفتقر إلى جسدي حتى أغتني بألوهته. والملائن يُخلَى ، إنما يُخلَى قليلاً من مجده حتى أشترك أنا بملكته. فما هذا الغنى في الصلاح؟ وما هذا السر المتمم لأجلي؟ أخذت الصورة ولم أحفظها ، فأخذ جسدي لكي يخلص الصورة ويخلد الجسد. شاركني مشاركة ثانية أغرب

من الأولى كثيرًا: فعلى مقدار اشتراكه حينئذٍ في الأفضل يشترك الآن في الأدنى، وهذا إله من الأول وانه لأرفع عند ذوي الألباب.

وقد يقول أحد المفرطين في حب العيد وفي الحماية: «ما لنا ولهذا؟ ألا فاهمز الجواد إلى شوطه: تحدث إلينا عما يختص بالعيد وما نجلس له اليوم». هو ما سأفعله وإن كنت ابتدأت بما يعلوه قليلاً مكرهاً على ذلك بقوة المنطق والتشوق. وربما كان الأمثل عند الراغبين في العلم ومحبي الأدب أن نقدم كلمة موجزة في لفظة الفصح لعلها تكون للأسماع استطراداً لا يُستهان به. على أن هذا الفصح العظيم المهيّب يسمى عند العبرانيين بحسب لغتهم «فَصَحْ» ومعنى هذه اللفظة الاجتياز، أما تاريخياً فلما انتقل والهرب من مصر إلى أرض الميعاد. وما وجدناه واقعاً في أمكنة كثيرة من الكتاب ان طائفة من الأسماء نقلت من المعاني الغامضة إلى معنى أوضح ومن الغليظة إلى ما هو ألطف، قد رأيناه أيضاً ههنا: فإن البعض لظنهم أن هذه اللفظة هي اسم الآلام الخلاصية أدخلوها في اللغة اليونانية بقلب الفاء بي والحاء خي فسموا هذا النهار «باسخاً» أي الفصح. وتلقف الاستعمال الكلمة فأثبتها لانحياز سماع الجمهور إليها كلفظة أذنين.

إن الرسول الإلهي قد صرّح قبلنا أن الناموس كله ظلّ للمستقبلات والمعقولات. والله الذي خاطب موسى من قبل إذ كان يسنّ شرائع على هذه الأمور قال: «انظر واصنع كل شيء على المثال الذي أنت مراه في الجبل» (خروج ٢٥: ٤٠)، مبيناً بذلك أن المراثيات ظلّ ورسمٌ لغير المراثيات. واعتقد أنه لم يرتب شيء من هذه اتفاقاً أو بلا روية أو على وجه زري غير لائق باشتراع الله وخدمة موسى، وإن يكن من الصعب أن أجد لكل من الظلال تفسيره مدنيّاً في دقائقه سواء ما رُسِم من جهة المسكن عينه وأقسيته ومادته واللاويين حامليه وخدامه أو من جهة الذبائح والتطهير والرفائع مما لا يفهمه سوى أشباه موسى في الفضيلة أو من هم أقرب الناس إليه في التهذيب. ثم إن الله يتراءى للبشر في نفس ذلك الجبل منحدرًا قليلاً من مرقبه ورافعاً لنا من الضعة السفلى حتى تدركه ولو سيراً الطبيعة المائنة بقدر ما تأمن ذلك على حين هو غير مدرّك. والا كان من الحال لعلاظة الجسد الهبولى والعقل المغلول أن تصير إلى تصوّر الله بغير معونة الله. لذلك لم يؤهل الجميع في ذاك الأوان، على ما يظهر، للمرتبة الواحدة والمقام الواحد، بل البعض لهذا والبعض لتلك، كل في ما أظنّ على مقدار طهارته. وأما الذين أقصوا بتأتاً وأذن لهم بسماع الصوت العلوي لا غير فهم كل بهيميّ السيرة ومن ليس بأهل للأسرار الإلهية.

على أننا سنسلك طريقاً وسطاً بين مَنْ هم غاية في غلاظة الذهن ومغربي التأمل والاختطاف حتى لا نبقى في نهاية الكسل والجمود ولا نتفعل فوق ما ينبغي زالين عن المواضيع وتائهين عنها (فان الأسلوب الأول يهودي خسيس والثاني كتعبير الأحلام وكلاهما متشابهان في الرذل) ، وهكذا نبحت في هذه الأمور على قدر طاقتنا لا مغربين جداً ولا مستوجبين هزء الكثيرين . فاننا نحسب ، وقد سقطنا بالخطيئة عما كنا عليه في البدء وخذعنا باللذة حتى عبادة الأوثان وتقريب الذبائح النجسة ، انه وجب أن نستدعى من جديد ونُعاد إلى القديم بأحشاء رحمة الله أبينا لم يحتمل مضرّة الإنسان صنعة يديه . فكيف إذن تمّ إصلاحه وماذا جرى ؟ نُبذ العنف في العلاج على أنه لا يقنع وفي استطاعته أن يورث التصلّب بسبب الانتفاخ المزمن ، واستُخدمت في التقويم المداواة اللينة الرفيعة ، فليس تقويم العود المعوجّ ، أن يُلوى فجأة وتكعّمه اليد المثقفة (لأن هذا أعجل إلى كسره منه إلى تقويمه) ، ولا تسكين الفرس الجموح القارح كبخه باللدجام من غير تمليق وملاينة . لذلك أعطي الناموس معونة لنا كحاجز بين الله والأوثان يصرفنا عن هذه ويبعدنا إلى الله . ولقد تساهل قليلاً في البدء لينال الأكثر ، تساهل في الذبائح وبتلك الإلغاءات التدريجية بدّلنا بحكمة ونقلنا إلى الإنجيل متمرّسين بالطاعة .

فهكذا وبموجب هذه الأسباب ، دخلت الشريعة المكتوبة قائدة إيانا إلى المسيح ، وهذه علّة الذبائح كما جاء في كلامي . ولكي لا تجهل غور حكمته وغنى أحكامه غير المستقصاة لم يهمل ولا هذه الذبائح غير مقدّسة أو نافعة أو مقتصرة على مجرد الدم ، بل قد مُزجت بالذبائح الناموسية تلك الذبيحة العظيمة غير المضحاة التي هي كما استُبيح القول بحسب الطبيعة الأولى لا في جزء صغير من المسكونة ولا إلى أمد يسير بل كفارة أبدية عن كل العالم . من أجل ذلك يؤخذ حمل لنقاوة وثوب العري القديم فان الضحية المقربة عنّا هي على هذا المثال كائنة ومدعوّة ثوب عدم الفساد . كامل ليس فقط من أجل الألوهة التي لا شيء أكمل منها بل أيضاً من أجل الناسوت المسحوق بالألوهة والصائر ما هو الماسح ، وأجترئ أن أقول ، واحداً مع الله . ذكّر ، لكونه مقرباً عن آدم بل لأنه أقوى من ذلك القوي الذي هو أول من سقط تحت الخطيئة ، وبالأحرى لأنه لا يحمل في نفسه شيئاً أنثوياً ولا غير رجلي ، بل قد مرق غصباً وبسلطان عظيم من الربط العذرية والوالدية وكما بشرّ أشعيا وُلد من النبوة ذكراً . حولي ، كشمس العدل ، اما لقدمه من حيث هي ، واما لكونه محصوراً بما هو مرئي منه وعائداً إلى حاله . وكإكليل

الجود المبارك، والمتعادل المائل من كل أطرافه وليس هذا فقط بل كوالد دائرة الفضائل اللطيفة التمازج والمختلطة بعضها ببعض حسب سنة الصداقة والنظام. بريء من العيب لا غش فيه لأنه شافي العيوب والردائل والأدناس المتولدة من الخطيئة. ولئن «أخذ آثامنا وحمل عاهاتنا» إلا أنه لم يُبتَلْ بشيء مما يحتاج إلى العلاج. فإنه «قد جُرب في كل شيء مثلنا ما خلا الخطيئة» لأن مضطهد النور المضيء في الظلمة لم يدرك النور.

وماذا أقول أيضاً؟ فإن هذا الشهر جُعل الأول وبالبحري رأس الشهور، سواء كان أحدها كذلك منذ البدء عند العبرانيين، أو صار أخيراً بفضل هذا الأمر متخذاً كونه الأول من السر. في العاشر من الشهر لأن هذا العدد أجمع الأعداد وأول وحدة مؤلفة من الآحاد كاملة ومولدة الكمال. ويحفظ إلى اليوم الخامس وقد يكون ذلك لأن الذبيحة مطهرة للحواس التي هي سبب العثرة وعليها الحرب لرضاها بنخسة الخطيئة. ويُختار ليس فقط من الخراف بل أيضاً من جنس أدنى، من الجداء التي عن اليسار، لأنه لا يُذبح فقط عن الصديقين بل أيضاً عن الخطاة وربما كان أكثر ذبحه عن هؤلاء بقدر ما حاجتنا أعظم إلى الرأفة. ولا عجب في طلب الحمل بالأحرى لكل بيت، وإلا فبسبب الفقر يُجتمَع عليه بحسب بيوت الآباء، لأنه من الأفضل أن كل واحد يكتفي بنفسه للكمال ويقدمها ذبيحة حياة مقدسة لله الذي دعاه مكرسة على الدوام ولأجل الجميع. والا فليستعن على ذلك بأعوانهم من أقربائه وأمثاله في الفضيلة، فإن هذا ما تعنيه على ظني مشاركة الجيران في الذبيحة متى دعت الحاجة.

لذلك كانت الليلة المقدسة عدوة هذا الليل غامر الحياة الحاضرة، ففيها ينحلّ الظلام الأول ويصير كل شيء إلى نور ونظام وهيئة ويرتّب التشويش القديم. لذلك نهرب من مصر من الخطيئة القائمة المتعقبة وفرعون الغاشم الخفي والوكلاء القساة منتقلين إلى العالم العلوي، ونتخلص من الطين واللبن ومن تركيب هذا الجسم التبنّي العطب الذي ليس بأكثر تماسكاً من الأفكار التبنّيّة عند الكثيرين. لذلك يُذبح الحمل ويُحْمَل بدمه الكريم الفعل والفكر أو الحالة والعمل عضاداتنا أبوبنا، وأعني بها حركات الذهن وعقائده التي تفتح وتغلق حسناً بالتأمل لأنه قياس التصورات. لذلك جاءت الضربة الأخيرة أنفل الضربات على المضطهدين خليقة بالليل. فصر تنوح على اباكار خواطرها وصنائعها (وهي ما يسمّى في الكتاب الزرع الكلداني المستأصل وأطفال بابل المضروبة بهم الصخرة والمنقرضين)، وكل شيء مملوء جلبةً وصراخاً عند المصريين. فأما نحن فسيبتعد عنا في

ذلك الحين مُبِيد أولئك تَهَيَّبًا وخشية من المسحة. لذلك رُفِع الخمير سبعة أيام (فان هذا العدد أَسْرُ الأعداد وقائم مع العالم)، لا خمير الخبز الحيوي، بل الشر القديم المختمر حتى لا نترَوِد من العجيب المصري ومن بقية التعليم الفريسي الكاذب.

فلينح أولئك، وأما نحن فنأكل الحمل. وإنما نأكله بالعشي لأن آلام المسيح بعد تمام الأجيال، ثم لأنه أشرك تلاميذه في السر بالعشي حالاً ظلمة الخطيئة. ولا نأكله مطبوخاً بل مشوياً، إذ لا يجوز أن يكون في التعليم عندنا شيء غير منظور فيه أو مائع أو سهل الانحلال، بل يجب أن يكون كله متماسكاً راسخاً محتبئاً بالنار المطهرة خالياً من كل خبث غير مزيد فيه. ولنستعن بالجمرات الصالحة الملهمة والمنقية ضميرنا من لَدُنِ الآثي ليلقي على الأرض ناراً مبيدة العوائد الخبيثة ومعجلة إتهامها. فجميع ما في التعليم من لحمي ومغذٍ مع الجوف أي مع بواطن العقل يؤكل ويُفنى ويُدفع إلى الهضم الروحي حتى الرأس والأكارع، أي النظرات الأولى في الألوهة وآخر التأملات في التجسد. ولكن لا نعمل معنا شيئاً ولا نبق من شيء إلى الغداة، لأن الكثير من أسرارنا لا يُحمل إلى الخارج، ولا تطهير بعد هذه الليلة، ولا التأجيل حميد في من يتناولون الكلمة. فكما أن من الحسن المرضي عند الله ألا يمضي النهار على الغضب وأن يسبق الشمس إلى المغيب زمناً وروحياً (إذ ليس بأمين أن تغرب شمس العدل علينا ونحن غضاب)، كذلك لا يحسن أن يمضي الليل على مثل هذا الغداء ولا أن يجبأ إلى الغداة. وأما كل عظمي غير صالح للأكل أي صعب التصور فلا يكسر مقسماً تقسيماً رديئاً ومفهوماً فهمماً سيئاً (لأنه، كما استبيح القول، لم يكسر ليسوع عظم حسب التاريخ لتعجيل صالبيه موته من أجل السبت) ولا يُطرح ولا يُجرّ حتى لا تعطى الأقداس للكلاب وممزي الكلمة الأشرار كما لا يُعطى بهاء الكلمة ولؤلؤيّه للخنازير. بل فليفنّ بالنار التي تُفنى بها المحرقات ليلطفه ويصونه الروح الفاحص والعارف الجميع غير بائد في المياه ولا مذرئ كُرأس العجل الذي صنعه اسرائيل على بغته فذرّاه موسى لأجل عار القساوة.

وحريّ بنا ألا نغفل ولا عن طريقة الأكل لأن الناموس لم يهمل حتى هذا الأمر متعمداً في الكتاب النظر فيه. فعلينا أن نلتهم الذبيحة بعجلة آكلين الفطير مع أعشاب مرّة ونحن مشدودو الأحشاء محتذو النعال متوكتون على العصي كالشيوخ. اما بعجلة فلثلا يصيينا ما حذر منه لوط في الوصية: فلا نلتفت ولا نقف في البقعة كلّها ولتخلص إلى الجبل بحيث لا نشمل في نار سدوم الغريبة ولا نجمد نُصَبَ ملح بارتدادنا إلى خلف وهو

ما يسببه التهاون. وأما الأعشاب المرة فلمرارة الحياة بحسب الله ومشقتها، ولا سيّما عند البادئين، وترفعها عن الملاذ. فلئن كان النير الجديد ليّناً كما تسمع والحمل خفيفاً فإنما ذلك بفضل الرجاء والأجر الذي هو أوفر كثيراً من شقاء الدنيا، وإلا فمن ذا لا يقول ان الإنجيل أصعب وأشق من الرسوم الناموسية؟ ففي حين يحرم الناموس غايات المآثم نعّف نحن على عللها كعلى الأفعال. يقول الناموس: «لا ترن»، وأما أنت فلا تشتت ملهبا الهوى بالنظر الفضولي المرهق. ويقول: «لا تقتل»، وأما أنت فلا تضرب من يضربك بل حول نفسك للضارب. وما أسمى هذه على تلك في الحكمة! ويقول: «لا تحنث»، وأما أنت فلا تحلف البتة لا قليلاً ولا كثيراً لأن الحلف يولد الحنث. ويقول: «لا تصل بيتاً بيت ولا حقلاً بحقل» باغياً على الفقير، وأما أنت فتخلّ طوعاً عما اقتنته بحق وتعرّ لأجل المساكين حتى تحمل الصليب خفيفاً وتغتني بغير المراتب.

وأما الأحقاء فلتكن عند العجاوات مطلقة حرّة لأن هذه ليس لها عقل يكبح الشهوات وان تكن عرفت هي أيضاً حد الحركة الطبيعية. وأما أنت فاضبط بالمنطقة والعفة نزوة وصهيل الشهوة (كما يقول الكتاب الإلهي ليفضح عار الهوى) حتى تأكل الفصح بطهارة مميّناً الأعضاء التي على الأرض ومتشبهاً بمنطقة يوحنا رجل القفر والسابق والكارز العظيم بالحق. واني أعرف منطقة أخرى عنيت المنطقة الجندية الرجولية التي فيها سمّي البعض منتطقي سوربة أو ذوي المنطقة الواحدة، ولأجلها قال الله مخاطباً أيوب: «ألا فاشدد كرجل حقوك» وأجب جواب الرجال. ولأجلها يفتخر داود الإلهي بأن الله قد نطقه بأساً، بل يمثل لنا الله نفسه لابساً البأس ومتنطقاً به على الكفرة. ما لم يؤثر أحدهم القول بأن هذا إنما يعني فيض القوة وشبه أمساكها كما في قوله: «يلتحف بالنور كرداء». لأنه من يحتمل جموح قدرته وضيائه؟ واني لأتساءل ما الجامع بين الأحقاء والحق وما يفهم القديس بولس بقوله: «كونوا متشددي الأحقاء بالحق»؟ أعله يريد به أن التأمل يضيق على الشهوة ولا يتيح لها الاندفاع إلى مكان آخر: فان الإنصباب على شيء يمنع أن يكون للمرء نفس القوة على اللذات الأخرى.

وأما الأحذية فليخلعها من أزمع أن يطأ الأرض المقدسة التي وطئها قدما الإله، كما صنع موسى على الجبل، حتى لا يحمل شيئاً مائتاً ولا شيئاً عارضاً بين الله والبشر. كما انه إذا أرسل أحد التلاميذ للكراسة وجب أن يكون حكيماً قنوعاً ويزيد على كونه بلا نحاس ولا عصا وبثوب واحد المشي حافياً حتى تظهر جميلة أقدام المبشرين بالسلام وبكل خير

آخر. وأما الهارب من مصر ومن الأمور المصرية فليحتذ ليكون في مأمن ولا سيّما من العقارب والحيات التي تغذي الكثير منها أرض مصر، لكي لا يتأذى من راصدات العقب اللواتي أمرنا بأن ندوسهن. وأما (ي) ما يتعلّق بالعصا فهذا رأيي فيها وفي ما تشير إليه: فأنا أعلم أن منها ما هو للتوكؤ ومنها ما هو للرعاية ومنها ما هو للتعليم يهش به على الأغنام الناطقة. فالتى يتوكأ عليها يأمر لك بها الناموس في هذا الأوان لثلاثين خور ذهنك إذا ما سمعت بدم إله وآلامه وموته فُستدرج إلى الكفر من حيث تدّعي المحاماة عن الله. فكلّ الجسد غير حيّ ولا مرتاب، واشرب الدم إن كنت ترغب في الحياة، لا منكراً للأقوال التي تتعلّق بالجسد ولا متأدياً مما يخص الآلام. وانتصب متشدداً راسخاً منيعاً غير مترعزع في شيء بإزاء مناوئيك ولا مجتذب بأقاويل الفصاحة. وقف في عليائك وثبت قدميك في أفنية أورشليم واعتمد على الصخرة حتى لا تترعزع خطاك التي بحسب سنة الله.

فماذا تقول؟ هل بدا لك أن تخرج من مصر، من أتون الحديد، وأن تهمل عبادة الآلهة التي هنالك وتنقاد لموسى واشترعه وراثسته؟ انني أشير عليك بما ليس مني أو هو من أخص ما مني إن نظرت المعنى الروحي. اقترض من المصريين آنية ذهب وفضة وسافر بها. تزود مما هو لغريك بل مما هو لك، فإن لك عليهم ديناً هو أجرة العبودية واللبن، فاحتل أنت أيضاً حيلة في الطلب واسلب السلب الحميد. أجل فلقد شقيت ههنا في محاربة الطين أي هذا الجسد المتعنت الفاسد وفي بناء مدن أجنبية زائلة يبيد ذكرها مع الضوضاء. فماذا؟ أترك للمصريين وللقوات المعادية ما اقتنوه ظلماً وينفقونه في الأمور الخسيسة؟ انه ليس لهم. قد نهبوه واحتطفوه من القائل: «لي الفضة ولي الذهب وأنا أهبها لمن أشاء». كان لهم بالأمس، فقد اذن لهم به. واليوم يقدمه ويهبه لك السيد على أن تستخدمه حسناً في ما يؤول إلى خلاصك. «فلنقتز إذن لنا أصدقاء بمال الظلم حتى إذا أدركنا الاضمحلال نُقبل في يوم الدينونة».

فسواء كنت راحيل أم ليئة، أي نفساً جدية عظيمة، فاسرق ما تجده من أوثان أبيك لا لتحفظها بل لتبيدها، وإن كنت اسرائيلياً حكيماً فانتقل إلى أرض الميعاد وليتعذب في هذا متعقبك وليعلم بعد إذ خُدع أنه عبثاً كان يضطهد ويستبد الأفضلين. فإن صنعت هكذا وخرجت من مصر فأنا أعرف حق المعرفة أنك ستهدى ليلاً نهاراً بعمود نار وغمام ويهون أمامك القفر وينفلق لك البحر ويغرق فرعون وتمطر الخبز وينبع الصخر ويقهر

عمالق ليس فقط بالأسلحة بل بأيدي الصديقين المحاربة والراسمة معاً الصلاة وعلامة الصليب غير المغلوبة . وينكفى النهر وتقف الشمس ويحبس القمر وتسقط الأسوار بدون آلات وتسبق الزنابير ممهدة الطريق لإسرائيل وموهية الغرباء . وجميع ما هو مروي بعد هذه ومع هذه يعطى لك من قبل الرب . فثل هذا العيد تعيد اليوم وكلما دبة التي أدبت لك في ميلاد من وُلد لأجلك يؤدب لك في مناحة من تألم عنك ، وهذا لك سر الفصح . هذا ما كتبه الناموس وهو ما تممه المسيح مبطل الحرف وتمام الروح الذي علمنا الصبر بما ابتلي به وأنعم علينا أن نتمجد بما مجد به .

ولن أعرض الكثيرون عن البحث في الأمر وفي العقيدة فعندي أنه يجب البحث فيهما كثيراً . فلمن ذلك الدم المقرب عنا ولم سفيك ؟ ذلك الدم العظيم الشهير دم الإله والخبر والذبيحة ! فلقد كنا في حوزة الشرير مبيعين تحت الخطيئة وقابضين اللذة ثمن الإثم . فإن لم تكن القدية إلا لمن نحن في حوزته فأنا أسأل لمن قرب ذلك الدم ولأي علة ؟ فإن كان للشرير فيا للإهانة ! إذا كان اللص لا يأخذ من الله فقط بل الله نفسه فدية وأجرة فائقة على ظلمة فقد كان من حقنا عليه لأجل ذلك أن يشفق علينا . وان كان للآب فأولاً كيف ؟ لأننا لم نكن مأسورين له . وثانياً ما هذا الكلام ؟ أدم الابن الوحيد يهب الآب الذي لم يقبل ولا اسحق مقرباً من أبيه بل استبدل الذبيحة واهباً الكبش عوض الضحية الناطقة ؟ فواضح إذن أن الآب يأخذ لا عن طلب أو حاجة بل للتدبير ولوجوب تقديس الإنسان بانسانية الله حتى يعتقنا هو نفسه غالباً الظالم قهراً ويسترجعنا إليه بالابن الوسيط مدبر ذلك لكرامة الآب كي يظهر خاضعاً له في كل شيء . هذا في ما للمسيح ، وليوقر الكثير مما سواه بالصمت . وأما الحياة النحاسية فتعلق بأزاء الحيات اللاذعة لا كرمز عمن تألم عنا بل كنقيض الرمز ، وتخلص الناظرين إليها لا لاعتقادهم أنها حية بل ميتة ومميتة معها القوى الخاضعة لها وصائرة كما تستحق إلى الفناء . فما النذب الذي ينبغي لها منها ؟ «أين شوكتك أيها الموت وأين غلبتك أيها الجحيم» ، صرعت الصليب وأماتك خالق الحياة ، فأنت بلا نسمة ميتة جامدة واهية ولن احتفظت بشكل الحياة فإن أنت إلا مشهورة في العلاء !

ولنتناول الفصح ، أما الآن فعلى صورة رمزية أيضاً وإن تكن أوضح ممّا في القديم (لأنني أجترئ فأقول ان الفصح الناموسي كان رمزاً أشد غموضاً من الرمز) ، وأما بعد قليل فعلى صورة أتم وأظهر حيناً يشربه الكلمة معنا جديداً في ملكوت الآب موضحاً

ومعلماً ما أعلنه لنا الآن بنوع ناقص . فإن ما يُعرف الآن هو أبداً جديد . وما الشراب وما النعيم ؟ أما لنا فإن نتعلم ، وأما له فإن يعلم وأن يشرك تلاميذه في الكلمة ، لأن التعليم غذاء حتى للمغذي . ولكن مهلاً ، فنحن أيضاً نشترك في الناموس ، الا أننا نشترك فيه بحسب الإنجيل لا الحرف وعلى وجه كامل لا غير كامل وأبدي لا زائل . فلنجعل لنا رأساً أورشليم السفلى بل المدينة العالية ، لا التي تطأها الآن الرجالة بل التي تشيد لها الملائكة . ولنذبح لا عجولاً رخصة ولا خرافاً ذوات قرون وأظلاف فيها كثير من الميتوة وعدم الحس بل فلنذبح لله ذبيحة التسبيح على المذبح العلوي مع الأجواق العلوية . ولنخترق الحجاب الأول ولنندن من الثاني ولنتطلع إلى أقداًس القديسين ، وأقول أعظم من هذا ، لنضح ذواتنا لله وبالحرى في كل يوم كل حركة ، ولنقبل كل شيء من أجل الكلمة . ففي الآلام فلنتشبه بآلامه وبالدّم فلنكرم دمه ولنصعد فرحين على الصليب ، فما أحلى المسامير وإن تكن جد مؤلمة : لأن العذاب مع المسيح ولأجل المسيح أفضل من التمتع مع الآخرين .

فإن كنت سمعان القيرواني فاحمل الصليب واتبعه ، وإن صُلبت معه كاللص فكرجل صادق اعرف الله ، فلن أحصي لأجلك ولأجل خطيئتك مع مخالي الناموس فصير أنت له كرجل الناموس . واسجد لمن علّق لأجلك معلّقاً معه ، واغتنم لك شيئاً حتى من الشر ، واكتسب الخلاص بالموت وادخل إلى الفردوس مع المسيح حتى تظن لما كنت قد زللت عنه . وتفقر في ما هنالك من الجمال ودع المعير يموت خارجاً مع تجديفه . وإن كنت يوسف الذي من الرامة فاطلب الجسد من صالبه وليصر لك من هوكفارة للعالم . أو كنت نيقوديمس المتعبد الليلي فكفنه بالطيوب . وإن كنت مريم أو مريم الأخرى أو صالومي أو يوحنا فابك عند الفجر . وانظر كالأولى الحجر مرفوعاً وإذا اتفق لك فالملائكة بل يسوع نفسه فاه بكلمة وأسمع الصوت ، فإن سمعت « لا تلمسيني » ، فقف بعيداً واحترم الكلمة ولكن لا تحزن فانه يعرف لمن يتراءى أولاً . جدّد القيامة : انجد حواء أول من سقط وأول من حيا المسيح وأخبر التلاميذ . كن بطرس أو يوحنا وأسرع إلى القبر مبادراً ومسابقاً ومجاهداً الجهاد الحسن . فإن غلبت في السرعة فاغلب في الحمية غير متطّلع إلى القبر بل داخلاً إليه . وإن تحلّفت على مثال توما وقد اجتمع التلاميذ الذين تراءى لهم المسيح فمتى أبصرته فلا تكن غير مؤمن . وإن لم تؤمن فصّدق من يخبرونك ، فإن لم تصدق ولا هؤلاء فلا أقل من أن تصدق آثار المسامير . وإن نزل إلى الجحيم فانزل معه

واعرف ما هنالك من أسرار المسيح وما مغزى التزول المضاعف وما علته وهل خلصَ الجميع بمجرد ظهوره أم خلص هنالك أيضاً من آمنوا به .

وان صعد فاصعد معه إلى السماوات وكن بين مشيِّعه أو مستقبله من الملائكة ومُرّ الأبواب فيرتفعن ويزددن علواً حتى يتقبلن من ازداد رفعةً بالآمه . وأجب المبهوتين بسبب الجسد وعلامات الصليب التي لم ينزل بها ولكنه أضعدها معه والمتسائلين لأجل ذلك « من هذا ملك المجد؟ » أن « هو الرب العزيز القدير » في جميع ما صنع منذ الأزل ويصنع وفي هذه الحرب الحاضرة والغلبة بشأن الناسوت . وجُدْ على هذا السؤال المضاعف بجواب مضاعف : فان تعجبوا قائلين حسب تمثيل أشعيا « مَنْ ذا الآتي من أدوم » ومن الأرضين؟ أو كيف تكون ثياب مَنْ لا دم فيه ولا جسم له حمراء كثياب دانس المعصرة ، كالذي داس معصرة ملائ؟ فأبرز جمال حلية الجسد المتألم المحمّل بالألم والمتألئ بالألوهة التي لا شيء أحب وأجمل منها .

فبِمَ يَحِينَا على هذه المرجفون منتقدو الألوهة الغلظة والمفترون على الأشياء الحميدة المدلهمون تجاه النور والجهال على الحكمة الذين باطلاً مات عنهم المسيح الخلائق غامطة النِعَم وجبلة الشرير؟ أهذا ما تنعاه على الله ، إحسانه إليك؟ لأنه اتضع لأجلك هو صغير؟ أم لأنه هو الراعي الصالح الواضع نفسه عن أغنامه قد ذهب وراء الحروف الضالّ إلى الجبال والآكام التي كنت تضحى عليها فوجده ، ولما وجده حمله على منكبيه اللذين حمل عليهما عود الصليب وأخذه فأرجعه إلى الحياة العلوية ، وإذ صعد أحصاه مع الأغنام الباقية؟ أم لأنه أوقد سراجاً جسده وكنس البيت مطهراً خطيئة العالم ، وبحث عن الدرهم أي الصورة الملكية المطمورة في الأهواء ، ودعا القوى صديقاته بعد وجود الدرهم فجعلهن شريكات الفرح هن اللواتي ائتمنهن على سرّ التدبير؟ أم لأن النور الوضيء يتبع النور السابق والكلمة الصوت والعروسُ الاشبين المُعدّ للرب شعباً مختاراً والمعمّد بالماء تمهيداً للروح؟ أهذا ما تنعاه على الله؟ لهذا تحسبه أحقر أنه ائثر بمنديل وغسل أرجل التلاميذ وأظهر الاتضاع أفضل طريق للارتفاع؟ أم لأنه يتضع من أجل النفس المنحنية إلى الأرض حتى يرفع معه ما هوى إلى أسفل تحت الخطيئة؟ وكيف لا تتشكى من أنه يأكل مع العشارين وعند العشارين ويجعل من العشارين تلاميذ له حتى يكون له بعض الغنم؟ وما هو؟ خلاص الخطاة ! إلا أن يشكو أحدهم الطبيب انه يعطف

على العاهات ويصبر على النتن كي يهب المرضى العافية، أو المكب على الحفرة رافة منه كي يخلص بموجب الناموس البيمة الساقطة.

انه قد أرسل، ولكن من حيث هو إنسان فلقد كان مزدوجاً ولذلك تعب وجاع وعطش واكتأب وبكى على مقتضى سنة الطبيعة، وهبه فعل ذلك أيضاً من حيث هو إله فما في هذا الأمر؟ ألا فاحسب مسرة الآب رسالة فله يقدم هو ما لديه مكرماً فيه الرئاسة الأزلية حتى لا يظهر بمظهر نقيض الله. ولئن قيل أنه أُسليم فلقد كتب أنه أسلم ذاته، أو قيل ان الآب قد أقامه وأصعده فقد كُتب أيضاً أنه قام ثم صعد. تلك قيلت للمسرة وهذه للسلطان. وأما أنت فتنطق بما ينتقصه وتعدو ما يعليه. نحاسبه على التألم لكنك لا تضيف أنه عن رضى. فيا للكلمة ما أكثر ما يتعذب حتى في هذا الحين! فإن البعض يكرمونه كإله فيمزجونه، والبعض يمتهونه كجسد مجزئين له. فعلى من يسخط أكثر؟ وبالحرى لمن يغفر؟ ألمن يسيئون للجمع أم للذين يميزون؟ لقد كان من الواجب على أولئك أن يفرقوا وعلى هؤلاء أن يؤلفوا: أما أولئك فبالعدد، وأما هؤلاء فبالألوهة. أنتعثر بالجسد؟ وكذلك اليهود. أم تدعوه سامرياً (وأسكت عن الباقي) فتنكر الألوهة؟ إن هذا ليمّا لم تصنعه الشياطين. فيا لك من رجل أكفر من الشياطين وأجحد من اليهود! هؤلاء اعتقدوا لفظة الابن كلمة المساواة، وأولئك عرفوا من طردهم إلهاً فاقتنوا بئاً ابتلوا به. وأما أنت فلا تقبل المساواة ولا تعترف بالألوهة. لقد كان أخلق بك أن تحتن وتصير شيطاناً - إنما أقول هذا على سبيل المزح - من أن تتخلق وأنت في القلف والعافية بالفساد والكفر. ولكن فلتنه الحرب مع هؤلاء إذا شأوا التعقل أخيراً، أو لتوجل ان رفضوا وبقوا على ما هم فيه. فاننا لا نهاب شيئاً البتة ونحن نجاهد عن الثالث ومع الثالث.

والآن ينبغي لنا أن نلخص الخطبة على هذا الوجه: خلّقنا لنسعد فسعدنا بعد إذ خلّقنا، وإؤتمنا على الجنة لننعم، وأخذنا وصية حتى إذا حفظناها أحرزنا الكرامة. وما كان الله ليجهل ما سيحدث، ولكنه قد سنّ لنا الحرية. فخذعنا لأننا حسدنا، وسقطنا لأننا خالفنا، وصمنا لأننا لم نصم منغلبين لشجرة المعرفة. فالوصية كانت قديمة، وكان فينا شيء من تهذيب النفس معاصر لها ومن التعقل في النعيم، فمن الصواب أن تؤمر بها حتى إذا لم نحفظ بشيء فقدناه أو احترسنا عليه غنمناه. ثم اننا احتجنا إلى إله يتجسد ويموت لكي نحيا به فمتنا معه لكي نتطهر وقنا معه لأننا شاركناه في الموت ومُجدنا معه لأننا شاركناه في القيامة.

فما أكثر عجائب ذلك الأوان ! إله مصلوب وشمس مظلمة ثم متوهجة (لأنه وجب على الخلائق أن تتألم مع الخالق) وحجاب منشق ودم وماء مراقان من الجنب ، فالواحد كمن إنسان والآخر كمن هو فوق الإنسان . وأرض متزلزلة وصخور متصدعة على الصخرة وأموات قيام للإيمان بالقيامة العامة الأخيرة وآيات في الدفن وآيات بعد الدفن أنى لرجل أن يوليها حقها من المديح؟ بيد أنه لا شيء يماثل معجزة خلاصي : قطرات قليلة من الدم تعيد جبلة العالم كله وتصير في جميع البشر كالرطوبة في اللبن فتضمنا وتؤلف منا شيئاً واحداً .

فيا أيها الفصح العظيم المهيب كفارة العالم جميعه ، إنما أخطبك كذي نفس حيّة . يا كلمة الله النور والحياة والحكمة والقدرة ، فاني أطرب بكافة أسمائك . يا وليد العقل العظيم وحميته وختمه ، أيها الكلمة المعقول والإنسان المنظور الحامل كل شيء مقيداً بكلمة قدرتك ، من لي بأن تقبل الآن هذه الخطبة ، لا باكورة مني بل ربما آخر جنائي ، شكراً وابتهالاً إليك ألاّ تبلونا بشيء خارج عن المهام الاضطرارية المقدسة التي قضينا حياتنا فيها ، وأن توقف تحامل الجسد علينا (وأنت يا رب تبصر كم هو وكم يحيني) أو حكمك إذا كنا في حاجة إلى تطهيرك . فاما إذا كنا أهلاً لأن نطلق الشوق ونقبل في المظال السماوية فلعلنا نذبح لك هنالك أيضاً ذبائح مرضية على مذبحك المقدس أيها الأب والكلمة والروح ، لأنه بك يليق كل مجد وكرامة وعزة إلى دهر الدهور . آمين .

نشرها

الأب فايز فريجات الخلصي

العناية الإلهية

للقديس يوحنا الدمشقي

للقديس يوحنا الدمشقي كلام شديد على العناية الإلهية يبحث بحثاً شاملاً دقيقاً هذه المسألة المعضلة ، التي طالما أغرت الفلاسفة واللاهوتيين . ولقد أحسن إمام اللاهوتيين المدرسين في بسطه القضية ، عن سعة خاطر ، وصدق نظر ، بحيث لم يترك لمن بعده إلا أن يتراءى بآرائه ويترجم أفكاره . ونحن مترجمون خلاصة هذه القضية عن مجموعة للأب المحترم V. Ermoni عرض فيها صفوة من تعاليم ملفان الكنيسة الشرقية .

الخلق :

بما أن الله صالح وفائق الصلاح فما كان ليكتفي بمشاهدة نفسه ، ولكنه بجودته العظيمة شاء أن توجد خلأ تشارك باحساناته وجودته ، فأبرز من العدم إلى الوجود ، وخلق جميع الأشياء ، الغير المنظورة والمنظورة ، والإنسان المركب من طبيعة منظورة ، وطبيعة غير منظورة . ان الله يخلق بفكره : فهذا الفكر يؤلف العمل الذي يكمله الكلمة ، وينهيه الروح القدس .

طبيعة العناية الإلهية :

هي اهتمام الله بالكائنات . أو هي إرادة الله التي بها تنال كل الكائنات إرشاداً ملائماً . فإن كانت إرادة الله هي العناية نفسها ينتج ضرورة ان كل ما يحدث هو مطابق للعقل الصحيح ويتم على أحسن وأنسب ما يكون ، بحيث لا يمكن أن يكون أحسن مما هو عليه . انه من الضروري أن يكون خالق الأشياء هو نفسه المعني بها ، لأنه لا يناسب ولا يعقل أن يكون خالق الأشياء غير الذي يعتني بها ، وإلا فالإثنان كلاهما عاجزان ، الواحد عن الخلق ، والآخر عن العناية .

ولنا على ذلك برهانان : برهان أدبي وبرهان الميتافيزيقي .

أ - البرهان الأدبي :

بما أن النفس خالدة ، فلا بدّ من الجزاء للأعمال الشريفة والصالحة وإذا كان جزاء فلا بدّ من مدين ودائن . وإذا وُجد دائن ومدين ، فلا بدّ من معتنٍ وعناية . وهكذا نصل إلى العناية التي يسلم بها الجميع .

ب - البرهان المتافيزيقي :

إن الله يمارس العناية ، ويمارسها على طريقة عجيبة ، ويمكن تأمل ذلك هكذا : الله وحده صالح وحكيم من طبعه ، فيما انه صالح ، هو ذو عناية . لأن من لا عناية عنده لا يكون صالحاً ، فالناس والحيوانات أنفسها تعتنى بصغارها ، وكلّ يوم الخالي من العناية . وبما أنه حكيم فهو يعتني جدّ العناية بالكائنات ليوجّهها إلى ما فيه خير لها .

العناية نوعان :

بين الأشياء الخاضعة للعناية بعضها يحدث بمسرة الله وبعضها بمجرد سماحه : فإذا يحدث بمسرة الله هو ما لا جدال في صلاحه . أما السماح فعلى أنواع : كثيراً ما يسمح الله بوقوع الصديق في المحنة ، لكي يحلّي للغير فضيلته المستترة ، كما حدث لأيوب . وأحياناً يسمح أن يعمل ما هو حماقة ليمّ بما يظهر حماقة أمراً عظيماً عجيباً ، كما أتى بالصليب خلاص الناس . ومرة يسمح بعذاب القديس حتى لا يسقط من ضميره المستقيم ، أو لكي لا يستكبر من قدرة النعمة التي منحها ، كما حدث لبولس .

الإرادتان

يجب أن نعلم أنّ الله يريد بإرادة سابقة أن جميع الناس يخلصون ، ويجوزون ملكوته . لم يخلقنا الله لأجل العقاب ، بل لنشارك جودته لأنه صالح . ثم انه يريد عقاب الخطاة لأنه عادل . فالإرادة الأولى تسمى إرادة سابقة ومسرة وهي تصدر منه ، والثانية تسمى إرادة لاحقة وسماحاً ونحن الباعثون لها . وهذه الأخيرة مشاة : إحداها تديرية وتهذيبية قصد الخلاص ، والثانية رفضية لأجل العقاب التام ، كما أسلفنا ، وذلك ليس في مقدورنا .

أ - الله لا يريد الشر لكنه يسمح به :

بين الأشياء التي في مقدرتنا ، يريد الله الصالحة منها بإرادة وضعية ، وهو يقررها . أما الطالحة والشريرة حقاً ، فلا يريد بها بإرادة سابقة ، ولا لاحقة ، وإنما يسمح بها للإرادة الحرة . لأن ما يُعمل قسراً ليس معقولاً ، ولا صالحاً .

ب - المعرفة والانتخاب السابقان :

يجب أن نعلم أن الله سبق فعرف كل الأشياء ، غير أنه ما سبق فحددها جميعاً . فهو يعلم سابقاً ما هو في مقدرتنا ، إلا أنه لا يحدده سابقاً . فلا يشاء أن يحدث الشر ، ولا يفسر الفضيلة . ان سابق التحديد هو من شأن النظام الإلهي المضاف إلى المعرفة السابقة . انه يحدد تحديداً سابقاً ، حسب معرفته السابقة ما ليس في مقدرتنا . وقد حدد كل الأشياء حسب معرفته السابقة تحديداً يطابق جودته وعدله .

ج - الله والشر :

اعلم أن من عادة الكتاب المقدس أن يسمي عملاً ما هو مجرد سماح من الله ، كقول الرسول إلى الرومانيين «أليس للخزاف سلطان على الطين فيصنع من كتلة واحدة إناء للكرامة وإناء آخر للهوان» (رو ٩: ٣١) . فهو يصنع هذا وذاك ، لأنه هو وحده باري الجميع . بيد أنه ليس هو الذي يصنع الحسنات والسيئات بل اختيار وحرية كل واحد . وهذا ظاهر من قول الرسول عينه لتلميذه تيموثاوس : «لا تكون في بيت كبريائية من ذهب وفضة فقط ، بل من خشب وخزف أيضاً ؛ بعضها للكرامة وبعضها للهوان . فإن صان أحد نفسه طاهراً من هذه ، فانه يكون إناءً للكرامة ، مقدساً أهلاً لاستعمال السيد ، مُعداً لكل عمل صالح» (٢ تي ٢: ٢٠ و ٢١) . فمن الظاهر أن الواحد يتطهر باختياره ، لأنه يقول : إن صان أحد نفسه طاهراً ؛ وما يتبع منعكساً ، فهو الضد : إن كان أحد لا يصون نفسه طاهراً فانه يكون إناء للهوان ، غير أهل لاستعمال السيد بل جدير بأن يحطم . ولهذا فالكلام المورد وما يتبعه : «ان الله أغلق على الجميع في الكفر» وأيضاً «أعطاهم الله روح كلال عيوناً لا يبصرون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها» لا يجب أن يفهم به أن الله هو نفسه فعل هذه الأشياء ، بل ان الله قد سمح بها ، لأن الخير حر غير مقصور فوجب إذن أن يكون الشر أيضاً . وتلك عادة الكتاب المقدس أن يتكلم

عن سماح الله كأنه عمله وفعله . أضف إلى هذا قوله « ان الله خالق الشر » (أش ٤٥ : ٧) « أياكون في المدينة شرّ ولم يفعله الرب » (عا ٣ : ٦) . فلا يريد أن يقول إن الله هو علّة الشرّ بل يشير إلى أن كلمة شرّ لها معنيان : فمرة تعني ما هو شرّ من طبعه ، أي ما يضاد الفضيلة وإرادة الله ، وتارة يعني ما هو شرّ وصعب على شعورنا كالأحزان والنوائب . فهذه الأخيرة ولو ظهرت أنها شرّ لأنها مؤلمة ، غير أنها جيّدة في الحقيقة ، لأنها تفيد ارتداد وخلاص الذين يعرفون أن يستفيدوا منها ؛ فالكتاب يقول إنها تأتي من الله . - ويجب أن نعلم أيضاً أننا نحن سبب هذه الأسوأ . لأن الشرور غير الإرادية تأتي من شرور إرادية . - ويجب أن نعلم مع ذلك أن عادة الكتاب أن يتكلّم عن بعض الحوادث التي يجب أن تدعى اتفاقية^(١) كأن لها علّة كحين يقول «إليك وحدك خطئت وأمام عينيك صنعت الشرّ لكي تعدل في كلامك وتغلب في قضائك» (مز ٥٠ : ٦) فلم يخطأ الخاطئ لكي يغلب الله ، وليس في الله حاجة إلى خطيئتنا ليظهر منتصراً . انه ينتصر بلا منازعة على جميع البشر حتى على الذين لم يخطأوا ، لأنه الخالق غير المدرك وغير المخلوق ولأن مجده طبعي وليس حادثاً ؛ ولكن بما انه ، عندما نخطأ ، لا يكون ظالماً في غضبه ؛ وحين يغفر لمن يتوبون إليه فهو يظهر نفسه غالباً خبثنا ، فلا نخطأ لأجل ذلك ، ولكن لأن الأمر يعرض هكذا ، كحين ينصرف أحد إلى عمله ثم يأتي صديقه فيقول : صديقي أتى حتى لا أعمل اليوم ، مع ان صديقه لم يأت لكي يتعطّل هو ، ولكن الأمر حدث هكذا ، لأنه بانشغاله بقبوله صديقه كفّ عن العمل . فهذه الأشياء تسمى اتفاقية لأنها تعرض هكذا ، فلا يريد أن يكون هو وحده باراً ، بل يشاء أن جميع الناس يشابهونه قدر المستطاع .

الأب إيزيدور أبو حنا الخلصي

(١) الاتفاق يختلف عن القدر الذي يحده الآخذون به : انه ما يقدره الله من القضاء ويحكم به . وقد أورد الدمشقي تحديد الاتفاق فقال : هو تصادف علّتين يكون مبدأهما في الانتخاب فيأتیان بنتيجة غير التي تنتظر بالطبيعة . كمثال من يحفر بئراً فيجد فيها كنزاً . فليس الذي خبأ الكنز كان قصده أن يقع عليه غيره ، ولا الذي وجده حفر البئر ليجد الكنز . ولكن قصد الأول كان أن يعود إلى الكنز حين يشاء ، وقصد الثاني أن يحفر ، فحدث خلاف ما كان يتوقّع الاثنان .

الوحدة في الإيمان

١ - معجزة الوحدة

لاكلمنضوس الإسكندري

معجزة لا تُفسر! واحد أبو الخليفة، واحد الكلمة الذي به خلق العالم، واحد الروح القدس المساوي لهما، واحدة الأم العذراء، وأنا أرغب أن أدعو هذه الأم العذراء كنيسة: فالكنيسة خصيبة كالأم، إذ تلد الحقيقة وتغذي أبناءها بالكلمة الإلهية. وهي بلا دنس كالعذراء، لأنها ليست امرأة كباقي النساء (المرى ١: ٦).

«من لا يتبع قانون الحقيقة، أي تقليد الكنيسة، لا يكون أميناً نحو الله، بل هو هرطوقي. لا عجب أن تقوم الهرطقات: ألم يتنبأ السيد المسيح أن الهرطقات تُزرع في حقل الحقيقة؟ سبب ذلك أن الحقيقة جميلة والهرطقة تغار منها» (سترومات ١٥: ٧).

«ليس بيد الهرطقة مفتاح للحقيقة. في يدهم مفتاح مزور، لذلك هم لا يدخلون من الباب بل يفتحون نوافذ في البناء. يهدمون حائط الكنيسة ويتعدون على الحقيقة فيها، فيأخذون منها جزءاً لينشئوا لهم تعليمًا خاصاً وكنيسة خاصة.

ولا حاجة إلى كثير للبرهان على أن تلك الكنائس هي لاحقة للكنيسة التي أنشأها المسيح. ان تعلم السيد بدأ في عهد أغسطس وانتهى في عهد نيرون. والحال أن مخترعي الهرطقات الأولين لم يظهروا إلا فيما بعد، في عهد الإمبراطور أدرينانوس أمثال بازيليدس وفالتينوس وسواهم. وهكذا تبرهن الكنيسة الحقيقية أنها هي أقدم وأن الهرطقات جاءت بعدها» (سترومات ١٧: ٧).

«انا اعتقد بأن الكنيسة الحقيقية الوحيدة هي الكنيسة الأقدم عهداً، التي إليها ينتمي الصديقون الحقيقيون الذين سبق الله فاخترهم إلى الأبد. فإذا كان الله واحداً والرب واحداً، ينتج ان كل ما هو عظيم يلزم ان يكون واحداً لأنه صورة المبدأ الأول. فبالوحدة يقوم جوهر الكنيسة ويكون هرطوقياً كل من يحاول ان يقسمها.

«نحن نصرّح ان الكنيسة الكاثوليكية القديمة العهد هي مبدئياً ومحلياً وحدها واحدة:

واحدة بوحدة الايمان لأنها مؤسّسة على الوحي الواحد الذي تسلّمته في العهدين ؛ واحدة بإرادة الله الذي أراد أن جميع مختاريه يكونون منضمّين إلى واحد ؛ واحدة بالمبدأ البنائي الذي لا يمكن مؤسساً إلا على الوحدة. ولذلك تسمو هذه الكنيسة على جميع الكنائس الصغيرة ، ولا كنيسة تشبهها أو تساويها « (سترومات ١٧: ٧) .

« هذه الكنيسة وصفها داود اذ قال : «قامت الملكة عن يمينك لابسة حلّة الذهب ، موشحة بزينة من ذهب» (سترومات ١٠: ٦) .

« في هذه الكنيسة يوجد رتبة أساقفة وكهنة وشمامسة ، تمثّل على الأرض رتبة الملائكة في السماء » (سترومات ٦: ١٣) .

« كما ان إرادة الله فعلٌ وهذا الفعل يدعى العالم ، كذلك قصة خلاص البشر وهي تدعى الكنيسة. هي واحدة كما ان الآب واحد والابن واحد والروح القدس واحد... عملها ان تغذّي ابنائها بالغذاء الذي أعدّه الكلمة الإلهي الذي قال : «كلوا جسدي واشربوا دمي» فيا للسّرّ العجيب» ! (المرئي ١: ٢٧-٤٢) .

« تُشبه الكنيسة هيكلًا فسيحًا بنته إرادة الله بثمرن غال ، هو دم يسوع ، لتمجيد الله. فإذا نحن دعونا قدوساً لا الله وحده فحسب ، بل أيضاً البناء القائم لتمجيدته ، فكيف لا ندعو مقدسة الكنيسة الملتزمة لمجده؟ ولا اعني بالكنيسة المكان المادي فقط ، بل خصوصاً جماعة المؤمنين. فهؤلاء هم الهيكل القائم مدى الدهور لتمجيد الله » (سترومات ٧: ٢٩) .

« لا تنخدع بالظواهر بعد ان تذوّقت الحقيقة وغدوت أهلاً للفداء. بل اتّحد مع الرهبان الأتقياء والأيتام والأرامل وجميع الناس المشتغلين بالحبة كجيش مترّه عن الخصومات والحسد قائده الله. هذا الجيش ليس معدّاً للحروب وارقة الدماء بل ليجمع كل الناس في اسرة واحدة ، لا يكون فيها أحد بطلاً ولا يعتبر احد غير مفيد. فواحد يصلي لأجلك وآخر يعينك في مرضك وآخر يبكي معك إذا بكيت وآخر يعلمك أمور الخلاص وآخر ينبّهك بإخلاص ويرشدك بلطف ، والجميع يحبونك محبة صادقة بلا خداع ولا خوف ولا رياء ولا تمليق. فما أصدق ايمان أناس يخافون الله وحده ! وما أعجب المحبة في الوحدة ! » .

٢ - تنصير النصارى أولاً

للقدّيس اكلمنضوس بابا روما

«لنعتبر جسمنا : الرأس بدون الرجلين ليس بشيء ، كذلك الرجلان بدون الرأس أية منفعة منهما؟ كل الأعضاء ، حتى أصغرها وأحقرها هي ضرورية ومفيدة للجسم : هي تساهم في خير الجسم العام بانسجامها وخضوعها المتبادل .

«فلنحافظ إذن على سلامة الجسم الذي نؤلفه في المسيح ، خاضعين بعضنا لبعض ، كلٌّ على حسب الموهبة التي نالها من الله» (فصل ٣٧-٣٨) .

وفي القسم الثاني من رسالته يبيّن القدّيس بجلء ضرورة وجود الاتفاق والوثام بين جميع الأعضاء ، وبشبه دعاة الضلال في كنيسة كورنثس ، بأشخاص يحاولون تمزيق أعضاء المسيح نفسه :

«علام المشاحنات والشقاق والخصومات والتناحرات فيما بينكم؟ أوليس لنا الرب نفسه ، والمسيح نفسه ، والروح نفسه المفاض علينا بنعمته؟ ألسنا كلنا مدعوّين للدعوة نفسها في المسيح يسوع؟ فعلام يا ترى نمزق ونقطع أعضاء المسيح؟ لماذا نضمّر العداء لهذا الجسم؟ ألي هذه الدرجة من الجنون وصلنا حتى نسينا أننا أعضاء بعضنا البعض؟... شقاقكم أضلّ كثيرين... وأخمد النشاط في القلوب... وألقى غيرهم في هوّة الشك والارتياب... وملأ قلوبنا جميعاً حزناً ولوعة... آه ما أطول عهد الشقاق...» (فصل ٤٦) .

لقد تعرّضت هذه الكنيسة في عهد القدّيس بولس الرسول لخطر مماثل فحذّرهم من الانشقاق وتدخل بذاته ليضع حداً لهذه الخلافات . كذلك القدّيس اكلمنضوس في رسالته هذه يشير أن هذا الانشقاق أشدّ خطراً ، فيصرخ بهم بلهجة قوية وقد تملكته الغيرة على كنيسة المسيح :

«يا للخي ، والعار ، أيها الاخوة ، أن نسمع عنكم مثل هذه الأخبار : إن كنيسة كورنثس الراسخة الثابتة قد تمردت على أساقفتها باغراء شخص أو اثنين... وقد بلغ صدى هذا ليس فقط إلى آذاننا ، بل تعدّاها إلى أشخاص لا يدينون بالمسيحية ، فحملهم سلوككم الشائن على إهانة المعلم الإلهي ، وشكّل لكم جميعاً خطراً جسيماً .

ونختم رسالته بتحريض أبوي ، جريء ، يطلب فيه قطع ذلك الشرّ وتوحيد عرى

الحبة الأخوية الصادقة ، التي علمنا إياها سيّدنا يسوع المسيح :
 «لنسارع في إزالة أثر الشر ، منطرحين عند قدمي المعلم الإلهي ، مستعطفين بالتواضع والانسحاق رحمته . لنسالم بعضنا بعضاً موطنين بيننا عرى المحبة الأخوية ... إن من فيه محبة المسيح ، يعمل بوصايا المسيح . أي لسان يقدر على وصف محبة المسيح ويشيد لنا بجمالها الخلاب ... ان المحبة ترفعنا إلى ذروة يعجز عن وصفها كل لسان ... المحبة توحدنا مع الله بروابط وثيقة ... المحبة تنفي بعيداً كل تنازع أو انفصال ، تنفي الشقاق والفتن . المحبة تحقق كل شيء باتفاق القلوب . بالمحبة كمال كل المختارين ، وبدونها لا نقدر أن نرضي الله في شيء .»

«انظروا يا أحبتي ، كم المحبة عجيبة وسامية ، وما من قول يكتفي لوصف كمالاتها»
 (فصل ٤٩ - ٥٠).

٣ - الوحدة الحقة

للقدّيس أغناطيوس الانطاكي

«اغناطيوس ، المدعو أيضاً لابس الله ، إلى الكنيسة التي نالت رحمة في بهاء الله الآب المتعالى وابنه الوحيد يسوع المسيح ؛ إلى الكنيسة المحبوبة والمتألّقة بنور إرادة ذاك الذي قرّر ما هو مطابق لمحبة يسوع المسيح إلهنا ؛ إلى الكنيسة المتقدّمة في بلاد الرومانيين ؛ إلى الكنيسة الجديرة بالله ، المستحقّة المجد ، المستحقّة أن تُسمع كلمتها ، المستحقّة أن تُدعى مغبوبة ، المستحقّة المديح ، والطاهرة ؛ إلى الكنيسة المتقدّمة في شركة المحبة ، إلى الكنيسة المالكة شريعة المسيح ، المشرفة باسم الآب : أسلم عليها باسم يسوع المسيح ابن الآب .»

«لكم جميعاً أيها الرومانيون ، المتحدون روحياً وجسدياً بالطاعة لوصاياه ، الخالصون من كل تعليم غريب عن الإيمان الحقيقي ، أتمنى على يسوع المسيح إلهنا ، كل خير وسلام طاهر» .

(الرسالة إلى الرومانيين)

«اغناطيوس ، المدعو لابس الله إلى الكنيسة في أفسس ، في آسيا ، المغبوبة ،

المباركة ، المعدة منذ الدهور لتكون دوماً متحدة ومختارة لمجد أبدي لا يتغير ، بواسطة الإيمان بآلام المسيح حسب مشيئة الآب ويسوع المسيح إلهمنا ...

«ان الحب الذي أكنّهُ لكم يدفعني إلى تنبيهكم ، لكي تكونوا متّحدين في فكرة وإرادة الله. ان يسوع المسيح هو تعبير إرادة الآب ، وكذا الأساقفة - [في نطاق أبرشيّتهم] - هم التعبير عن فكر يسوع المسيح.

«ولذا فانه واجب عليكم أن تبقوا في وحدة التفكير مع الأسقف ... فتكون وحدتكم ومحبتكم المؤتلفة نشيداً ليسوع المسيح ... فكونوا كل واحد مع الآخر جوقاً تسهمون كلّكم بصوت واحد ، بواسطة يسوع المسيح ، في تسبيح الآب ... انه ليفيدكم أن تبقوا في الوحدة الكاملة ، حتى يمكنكم دوماً أن تشاركوا بحياة الله».

«لا يغرّنكم أحد : إن كل من يفصل ذاته عن الهيكل ، حرّم من خبز الله ... وإذا كنتم كلّكم من الله ، بعيدين عن كل مشادة وخلاف ، تكن حياتكم حقاً مطابقة لإرادة الله ...

«وأنتم في الواقع حجارة حية في هيكل الآب ، معدّون لبناء الآب الروحي ، مجذوبون إلى العلاء بجاذب (ماكنة) يسوع المسيح ، الذي هو الصليب ؛ مستعملون الروح القدس كحبل ؛ وإيمانكم هو القوة التي تحملكم إلى العلاء ، ومحبتكم هي الطريق الذي يقودكم إلى الله.

«الإيمان والمحبة هما مبدأ وغاية الحياة : الإيمان هو المبدأ والمحبة هي الغاية. اتّحاد هاتين الفضيلتين يؤلف شيئاً واحداً ، هو الله ... لا يخطأ امرئ يملك الإيمان الحقيقي ، كما ان من يملك المحبة لا يمكنه أن يبغض أحداً.

«فكونوا متّحدين في الإيمان الواحد بيسوع المسيح .. أطيعوا الأسقف والشيوخ والكهنة بفكر غير منقسم ، كاسرين الخبز رمز الوحدة الذي هو دواء الخلود ، وواقٍ ضدّ الموت وعربون حياة ابدية في المسيح يسوع».

(الرسالة إلى أهل أفسس)

«رغم السلاسل التي أحملها ابناً حللت ورحلت ، فإني أشيد بأعجاذ كنائس المسيح ، التي أرجوها الوحدة الروحية الكاملة بجسد وروح يسوع المسيح ، الذي هو وحدتنا الدائمة في الايمان وفي المحبة ، التي لا شيء يفضلها».

«اني أحرّضكم بجماعة أن تسعوا لعمل كل شيء في وثام الله ، علمين أن الأسقف يرأس الكنيسة مكانه تعالى ؛ وان الشيوخ (الكهنة) يتمّون خدمتهم باسم مصف الرسل ، وان الشماسة قبلوا خدمتهم من المسيح يسوع... فتزيتوا كلّكم اذا بحنان ولطف الله نفسه ، وبادروا بعضكم بعضاً بالاحترام والإكرام. لا تكن علاقاتكم بالقرب مؤسّسة على العواطف البشرية ، ولكن أحبوا بعضكم بعضاً بأحشاء يسوع المسيح... لا يدخلن بينكم من يفصم وحدتكم ؛ ولكن حافظوا على اتحادكم بالأسقف ، وبرؤسائكم ، كبرهان ورمز للحياة الأبدية في السماء».

«كما ان السيد المسيح لم يعمل شيئاً بذاته ، أو بواسطة الرسل ، دون الآب الذي كان متحداً معه ، وأنتم أيضاً لا تعملوا شيئاً دون الأسقف والشيوخ (الكهنة) ؛ ولا تظنّوا أن ما تعملونه خارجاً عن السلطة الشرعية ، يكون حسناً أو صالحاً. ولكن عندما تجتمعون معاً لتكن الصلاة واحدة ، والدعاء واحداً ، والروح واحداً والرجاء المؤسس في المحبة والفرح المقدّس واحداً... اسعوا كلّكم معاً نحو هيكل الله الواحد ، إلى المذبح الوحيد ، إلى المسيح الواحد ، الذي خرج من الآب الواحد ، وكان دائماً معه وعاد إليه...

«فاجتهدوا اذا ان تكونوا راسخين في عقيدة السيّد المسيح ورساله ، متّحدين مع أسقفكم الموقر ومصف الكهنة والشماسة... كونوا خاضعين للأسقف وبعضكم لبعض ، كما خضع المسيح للآب بالطبيعة البشرية ، وكما يخضع الرسل للمسيح ، للآب وللروح ، حتى تكون الوحدة كاملة ، جسدية وروحية...

كونوا اقوياء في الوحدة مع الله ؛ وامتلكوا روح وحدة غير مترعزة ، هو يسوع المسيح...».

(الرسالة إلى أهل مغنيسيا)

«إني أتوسّل إليكم ، لا أنا ، بل محبة المسيح ، أن تتجنّبوا الزوّان ، أعني الهرطقات... ان اولئك الذين يمزجون يسوع المسيح بتصوّراتهم الجنونية متظاهرين بالايمان الحقيقي ، يشبهون من يقدّم السم الزعاف ، ممزوجاً بالخمر والعسل ؛ ومن يشربه ، ينال الموت مع المشروب الحلو والمميت معاً... فاحذروا مثل هؤلاء الرجال...

«ان من يبقى في ظلّ الهيكل ، فهو طاهر ؛ ومن كان خارجاً عنه ، فليس طاهراً :

اعني من يعمل دون مشورة الأسقف، ومصف الشيوخ (الكهنة) والشمامسة، فليس طاهر الضمير...

«فاهربوا إذاً من هذه الأعشاب السامة التي تثمر اثمار الموت... فهذه لم يفرسها الآب، ولو زرعها الآب، لأفرعت فروع الصليب وأعطت ثماراً خالدة. ان المسيح يدعوكم جميعاً، انتم الذين أصبحتم أعضاء له بآلامه: فإن الرأس لا يمكن أن يولد منفصلاً عن باقي الأعضاء، لأن الله أوصى بالوحدة، والله هو الوحدة».

(الرسالة إلى أهل تراليا)

«... اني أعلم أنكم كاملون ومؤسسون في الإيمان... ومتحدون في جسد الكنيسة السري الواحد... ولكني أحذركم من الوحوش التي تأخذ زياً بشرياً، وعليكم ليس فقط أن لا تقبلوا مثل هؤلاء، بل ولا أن تلتقوا بهم إن أمكن...»

«... وكونوا بالأحرى متحدين مع الأنبياء وخاصة بالإنجيل... اهربوا من الشيع، لأنها أصل كل شر... أطيعوا كلكم الأسقف، كما يطيع المسيح أباه؛ وأطيعوا الكهنة، كما تطيعون الرسل...»

«وبدون الأسقف لا يعمل أحد شيئاً مما يتعلق بأمور الكنيسة... حيث يكون الأسقف، هناك ليكن المؤمنون، كما أنه حيث يوجد المسيح، فهناك الكنيسة الجامعة... بدون الأسقف لا تجوز المعمودية، ولا كسر الخبز (القداس)؛ ولكن كل ما وافق عليه الأسقف، فهذا ما يرضي الله، ويكون جائزاً وفعالاً.

«من يحترم الأسقف، يحترمه الله... ومن يعمل شيئاً دون رضى الأسقف، فانه يخدم الشيطان...»

(الرسالة إلى أهل إزمير)

٤ - صلاة لأجل وحدة الكنيسة

عن كتاب «تعليم الرسل»

«عند اجتماعكم للافخارستيا، اشكروا هكذا، أولاً على الكأس:

يا أبانا، نشكرك لأجل كرمة فتاك داود المقدسة، التي أظهرتها لنا بيسوع فتاك، المجد لك مدى الأجيال!

أما على الخبز المكسور فهكذا:

يا أبانا، إننا نشكرك، لأجل الحياة والمعرفة، التي أظهرتها لنا بيسوع فتاك، المجد لك مدى الأجيال!

كما أن هذا الخبز المكسور [المقدس] كان مبعثراً على الجبال، وإذ جُمع أصبح واحداً، هكذا إجمع كنيستك من أقاصي الأرض في ملكوتك، لأن لك المجد والقوة بيسوع المسيح مدى الأجيال!

وبعد الأكل، اشكروا هكذا:

أيها الآب القدوس، إننا نشكرك لأجل اسمك القدوس، الذي أسكنته في قلوبنا، نشكرك لأجل المعرفة، والإيمان والخلود، الذي أعلمتنا به بيسوع فتاك، لك المجد مدى الأجيال...

أذكر يا رب كنيستك، لتنقذها من كل شر، وتكملها بمحبتك، واجمعها من الرياح الأربع، مقدسة في ملكك الذي أعدته لها. لأن لك القوة والمجد مدى الأجيال!

لنأت النعمة، وليمض هذا العالم الحاضر «هوشعنا لإله داود». من كان قديساً فليتقدم. ومن ليس قديساً فليتب. ماران اتا. آمين».

٥ - هذه هي الوحدة

للقديس كبريانوس

(أ) لا يستطيع أن يكون شهيد المسيح مَنْ يخرق محبة المسيح

هؤلاء وإن ماتوا لأجل المسيح ، لا يستطيعون أن يغسلوا بدمهم لطخة الانشقاق ، لأن جريمة الانشقاق هذه عظيمة لا يمكن أن تغسل حتى بالاستشهاد .

لا يمكن أن يكون شهيداً مَنْ هو خارج الكنيسة ، ولا يستطيع أن يصل إلى الملكوت من يترك تلك الكنيسة المُعدَّة لتلك . ان المسيح أعطانا السلام وأوصانا أن نعيش بالسلام والاتفاق . أوصانا أن نحفظ متينة ربط المحبة الأخوية ، فلا يستطيع أن يمثل أمامه كشهيد من لم يحفظ هذه المحبة . وهذا أيضاً ما يصّر به ويعلمناه الرسول بولس بقوله : « لو كان لي الإيمان كله حتى أنقل الجبال ولم تكن فيَّ المحبة فلست بشيء . ولو بذلت جميع أموالى لإطعام المساكين وأسلمت جسدي لأحرق ولم تكن فيَّ المحبة فلا أنفع شيئاً ... المحبة لا تسقط أبداً » (١ كور ١٣ : ٢-٥) .

يقول « إن المحبة لا تسقط أبداً » ، لأنها يلزم أن تثبت دوماً في الكنيسة ، وأن يبقى الاخوة دوماً متمسكين بالوحدة والوفاق . ان الانشقاق لا يستطيع أن يحصل على الملكوت . لا يستطيع من خرق بالانشقاق الخبيث محبة المسيح أن يصل إلى ملكوت ذلك المسيح الذي قال : « وصيتي هي أن يحب بعضكم بعضاً كما أحببتكم أنا » .

مَنْ ليس فيه المحبة ليس الله فيه . ذلك ما يقوله يوحنا الرسول : « ان الله محبة فمن ثبت في المحبة ثبت في الله ويسكن فيه » (١ يوحنا ٤ : ١٦) . ان الذين لم يرضوا أن يبقوا متّحدين مع الكنيسة لا يستطيعون أن يبقوا متّحدين مع الله . انهم لن ينالوا اكليل الإيمان بل عقاب الكفر ، حتى لو أسلموا إلى اللهب أو عرّضوا حياتهم للوحوش والنار . لن تكون آخرتهم آخرة أبطال للدين ، بل آخرة بدون رجاء .

هؤلاء يستطيعون أن يسلموا إلى الموت ، لكنهم لا يستطيعون أن يتكلّلوا . يدّعون أنهم مسيحيون كما يتزّيا الشيطان بزيّ المسيح ، كما تنبأ الرب وقال : « كثيرون يجيئون باسمي قائلين أنا المسيح ويضلّون كثيرين » (مرقص ١٣ : ٦) . وكما أن لا أحد من هؤلاء هو المسيح ، حتى لو تسرّب باسم المسيح ، كذلك لا يمكن أن يكون مسيحياً مَنْ لا يثبت في إنجيل المسيح وفي حقيقة الإيمان .

ب) يلزم نَجَبُ الهرطقة : انهم عميان وقادة عميان

يلزم نبذ وتجنّب كل من يشقّ عن الكنيسة ، لأنه شرير وخاطئ ويهلك ذاته . وهل يعتقد مثل هذا انه يبقى متّحداً مع المسيح وهو يقف ضد كهنة المسيح وينفصل عن اكليروسه وعن شركة مؤمنيه؟

هو يشهر السلاح على الكنيسة ، هو يحارب الترتيب الذي وضعه الله . هو عدوّ للهيكل ومتمردّ على ذبيحة المسيح ، هو جاحد للإيمان ، هو مجرم إلى الدين ، هو عبد آبق ، هو أخ أصبح عدواً . لأنه بامتهانه أساقفة وكهنة الله يتجاسر على بناء هيكل آخر وعلى التلفّظ بصلاة أخرى غير شرعية ، وعلى تدنيس الذبيحة الإلهية الحقيقية بذبائح كاذبة . وكل من يقاوم الترتيب الذي وضعه الله يتعرّض للعقاب الإلهي جزاء جسارته .

ج) من يخرق وحدة الكنيسة يرتكب جرماً فظيماً

ويشبه أولئك جميعاً كل الذين يحتقرون التقليد الإلهي وينقادون إلى تعاليم غريبة وأفكار بشرية . ضدّ هؤلاء يصرخ السيد حين يقول في الإنجيل : «إنكم رفضتم شريعة الله لتحفظوا سنّكم» (مرقص ٧: ٩) : ان هذا الجرم أفضع من جرم جاحدي الإيمان ، لأن هؤلاء يستطيعون على الأقل أن يرجعوا عن غيهم ويتوبوا عن إثمهم ويستعطفوا رحمة الله بالتكفير ؛ هؤلاء يعودون إلى الكنيسة ويسترحمونها ، أما أولئك فيتمردون عليها ؛ هؤلاء قد يكونون خطئوا عن ضعف ، أما أولئك فعن الانقياد إلى إرادتهم الشريرة ، من يسقط في إثم الجحود يجلب الضرر على ذاته فحسب ، أما الذي يسقط في الإنشقاق أو الهرطقة فيجرّ معه كثيرين إلى الضلال ؛ الأول يهلك نفسه وحدها ، أما الآخر فيسبّب أيضاً هلاك كثيرين .

٦ - نداء إلى الوحدة

«ان الصورة المؤلمة التي تتمثل بها البشرية اليوم وتعاني محناً عديدة من جرى عدم التفاهم بين الشعوب وغياب الحياة السليمة منها، تفرض علينا، نحن رؤساء الكنائس المسيحية، الواجب الحتمي أن نظهر، كلنا معاً، لعالم اليوم، أن المكاسب التقنية والعلمية لا تكفي لإنشاء حضارة كونية بغير أسس روحية ودينية وأدبية، أي بمعزل عن يسوع المسيح...»

واننا على يقين من أن كل نداء إلى الوحدة يجب أن تصحبه جهود وأعمال لا بدّ منها، ظاهرة ومحسوسة، تجعل النيات والأعمال في تناغم وتدنيننا حقاً من الرب، نحن وأبناء كنيستنا».

البطريك أثيناغوراس

من رسالة إلى البابا يوحنا ٢٣ سنة ١٩٥٩

النصوص عن الوحدة

ترجمها

المطران لطفى لحام المخلصي

فهرست

٦	الآباء المخلصون الذين أسهموا في هذا الكتاب
٧	إهداء
٩	مقدمة
	الأب الياس كويتر المخلصي

١٣	القسم الأول : حياة القديس باسيليوس الكبير
١٥	حياة القديس باسيليوس الكبير
	الأب الياس كويتر المخلصي

- ١- تربة صالحة ١٥ * ٢- طالب علم ١٦ * ٣- الصداقة الخالدة ١٧ * ٤- بين المد والجزر ١٧ * ٥- سائح في البراري والقفار ١٨ * ٦- وحيد في الصحراء ٢٠ *
- ٧- مشرع ومصلح ٢١ * ٨- كاهن العلي ٢٣ * ٩- أسقف قيصرية ٢٥ *
- ١٠- باسيليوس وجهًا لوجه مع الإمبراطور ٢٦ * ١١- الراعي الصالح ٢٩ *
- ١٢- باسيليوس رجل الكنيسة الكبير ٣٢ * ١٣- نهاية أسقف ٣٤

القسم الثاني : أبحاث عن تعليم القديس باسيليوس الكبير وروحانيته ٣٧

البحث الأول : رسالة رسولية للبابا يوحنا بولس الثاني

في الذكرى المئوية ال ١٦ لوفاة القديس باسيليوس (٣٧٩-١٩٧٩)

٣٩ الأب أقيموس سكاف المخلصي

المقدمة ٣٩ * حياة القديس باسيليوس وخدمته ٤٠ * تعليم باسيليوس ٤٤ * مراجع ٥٣

البحث الثاني : القديس باسيليوس مشرع كبير للحياة الرهبانية

٥٥ الأب الياس كويتر المخلصي

١- أصول يونانية ٥٥ * ٢- سائح في البراري والقفار ٥٨ * ٣- مشرع أصيل ٦١ *

٤- رؤية القديس باسيليوس الرهبانية ٦٨ * ٥- القديس باسيليوس رائد الحياة الرهبانية في الشرق والغرب ٧٩ * خاتمة ٨٢ * مراجع خاصة ٨٣ * مراجع عامة ٨٦

البحث الثالث : القديس باسيليوس رائد اجتماعي

٨٧ الأب جوزف صغيني المخلصي

١- أفكار القديس باسيليوس الاجتماعية ٩٩ * ٢- أعمال القديس باسيليوس الاجتماعية ١٢٦ * حواشٍ ١٤٩

البحث الرابع : الإيفخارستيا في تعليم القديس باسيليوس الكبير

١٥٣ الأب لورانسوس فيصل المخلصي

١- مؤلفات القديس باسيليوس التي ورد فيها كلام عن الإيفخارستيا ١٥٣ * ٢- تعليم القديس الإيفخارستي ١٥٥ * ٣- القديس باسيليوس الإيفخارستي في الليتورجيا ١٥٨ * الخاتمة ١٦٢ * مراجع خاصة ١٦٣

البحث الخامس : الحياة الرهبانية الباسيلية في كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

١٦٥ الأب الياس كويتر المخلصي

١- الشرق مهد الحياة الرهبانية ١٦٥ * ٢- القديس باسيليوس منظم الحياة الرهبانية ١٦٩ * ٣- أقول الحياة الرهبانية في الشرق ١٧٢ * ٤- نهضة وانبعاث ١٧٤ * ٥- بين المدّ والجزر ١٧٦ * ٦- العصمة البابوية والرهبانيات الملكية ١٨١ * ٧- بين التقليد والتجديد ١٨٥ * ٨- الرهبان الباسيليون الملكيون ورسالتهم المشرقية ١٨٧ * خاتمة ١٩٢ * مراجع ١٩٣

البحث السادس : القديس باسيليوس الكبير من خلال رسائله

١٩٥ الأب يوسف داغر المخلصي

١- حياة رهبانية ونسكية ١٩٦ * ٢- الصداقة والمحبة ١٩٩ * ٣- التعليم الإيفخارستي ٢٠٢

البحث السابع : القديس باسيليوس الكبير في المخطوطات العربية

٢٠٥ الأب الياس كويتر المخلصي

- ١- المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ٢٠٦ * ٢- مخطوطات المكتبة الشرقية اليسوعية
٢٠٨ * ٣- مخطوطات دير البلمند ٢١٣ * ٤- مخطوطات مكتبة دير المخلص ٢١٥ *
٥- مخطوطات دير سيّدة البشارة للراهبات الباسيليّات الشوريّات ٢١٩ * ٦-
مخطوطات دير الشرفة ٢٢٠ * ٧- مخطوطات القاهرة ٢٢١ * ٨- مخطوطات مكتبة
القبر المقدّس في القدس ٢٢٥ * ٩- الفهرس للأب بولس سباط ٢٢٧ * ١٠- فهرس
مخطوطات الأب بولس سباط ٢٢٩ * ١١- المكتبة الوطنية في باريس ٢٣٦ * ١٢-
المكتبة الأمبروسية ٢٣٦ * مراجع ٢٣٨

القسم الثالث: مواعظ القديس باسيليوس الكبير ٢٣٩

- ١- صورة أينا الجليل في القديسين باسيليوس الكبير،
للقديس غريغوريوس التريزي الأب كيرلس حدّاد المخلصي ٢٤١

- ١- فقره ٢٤١ * ٢- قناعته وإمساكه ٢٤٢ * ٣- بتوليّته ٢٤٢ * ٤- رزانه ولطف
أخلاقه ٢٤٣ * ٥- في بلاغته وسموّ عقله وتبحّره في الإلهيات ٢٤٤ * ٦- تأثير
تأليفه ٢٤٤

- ٢- «إعرف نفسك» الدكتور نجيب حجار ٢٤٦
٣- «إهتمّ لذاتك» (تثنية ١٥: ٩) الأب كيرلس حدّاد المخلصي ٢٥٧
٤- خدمة الآخرين الأب الياس كويرت المخلصي ٢٥٨
٥- مديح القديسين الشهداء الأربعين الأب كيرلس حدّاد المخلصي ٢٦٠

- مقدّمة ٢٦٠ * ١- بيان المقصد والتقسيم ٢٦٠ * ٢- وطنهم ونسبهم ٢٦٢ * ٣-
مناقبهم الطبيعية ٢٦٢ * ٤- أمام ديوان الحاكم ٢٦٢ * ٥- الحكم بالموت ٢٦٤ *
٦- إلى بحيرة الجليلد ٢٦٥ * ٧- فشل أحدهم ونزول الحارس مكانه ٢٦٦ * ٨- نهاية
جهادهم ٢٦٧ * ٩- حمايتهم وشفاعتهم القديرة ٢٦٧ * خاتمة الخطاب ٢٦٨

- ٦- تحريض على العباد المقدّس الأب سليمان أبو زيد المخلصي ٢٦٩

- ١- زمن العباد ٢٦٩ * ٢- رتبة العباد ٢٧٠ * ٣- رسوم العباد ٢٧١ * ٤- الذين
يُرجئون اقتبال العباد ٢٧٢ * ٥- فوائد العباد ٢٧٣ * ٦- خطر إرجاء قبول السرّ

٢٧٤ * ٧ - أمثلة الكتاب المقدس ٢٧٥ * ٨ - اختبار الحياة ٢٧٦ * ٩ - مثل العذارى ٢٧٧ * خاتمة ٢٧٨

٧ - محبة القريب : « لك خيرات كثيرة » (لوقا ١٢ : ١٦ - ٢١)

- ٢٧٩ الأب الياس كويتر المخلصي
 ٢٨٢ الأب يوسف شماس المخلصي
 ٢٨٨ الأب الياس كويتر المخلصي
 ٢٩١ الأب الياس كويتر المخلصي
 ٢٩٣ الأب الياس كويتر المخلصي
- ٨ - حفظ الوصايا والتعليم
 ٩ - الصوم
 ١٠ - الصلاة
 ١١ - الغنى والفقير

١ - وصف فقير محتاج ٢٩٣ * ٢ - إنك تنظر الذهب في كل شيء ٢٩٤ * ٣ - دفن الأموال والغنى هو دفن للقلب ٢٩٥ * ٤ - تمثل بالأرض ٢٩٥ * ٥ - من سأل لك فأعطه ٢٩٦ * ٦ - لا شيء يمكن أن يشبع رغبات المرأة ٢٩٦ * ٧ - القلب القاسي ٢٩٧ * ٨ - لا تكن أشد شراسة من الوحوش ٢٩٧ * ٩ - لا تخف أيها الفقير فإنك غني ٢٩٨ * ١٠ - إدعاءات باطلة ٢٩٩ * ١١ - أذكر أيها الغني عواقبك فلا تخطأ أبداً ٣٠٠ * ١٢ - من يحب يضحي بحياته في سبيل الآخرين ٣٠١

١٢ - العمل

- ٣٠١ الأب جوزف صغيبني المخلصي
 ١ - هل يلزم العمل ؟ ٣٠١ * ٢ - لا تخف من الاهتمام بحاجات الجسد ٣٠٢ * ٣ - إنبه لعملك ٣٠٣

١٣ - شذرات عن العائلة

- ٣٠٤ الأب جوزف صغيبني المخلصي
 ٣٠٦ الأب الياس كويتر المخلصي

١٤ - نصائح مفيدة لكل إنسان

١ - الحياة تمضي كالعلم ٣٠٦ * ٢ - إنبه للحسد فهو قتال ٣٠٧ * ٣ - الشر الذي فيك ٣٠٨ * ٤ - الكبرياء أصل الشرور ٣٠٩ * ٥ - بماذا تريد أن تفتخر ٣٠٩ * ٦ - كن صادقاً ولا تكذب ٣١٠ * ٧ - وصف الشباب الطائش ٣١٠ * ٨ - أنظر إلى الأعالى ٣١١ * ٩ - لا بد من جهاد ٣١١ * ١٠ - أجمل ما في الحياة ٣١٢ * ١١ - إن أحكام الله غامضة ٣١٢ * ١٢ - ما هي الخطيئة وما هي الفضيلة ٣١٣ * ١٣ - من الضروري تجديد الحياة ٣١٣ * ١٤ - ارفع نظرك إلى السماء ٣١٤ * ١٥ - أخيراً إنبه لذاتك ٣١٥

١٥ - ستة أيام الخليفة (مقتطفات) الأب الياس كوير المخلصي ٣١٦

- ١ - الله هو الذي صنع السماء والأرض ٣١٦ * ٢ - كم هي جميلة هذه الأرض
٣١٧ * ٣ - هذا البحر العظيم الواسع ٣١٨ * ٤ - تأمل في السمك ٣١٩ * ٥ - أمثلة
من الحيوانات ٣٢٠

١٦ - الإنسان : الكائن والصورة الأب الياس كوير المخلصي ٣٢٢

- ١ - يا لعجائب جسم الإنسان ٣٢٢ * ٢ - لاهوت ثالوثي ٣٢٣ * ٣ - الإنسان هو
صورة الله ٣٢٣ * ٤ - «خلق الله الإنسان. وخلق على صورته» ٣٢٤ * ٥ - والمرأة
أيضاً هي صورة الله ٣٢٥ * ٦ - عظمة ويؤس الإنسان ٣٢٦

١٧ - أدبيات (مقتطفات) الأب الياس كوير المخلصي ٣٢٧

١٨ - الروح القدس (مقتطفات) الأب الياس كوير المخلصي ٣٢٩

- ١ - إيضاحات عن الروح القدس ٣٢٩ * ٢ - إنكار الروح القدس هو كفر ٣٣١ *
٣ - بالمعمودية ننال الروح القدس ٣٣٢ * ٤ - الروح القدس هو والآب والابن واحد
في كل شيء ٣٣٢ * ٥ - هناك شركة حقيقية كاملة بين الروح والآب والابن ٣٣٣ *
٦ - المسيح والروح القدس ٣٣٤ * ٧ - نمجّد الروح القدس بتعداد صفاته ٣٣٥ * ٨ -
عرض لحالة الكنائس في عهد القديس باسيليوس ٣٣٥

١٩ - العيشة المشتركة (مقتطفات) الأب يوسف شماس المخلصي ٣٣٧

٢٠ - التجرد (مقتطفات) الأب يوسف شماس المخلصي ٣٤٠

٣٤٣ ملحق : بعض الآباء الشرقيين العظام

- ١ - خطبة في الفصح المقدس ، للقديس غريغوريوس التريزي
٣٤٥ الأب غريغوريوس فرحات المخلصي
٢ - العناية الإلهية ، للقديس يوحنا الدمشقي
٣٦١ الأب إيزيدور أبو حنا المخلصي

الخلق ٣٦١ ، طبيعة العناية الإلهية ٣٦١ ، العناية نوعان ٣٦٢ ، الإراداتان ٣٦٢

- ١- معجزة الوحدة، لاكلمنضوس الإسكندري ٣٦٥ * ٢- تنصير النصارى أولاً،
 للقديس اكلمنضوس، بابا رومة ٣٦٧ * ٣- الوحدة الحقة، للقديس أغناطيوس
 الأنطاكي ٣٦٨ * ٤- صلاة لأجل وحدة الكنيسة، عن كتاب «تعليم الرسل» ٣٧٢ *
 ٥- هذه هي الوحدة، للقديس كبريانوس ٣٧٣ * ٦- نداء إلى الوحدة، للبطريك
 المسكوني أثيناغوراس ٣٧٥



ظهر للأرشمندريت الياس كويتي الخلصي :

- ١ - جذوة تنظني - حياة الأب اسكندر نمر الخلصي المطبعة الخلصية - ١٩٦٤
- ٢ - وجه حبيب يتواري - حياة الأخ جوزف ابو رجيلي المطبعة الخلصية - ١٩٧١
- ٣ - حياة جورج رفله دبانة المطبعة البولسية - ١٩٧٢
- ٤ - سيرة الاب بشارة ابو مراد الخلصي المطبعة البولسية - ١٩٧٩
- ٥ - السنكسار الرهباني الخلصي المطبعة البولسية - ١٩٨٢
- ٦ - هؤلاء هم آباؤنا المخلصون المطبعة البولسية - ١٩٨٤
- ٧ - مراقي الكمال الرهباني المطبعة البولسية - ١٩٨٥
- ٨ - إنجيلك نور لحياي (ثلاثة اجزاء) المطبعة البولسية - ١٩٨٦
- ٩ - الآباء المخلصون ، رسل في الوطن والمهجر المطبعة البولسية - ١٩٨٧
- ١٠ - كنيسة الشهداء - سلسلة «إيمان وحياة» دمشق ١٩٨٣
- ١١ - القديس أناسيوس الكبير - سلسلة «إيمان وحياة» دمشق ١٩٨٥
- ١٢ - حياة ومواعظ القديس يوحنا الذهبي الفم سلسلة «الفكر المسيحي بين الأمس واليوم» المكتبة البولسية - ١٩٨٨
- ١٣ - حياة ومواعظ القديس باسيليوس الكبير سلسلة «الفكر المسيحي بين الأمس واليوم» المكتبة البولسية - ١٩٨٩
- ١٤ - ملكيات ، متعبدات ثم مرسلات (تاريخ الراهبات المخلصيات) تحت الطبع
- ١٥ - اسقف ملكي مر في الشرق كالبرق المطبعة البولسية - ١٩٨٨

تطلب هذه الكتب من المكتبة البولسية

جونه - ٩١١٥٦١

الفكر المسيحي بين القديم والحديث

تضم هذه السلسلة مجموعة من المؤلفات القديمة والحديثة ، التي تبحث في مختلف أبعاد الإيمان المسيحي ، وتفسر مختلف مواضيع العقيدة المسيحية تفسيراً يتلاءم ومقتضيات العصر ويجب على الأسئلة التي طرحها الفكر الانساني على مدى العصور . وتجمع هذه السلسلة كتباً مؤلفة مباشرة باللغة العربية ، وكتباً مترجمة من مؤلفات كبار المفكرين واللاهوتيين القدماء والمعاصرين .

في السلسلة :

- ١ - الأب أغناطيوس ديك : الله حياتنا .
- ٢ - الأب سليم بسترس : اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر .
الجزء ١ : (الله الخالق - الشر والخطيئة الأصلية - يسوع المسيح) .
- ٣ - الجزء ٢ : (الروح القدس - النعمة - الكنيسة) .
- ٤ - الجزء ٣ : (الأسرار - الحياة الأبدية) .
- ٥ - القديس يوحنا الدمشقي : المثة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي . عربيه عن النص اليوناني الأرشمندريت أدريانوس شكور ، ق . ب .
- ٦ - الإكسرخوس جوزف نصرالله : «منصور بن سرجون» المعروف بالقديس يوحنا الدمشقي : عصره ، حياته ، مؤلفاته . عربيه بتصرف عن النص الفرنسي الأرشمندريت أنطون هبي .
- ٧ - ج . م . - ر . تيار : أسقف رومة . نقله إلى العربية الأب جورج خوام البولسي .
- ٨ - بول إفدوكيموف : الروح القدس في التراث الأرثوذكسي . عربيه عن النص الفرنسي المطران الياس نجمه ، وقدم له المطران جورج خضر .
- ٩ - سفر الحجة . نقله إلى العربية الأب جورج خوام البولسي .
الجزء ١ : الفاتيكان - الفنا (١٩٥٨ - ١٩٧٠) .
- ١٠ - الجزء ٢ : الفاتيكان - الفنا (١٩٧١ -) .
- ١١ - خطيب الكنيسة الأعظم ، القديس يوحنا الذهبي الفم : حياته وبعض من مواعظه ، ترجمها آباء مخلصيون . عني بكتابته وجمعه وتنظيمه الأب الياس كوير المخلصي .
- ١٢ - القديس باسيليوس الكبير : حياته . أبحاث عنه . مواعظه ، عني بكتابته وجمعه وتنظيمه الأب الياس كوير المخلصي .

Panarion

Tel : 24143106

01000321 84.00



9 780100 032106

منشورات المكتبة البولسية

coptic-books.blogspot.com